تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

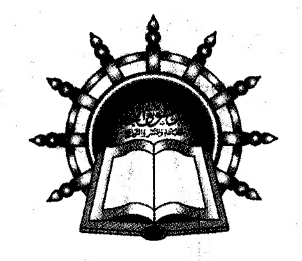
مكة المكرمة

المجلد الرابع عشر

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م



دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل القرآن موعظة وشفاء لما في الصدور، وجعله منهلاً عذباً للورود والصدور، جمع فيه علوم الأولين والآخرين، فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، والصلاة والسلام على من أوحي إليه ذلك القرآن، من لوح الوجوب والأمر والشأن، سيدنا محمد الذي أجرى من مسجله ما يحاكي السلسبيل والرحيق، وأفحم ببلاغته كل متكلم منطيق، وفسر الآيات في الأنفس والآفاق على مراد الله الملك الخلاق، وعلى آله وأصحابه المقتبسين من مشكاة أنواره، المغترفين من بحار أسراره، ومن تبعهم بإحسان ممن تخلق بالقرآن في كل زمان.

أما بعد: فيقول العبد المعترف بذنبه وخطاه المنادي لربه في عفوه وعطاه، الراجي في إسبال سجاف الندى عليه، المناجي في إرسال رسول الهدى إليه، حفظه الله سبحانه وأخلاءه، وأعاذه وإياهم من الشيطان الرجيم، وجعل يومه خيراً من أمسه إلى الإياس من حياة نفسه، سميُّ محمد الأمين الهرري:

إني لما فرغت من تفسير الجزء الثاني عشر من القرآن الكريم.. عزمت - إن شاء الله سبحانه وتعالى - على الشروع في تفسير الجزء الثالث عشر، وإن كان علم التفسير لا يقحم في معاركه كل ذمير وإن كان أسداً، ولا يحمل لواءه كل أمير وإن مات حسداً، وذلك أظهر من أن يورد عليه دليل كالنيرين لغير كليل. ومع خطر هذا الأمر، فالأمد قصير وفي العبد تقصير، وكم ترى من نحرير كامل في التحرير والتقرير قد أصابه سهم القضاء قبل بلوغ الأمل، وذلك بحلول ريب المنون والأجل، أو بتطاول يد الزمان، فإن الدنيا لا تصفو لشارب وإن كانت ماء

الحيوان، وأي وجود لا ينسج عليه عناكب العاهات؟ وأي نعيم لا يكدره الدهر؟ هيهات.

اللَّهم كما عودتني في الأول خيراً كثيراً، فيسر لي الأمر في الآخر تيسيراً، واجعل رقيمي هذا سبباً لبياض الوجه كما تبيض وجوه أولئك، وامح مسودات صحائف أعمالي بحق كتابك الكريم، واجعل قراري في جنات النعيم، ولم أكن بدعائك رب شقياً بكرةً وعشياً ما دمت حياً، فلك الحمد في الأولى والأخرى على عنايتك الكبرى، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

والله أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنها من تتمة إقرار امرأة العزيز، كما اختاره أبو حيان في «البحر»، ويؤيده عطفه على ما قبله، وقد جُعِلَت أول الجزء الثالث عشر؛ لأن تقسيم القرآن إلى الأجزاء الثلاثين قد لوحظ فيه مقادير الكلم العددي دون المعاني.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه بعد[1] انتهاء التحقيق في أمر النسوة، وظهور براءة يوسف عليه السلام من كل سوء.. طلب الملك إحضاره إليه من السجن بعد أن وفى له بما اشترط لمجيئه، فلما جاءه وسمع كلامه.. فهم من فحوى حديثه، ومن أمانته على مال العزيز وعرضه وحسن تصرفه، ومن سيرته الحسنة في السجن، ومن علمه وفهمه في تأويله للرؤيا، ومن حرصه على إظهار شرفه وكرامته في مسألة النسوة ما دل على أنه أهل لأن يرفع إلى أعلى المراتب، ويولى أسمى المناصب، وذلك هو ما فعله الملك لحصافة رأيه وبصره بأقدار الرجال، ولم يصرفه عن ذلك كونه غريباً أو فقيراً أو مملوكاً كما تشير إلى ذلك الآيتان.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أنه سبحانه وتعالى لما[2] ذكر إجابة الملك له بأنه أصبح لديه مكيناً أميناً، وطلب يوسف منه أن يجعله على خزائن الأرض يصرفها بحسب ما يرى من التدبير والنظام والدراية والإحكام.. ذكر هنا أنه أجابه إلى مطلبه، وجعله وزيراً في دولته يتصرف في شؤونها لحسن تدبيره وثاقب رأيه، وذلك جارٍ على سنن الله في خلقه، فلن ينال الرياسات العليا والمناصب الرفيعة إلا من يؤتيه الله من المواهب ما يجعله قادراً على ضبط الأعمال، وإقامة النظام، وحسن السياسة والكياسة في تصريف الأمور.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ ...﴾ الآيات، جاء[3] في سفر التكوين من التوراة أن يوسف عليه السلام حين وَلِي الوزارة.. طفق يعد العدة، ويأخذ الأهبة لتنفيذ التدابير التي يقي بها البلاد من خطر المجاعة التي جاءت في تأويل رؤياه للملك، وكان من ذلك أن بنىٰ الأهراء العظيمة، وخزن فيها الحبوب التي استكثر منها مدة سني الخصب السبع الأولى، فلما جاءت السبع الشداد، وعم القحط مصر وغيرها من الأقطار القريبة منها، ولا سيما

---

(١) المراغي. (٢) المراغي. (٣) المراغي.

أقربها إليها، وهي فلسطين من بلاد الشام، واشتهر لدى أهلها ما فعله يوسف في مصر من حسن التدبير حتى كثرت فيها الغلال، وأصبح يبيع ما زاد على حاجة أهلها للأقطار المجاورة لها.. أمر يعقوب عليه السلام أولاده أن يرحلوا إلى مصر، ويأخذوا معهم ما يوجد في بلادهم من بضاعة ونقد فضة، ويشتروا به قمحاً؛ لأن المجاعة أوشكت أن تقضي عليهم، فنفذوا ما أراد، وكان بينهم وبين يوسف عليه السلام ما قصه الله سبحانه وتعالى علينا في كتابه الكريم.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ...﴾ الآية. إن كان من كلام زليخا كما هو الراجح والظاهر من السياق.. فمعناه أي: وما أبرىء نفسي ولا أنزهها عن السوء، ولا أشهد لها بالبراءة الكلية بدعوى عدم خيانتي إياه بالغيب بعد أن وجهت إليه اقتراف الذنب، وقلت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ وأودعته السجن، وعرف الناس خاصتهم وعامتهم ذلك، وكأنها بذلك تريد التنصل مما كان. ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ أي: إن[1] جنس النفس البشرية لكثيرة الأمر بعمل السوء؛ لما فيها من دواعي الشهوات الجسمية، والأهواء النفسية بما ركب فيها من القوى والآلات لتحصيل اللذات، وما يوسوس الشيطان ويزينه لها من النزغات، ومن ذلك أن حرضت زوجي على سجن يوسف، وقد كان ذلك مما يسوؤه، فالعفيف النزيه لا يرضى أن يزن بالريبة كما يسوء زوجي؛ إذ لا يرضى أن يكون عرضة مضغة للأفواه، وحديث الناس في أنديتهم وأسمارهم ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾؛ أي: إلا نفساً رحمها ربي وعصمها، فصرف عنها السوء والفحشاء بعصمته كنفس يوسف عليه السلام.

ثم عللت ما سلف بقولها: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٞ﴾؛ أي: عظيم المغفرة وكثيرها، فيغفر ما يعتري النفوس البشرية بمقتضى طباعها؛ إذ ركب فيها الشهوات الجسمية، والأهواء النفسية ﴿رَّحِيمٞ﴾؛ أي: مبالغ في الرحمة لها

(١) المراغي.

بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك.

وعلى القول بأنه من كلام يوسف عليه السلام، **فمعنى** ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾؛ أي:[1] لا أنزهها عن السوء، ولا أشهد لها بالبراءة الكلية. قاله تواضعاً لله تعالى، وهضماً لنفسه الكريمة، لا تزكية لها وعجباً بحاله في الأمانة، ومن هذا القبيل قوله عليه السلام: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» أو تحدثاً بنعمة الله تعالى عليه في توفيقه وعصمته؛ أي: لا أنزهها عن السوء من حيث هي هي، ولا أسند هذه الفضيلة إليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله تعالى. واللام في قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ﴾ للجنس؛ أي: إن جنس النفوس التي من جملتها نفسي في حدّ ذاتها ﴿لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ تأمر بالقبائح والمعاصي؛ أي: لأنها أشد استلذاذاً بالباطل والشهوات، وأميل إلى أنواع المنكرات، ولولا ذلك.. لما صارت نفوس أكثر الخلق مسخرة لشهواتهم في استنباط الحيل؛ لقضاء الشهوات وما صدرت منها الشرور أكثر.

ومن ههنا وجب القول بأن كل من كان أوفر عقلاً، وأجل قدراً عند الله.. كان أبصر بعيوب نفسه، ومن كان أبصر بعيوبها.. كان أعظم اتهاماً لنفسه، وأقل إعجاباً. ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾؛ أي: إلا نفساً رحمها ربي من النفوس التي يعصمها من الوقوع في المهالك، ومن جملتها نفسي ونفوس سائر الأنبياء ونفوس الملائكة. أما الملائكة فإنه لم تركَّب فيهم الشهوة. وأما الأنبياء فهم وإن ركبت هي فيهم، لكنهم محفوظون بتأييد الله تعالى معصومون. فـ﴿مَا﴾ موصولة بمعنى من، وفيه إشارة إلى أن النفس من حيث هي كالبهائم. والاستثناء من ﴿ٱلنَّفۡسَ﴾، أو من الضمير المستتر في ﴿أمارة﴾ كأنه قيل: إن النفس لأمارة هي بالسوء إلا نفساً رحمها ربي، فإنها لا تأمر بالسوء، أو بمعنى الوقت؛ أي: هي أمارة بالسوء في كل وقت إلا وقت رحمة ربي وعصمته لها، ودل على عموم الأوقات صيغة المبالغة في أمارة. يقال في اللغة: أمرت النفس بشيء فهي آمرة، وإذا أكثرت

---

(١) روح البيان.

الأمر فهي أمارة ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ للهمّ الذي هممت به ﴿رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب إليه.

وقد قيل[1]: إن هذا من قول العزيز، وهو بعيد جداً، ومعناه: وما أبريء نفسي من سوء الظن بيوسف، والمساعدة على حبسه بعد أن علمت ببراءته.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ الريان بن الوليد بعد ما وفى ليوسف ما طلب من سؤال النسوة: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ﴾؛ أي: بيوسف؛ أي: أحضروه إليّ من السجن ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِىٓ﴾؛ أي: أجعله خالصاً لنفسي دون غيري، وقد كان قبل ذلك خالصاً للعزيز. والاستخلاص: طلب خلوص الشيء من شوائب الشركة؛ أي: اجعله خالصاً لي وموضع ثقتي، فلا يشاركه أحد في إدارة ملكي، ولا تكون وساطة بينه وبيني، وقد جرت عادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم.

فجاءه الرسول، فقال: ألق عنك ثياب السجن، والبس ثياباً جدداً، وقم إلى الملك، فقام وودع أهل السجن، فدعا له أهل السجن، ودعا لهم، وقال في دعائه: اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار، ولا تعم عنهم الأخبار، ثم اغتسل ولبس ثياباً حساناً، ولما خرج من السجن كتب على بابه: هذا بيت البلوى، وقبر الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء. فأتى الملك ودخل عليه فسلم عليه بالعربية، فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ قال لسان عمي إسماعيل، ثم دعا له يوسف بالعبرانية، فقال له: وما هذا اللسان أيضاً؟ قال يوسف: هذا لسان آبائي. وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، ولم يعرف هذين اللسانين، وكان كلما تكلم بلسان أجابه يوسف به، وزاد عليه بالعربية والعبرانية، فأعجب الملك أمره مع صغر سنه؛ إذ كان عمره يومئذ ثلاثين سنة. فقال: أيعلم هذا رؤياي ولم يعلمها السحرة والكهنة وأقعده قدامه، وقال: لا تخف، وألبسه طوقاً من ذهب، وثياباً من حرير، وأعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك، وضرب الطبل بمصر أن يوسف خليفة الملك.

وقوله: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ مرتب على محذوف تقديره: فأتوه به، فلما كلمه؛

---

(١) الشوكاني.

أي: فلما كلم يوسف الملك، وشاهد منه الملك ما شاهد من الرشد والدهاء، وهو جودة الرأي ﴿قَالَ﴾ له الملك: ﴿إِنَّكَ﴾ أيها الصديق ﴿ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا﴾؛ أي: عندنا وبحضرتنا ﴿مَكِينٌ﴾؛ أي: ذو مكانة سامية، ومنزلة رفيعة عالية ﴿أَمِينٌ﴾؛ أي: ذو أمانة تامة، فأنت غير منازع في تصرفك، ولا متهم في أمانتك، وأنت مؤتمن عندنا على كل شيء، واليوم[1] ليس بمعيار لمدة المكانة، بل هو آن التكلم. والمراد تحديد مبدئهما احترازاً عن احتمال كونهما بعد حين. وفي هذا إيماء[2] إلى أن الحوار بين المتخاطبين يظهر معارف الإنسان وأخلاقه وآدابه وجميع شمائله، فيقدره من يعرف أقدار الرجال، ويزنهم بفضائلهم ومزاياهم. والظاهر أن الملك كلمه مشافهة بدون ترجمان؛ لأن يوسف كان قد عرف اللغة المصرية من العزيز وامرأته بمحادثته إياهما، ومن حاشية الوزير من حين قدم مصر، ومن محادثته صاحبيه في السجن.

وقد تكون اللغة التي كان يتكلم بها يوسف لغة جده إبراهيم وأولاده وحفدته، وكانوا من العرب القحطانيين، ثم تفرعت من هذه العربية الإسماعيلية، فالمصرية والعبرانية والسريانية. وكان ملوك مصر وكبراء حكامها في ذلك العهد من أولئك العرب، وهم الذين يسمون بالرعاة، ويقول المؤرخون: إن ملك مصر في ذلك العهد كان يسمى الوليد بن الريان.

فلما سمع يوسف من الملك قوله: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾. ﴿قَالَ﴾: يوسف للملك ﴿ٱجْعَلْنِى﴾ أيها الملك والياً ﴿عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ وأموالها التي تخزن وتدخر فيها؛ أي: ولني أمر الأرض التي أمرها إليك، وهي أرض مصر، أو اجعلني على حفظ خزائن الأرض. والخزائن: جمع خزانة، وهي اسم للمكان الذي تخزن فيه غلات الأرض ونحوها. طلب[3] يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به إلى نشر العدل ورفع الظلم، ويتوسل به إلى دعاء أهل مصر إلى

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

الإيمان بالله وترك عبادة الأوثان. وفيه دليل على أنه يجوز لمن وثق من نفسه إذا دخل في أمر من أمور السلطان أن يرفع منار الحق، ويهدم ما أمكنه من الباطل طلب ذلك لنفسه، ويجوز له أن يصف نفسه بالأوصاف التي لها ترغيباً فيما يرومه، وتنشيطاً لمن يخاطبه من الملوك بإلقاء مقاليد الأمور إليه، وجعلها منوطة به، ولكنه يعارض هذا الجواز ما ورد عن نبينا ﷺ من النهي عن طلب الولاية، والمنع من تولية من طلبها، أو حرص عليه.

وحاصل المعنى: فلما كلم الملك يوسف قال الملك في كلامه ليوسف: ﴿إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾، فماذا[1] ترى أيها الصديق؟ ﴿قَالَ﴾ يوسف: أرى أن تزرع في هذه السنين المخصبة زرعاً كثيراً، وتبني الخزائن، وتجمع فيها الطعام، فإذا جاءت السنون المجدبة.. بعنا الغلات، فيحصل بهذا الطريق مال عظيم، فقال الملك، ومن لي بهذا الشغل؟ فقال: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ولني أمر خزائن أرض مصر ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لما وليتني، ولجميع مصالح الناس ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه التصرف في الأموال، وبجميع ألسن الغرباء الذين يأتونني. وقيل معنى ﴿حَفِيظٌ﴾: كاتب ﴿عَلِيمٌ﴾: حاسب.

والخلاصة:[2] وَلِّني خزائن أرضك كلها، واجعلني مشرفاً عليها لأنقذ البلاد من مجاعة مقبلة عليها تهلك الحرث والنسل.

ثم ذكر سبب طلبه، فقال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾؛ أي: شديد الحفظ لما يخزن فيها، فلا يضيع شيء منه، أو يوضع في غير موضعه ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه تصريفه وحسن الانتفاع به. فإن قلت: كيف مدح يوسف عليه السلام نفسه بقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

قلت: إنما يكره تزكيه النفس إذا قصد به الرجل التطاول والتفاخر والتوصل به إلى غير ما يحل، فهذا هو القدر المذموم في تزكية النفس. أما إذا قصد بتزكية النفس ومدحها إيصال الخير والنفع إلى الغير.. فلا يكره ذلك ولا يحرم، بل

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

يجب عليه ذلك. مثاله أن يكون بعض الناس عنده علم نافع ولا يعرف به، فإنه يجب عليه أن يقول: «أنا عالم» لينتفع الناس بعلمه، ذكره في «الفتوحات». وقد طلب إدارة الأمور المالية؛ لأن سياسة الملك وتنمية العمران، وإقامة العدل فيه تتوقف عليها، وقد كان مضطراً إلى تزكية نفسه في ذلك حتى يثق الملك به، ويركن إليه في تولية هذه المهام. وما أضاع كثيراً من المماليك في هذه القرون الأخيرة إلا الجهل والتقصير في النظام المالي، وتدبير الثروة وحفظها في الدولة والأمة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ معمول للتمكين الآتي؛ أي: ومثل ذلك التمكين الذي أنعمنا عليه من تقريبنا إياه إلى الملك، وإنجائنا إياه من غم الحبس الذي ذكرنا أسبابه ومقدماته ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾؛ أي: جعلنا له مكانة ومرتبة، أو مكاناً ومنزلاً ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: في أرض مصر حالة كونه ﴿يَتَبَوَّأُ﴾ وينزل ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من أرض مصر ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾ ويريد؛ أي: ينزل منها حيث أراد، ويتخذه مباءةً ومنزلاً. وهو عبارة عن كمال قدرته ونفوذ أمره ونهيه حتى صار الملك يصدر عن رأيه، وصار الناس يعملون على أمره ونهيه، وكأنه يتصرف في الأرض التي أمرها إلى سلطان مصر كما يتصرف الرجل في منزله. وقد استدل[1] بهذه الآية على أنه يجوز تولي الأعمال من جهة السلطان الجائر بل الكافر لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق. وقرأ الحسن وابن كثير وشيبة[2]: ﴿حيث نشاء﴾ ـ بالنون ـ مسنداً إلى الله تعالى. وقرأ الجمهور بالياء.

والظاهر: أن قراءة الياء يكون فيها فاعل ﴿يَشَآءُ﴾: إما ضميراً يعود على يوسف، ومشيئته معلقة بمشيئة الله تعالى؛ إذ هو نبيه ورسوله، وإما ضميراً يعود على الله سبحانه وتعالى؛ أي: حيث يشاء الله تعالى، فيكون فيه حينئذٍ التفات من التكلم إلى الغيبة.

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

واعلم: أن التمكين الحاصل ليوسف له أسباب ومقدمات مهدت له؛ لأن إخوة يوسف لو لم يحسدوه.. ما ألقوه في غيابة الجبّ، ولو لم يلقوه.. لما وصل إلى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته وصدقه وأمانته.. لما أمنه على بيته وأهله وماله، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم.. لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها، ولو لم تخب في كيدها وكيد صواحباتها.. ما ألقي في السجن لإخفاء هذا الأمر، ولو لم يسجن.. لما عرفه ساقي الملك وعرف علمه وفضله وصدقه في تعبير الرؤيا، ولو لم يعرف ذلك منه الساقي.. ما عرفه الملك ولم يجعله على خزائن الأرض، فما من حلقة من هذه السلسلة إلا كانت متممة لما بعدها، وبإذن الله كانت سبباً للوصول إلى ما يليها، فكلها في بدايتها كانت شراً وخسراً، وفي عاقبتها فوزاً ونصراً مبيناً، ومهدت للتمكين لدى ملك مصر. فكما مكن[1] له في ذلك مكن له في أرض مصر، وقد جيء به مملوكاً، فأصبح مالكاً ذا نفوذ وأمر ونهي لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره، وصار الملك يصدر عن رأيه، ولا يعترض عليه فيما يرى بما أعده الله تعالى له من تحليته بالصبر واحتمال الشدائد، والأمانة والعفة، وحسن التصرف والتدبير.

روي[2]: أنه لما تمت السنة من يوم سأل يوسف الإمارة.. دعاه الملك، فتوجه وأخرج خاتم الملك، وجعله في أصبعه، وقلده بسيفه، وجعل له سريراً من ذهب مكلّلاً بالدرّ والياقوت طوله ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرة أذرع عليه ستون فراشاً، وضرب له عليه حلة من استبرق، فقال يوسف عليه السلام: أما السرير فأشد به ملكك، وأما الخاتم فأدبر به أمرك، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي. فقال الملك: قد وضعته إجلالاً لك وإقراراً بفضلك، وأمره أن يخرج فخرج متوجاً لونه كالثلج، ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه فيه من صفاء لونه، فانطلق حتى جلس على ذلك السرير، ودانت له الملوك، وفوض الملك الأكبر إليه ملكه، وأمر مصر، وعزل قطفير عما كان عليه، وجعل يوسف مكانه،

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

ومات قطفير بعد ذلك، فزوجه عليه السلام الملك امرأته زليخا، فلما دخل يوسف عليها قال لها: أليس هذا خيراً مما كانت تريدين؟ قالت له: أيها الصديق لا تلمني، فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك، فغلبتني نفسي وعصمك الله، فأصابها يوسف عليه السلام فوجدها عذراء، فولدت له ذكرين أفراثم وميشا، فاستولى يوسف عليه السلام على ملك مصر، وأقام فيها العدل، وأحبه الرجال والنساء، وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس، وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام في السنة الأولى بالدنانير والدراهم، وفي الثانية بالحلى والجواهر، وفي الثالثة بالدواب، وفي الرابعة بالجواري والعبيد، وفي الخامسة بالضياع والعقار، وفي السادسة بأولادهم، وفي السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة إلا صار عبداً له عليه السلام، فقال أهل مصر: ما رأينا كاليوم ملكاً أجل وأعظم من يوسف، فقال يوسف للملك: كيف رأيت صنع الله بي فيما خولني، فما ترى في هؤلاء؟ فقال الملك: الرأي رأيك ونحن لك تبع. قال: فإني أشهد الله وأشهدك أني قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم، ورددت عليهم أملاكهم، وكان يوسف لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير تقسيطاً بين الناس، ومات الملك في حياة يوسف عليه السلام.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾؛ أي: بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ من عبادنا بمقتضى ما وضعنا من السنن في الأسباب الكسبية مع موافقتها للأحداث الكونية، ومراعاة النظم الاجتماعية والفضائل الخلقية ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لأن[1] إضاعة الأجر؛ إما أن تكون للعجز أو للجهل أو للبخل، والكل ممتنع في حق الله تعالى، فكانت الإضاعة ممتنعة؛ أي: ولا نضيع في الدنيا أجر من أحسن.

أي:[2] ولا نضيع أجر من أحسنوا في أعمالهم بشكران هذه النعم، بل

---

(١) المراح.   (٢) المراغي.

نأجرهم عليها سعادة وهناءة، وقد بذلنا تلك النعم لمن يطلبها متى أتى الأمور من أبوابها، وسار على مقتضى السنن التي وضعناها.

أما من يسيؤون التصرف فيها.. فتصيبهم المنغصات، وتتوالى عليهم المكدرات، فالمسرفون لا يلبثون أن ينالهم الفقر والعدم، والظالمون يثيرون أضغان المظلومين، وذووا الخيلاء والبطر يكونون محتقرين، وقلما يصيب المحسنين الشاكرين من ذلك شيء، وإن نالهم منه شيء يكون هيناً عليهم، وهم عليه صبر.

وفي الآية[1] إيماء إلى أنه ما أضاع صبر يوسف عليه السلام على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، بل كان جزاؤه ما مكن له في الأرض لدى ملك مصر.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لأجرهم في الآخرة، فاللام فيه موطئة للقسم، وأضيف الأجر إلى الآخرة للملابسة، وأجرهم فيها هو الجزاء الذي يجازيهم الله به فيها؛ وهو الجنة التي لا ينفد نعيمها، ولا تنقضي مدتها؛ أي: ولأجر الآخرة وثوابها ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل من أجر الدنيا ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسله ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، ويخافونه بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات. وفي الآية[2] إيماء إلى أن الذي أعد الله سبحانه وتعالى ليوسف عليه السلام في الآخرة من الأجر والثواب الجزيل أفضل مما أعطاه الله تعالى في الدنيا من الملك.

وقد ثبت[3]: أن الله تعالى شهد بأن يوسف عليه السلام كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين، والمعنى[4]: أي: إن أجر الآخرة؛ وهو نعميها يكون للمؤمنين المتقين، وهو خير لهم من أجر الدنيا لأهلها وإن بلغوا سلطان الملك، فإن ما أعده لأولئك ليتضاءل أمامه كل ما فيها من مال وجاه وزينة، ولا

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) المراح.
(٤) المراغي.

شبهة في أن من يجمعون بين السعادتين يكون فضل الله عليهم أعظم؛ إذ هم أعطوا حقها من الشكر، وقاموا بما يجب عليهم نحو خالقهم من طاعته وترك معصيته.

روى الشيخان عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال فقراء المهاجرين للنبي ﷺ: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور ـ واحدها دثر بالفتح المال الكثير ـ بالدرجات العلى، والنعيم المقيم قال: «ما ذاك»؟ قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون كما نتصدق، ويعتقون ولا نعتق. قال ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثلكم»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «تسبحون وتكبرون وتحمدون الله دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة»، قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ﴾ إلى مصر من أرض كنعان؛ ليمتاروا حين أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب مصر من القحط والجوع، وكان قد حلّ بآل يعقوب ما حلّ بأهلها، فدعا أبناءه ما عدا بنيامين؛ وهم عشرة، فقال لهم: يا بني قد بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعام، فتجهزوا إليه، واقصدوه واشتروا منه ما تحتاجون إليه، فخرجوا حتى قدموا مصر ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: على يوسف، وهو في مجلس ولايته؛ لأن أمر الميرة وشراء الغلال كان بيده ورهن أمره ﴿فَعَرَفَهُمۡ﴾ يوسف حين دخلوا عليه بلا تردد، ولا شك، لأنه فارقهم وهم رجال، ولم يزل عددهم وشكلهم وزيهم عالقاً بخياله؛ لنشوئه بينهم، ولا سيما ما قاساه منهم في آخر عهده بهم وربما كان عمال يوسف عليه السلام وعبيده قد سألوهم عن أمرهم قبل أن يدخلوهم عليه، وأخبروه بأوصافهم، والبيئة التي رحلوا منها ﴿وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، لنسيانهم له بطول العهد، وتغير شكله بدخوله في سن الكهولة، ولأنهم فارقوه صبياً يباع بالدراهم في أيدي السيارة بعد أن أخرجوه من الجبّ، ودخلوا عليه الآن، وهو رجل عليه أبهة الملك؛ أي: عظمته ورونق

الرئاسة؛ أي: زينتها، وعنده الخدم والحشم. وقيل: إنهم أنكروه لكونه كان في تلك الحال على هيئة ملك مصر ولبس تاجه وتطوق بطوقه. وقيل: كانوا بعيداً عنه، فلم يعرفوه. وقيل: غير ذلك. فكل[1] ذلك مما يحول دون التثبت من معارف وجهه، ولا سيما أنهم كانوا يظنون أنه قد هلك، أو طوحت به طوائح الأيام، ولو كانوا قد فطنوا لبعض ملامحه وتذكروه بها.. لربما عدوه مما يتشابه فيه بعض الناس ببعض في العادات، وبخاصة أنه لم يكن يدور بخلدهم أن أخاهم قد وصل إلى ذلك المركز السامي.

فالمعنى[2]: فدخلوا على يوسف عليه السلام، وهو في مجلس ولايته، فعرفهم يوسف بأول نظرة نظر إليهم لقوة فهمه ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم لا يعرفونه لطول المدة، فبين أن ألقوه في الجبّ ودخولهم عليه أربعون سنة على ما قيل، فكلموه بالعبرانية، فقال لهم: من أنتم وأي شيء أقدمكم بلادي؟ فقالوا: قدمنا لأخذ الميرة، ونحن قوم رعاة من أهل الشام أصابنا الجهد، فقال: لعلكم عيون تطلعون على عوراتنا، وتخبرون بها أعداءنا، فقالوا: معاذ الله، قال: من أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ كبير صديق، نبي من أنبياء الله تعالى اسمه يعقوب، قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر، فهلك منا واحد، فقال: كم أنتم ههنا؟ قالوا: عشرة، قال: أين الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك؛ لأنه أخوه الشقيق، قال: فمن يشهد لكم أنكم لستم عيوناً، وأن ما تقولون حق؟ قالوا: نحن ببلاد غربة لا يعرفنا فيها أحد، فيشهد لنا، قال: فأتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين؟ فأنا أكتفي بذلك منكم، قالوا: إن أبانا يحزن لفراقه، قال: فاتركوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني به، فاقترعوا فيما بينهم، فأصابت القرعة شمعون، وكان أحسنهم رأياً في يوسف في أمر الجبّ، فتركوه عنده، فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم﴾ يوسفُ عليه السلام وشيَّعهم وأعطاهم ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾؛ أي: بما يحتاجون إليه في سفرهم؛ أي: فلما أوقر يوسف إبلهم بالميرة وأصلحهم

---

(١) المراح. (٢) الخازن.

بالزاد وما يحتاج إليه المسافر. قال ابن عباس[1]: حمل لكل واحد منهم بعيراً من الطعام، وأكرمهم في النزول، وأحسن ضيافتهم، وأعطاهم ما يحتاجون إليه في سفرهم. قال الأزهري[2]: القراء كلهم على فتح الجيم، والكسر لغة جيدة. وقال أبو حيان: وقرىء بكسر الجيم قلت: وقراءة الكسر شاذة وليست بمتواترة.

ومعنى ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾؛ أي: ولما هيأ لهم جهازهم وأهبة سفرهم ومؤنته ـ يقال: جهزت المسافر بالتشديد: هيأت له جهازه، وجهاز السفر: أهبته وما يحتاج إليه في قطع المسافة؛ أي: ولما أوقر ركائبهم بما جاؤوا لأجله من الميرة والطعام، وجهزهم بما سوى ذلك من الزاد، وبما يحتاج إليه المسافرون عادة على قدر طاقتهم وبيئتهم ﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام: ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم﴾؛ أي: جيئوني بأخيكم ﴿مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ هو شقيقه بنيامين إذا رجعتم، لتمتاروا مرة أخرى، لأعلم صدقكم فيما قلتم: إن لنا أخاً من أبينا عند أبينا، وسبب[3] ذلك أن يوسف ما كان يعطي لأحد إلا حمل بعير، وقد كان إخوته عشرة، فأعطاهم عشرة أحمال، فقالوا: إن لنا أباً شيخاً كبيراً وأخاً آخر بقي معه، وإن أباهم لتقادم سنه وشدة حزنه لا يستطيع الحضور، وإن أخاهم بقي في خدمة أبيه، ولا بدّ لهما من شيء من الطعام، فجهز لهما بعيرين آخرين، وقال: جيئوني بأخيكم لأراه وأصدقكم فيما قلتم. وإنما[4] قال: ﴿بِأَخٍ لَّكُم﴾ ولم يقل بأخيكم بالإضافة مبالغة في إظهار عدم معرفته لهم، فإنه فرق بين مررت بغلامك، ومررت بغلام لك. فإنك في التعريف تكون عارفاً بالغلام دون التنكير لأنك جاهل به. فالتعريف[5] يفيد نوع عهد في الغلام بينك وبين المخاطب، والتنكير لا عهد فيه البتة، وجائز أن تخبر عمن تعرفه إخبار النكرة، فتقول: قال رجل لنا وأنت تعرفه؛ لصدق إطلاق النكرة على المعرفة.

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾؛ أي: أني أتمه ولا أبخس منه شيئاً، وأزيدكم

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

(٤) البحر المحيط.

(٥) الخازن.

حمل بعير آخر لأجل أخيكم، وحملاً آخر لأبيكم؛ لأنهم قالوا: إن لنا أباً شيخاً كبيراً، وأخاً آخر بقي معه؛ لأن يوسف لا يزيد لأحد على حمل بعير. والهمزة فيه للاستفهام التقريري، وهو حمل المخاطب على الإقرار بما بعد حرف النفي، وجاء بصيغة الاستقبال في قوله: ﴿أُوفِي﴾ مع كونه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم للدلالة على أن ذلك عادته المستمرة، ثم أخبرهم بما يزيدهم وثوقاً به وتصديقاً لقوله، فقال: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ لمن نزل بي؛ أي: والحال أني خير المضيفين وأفضلهم لمن استضافه كما فعلته بكم من حسن الضيافة وحسن الإنزال. قال الزجاج: قال يوسف عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾؛ لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم، ولم يقل ذلك يوسف على طريق الامتنان، بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به. والمعنى: وأنا مع إيفاء الكيل خير المكرمين لضيوفه، وقد أحسنت ضيافتكم وجهزتكم بالزاد الكافي لكم مدة سفركم، فلا تنسوا ما أمرتكم به من الإتيان بأخيكم. ثم توعدهم إن لم يأتوه به، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ﴾؛ أي: بأخيكم من أبيكم إذا رجعتم مرة أخرى ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾؛ أي: فلا طعام يكال لكم عندي؛ أي: فلا أبيعكم شيئاً من الطعام فيما بعد، وأما في الحال.. فقد أوفاهم كيلهم ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾؛ أي: ولا تقربوا بلادي ولا تدخلوها فضلاً من الإحسان إليكم في الإنزال والضيافة. يعني[1]: ولا ترجعوا ولا تقربوا بلادي، وهذا هو نهاية التخويف والترهيب؛ لأنهم كانوا محتاجين إلى تحصيل الطعام، ولا يمكنهم تحصيله إلا من عنده، فإذا منعهم من العود.. كان قد ضيق عليهم.

وقيل معناه[2]: لا أنزلكم عندي كما أنزلتكم هذه المرة، ولم يرد أنهم لا يقربون بلاده. و﴿تَقْرَبُونِ﴾: مجزوم: إما على أن ﴿لا﴾ ناهية، أو على أنها نافية، وهو معطوف على محل الجزاء داخل في حكمه كأنه قال: فإن لم تأتوني تحرموا، ولا تقربوا، فلما سمعوا منه ذلك وعدوه بما طلبه منهم فـ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

﴿عَنْهُ أَبَاهُ﴾؛ أي: سنطلبه من أبيه، ونحتال على أن ننتزعه من يده، ونجتهد في ذلك بما نقدر عليه. وقيل معنى المراودة هنا: المخادعة منهم لأبيهم والاحتيال عليه حتى ينتزعوه منه؛ أي: سنخادعه عنه ونحتال في انتزاعه من يده، ونجتهد في ذلك. وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ ما أمرتنا به غير مفرطين ولا متوانين فيه من أن نجيئك بأخينا، فإنهم كانوا محتاجين إلى تحصيل الطعام، ولا يمكن إلا من عنده. وعبروا[1] بما يدل على الحال تنبيهاً على تحقق وقوعه، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾. وقيل معناه: وإنا لقادرون على ذلك لا نتعانى به ولا نتعاظمه.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾؛ أي: لغلمانه الكيالين؛ أي: الموكلين على خدمة الكيل، جمع فتى؛ وهو المملوك شاباً كان أو شيخاً ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ التي اشتروا بها الطعام وكانت نعالاً وجلوداً ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾؛ أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون؛ أي: دسوها في جواليقهم وذلك بعد أخذها وقبولها، وإعطاء بدلها من الطعام، ووكّل بكل رَحْلٍ واحداً من غلمانه يدس فيه البضاعة التي اشتري بها الطعام الذي في هذا الرحل. والمراد[2] بالبضاعة هنا: هي التي وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام، وكانت نعالاً وأدماً، فعل يوسف ذلك تفضلاً عليهم. وقيل: فعل ذلك ليرجعوا إليه مرة أخرى؛ لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمن. قاله الفراء. وقيل: فعل ذلك ليستعينوا بها على الرجوع إليه لشراء الطعام. وقيل: إنه استقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام.

وقرأ الأخوان[3] ـ حمزة والكسائي ـ وحفص عن عاصم وخلف العاشر: ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾ ـ بالنون ـ واختار هذه القراءة أبو عبيد، ومثل هذه القراءة في مصحف عبد الله بن مسعود، وقرأ باقي العشرة وشعبة عن عاصم: ﴿لفتيته﴾ واختار هذه القراءة أبو حاتم والنحاس وغيرهما. قال النحاس ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾ مخالف للسواد الأعظم ولا يترك السواد المجمع عليه لهذا الإسناد المنقطع، وأيضاً فإن فتية أشبه

---

(١) الشوكاني.

(٢) زاد المسير والبحر المحيط.

(٣) الشوكاني.

من فتيان؛ لأن فتية عند العرب لأقل العدد، وأمر القليل بأن يجعلوا البضاعة في الرحال أشبه. قال الزجاج: الفتية والفتيان في هذا الموضع المماليك. وقال الثعلبي: هما لغتان جيدتان مثل الصبيان والصبية.

قلت: وكلتا القراءتين متواترتان ولا انقطاع في إسناد إحداهما. والجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر كأنه: فما قال يوسف بعد وعدهم له بذلك؟ فأجيب بأنه قال لفتيانه. قال أبو حيان: فالكثرة على مراعاة المأمورين، والقلة على مراعاة المتأولين، فهم الخدمة الكائلون أمرهم بجعل المال الذي اشتروا به الطعام في رحالهم مبالغة في استمالتهم إليه. ثم علل يوسف عليه السلام ما أمر به من جعل البضاعة في رحالهم بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾؛ أي: البضاعة ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ ورجعوا ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾؛ أي: دسوا بضاعتهم ودراهمهم التي اشتروا بها الطعام في أوعيتهم التي يحملون فيها الطعام؛ لكي يعرفوا بضاعتهم إذا رجعوا إلى أبيهم؛ أي: لكي يعرفوا لنا حق إكرامهم بإعادتها إليهم، وجعل ما أعطيناهم من الغلة مجاناً بلا ثمن إذا هم رجعوا إلى أهلهم، وفتحوا متاعهم فوجودها فيه.

فجعل[1] علة جعل البضاعة في الرحال هي معرفتهم لها إذا انقلبوا إلى أهلهم، وذلك لأنهم لا يعلمون برد البضاعة إليهم إلا عند تفريغ الأوعية التي جعلوا فيها الطعام، وهم لا يفرغونها إلا عند الوصول إلى أهلهم. ثم علل معرفتهم للبضاعة المردودة إليهم المجعولة في رحالهم بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلينا طمعاً في برنا، فإن العوز إلى القوت من أقوى الدواعي إلى الرجوع، فإنهم إذا عرفوا ذلك، وعلموا أنهم أخذوا الطعام بلا ثمن وأن ما دفعوه عوضاً عنه قد رجع إليهم، وتفضل به من وصلوا إليه عليهم.. نشطوا إلى العود إليه ولا سيما مع ما هم فيه من الجدب الشديد، والحاجة إلى الطعام، وعدم وجوده لديهم، فإن ذلك من أعظم ما يدعوهم إلى الرجوع، وبهذا يظهر أن يوسف عليه السلام لم يرد البضاعة إليهم إلا لهذا المقصد، وهو رجوعهم إليه، فلا يتم تعليل ردها بغير ذلك، والله أعلم.

---

(١) المراغي.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا﴾؛ أي: فلما رجع إخوة يوسف غير شمعون من مصر ﴿إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ﴾ في كنعان ﴿قَالُواْ﴾ لأبيهم قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع: ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ إنا قدمنا على خير رجل، أنزلنا وأكرمنا كرامة عظيمةً، لو كان رجلاً من أولاد يعقوب ما أكرمنا كرامته، فقال لهم يعقوب عليه السلام: إذا رجعتم إلى ملك مصر فاقرؤوا عليه مني السلام، وقولوا له: إن أبانا يصلي عليك، ويدعو لك بما أوليتنا، ثم قال لهم: أين شمعون؟ قالوا: ارتهنه ملك مصر عنده، وأخبروه بالقصة، ثم قالوا: يا أبانا ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾؛ أي: ميرة الطعام وكيله من مصر؛ أي: حكم ملك مصر بأنه سيمنع منا الكيل والميرة في المستقبل بعد هذه المرة إن لم نذهب إليه معنا بأخينا بنيامين، وهو إشارة إلى قول يوسف: ﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾. والمراد بالكيل هنا: الطعام لأنه يكال، وفي هذه الجملة دلالة على أن الامتيار مرة بعد مرة معهود فيما بينهم وبينه عليه السلام. ثم ذكروا له ما أمرهم به، فقالوا: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنيامين إلى مصر. وفيه إيذان بأن مدار المنع عدم كونه معهم إن أرسلته معنا ﴿نَكۡتَلۡ﴾ بسببه، ونأخذ من الطعام ما نحتاج إليه بقدر عددنا، ونكون قد وفينا له ما شرط علينا، والعرب تقول: كِلْتَ له الطعام، إذا أعطيته، واكتلت منه وعليه، إذا أخذت منه، أو توليت الكيل بنفسك ﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾؛ أي: لأخينا بنيامين ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ في ذهابه وإيابه من أن يصيبه سوء أو مكروه، ضامنون برده إليك، وكأنهم[1] كانوا يعتقدون أن أباهم لا بد أن يرفض إجابتهم خوفاً عليه من أن يحدث مثل ما حدث ليوسف عليه السلام بدافع الحسد من قبل، فكان جوابه لهم ما حكى الله سبحانه عنه بقوله: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر[2]: ﴿نَكۡتَلۡ﴾ - بالنون -؛ أي: إن أرسلته معنا اكتلنا نحن، وإلا فقد منع منا الكيل. وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر: ﴿يكتل﴾ - بالياء -؛ أي: إن أرسلته معنا يكتل أخونا

(١) زاد المسير.
(٢) الشوكاني.

بنيامين، وإلا فقد منع منه الكيل. واختار[1] أبو عبيد القراءة الأولى، قال: ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكتال، وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده؛ أي: يكتال أخونا بنيامين لنفسه مع اكتيالنا. وجملة قوله: ﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ مستأنفة في جواب سؤال مقدر، والاستفهام فيه إنكاري، بمعنى النفي، والكاف في قوله: ﴿إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾: نعت مصدر محذوف، وآمن: فعل مضارع، والأمن والائتمان بمعنى واحد، والاستفهام فيه إنكاري؛ أي:[2] قال لهم يعقوب عليه السلام: كيف آمنكم على بنيامين، وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم، وأنكم ذكرتم مثل هذا الكلام بعينه في يوسف، وضمنتم لي حفظه، فما فعلتم، فإذا لم يحصل الأمن والحفظ هناك، فكيف يحصل ههنا؟ فأنتم لا يوثق لكم بوعد، ولا يطمأن منكم إلى عهد، فما أشبه الليلة بالبارحة.

والمعنى[3]: ما أمنكم على بنيامين إلا أمناً كأمني إياكم على أخيه يوسف من قبل بنيامين، وقد قلتم في حقه ما قلتم، ثم فعلتم به ما فعلتم، فلا أثق بكم ولابحفظكم، وإنما أفوض الأمر إلى الله سبحانه وتعالى. وقوله: ﴿فَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيْرٌ﴾ مني ومنكم من جهة كونه ﴿حَٰفِظًا﴾ لبنيامين مرتب على محذوف تقديره: فتوكل يعقوب على الله ودفعه إليهم، فقال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ من أهل السمٰوات والأرضين، فأرجو أن يرحمني بحفظه، ولا يجمع علي مصيبتين، وهذا كما ترى ميل منه إلى الإذن والإرسال؛ لما رأى فيه من المصلحة وشدة الحاجة إلى ذلك؛ ولأنه لم ير فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما شاهد بينهم وبين يوسف. وفيه من التوكل على الله ما لا خفاء فيه. قال كعب: لما قال يعقوب: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ قال الله تعالى: وعزتي لأردن عليك كليهما بعدما توكلت علي، فينبغي أن يتوكل على الله، ويعتمد على حفظه دون حفظ ما سواه، فإن ما سواه محتاج في حفظه إلى الأسباب والآلات، والله تعالى غني بالذات مستغن من الوسائط في كل الأمور،

---

(١) المراح.
(٢) روح البيان.
(٣) زاد المسير.

وفي جميع الحالات، ولذا حفظ يوسف في الجبّ.

ومعنى الآية: أن حفظ الله تعالى إياه خير من حفظهم له لما وكل يعقوب حفظه إلى الله سبحانه حفظه وأرجعه إليه، ولما قال في يوسف: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾.. وقع له من الامتحان ما وقع. وقرأ[1] ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم: ﴿حِفْظاً﴾ **والمعنى**: خير حفظاً من حفظكم. وقرأ حمزة الكسائي، وحفص عن عاصم وخلف العاشر: ﴿خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ ـ بألف ـ. وقرأ الأعمش شذوذاً: ﴿خير حافظ﴾ على الإضافة؛ أي: فالله تعالى متصف بالحفظ وزيادته على كل حافظ. وقرأ أبو هريرة: ﴿خير الحافظين﴾، كذا نقل الزمخشري، وهي رواية شاذة. وقال ابن عطية وقرأ ابن مسعود: ﴿فالله خير حافظا وهو خير الحافظين﴾، وهي رواية شاذة أيضاً.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾؛ أي: أوعيتهم التي وضعوا فيها الميرة بحضرة أبيهم ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾؛ أي: ثمن الميرة الذي دفعوه ليوسف ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ تفضلاً وإحساناً من يوسف عليه السلام؛ والمعنى: ولما فتحوا أوعية طعامهم وجدوا فيها ما كان أعطوه من بضاعة ونقدٍ ثمناً لما اشتروه من الطعام؛ إذ أن يوسف أمر فتيانه أن يضعوها في رحالهم، وهم لا يعلمون ذلك.

وجملة قوله: ﴿قَالُواْ﴾ لأبيهم مستأنفة[2] في سؤال مقدر كأنه قيل: ماذا قالوا حينئذٍ؟ فقيل: قالوا لأبيهم ـ ولعله كان حاضراً عند الفتح كما في «الإرشاد»، ويؤيده ما في القصص من أن يعقوب عليه السلام قال لهم: يا بني قدموا أحمالكم لأدعو لكم فيها بالبركة، فقدموا أحمالهم، وفتحوها بين يديه، فرأوا بضاعتهم في رؤوس أحمالهم، فقالوا عند ذلك ـ ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي﴾؛ أي: أي شيء نطلب وراء ما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وكرمه الذي يوجب علينا امتثال أمره ومراجعته في الحوائج، وقد كانوا حدثوا أباهم بذلك على ما روي أنهم قالوا له: إنا قدمنا على خير رجل، وقد أنزلنا خير منزل وأكرم

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

وفادتنا، ولو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته، ثم أكدوا صدق كلامهم بقولهم: ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الموجودة في الأوعية ﴿بِضَٰعَتُنَا﴾؛ أي: ثمن ميرتنا حالة كونها ﴿رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾؛ أي: حالة كونها مردودة إلينا تفضلاً من حيث لا ندري بعدما منَّ علينا بالمنن العظام، هل من مزيد على هذا فنطلبه؟ أرادوا الاكتفاء به في استيجاب الامتثال لأمره، والالتجاء إليه في استجلاب المزيد، فكل ما جئنا به على غلائه وعظم قيمته هو هبة منه وتفضل منه علينا. وقرأ[1] علقمة ويحيى بن وثاب والأعمش: ﴿ردت﴾ - بكسر الراء - نقل حركة الدال المدغمة إلى الراء بعد توهم خلوها من الضمة، وهي لغة لبني ضبة كما نقلت العرب في قيل وبيع. وقرأ عبد الله وأبو حيوة: ﴿ما تبغي﴾ - بالتاء - على خطاب يعقوب، وروتها عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ، وهي رواية شاذة وليست بمتواترة، ويحتمل ما في هذه القراءة الاستفهام والنفي كقراءة النون.

﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾؛ أي: ونأتي بالطعام إلى أهلنا ونجلبه لهم برجوعنا إلى ذلك الملك بتلك البضاعة، وهذا معطوف على محذوف، والتقدير: فنستعين بهذه البضاعة ونمير أهلنا برجوعنا إليه. يقال: مار أهله يميرهم ميراً إذا أتاهم بالميرة؛ وهي الطعام المجلوب من بلد إلى بلد، ومثله امتار. وقرأ أبو عبد الرحمٰن السلمي في رواية شاذة عنه: ﴿ونمير﴾ - بضم النون - مِن أمار الرباعي. ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾ بنيامين في الذهاب والإياب من الجوع والعطش وسائر المكاره ﴿وَنَزۡدَادُ﴾ بسبب إرساله معنا ﴿كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾؛ أي: حمل بعير زائد على ما جئنا به هذه المرة يكال لنا لأجل أخينا؛ لأنه كان يعطي باسم كل رجل حمل بعير اقتصاداً وعدلاً بين الناس، وكأنه قيل: أي حاجة إلى الازدياد، فقيل: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما يحمله بعيرنا ﴿كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾؛ أي: مكيل قليل لا يقوم بأودنا؛ أي: أي قوتنا، أو المعنى: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن حمل البعير ﴿كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾؛ أي: كيل سهل لا عسر فيه على ذلك المحسن الجواد؛ أي: زيادة كيل بعير لأخينا يسهل على الملك، ولا يمتنع علينا من زيادته له؛ أي: لكونه يسيراً لا يتعاظمه ولا يضايقنا فيه،

---

(١) روح البيان.

واختار الزجاج هذا المعنى.

﴿قَالَ﴾ لهم أبوهم يعقوب ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ﴾؛ أي: أخاكم بنيامين، ولن أطلقه معكم إلى مصر بعد ما عاينت منكم ما عاينت ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ﴾؛ أي: حتى تعطوني ﴿مَوْثِقًا﴾؛ أي: عهداً مؤكداً باليمين مأذوناً فيه ﴿مِّنَ﴾ جهة ﴿اللَّهِ﴾ تعالى؛ لأن توكيد العهود به مأذون فيه من جهته تعالى، فهو إذن منه تعالى. وقوله: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ جواب القسم، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾؛ أي: إلا أن تغلبوا، فلا تطيقوا ذلك، أو إلا أن تهلكوا جميعاً من أعم الأوقات، والمعنى: لن أرسله معكم حتى تحلفوا بالله تعالى لترجعن به ولتردنه إليَّ في كل الأوقات إلا وقت الإحاطة بكم، وكونهم[1] محاطاً بهم؛ إما كناية عن كونهم مغلوبين مقهورين بحيث لا يقدرون على الإتيان به البتة، أو كناية عن هلاكهم وموتهم جميعاً، وأصله من العدو، فإن من أحاط به العدو يصير مغلوباً عاجزاً عن تنفيذ مراده، أو هالكاً بالكلية، ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر وهو قولهم: البلاء موكل بالمنطق، فإن يعقوب عليه السلام قال أولاً في حق يوسف عليه السلام: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ فابتلي من ناحية هذا القول حيث قالوا: ﴿أَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾، وقال هنا: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ فابتلي أيضاً بذلك، وأحيط بهم، وغلبوا عليه كما سيأتي. وقوله ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ﴾؛ أي: أعطوه ﴿مَوْثِقَهُمْ﴾؛ أي: عهدهم ويمينهم الذي طلبه منهم قبله حذف تقديره: فأجابوه إلى ما طلبه، فلما آتوه موثقهم.. ﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿اللهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾؛ أي: على ما قلناه من طلبي الموثق منكم، وإعطائكم لي ما طلبته منكم ﴿وَكِيلٌ﴾؛ أي: مطلع رقيب لا يخفى عليه منه خافية، فهو المعاقب لمن خان في عهده وفجر في الحلف به، أو موكول إليه القيام بما شهد عليه منا.

ولما تجهزَّ[2] أولاد يعقوب للمسير إلى مصر.. خاف عليهم أبوهم أن تصيبهم العين لكونهم كانوا ذوي جمال ظاهر وثياب حسنة مع كونهم أولاد رجل

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

واحد ﴿وَقَالَ﴾ ناصحاً لهم: ﴿لَا تَدْخُلُواْ﴾ مدينة مصر ﴿مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ من أبوابها الأربعة ﴿وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾؛ أي: مختلفة؛ أي: من طرق شتى وسكك مختلفة مخافة العين، فإن العين والسحر حق؛ أي: كائن أثرهما في المعين والمسحور، وصاهم بذلك في هذه الكرة؛ لأنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة مشتهرين في مصر بالقربة عند الملك، فخاف عليهم، إن دخلوا جماعة واحدة أن يصابوا بالعين، ولم يوصهم في الكرة الأولى؛ لأنهم كانوا مجهولين حينئذٍ مغمورين بين الناس غير متجملين تجملهم في الثانية، وكان الداعي إليها خوفه على بنيامين ﴿وَمَآ أُغْنِي﴾؛ أي: وما أدفع ﴿عَنكُم﴾ بتدبيري ﴿مِّنَ﴾ قضاء ﴿اللَّهِ﴾ تعالى وتدبيره ﴿مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: شيئاً فـ﴿مِّنَ﴾ زائدة لتأكيد النفي، فإن الحذر لا يمنع القدر.

ولم يرد به إلغاء الحذر بالمرة[1]، كيف لا وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وقال: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ بل أراد بيان أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة، بل هو تدبير في الجملة، وإنما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير، وإن ذلك ليس بمدافعة للقدر، بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه إليه.

وإنما قال: ﴿مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾[2] لأنهم لو دخلوا من بابين مثلاً.. كانوا قد امتثلوا النهي عن الدخول من باب واحد، ولكنه لما كان في الدخول من بابين مثلاً نوع اجتماع يخشى معه أن تصيبهم العين.. أمرهم بأن يدخلوا من أبواب متفرقة.

والمعنى: ولا أدفع عنكم ولا أجلب إليكم نفعاً بتدبيري هذا، بل ما قضاه الله عليكم فهو واقع لا محالة. قال الزجاج وابن الأنباري: لو سبق في علم الله أن العين تهلكهم مع الاجتماع.. لكان تفرقهم كاجتماعهم. وقال آخرون: ما كان يغني عنهم يعقوب شيئاً قط حيث أصابهم ما أصابهم مع تفرقهم من إضافة السرقة إليهم.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

وقد اختلف العلماء فيمن عرف بالإصابة بالعين، فقال قوم: يمنع من الاتصال بالناس دفعاً لضرره بحبس أو غيره من لزوم بيته. وقيل: ينفى، وأبعد من قال إنه يقتل إلا إذا كان يتعمد ذلك، وتتوقف إصابته على اختياره وقصده ولم ينزجر عن ذلك، فإنه إذا قتل كان له حكم القاتل.

ثم صرّح يعقوب عليه السلام بأنه لا حكم إلا لله سبحانه وتعالى، فقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾؛ أي: ما الحكم مطلقاً ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره، ولا يشاركه أحد ولا يمانعه شيء، فلا يحكم أحد سواه بشيء من السوء وغيره ﴿عَلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى لا على غيره ﴿تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: اعتمدت في كل ما آتي وأذر. وفي هذا[1] إيماء إلى أن الأخذ في الأسباب ومراعاة اتباعها لا ينافي التوكل. وقد جاء في الخبر: «اعقلها وتوكل».

﴿وَعَلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى دون أحد سواه ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ على العموم، لا على أمثالهم من المخلوقين، ولا على أنفسهم، ويدخل فيه أولاده دخولاً أولياً؛ أي: فليثق الواثقون. والفاء[2] فيه لإفادة التسبب، فإن فعل الأنبياء سبب لأن يقتدى بهم. وقال البيضاوي: جمع[3] بين الحرفين في عطف الجملة على الجملة لتقدم الصلة للاختصاص كأن الواو للعطف والفاء لأفادة التسبب فإن فعل الأنبياء سبب لأن يقتدى بهم، انتهى. فعلى كل مؤمن أن يتخذ لكل أمر يقدم على عمله العدة، ويهيىء من الأسباب ما يوصل إليه على قدر طاقته، ثم بعد ذلك يكل أمر النجاح فيه إلى الله تعالى، ويطلب منه التوفيق والمعونة في إنجازه، فقد يكون من الأسباب ما يخفى عليه، أو ما لا تصل إليه يده.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا﴾؛ أي: ولما دخل أخوة يوسف المدينة ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾؛ أي: من المكان الذي أمرهم أبوهم الدخول منه، وهي الأبواب المتفرقة، والجار[4] والمجرور في موضع الحال؛ أي: دخلوا متفرقين ﴿مَا كَانَ﴾

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) البيضاوي.
(٤) روح البيان.

رأي يعقوب ودخولهم متفرقين ﴿يُغْنِي عَنْهُم﴾؛ أي: يدفع عنهم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من جهته تعالى ﴿مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: شيئاً مما قضاه الله تعالى عليهم، والجملة جواب لـ﴿مَا﴾ فقد[1] وقع عليهم قضاء الله تعالى حيث نسبوا إلى السرقة، وأخذ منهم بنيامين، وتضاعفت المصيبة على يعقوب عليه السلام. ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾؛ أي: لكن[2] الدخول على صفة التفرق أظهر حاجةً في قلب يعقوب عليه السلام، وهي خوفه عليهم من إصابة العين، وهذا تصديق الله تعالى لقول يعقوب: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

ولفظة ﴿حَاجَةً﴾ منصوبة[3] بإلا؛ لكونها بمعنى لكن، و﴿قَضَىٰهَا﴾ بمعنى: أظهرها، ووصى بها خبر لكن، والمعنى: إن رأي يعقوب عليه السلام في حق بنيه، وهو أن يدخلوا من الأبواب المتفرقة، واتباع بنيه له في ذلك الرأي ما كان يدفع عنهم شيئاً مما قضاه الله تعالى عليهم، ولكن يعقوب عليه السلام أظهر بذلك الرأي ما في نفسه من الشفقة والاحتراز من أن يعانوا؛ أي: يصابوا بالعين، ووصى به؛ أي: لم يكن للتدبير فائدة سوى دفع الخاطر من غير اعتقاد أن للتدبير تأثيراً في تغيير التقدير، وأما إصابة العين، فإنما لم تقع لكونها غير مقدرة عليهم، لا لأنها اندفعت بذلك مع كونها مقضية عليهم. وعبارة «الجمل» هنا: وتقرير انقطاع الاستثناء أن المستثنى منه شيء قضاه الله وأراده، والمستثنى شيء لم يرده الله؛ وهو إصابة العين لهم، فهذا لم يرده الله، ولم يقضه؛ إذ لو أراده لوقع مع أنه لم يقع ولم يحصل، هذا تقرير الانقطاع. انتهت.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن يعقوب عليه السلام ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾ جليل ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ بالوحي ونصب الأدلة، ولذلك قال: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾؛ لأن العين لو قدر أن تصيبهم أصابتهم وهم متفرقون، كما تصيبهم وهم مجتمعون؛ أي: وإنه[4] لذو علم خاص به وبأمثاله من الأنبياء لما أعطيناه من علم الوحي،

---

(١) الفتوحات.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

وتأويل الرؤيا الصادقة، واعتقاده أن الإنسان يجب عليه في كل أمر يحاوله أن يتخذ له من الأسباب ما يصل به إلى غرضه، ويبلغ به إلى غايته، ثم يتوكل بعد ذلك على الله في تسخير ما لم يصل إليه علمه مما لا تتم المقاصد بدونه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أسرار القدر، ويزعمون أن الحذر يغني عن القدر، أو المعنى: ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الواجب الجمع بين أخذ العدة والسعي في تحقيق الأسباب الصحيحة الموصلة إلى المراد، وبين الاتكال على الله؛ وهو ما فعله يعقوب عليه السلام، ولا يكفي تحقق الأسباب وحدها للحصول عليه، أو المعنى: ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن يعقوب عليه السلام بهذه الصفة والعلم، أو لا يعلمون ما كان يعلم يعقوب؛ لأنهم لم يسلكوا طريق إصابة العلم. وقال ابن عباسرضي الله عنهما: لا يعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه. وقرأ الأعمش شاذاً: ﴿مما علمناه﴾ ذكره أبو حيان.

الإعراب

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَمَآ﴾ (و): حالية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على زليخا كما هو الراجح، أو على يوسف، والجملة في محل النصب حال من فاعل القول المحذوف تقديره: قلت ذلك الاعتراف ليعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب حالة كوني غير مبرئة نفسي من السوء. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلنَّفْسَ﴾: اسمها. ﴿لَأَمَّارَةٌۢ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿أمارة﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾: متعلق به، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل النفي المذكور قبلها. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَا﴾: اسم موصول بمعنى نفساً في محل النصب على الاستثناء. ﴿رَحِمَ رَبِّيٓ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: إلا نفساً رحمها ربي بالعصمة كيوسف عليه السلام. ﴿إِنَّ رَبِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِىۖ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾. وإن شئت قلت: ﴿ٱئْتُونِي﴾: فعل وفاعل ونون وقاية ومفعول به. ﴿بِهِۦٓ﴾ متعلق به والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿أَسْتَخْلِصْهُ﴾: فعل ومفعول مجزوم بالطلب السابق. ﴿لِنَفْسِىۖ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْمَلِكُ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَلَمَّا﴾: (الفاء): عاطفة على محذوف تقديره: فأتوه به فلما كلّمه. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿كَلَّمَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْمَلِكُ﴾، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لمّا﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْمَلِكُ﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَمَّا﴾ معطوفة على تلك الجملة المحذوفة. ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية تنازع فيه كل من ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾. ﴿لَدَيْنَا﴾: في محل النصب على الظرفية المكانية مضاف إلى الضمير تنازع فيه أيضاً كل من الاسمين. ﴿مَكِينٌ﴾: خبر أول لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿أَمِينٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة مستأنفة. ﴿ٱجْعَلْنِى﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱجْعَلْنِى﴾: فعل ومفعول أول ونون وقاية، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْمَلِكُ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بالمفعول الثاني المحذوف لـ﴿جعل﴾ تقديره: اجعلني والياً على خزائن الأرض، أو متعلق بـ﴿ٱجْعَلْنِى﴾ على تضمينه معنى ولّني. ﴿إِنِّى﴾: ناصب واسمه. ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾: خبران له.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿كذلك﴾: صفة لمصدر محذوف معمول

لـ﴿مَكَّنَّا﴾ تقديره: ومكنا ليوسف في الأرض تمكيناً مثل التمكين الذي ذكرناه من إخراجه من السجن وتقريبه إلى الملك. ﴿لِيُوسُفَ﴾: متعلق بـ﴿مَكَّنَّا﴾. وكذلك يتعلق به ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿لِيُوسُفَ﴾ يجوز في هذه اللام أن تكون متعلقة بـ﴿مَكَّنَّا﴾ على أن يكون مفعول ﴿مَكَّنَّا﴾ محذوفاً تقديره: مكنا ليوسف الأمور، أو على أن يكون المفعول به ﴿حَيْثُ﴾ كما سيأتي، ويجوز أن تكون زائدة عند من يرى ذلك. ا هـ. «سمين». ﴿يَتَبَوَّأُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿يوسف﴾. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿يوسف﴾، وفي «الخازن»: إن هذه الجملة في المعنى تفسير للتمكين. ﴿حَيْثُ﴾: في محل النصب على الظرفية المكانية متعلق بـ﴿يَتَبَوَّأُ﴾. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿يوسف﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾. وفي «السمين» قوله: ﴿يَتَبَوَّأُ﴾ هذه جملة حالية من ﴿يوسف﴾، ومنها يجوز أن يتعلق بـ﴿يَتَبَوَّأُ﴾، وأجاز أبو البقاء أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من ﴿حَيْثُ﴾، و﴿حَيْثُ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً بـ﴿يَتَبَوَّأُ﴾، ويجوز أن يكون مفعولاً به. ا هـ. ﴿نُصِيبُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، والجملة مستأنفة. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿نَّشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من نشاءه. ﴿وَلَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿نُضِيعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿نُصِيبُ﴾. ﴿أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: مفعول به ومضاف إليه.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَلَأَجْرُ﴾ (الواو): استئنافية. (اللام): موطئة للقسم. ﴿أجر الآخرة﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل

وفاعل صلة الموصول. ﴿وَكَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَتَّقُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة الصلة. ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿فَدَخَلُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جاء﴾. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿دخل﴾. ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿دخلوا﴾؛ لأن العاطف هنا حرف مرتب. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بما بعده. ﴿مُنكِرُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من مفعول ﴿عرف﴾ والتقدير: فعرفهم يوسف حالة كونهم جاهلين له.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ (الواو): استئنافية. ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿جَهَّزَهُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾: متعلق به. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة. ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾. وإن شئت قلت: ﴿ٱئْتُونِي﴾: فعل وفاعل ومفعول ونون وقاية. ﴿بِأَخٍ﴾: متعلق به والجملة في محل النصب مقول قال. ﴿لَّكُم﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿أخٍ﴾. ﴿مِّنْ أَبِيكُمْ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور قبله، أو صفة ثانية لـ﴿أخٍ﴾. ﴿أَلَا﴾: (الهمزة): للاستفهام التقريري. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَرَوْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَنِّيٓ﴾: ناصب واسمه. ﴿أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿رأى﴾ إن كانت علمية، أو منصوب على المفعولية لـ﴿رأى﴾ إن كانت بصرية، تقديره: ألا ترون إيفائي الكيل. ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أن﴾ على كونها سادة مسد مفعول رأى.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿فَإِن﴾ (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردتم بيان شأنكم إذا لم تأتوني به.. فأقول لكم ﴿إن لم تأتوني به﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿تَأْتُونِي﴾: فعل وفاعل ومفعول ونون وقاية مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، وجزمه بحذف النون. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿فَلَا﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿لا﴾: نافية. ﴿كَيْلَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾ النافية، والجملة الإسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾: جازم ومجزوم بحذف النون، وهذه النون نون الوقاية، وحذفت ياء المتكلم تخفيفاً، وجملة قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ في محل الجزم معطوفة على جملة ﴿لا﴾ النافية على كونها جواباً لـ﴿إن﴾: الشرطية، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالُواْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿سَنُرَٰوِدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على إخوة يوسف. ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به. ﴿أَبَاهُ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَإِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفَٰعِلُونَ﴾ خبره، واللام: حرف ابتداء، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على الجملة الفعلية على كونها مقولاً لـ﴿قَالُواْ﴾.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، وجعل هنا بمعنى دس فلا يتعدى إلا إلى مفعول واحد. ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾:

متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿يَعْرِفُونَهَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾: في محل النصب مسوقة لتعليل ما قبلها على كونها مقول ﴿قال﴾. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط. ﴿انقَلَبُوٓاْ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، والظرف متعلق بـ﴿انقَلَبُوٓاْ﴾، والتقدير: لعلهم يعرفونها وقت انقلابهم إلى أهلهم. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾ مسوقة لتعليل ما قبلها؛ أي: ولعل معرفتهم ذلك تدعوهم إلى الرجوع كما في «البيضاوي».

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره، إذا عرفت ما قال يوسف لهم، وما عاهد عليهم من الإتيان بالأخ، وما قالوا له من مراودته من أبيه، وأردت بيان ما قالوا لأبيهم بعد ما رجعوا إلى بلادهم.. فأقول لك، ﴿لما رجعوا﴾، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿رَجَعُوٓاْ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ﴾ متعلق به، والجملة فعل شرط لـ﴿ما﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لما﴾ في محل النصب مقول الجواب إذا المقدرة. ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿مُنِعَ﴾: فعل ماض مغيّر الصيغة. ﴿مِنَّا﴾: متعلق به. ﴿ٱلْكَيْلُ﴾: نائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿فَأَرْسِلْ﴾ (الفاء): عاطفة تفريعية، ﴿أرسل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿مَعَنَآ﴾: متعلق به، أو حال من ﴿أَخَانَا﴾. ﴿أَخَانَا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة مفرعة على جملة قوله: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قَالُواْ﴾. ﴿نَكْتَلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على إخوة يوسف، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَإِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بما بعده. ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾: خبره،

واللام حرف ابتداء، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أرسل﴾ على كونها مقول ﴿قَالُواْ﴾.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة مستأنفة. ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هَلْ﴾: حرف الاستفهام الإنكاري. ﴿ءَامَنُكُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿كَمَآ﴾: (الكاف): حرف جر وتشبيه. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿أَمِنتُكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾: متعلق به. وكذا قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق به أيضاً. والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور بالكاف تقديره: كأمني إياكم على أخيه من قبل، الجر والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: هل آمنكم عليه إلا أمناً كائناً كأمني إياكم على أخيه من قبل. ﴿فَٱللَّهُ﴾ (الفاء): عاطفة لقول محذوف على فعل محذوف تقديره: فتوكل يعقوب على الله، ودفعه إليهم، فقال الله خير حافظا، ﴿الله خير﴾: مبتدأ وخبر. ﴿حَٰفِظًا﴾: حال من الضمير المستكن في ﴿خَيْرٌ﴾، أو تمييز منصوب باسم التفضيل، والجملة في محل النصب مقول لذلك القول المحذوف. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ على كونها مقولاً لذلك القول المحذوف.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ (الواو): استئنافية. ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول لـ﴿وجد﴾. ﴿رُدَّتْ﴾: فعل ماضي مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على البضاعة. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب

مفعول ثان لـ﴿وجد﴾ أو حال من البضاعة، وجملة ﴿وَجَدُواْ﴾ جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿مَا﴾: استفهامية في محل النصب مفعول مقدم وجوباً. ﴿نَبۡغِيۖ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على إخوة يوسف، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة موضحة لجملة قوله: ﴿مَا نَبۡغِيۖ﴾. ﴿رُدَّتۡ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على البضاعة. ﴿إِلَيۡنَاۖ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿بِضَٰعَتُنَا﴾. ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على إخوة يوسف، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة محذوفة تقديرها: نستعين بها ونمير أهلنا ذكره في «الفتوحات». ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على إخوة يوسف، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على إخوة يوسف، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿يَسِيرٞ﴾: صفة ﴿كَيۡلٞ﴾.

﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة مستأنفة. ﴿لَنۡ﴾: حرف نفي ونصب. ﴿أُرۡسِلَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَعَكُمۡ﴾: حال من مفعول ﴿أُرۡسِلَهُۥ﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿تُؤۡتُونِ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد حتى بمعنى إلى، وعلامة نصبه حذف النون: لأن أصله حتى تؤتونني، والنون المذكورة نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول أول. ﴿مَوۡثِقٗا﴾: مفعول ثان. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ﴿مَوۡثِقٗا﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتى بمعنى إلى تقديره: إلى إيتائكم إيايّ موثقاً من الله، والجار والمجرور متعلق بـ﴿أرسل﴾.

﴿لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾.

﴿لَتَأۡتُنَّنِي﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿تأتنني﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والنون المشددة: نون التوكيد الثقيلة: حرف لا محل لها من الإعراب، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين: في محل الرفع فاعل، والنون الأخيرة: نون الوقاية، و(الياء): ضمير المتكلم: في محل النصب مفعول به مبني على السكون. ﴿بِهِۦٓ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مقول لقول محذوف تقديره: حتى تؤتون موثقاً من الله قائلاً: والله لتأتنني به. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أو من أعم العلل. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يُحَاطَ﴾: فعل مضارع مغير، الصيغة منصوب بـ﴿أن﴾. ﴿بِكُمۡۖ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة المستثنى المحذوف تقديره: لتأتنني به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم، أو لا تمتنعون من الإتيان به لعلة من العلل إلا العلة الإحاطة بكم. ﴿فَلَمَّآ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنه أبى من الإرسال معهم حتى يؤتوه موثقاً من الله، وأردت بيان قوله وحاله بعد أخذ الميثاق منهم.. فأقول لك: لما أتوه. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعولان؛ لأن أتى هنا بمعنى أعطى يتعدى إلى مفعولين، والجملة شرط لـ﴿لما﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾: مقول محكي لقال، وإن شئت قلت: ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَكِيلٞ﴾. ﴿نَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على يعقوب ومن معه، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: على ما نقوله. ﴿وَكِيلٞ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم

﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة معطوفة على جملة ﴿قال﴾ الأولى. ﴿يَٰبَنِيَّ﴾: إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿لَا تَدْخُلُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بـ﴿لَا تَدْخُلُواْ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَٱدْخُلُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنْ أَبْوَٰبٍ﴾: متعلق به. ﴿مُّتَفَرِّقَةٍۖ﴾: صفة لـ﴿أَبْوَٰبٍ﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا تَدْخُلُواْ﴾. ﴿وَمَآ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿أُغْنِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿عَنكُم﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿وَٱدْخُلُواْ﴾. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿شَىْءٍۖ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿شَىْءٍۖ﴾: مفعول ﴿أُغْنِى﴾؛ أي: أغني عنكم شيئاً من قضاء الله تعالى. ﴿إِنِ﴾: نافية مهملة لانتقاض نفيها بـ﴿إِلَّا﴾. ﴿ٱلْحُكْمُ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿لِلَّهِۖ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿تَوَكَّلْتُۖ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَعَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾: (الفاء): سببية كما مر في مبحث التفسير نقلاً عن «روح البيان»، و(اللام): حرف جزم وطلب. ﴿يتوكل المتوكلون﴾: فعل وفاعل مجزوم بلام الأمر، والجملة في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا﴾: (الواو): استئنافية. ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿دَخَلُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿مِنْ حَيْثُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿دَخَلُواْ﴾. ﴿أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر

مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير مستتر فيها يعود على دخولهم من أبواب متفرقة. ﴿يُغْنِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الدخول. ﴿عَنْهُم﴾: متعلق به. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿شَيْءٍ﴾. ﴿مِن شَيْءٍ﴾: مفعول ﴿يُغْنِي﴾ وجملة ﴿يُغْنِي﴾: في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ جواب ﴿لِمَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لِّمَا﴾ مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء بمعنى لكن؛ لأن الاستثناء منقطع. ﴿حَاجَةً﴾: منصوب على الاستثناء. ﴿فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة أولى لـ﴿حَاجَةً﴾. ﴿قَضَىٰهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله تعالى، وجملة ﴿قَضَىٰهَا﴾: في محل النصب صفة ثانية لـ﴿حَاجَةً﴾. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿إنه﴾: ناصب واسمه. ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿ذو علم﴾: خبر ﴿إن﴾ مرفوع بالواو، والجملة مستأنفة. ﴿لِّمَا﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿عَلَّمْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة لـ﴿مَّا﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لتعليمنا إياه، الجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: وإنما كان ذا علم لتعليمنا إياه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبره، والجملة الاستدراكية معطوفة على جملة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ أي: كثيرة الأمر لصاحبها بالسوء؛ أي: شأنها الأمر بالسوء لميلها إلى الشهوات، وتأثيرها بالطبع، وصعوبة قهرها وكفها عن ذلك. والسوء: الفعل القبيح. والأمارة: صيغة مبالغة تدل على الكثرة.

﴿إِلَّا مَا رَحِمَ﴾ ﴿مَا﴾: واقعة على نفس من النفوس، فلذلك كانت بمعنى.

﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾؛ أي: أجعله خالصاً لنفسي، والاستخلاص طلب خلوص الشيء من جميع شوائب الاشتراك، فهو من باب استفعل السداسي، ولكنه بمعنى أفعل، فالسين والتاء فيه زائدتان، وإنما طلب الملك أن يستخلص يوسف لنفسه؛ لأن عادة الملوك أن ينفردوا بالأشياء النفيسة، ولا يشاركهم فيها أحد من الناس.

﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾؛ أي: ذو مكانة ومنزلة أمين؛ أي: مؤتمن على كل شيء، فهما صفتان مشبهتان من مكن على وزن كرم، وأمن على وزن فرح، يقال: مكن فلان عند فلان إذا اتخذ عنده مكانة؛ أي: منزلة؛ وهي الحالة التي يتمكن بها صاحبها مما يريد. وقيل: المكانة: المنزلة والجاه، والمعنى قد عرفنا أمانتك ومنزلتك، وصدقك وبراءتك مما نسبت إليه، ومكين: كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب في أمر الدين والدنيا. ا هـ. «خازن». وفي «المصباح»: مكن فلان عند السلطان مكانة - وزان ضخم ضخامة - إذا عظم عنده وارتفع، فهو مكين، ومكنته من الشيء: جعلت له عليه سلطاناً وقدرةً، فتمكن منه، واستمكن: قدر عليه، وله مكنة؛ أي: قوة وشدة، وأمكنته منه بالألف مثل مكنته، وأمكنني الأمر سهل وتيسر. ا هـ.

﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ أي: ولّني على خزائن الطعام والأموال، وأراد بالأرض أرض مصر. ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ للخزائن ﴿عَلِيمٞ﴾ بوجوه مصالحها. وقيل: حفيظ لما استودعني عليم لما وليتني. وقيل: حفيظ للحساب عليم أعلم لغة من يأتيني. ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: جعلنا له سلطاناً.

﴿فَعَرَفَهُمۡ﴾ المعرفة والعرفان: معرفة الشيء بتفكر في أثره، وضده الإنكار.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم﴾؛ أي: وفر ركائبهم بما جاءوا لأجله.

﴿بِجَهَازِهِمۡ﴾ وجهاز السفر: أهبته وما يحتاج إليه في قطع المسافة، ومثله جهاز الميت والعروس بالكسر والفتح، وبهما قرىء، والمتواتر هو الفتح. وفي «المصباح»: وجهزت المسافر بالتثقيل: هيأت له بجهازه، وجهاز السفر أهبته وما يحتاج إليه في قطع المسافة - بالفتح والكسر - لغة قليلة. ا هـ.

﴿أَلَا تَرَوۡنَ﴾ أصله تريون، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فالتقى ساكنان، ثم حذفت الألف لبقاء دالها؛ وهو فتحة الراء، فصار ترون بوزن تفعون.

﴿أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ﴾ يقال: أوفى الشيء إذا جعله وافياً تاماً. ﴿وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾؛ أي: خير المستضيفين للضيوف وأكثرهم قرى.

﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ وفي «القاموس» - قرب - ككرم، وقرب كسمع قرباً وقرباناً - بالضم - وقِرباناً - بالكسر - دنا فهو قريب للواحد والجمع. ا هـ. والمعنى هنا: لا تدنوا مني؛ أي: من بلادي؛ أي: لا تدخلوها فضلاً عن وصولكم إلي. ا هـ. شيخنا.

﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾؛ أي: نخادع ونستميل برفق. ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾؛ أي: لقادرون على تلك المراودة.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ﴾؛ أي: لغلمانه الكيالين ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾؛ أي: التي اشتروا بها الطعام الذي في هذا الرحل، وكانت نعالاً وأدماً. وقيل: دراهم، والبضاعة: المال الذي يستعمل للتجارة. ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾: جمع رحل، وهو ما يوضع على ظهر الدابة، وفوقه متاع الراكب وغيره، والمراد هنا الأوعية التي يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام. ﴿إِذَا انْقَلَبُوا﴾؛ أي: رجعوا.

﴿نَكْتَلْ﴾: أصله نكتيل بوزن نغتنم، فتحركت الياء التي هي عين الكلمة، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، ثم حذفت لالتقاء الساكنين، فوزنه الآن نفتل، وبحسب الأصل، نفتعل. ا هـ. «شيخنا».

﴿هَلْ آمَنُكُمْ﴾ أصله: أأمنكم بهمزتين، فقلبت الثانية ألفاً على القاعدة. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذا الزمان.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾؛ أي: رحالهم؛ أي: الأوعية التي وضعوا فيها الميرة. ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾؛ أي: التي دفعوها له؛ وهي ثمن الميرة.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾؛ أي: نجلب لهم المِيرة - بالكسر - وهي الطعام يجلبه الإنسان من بلد إلى بلد ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾؛ أي: حمل جمل، فكيل بمعنى: مكيل.

﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾؛ أي: قليل لا يكثر على سخائه كما جاء في قوله: ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾، أو سهل لا عسر فيه كما في قوله: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

﴿مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ والموثق العهد المؤكد باليمين، وقيل: العهد بإشهاد الله

عليه. ا هـ. «خازن».

﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ﴾؛ أي: إلا أن تغلبوا على أمركم، وإلا أن تهلكوا، فإن من يحيط به العدو يهلك غالباً، وتقول العرب: أحيط بفلان إذا هلك، أو قارب هلاكه.

﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ أي: مطلع رقيب، فإن الموكل بالأمر يراقبه ويحفظه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المبالغة في قوله: ﴿لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ لم يقل: آمرة مبالغة في وصف النفس بكثرة الدفع في المهاوي والقود إلى المغاوي؛ لأن فَعَّالاً من أبنية المبالغة.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ وهم المحسنون للتوصل إلى وصفهم بالإيمان والتقوى بعد وصفهم بالإحسان مبالغة في مدحهم.

ومنها: التضمين في قوله: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ ضمن جهز معنى أكرم، فلذلك عداه بالباء؛ أي: ولما أكرمهم بجهازهم؛ أي: بتحصيله لهم.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿ٱلْكَيْلُ﴾ وبين ﴿نَكْتَلْ﴾ في قوله: ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾، والمماثل في قوله: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾، وفي قوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ﴾؛ أي: إلا ائتماناً كائتماني لكم على أخيه، شبه ائتمانه لهم على هذا بائتمانه لهم على ذاك. ا هـ. «سمين».

ومنها: الكناية في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ﴾؛ لأن الإحاطة حقيقة في إحاطة العدو، وهو هنا كناية عن الهلاك؛ أي: إلا أن تهلكوا.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ لما فيه من الإسناد إلى السبب؛ لأنه الآمر.

ومنها: الطباق بين عرف وأنكر في قوله: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ وهو زيادة اللفظ على المعنى المراد؛ وفائدته: تمكين المعنى من النفس ورسوخه فيها، وفيه أيضاً من المحسنات البديعية ما يسمى طباق السلب.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، وقوله: ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

ومنها: الإتيان بصيغة الاستقبال في قوله: ﴿أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ مع أنه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم؛ للدلالة على أن ذلك عادته المستمرة.

ومنها: التعبير عما في المستقبل بالماضي في قوله: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾؛ لأنه يراد به المنع في المستقبل.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾؛ أي: ولما دخل إخوة يوسف ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ في مجلسه الخاص به بعد دخولهم باحة القصر من حيث أمرهم أبوهم ﴿ءَاوَىٰٓ﴾ يوسف وضمّ ﴿إِلَيۡهِ﴾؛ أي: إلى نفسه في الطعام والمنزل والمبيت ﴿أَخَاهُۖ﴾ الشقيق بنيامين، وقد حصل ما كان يتوقع يعقوب، أو فوق ما كان يتوقع من الحنوّ عليه

والعناية التي خصه بها.

قال المفسرون[1]: لما دخل إخوة يوسف على يوسف عليه السلام.. قالوا: أيها الملك هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به، فقد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم وأصبتم، وستجدون ذلك عندي، ثم أنزلهم وأكرم نُزلهم، ثم إنه أضافهم وأجلس كل اثنين على مائدة، فبقي بنيامين وحيداً، فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيّاً.. لأجلسني معه، فقال لهم يوسف عليه السلام، لقد بقي هذا وحده، فقالوا: كان له أخ، فهلك. قال لهم: فأنا أجلسه معي، فأخذه فأجلسه معه على مائدته، وجعل يؤاكله، فلما كان الليل أمرهم بمثل ذلك، وقال كل اثنين منكم ينامان على فراش واحد، فبقي بنيامين وحده، فقال يوسف: هذا ينام عندي على فراشي، فنام بنيامين مع يوسف على فراشه، فجعل يوسف يضمه إليه، ويشمّ ريحه، ويشمّ ريح أبيه منه حتى أصبح، فلما أصبح قال لهم: إني أرى هذا الرجل وحيداً ليس معه ثان، وسأضمه إلي، فيكون معي في منزلي، ثم إنه أنزلهم وأجرى عليهم الطعام، فقال روبيل: ما رأينا مثل هذا قط، فلما خلا به.. قال له يوسف: ما اسمك؟ قال: بنيامين. قال: وما بنيامين؟ قال: ابن المشكّل، وذلك أنه لما ولدته أمه هلكت. قال: وما اسم أمك؟ قال: راحيل بنت لاوى. قال: فهل لك من ولد؟ قال: لي عشرة بنين. قال: فهل لك من أخ لأمك؟ قال: كان لي أخ، فهلك. قال يوسف: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال بنيامين: ومن يجد أخاً مثلك أيها الملك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف عليه السلام، وقام إليه وعانقه و﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسف الذي فقدتموه صغيراً ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾؛ أي: فلا تحزن، وقال أهل اللغة: تبتئس تفتعل من البؤس؛ وهو الضرر والشدة، والابتئاس: اجتلاب الحزن والبؤس؛ أي: فلا تحزن ولا تتأسف ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بنا فيما مضى من الضرر والأذى، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا وجمع بيننا بخير؛ أي: فلا تلتفت إلى ما صنعوه بنا فيما تقدم من أعمالهم المنكرة، ولا يلحقن بك بعد الآن بؤس؛ أي: مكروه ولا شدة

---

(١) الخازن.

بسبب ما كانوا يعملون من الجفاء وسوء المعاملة بحسدهم لي ولك، وأمره أن لا يخبرهم، بل يخفي الحال عنهم. وقال بنيامين: أنا لا أفارقك أبداً. قال يوسف عليه السلام: قد علمت اغتمام والدك بي، فإذا حبستك عندي ازداد غمه، ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع، وأنسبك إلى ما لا يحمد. قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك، فإني لا أفارقك. قال يوسف عليه السلام: فإني أدس صاعي في رحلك، ثم أنادي عليك بالسرقة لأحتال في ردك بعد إطلاقك معهم. قال: فافعل ما شئت، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم﴾ يوسف وهيأهم ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾؛ أي: بأهبة سفرهم؛ أي: فلما هيأ يوسف لهم ما يحتاجون إليه للسفر، وحمل لهم أحمالهم من الطعام على إبلهم، وعبّر[1] هنا بالفاء إشارة إلى طلب سرعة سيرهم وذهابهم إلى بلادهم؛ أي: لأن الغرض منه قد حصل، وقد عرفت حالهم بخلاف المرة الأولى، كان المطلوب فيها طول مدة إقامتهم؛ ليتعرف الملك حالهم. ﴿جَعَلَ﴾ يوسف عليه السلام ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾؛ أي: المشربة - بكسر الميم - وهي صاع من ذهب مرصع بالجواهر؛ أي: محلى بالرصائع، وهي حلق يحلى بها، الواحدة رصيعة وكان يشرب فيه الملك، فيسمى سقاية باعتبار أول حاله، وصاعاً باعتبار آخر أمره؛ لأن الصاع آلة الكيل يسع أربعة أمداد. فالسقاية إناء يشرب منه، جعلها يوسف مكيالاً؛ لئلا يكال بغيرها، وكان يشرب فيها، أو كال بها لإخوته إكراماً لهم، وكانت من ذهب، وقيل: من فضة، وكان الشرب في إناء الذهب والفضة مباحاً في الشريعة الأولى، فالسقاية والصُّواع اسم لإناء كما مر آنفاً؛ أي: دس يوسف مشربته التي كان يشرب فيها ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ الشقيق بنيامين؛ أي: في وعاء طعامه. والمعنى: فلما قضى لهم حاجتهم، ووفاهم كيلهم جعل الإناء الذي يكيل به الطعام في رحل أخيه. وفي قوله: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ إيماء إلى أنه وضعها بيده، ولم يكل ذلك إلى أحد من فتيانه كتجهيزهم الأول والثاني؛ لئلا يطلعوا على مكيدته.

ثم ارتحلوا راجعين إلى بلادهم، فأمهلهم يوسف حتى خرجوا من العمران،

---

(١) الفتوحات.

ولما انفصلوا عن مصر نحو الشام.. أرسل يوسف وراءهم من استوقفهم، فاستوقفهم فوقفوا ﴿ثُمَّ أَذَّنَ﴾ ونادى ﴿مُؤَذِّنٌ﴾؛ أي: مناد من فتيان يوسف، قيل: اسمه أفراييم كما في «روح البيان»؛ أي: نادى منادٍ برفع صوته مراراً كثيرة قائلاً: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾؛ أي: أيتها القافلة التي فيها الأحمال ويا أصحاب الإبل التي عليها الأحمال. والعير[1] في الأصل: كل ما يحمل عليه من الإبل والحمير والبغال، سمي بذلك؛ لأنه يعير؛ أي: يذهب ويجيء، والمراد هنا: أصحاب الإبل ونحوها. ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ صواعنا فقفوا لنفتشكم. وقرأ عبد الله فيما نقل الزمخشري شذوذاً: ﴿وجعل السقاية في رحل أخيه ثم أمهلهم حتى انطلقوا ثم أذن﴾. وفي نقل ابن عطية ﴿وجعل السقاية﴾ ـ بزيادة واو ـ دون الزيادة التي زادها الزمخشري بعد قوله: ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ وثم تنتفي المهلة بين جعل السقاية والتأذين، ذكره أبو حيان.

والخلاصة: افتقد فتيان يوسف عليه السلام السقاية[2]؛ لأنها الصواع الذي يكيلون به للمتارين، فلم يجدوها، فأذن مؤذنهم بذلك؛ أي: كرر النداء به كدأب الذين ينشدون المفقود في كل زمان ومكان قائلاً: أيتها العير إنكم لسارقون؛ أي: يا أصحاب العير قد ثبت عندنا أنكم سارقون، فلا ترحلوا حتى نفتشها في رحالكم.

فإن قلت:[3] هل كان هذا النداء بأمر يوسف عليه السلام أم لا؟، فإن كان بأمره، فكيف يليق بيوسف مع علو منصبه، وشريف رتبته من النبوة والرسالة أن يتهم أقواماً، وينسبهم إلى السرقة كذباً مع علمه ببراءتهم عن تلك التهمة التي نسبوا إليها؟

قلت: ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة:

أحدها: أن يوسف لما أظهر لأخيه أنه أخوه قال: لست أفارقك، قال: لا سبيل إلى ذلك إلا بتدبير حيلة أنسبك فيها إلى ما لا يليق، قال: رضيت بذلك،

---

(١) الفتوحات.

(٢) المراغي.

(٣) الخازن.

فعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام، بل قد رضي به، فلا يكون ذنباً.

الثاني: أن يكون المعنى: إنكم لسارقون ليوسف من أبيه إلا أنهم ما أظهروا هذا الكلام، فهو من المعاريض، وإنَّ في المعاريض مندوحةً عن الكذب.

الثالث: يحتمل أن يكون المنادي ربما قال ذلك على سبيل الاستفهام، وعلى هذا التقدير لا يكون كذباً.

والرابع: ليس في القرآن ما يدل على أنهم قالوا ذلك بأمر يوسف، وهو الأقرب إلى ظاهر الحال؛ لأنهم لمَّا طلبوا السقاية، فلم يجدوها، ولم يكن هناك أحد غيرهم.. غلب على ظنهم أنهم هم الذين أخذوها، فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم. ا هـ. «خازن».

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال أخوة يوسف للمؤذن ومن معه ﴿و﴾ قد وقفوا و﴿أقبلوا عليهم﴾؛ أي: والحال أنهم قد التفتوا إلى جماعة الملك المؤذن وأصحابه ﴿مَّاذَا﴾ تعدمون، وأي شيء ﴿تَفْقِدُونَ﴾؛ أي: تطلبون، وما الذي ضاع منكم. والفقد: غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه، تقول: فقدت الشيء إذا عدمته بأن ضل عنك لا بفعلك. وقرأ السلمي شذوذاً[(١)]: ﴿تفقدون﴾ - بضم التاء - من أفقدته إذا وجدته فقيداً، نحو أحمدته إذا وجدته محموداً، وضَعَّف هذه القراءة أبو حاتم. قال أهل الأخبار[(٢)]: لما وصل الرسل إلى إخوة يوسف قالوا لهم: ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم، ونوف إليكم الكيل ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم؟ قالوا: بلى، وما ذاك؟ قالوا: فقدنا سقاية الملك ولا نتهم عليها غيركم، فذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم﴾؛ أي: عطفوا على المؤذن وأصحابه، وقالوا: ما الذي تفقدون، والفقدان: ضد الوجود.

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال المؤذن وأصحابه في جوابهم ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾؛

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

أي: نطلب إناء الملك الذي كان يشرب فيه ويكيل به، وإنما اتخذ هذا الإناء مكيالاً لعزة ما يكال به في ذلك الوقت؛ أي: نفقد الصواع الذي عليه شارة الملك. وقرأ الجمهور[1]: ﴿صُوَاعَ﴾ بزنة غراب بضم الصاد بعدها واو مفتوحة بعدها ألف بعدها عين مهملة. وقرأ أبو حيوة والحسن وابن جبير فيما نقل ابن عطية كذلك إلا أنه كسر الصاد.

وقرأ أبو هريرة ومجاهد: ﴿صاع﴾ - بغير واو - وعلى وزن ناب، فالألف فيها بدل من الواو المفتوحة. وقرأ أبو رجاء: ﴿صوع﴾ على وزن قوس. وقرأ عبد الله بن عون بن أبي أرطبان: ﴿صوع﴾ - بضم الصاد -. وقرأ أبيّ: ﴿صياع﴾. وكلها لغات في الصاع. وقرأ الحسن وابن جبير فيما نقل عنهما صاحب «اللوامح» ﴿صواغ﴾ - بالغين المعجمة - على وزن غراب. وقرأ يحيى بن يعمر كذلك إلا أنه يحذف الألف، ويسكن الواو. وقرأ زيد بن علي: ﴿صوغ﴾ مصدر صاغ، وصواغ وصوغ مشتقان من الصوغ مصدر صاغ يصوغ أقيما مقام المفعول بمعنى مصوغ الملك. فهذه ثمان قراءات في هذا الحرف كلها لغات، والمتواتر منها واحدة وهي قراءة الجمهور، وهذا اللفظ يذكر ويؤنث، ويجمع الصواع على صيعان كغراب وغربان، والصاع على أصوع.

قال المؤذن: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالإناء من عند نفسه مظهراً له قبل التفتيش ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾؛ أي: حمولة جمل من الطعام أجرة له وجعلاً. ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الحمل ﴿زَعِيمٌ﴾؛ أي: كفيل ضامن أؤديه إليه؛ لأن الإناء كان من الذهب، وقد اتهمني الملك. وفي «البحر»: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾؛ أي: ولمن دل على سارقه وفضحه ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾؛ أي: وسق بعير من طعام جعلاً لمن حصله. وفي قوله: ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ دليل على أن عيرهم كانت الإبل لا الحمير[2].
وهذه الآية[3]: تدل على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم، وقد حكى رسول الله ﷺ بها في قوله: «.. الحميل غارم» والحميل: الكفيل.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) الخازن.

فإن قلت: كيف تصح هذه الكفالة مع أن السارق لا يستحق شيئاً؟

قلت: لَمْ يكونوا سراقاً في الحقيقة، فيحمل ذلك على مثل رد الضائع، فيكون جعالة، ولعل مثل هذه الكفالة كانت جائزة عندهم في ذلك الزمان، فيحمل عليه.

﴿قَالُواْ﴾؛ أي: إخوة يوسف متعجبين من مقالة الرسل ﴿تَأللَّهِ﴾ قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم من السرقة، والتاء بدل من الواو مختصة باسم الله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ فيه معنى القسم، فهو تأكيد للقسم قبله؛ أي: والله لقد علمتم وعرفتم يا أصحاب يوسف ﴿مَّا جِئْنَا﴾ نحن في هذه البلدة ﴿لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لنفعل الفساد في أرض مصر بمضرة الناس ولنسرق فيها، فإنه من أعظم الفساد ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾؛ أي: ما كنا نوصف بالسرقة قط. والمعنى:[1] ما أعجب حالكم؛ أنتم تعلمون علماً جليّاً من ديانتنا وفرط أمانتنا، أننا بريئون مما تنسبون إلينا فكيف تقولون لنا إنكم لسارقون؟ لأنه[2] قد ظهر من أحوالهم وامتناعهم من التصرف في أموال الناس بالكلية لا بالأكل ولا بإرسال الدواب في مزارع الناس، ولأنهم لما وجدوا بضاعتهم في رحالهم حملوها من بلادهم إلى مصر، ولم يستحلوا أخذها. وإنما حكموا بعلمهم ذلك[3]؛ لأن العلم بأحوالهم الشاهدة يستلزم العمل بأحوالهم الغائبة. قال المفسرون[4]: إن إخوة يوسف حلفوا على أمرين:

أحدهما: أنهم ما جاؤوا لأجل الفساد في الأرض.

والثاني: أنهم ما جاؤوا سارقين، وإنما قالوا هذه المقالة؛ لأنه كان قد ظهر من أحوالهم ما يدل على صدقهم، وهم أنهم كانوا مواظبين على أنواع الخير والطاعة والبر حتى بلغ من أمرهم أنهم شدوا أفواه دوابهم؛ لئلا تؤذي زرع الناس، ومن كانت هذه صفته.. فالفساد في حقه ممتنع. وأما الثاني وهو أنهم ما كانوا سارقين، فلأنهم قد كانوا ردوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم، ولم

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) روح البيان.

(٤) الخازن.

يستحلوا أخذها، ومن كانت هذه صفته.. فليس بسارق، فلأجل ذلك قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فلما تبينت براءتهم من هذه التهمة ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال أصحاب يوسف؛ وهو المنادي وأصحابه: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾؛ أي: أي فما جزاء السارق. قال النسفي: الضمير للصواع، ولكنه على حذف مضاف؛ أي: فما جزاء سرقة الصواع عندكم وفي شريعتكم ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ في قولكم: ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾؛ أي: إن كنتم كاذبين في جحودكم ونفي كون الصواع فيكم.

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال إخوة يوسف: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾: مبتدأ ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ﴾: خبره، ولكنه على تقدير مضاف في الطرفين؛ أي: جزاء سرقة الصواع هو استرقاق من وجد الصواع في رحله سنة، ثم يخلى سبيله، فهذه شريعتهم. يعني[1] جزاء السارق الذي وجد في رحله أن يسلم برقبته إلى المسروق منه، فيسترقه سنة، وكان ذلك سنة آل يعقوب في حكم السارق، وكان في حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق، وكان هذا في شرعهم في ذلك الزمان يجري مجرى القطع في شرعنا، فأراد يوسف أن يأخذ بحكم أبيه في السارق، فلذلك ردّ الحكم إليهم. والمعنى: إن جزاء السارق أن يستعبد سنة للمسروق منه جزاء له على جرمه وسرقته، وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾؛ أي: فاسترقاق ذلك السارق سنة هو جزاء سرقة الصواع لا غير، تقرير للحكم المذكور، وتأكيد له بإعادته كما تقول: حق الضيف أن يكرم فهو حقه، والقصد من الأول: إفادة الحكم، ومن الثاني: إفادة أن ذلك هو الحق الواجب في مثل هذا؛ أي: فهذه[2] الجملة بمعنى التي قبلها. ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الجزاء المذكور بقوله: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ﴾ والمراد به: استرقاق السارق ﴿نَجْزِي﴾ في شريعتنا وحكمنا ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للناس بالسرقة لأمتعتهم وأموالهم في شريعتنا، فنحن أشد الناس عقاباً للسراق؛ أي: نحكم ونفتي باسترقاق كل سارق؛ لأنه شرعنا المقرر

---

(١) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

فيما بيننا؛ أي: مثل[1] هذا الجزاء الأوفى نجزي الظالمين بالسرقة، قالوا ذلك ثقة بكمال براءتهم منها، وهم عما فعل بهم غافلون، وهذا تأكيد منهم بعد تأكيد لثقتهم ببراءة أنفسهم. وهذه الجملة[2] من بقية كلام إخوة يوسف، وقيل: من كلام أصحاب يوسف جواباً لقول إخوته ذلك، فردوا لتفتيش أوعيتهم إلى يوسف عليه السلام من المكان[3] الذي لحقهم فيه جماعة الملك، وتقدم أنهم وصلوا إلى خارج مصر، وقيل: إلى بلبيس. ا هـ. «شيخنا».

﴿فَبَدَأَ﴾ يوسف بعد ما رجعوا إليه ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾؛ أي: بتفتيش أوعية الأخوة العشرة التي تشتمل عليها رحالهم ﴿قَبْلَ﴾ تفتيش ﴿وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ الشقيق بنيامين؛ لنفي التهمة وابتعاداً عن الشبهة بطريق الحيلة. روي أنه لما بلغت النوبة إلى وعائه.. قال: ما أظن هذا أخذ شيئاً، فقال إخوة يوسف: والله لا نتركك حتى تنظر في رحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا. وقرأ الحسن: ﴿من وعاء﴾ - بضم الواو - وجاء كذلك عن نافع. وقرأ ابن جبير: ﴿من إعاء﴾ - بإبدال الواو المكسورة همزة - كما قالوا إشاح وإسادة في وشاح ووسادة، وذلك مطرد في لغة هذيل يبدلون من الواو المكسورة الواقعة أولاً همزةً وهاتان القراءتان شاذتان.

وأنث الضمير الراجع إلى الصواع في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ نظراً لمعنى السقاية، أو لكون الصواع يذكر ويؤنث؛ أي: ثم بعد أن فرغ يوسف من تفتيش أوعيتهم فتش وعاء أخيه، فاستخرجها ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾؛ أي: أخرج الصواع والسقاية من رحل أخيه بنيامين، فقال له فرَّجك الله كما فرجتني.

فلما وجد الصاع مدسوساً في رحل بنيامين[4]، واستخرج منه نكسوا رؤوسهم وانقطعت ألسنتهم، فأَخَذوا بنيامين مع ما معه من الصواع، وردوه إلى يوسف، وأخذوا يشتمونه بالعبرانية، وقالوا له: يا لص ما حملك على سرقة صاع الملك، ولا يزال ينالنا منك بلاء كما لقينا من ابن راحيل، فقال بنيامين: بل ما

---

(١) المراح.

(٢) الفتوحات.

(٣) روح البيان.

(٤) روح البيان.

لقي إبنا راحيل البلاء إلا منكم، فأما يوسف فقد علمتم ما فعلتم به، وأما أنا فسرقتموني؛ أي: نسبتموني إلى السرقة قالوا: فمن جعل الإناء في متاعك؟ أليس قد خرج من رحلك؟ قال: إن كنتم سرقتم بضاعتكم الأولى وجعلتموها في رحالكم، فكذلك أنا سرقت الصاع وجعلته في رحلي، فقال روبيل: لقد صدق، وأراد بنيامين أن يخبرهم بخبر يوسف، فذكر وصيته له فسكت.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الكيد العجيب والتدبير الخفي، وهو عبارة عن إرشاد الإخوة إلى الإفتاء المذكور بإجرائه على ألسنتهم، وبحملهم عليه بواسطة المستفتين من حيث لم يحتسبوا ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾؛ أي:[1] صنعنا له ودبرنا لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التي رتبها من دس الصواع وما يتلوه. والكيد في الأصل عبارة عن المكر والخديعة، وهو أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه.

أي: مثل[2] ذلك الحكم الذي ذكره إخوة يوسف من استرقاق السارق حكمنا به ليوسف، والمعنى: كما ألهمنا إخوة يوسف أن أحكموا أن جزاء السارق أن يسترق.. كذلك ألهمنا يوسف ما فعله من دس الصواع في رحل أخيه ليضمه إليه على ما حكم به إخوته. والكيد[3] مبدؤه السعي في الحيلة والخديعة، ونهايته إلقاء المخدوع من حيث لا يشعر في أمر مكروه لا سبيل إلى دفعه، وهو محمول في حقه سبحانه على النهاية لا على البداية. وفي الآية دليل على جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف شرعاً ثابتاً.

وقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ يوسف ﴿لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ بنيامين ﴿فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾؛ أي: في دين ملك مصر وحكمه قضائه وشريعته التي كان عليها استئناف تعليل لما صنعه الله تعالى من الكيد ليوسف، أو تفسير له كأنه قيل: لماذا فعل يوسف ذلك؟ فقيل: لأنه لم يكن ليأخذ أخاه بما فعل في دين ملك مصر في أمر

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

السارق؛ أي: في حكمه وقضائه إلا بما فعل.

بل كل دين الملك وقضاؤه أن يضرب السارق ويغرم ضعف ما سرقه دون الاستعباد سنة كما هو دين يعقوب وشريعته.

وحاصله: أن يوسف ما كان يتمكن من إجراء حكم يعقوب على أخيه مع كونه مخالفاً لدين الملك وشريعته لولا ما كاد الله له ودبره وأرادوه حتى وجد السبيل إليه؛ وهو ما أجراه على ألسن إخوته من قولهم: إن جزاء السارق الاسترقاق، فكان قولهم هذا هو بمشيئة الله تعالى وتدبيره، وهو معنى قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؛ أي: لم يكن يوسف يأخذ أخاه في حكم الملك بسبب من الأسباب إلا بسبب مشيئة الله تعالى وهو حكم أبيه، فالاستثناء من أعم الأحوال؛ أي: لم يكن يتمكن من أخذه وضمه إليه في دين الملك بالسرقة التي نسبها إليه في حال من الأحوال إلا حال مشيئته تعالى التي هي عبارة عن إرادته لذلك الكيد، وإلا حال مشيئته للأخذ بذلك الوجه. قال الكواشي: لولا شريعة أبيه لما تمكن من أخذ أخيه. انتهى. ولما كانت هذه الوسيلة إلى تلك الغاية الشريفة منكرة بحسب الظاهر، لأنها تهمة باطلة، وكان من شأن يوسف أن يتباعد عنها ويتحاماها إلا بوحي من الله تعالى.. بين أنه فعل ذلك بإذن الله ومشيئته، فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؛ أي: إنه فعل ذلك بإذن الله ووحيه، لا أنه هو الذي اخترع هذه المكيدة؛ لأن ذلك كله كان إلهاماً من الله ليوسف وإخوته حتى جرى الأمر على وفق المراد.

﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ﴾؛ أي: نرفع إلى درجات كثيرة ورتب عالية من العلم ﴿مَّن نَّشَآءُۗ﴾ رفعه في العلم من عبادنا حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسف على إخوته في العلم، والمعنى: نرفع درجات من نشاء بضروب العلوم والمعارف والعطايا والكرامات كما رفعنا درجة يوسف بذلك. وانتصاب[1] ﴿دَرَجَٰتٖ﴾: إما على المصدرية؛ أي: نرفع رفع درجات، وإما على الظرفية؛

(١) المراغي.

أي: في درجات، أو بنزع الخافض؛ أي: إلى درجات.

والمعنى[1]: أي؛ نرفع من نشاء درجات كثيرة في العلم والإيمان، نريه وجوه الصواب في بلوغ المراد كما رفعنا درجات يوسف على إخوته في كل شيء. وفي هذا[2] إيماء إلى أن العلم الشريف أشرف المقامات وأعلى الدرجات؛ لأن الله تعالى مدح يوسف ورفع درجته على إخوته بالعلم، وبما ألهمه على وجه الهداية والصواب في الأمور كلها. وقرأ الكوفيون حمزة والكسائي وعاصم وابن محيصن[3]: ﴿نَرْفَعُ﴾ ـ بنون ـ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ ـ منوناً ـ ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾ ـ بالنون ـ. وباقي السبعة كذلك إلا أنهم أضافوا ﴿دَرَجَٰتٍ﴾. وقرأ يعقوب بالياء في: ﴿يرفع﴾ و﴿يشاء﴾؛ أي: يرفع الله تعالى درجات من يشاء رفع درجاته. وقرأ عيسى البصرة شاذاً: ﴿نَرْفَعُ﴾ ـ بالنون ـ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ ـ منوناً ـ ﴿من يشاء﴾ ـ بالياء ـ. قال صاحب «اللوامح»: وهذه قراءة مرغوب عنها تلاوة وجملة، وإن لم يمكن إنكارها. وقال ابن عطية، وقرأ الجمهور: ﴿نَرْفَعُ﴾ على ضمير المعظم، وكذلك ﴿نَّشَآءُ﴾. وقرأ الحسن وعيسى ويعقوب بالياء؛ أي: الله تعالى. انتهى.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ﴾؛ أي: وفوق كل صاحب علم من الخلائق ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: من هو أوسع وأكثر منه إحاطة بالعلم، وأرفع درجة منه فيه إلى أن يصل الأمر إلى من أحاط بكل شيء علماً، وهو فوق كل ذي علم. يعني: ليس من عالم إلا وفوقه أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى، وعليم صيغة مبالغة، أو المعنى: وفوق كل ذي علم من العلماء كلهم عليم هم دونه في العلم، وهو الله عز وجل، ذكره النسفي.

وخلاصة ذلك: أن إخوة يوسف كانوا علماء فضلاء إلا أن يوسف كان أعلم منهم. وقرأ عبد الله شاذاً[4]: ﴿وفوق كل ذي عالم﴾ فخرَّجت على زيادة ذي، أو على أن قوله: ﴿عالم﴾ مصدر بمعنى علم كالباطل، أو على أن التقدير:

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

(٤) الخازن.

وفوق كل ذي شخص عالم. قال ابن الأنباري[1]: يجب أن يتهم العالم نفسه، ويستشعر التواضع لمواهب ربه سبحانه وتعالى، ولا يطمع نفسه في الغلبة، لأنه لا يخلو عالم من عالم فوقه. انتهى.

ولما خرج الصواع من رحل بنيامين.. افتضح الإخوة ونكسوا رؤوسهم و﴿قَالُوٓاْ﴾ تبرئة لساحتهم ﴿إِن يَسۡرِقۡ﴾ بنيامين.. فلا عجب لسرقته ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ﴾؛ أي: أخٌ لبنيامين يريدون به يوسف ﴿مِن قَبۡلُ﴾؛ أي: من قبل سرقته الآن، فالسرقة جاءت لهما وراثة من أمهما؛ إذ هما لا ينفردان منا إلا بها. وفي قولهم هذا إيماءٌ إلى أن الحسد لا يزال كامناً في قلوبهم لاختلاف الأمهات، ولمزيد محبة الأب لهما، وأتوا[2] بـ﴿إن﴾ المفيدة للشك؛ لأن ليس عندهم تحقق سرقته بمجرد إخراج الصاع من رحله، وبالمضارع لحكاية الحال الماضية.

وأصح ما قيل في سرقة يوسف[3]: ما رواه ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً قال: «سرق يوسف عليه السلام صنماً لجده أبي أمه من ذهب وفضة، فكسره وألقاه في الطريق، فعيره بذلك إخوته». وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كان أول ما دخل على يوسف عليه السلام من البلاء فيما بلغني أن عمته ـ وكانت أكبر ولد إسحاق عليه السلام ـ كانت إليها منطقة إسحاق؛ إذ كانوا يتوارثونها بالكبر، وكان يعقوب حين ولد له يوسف عليه السلام قد حضنته عمته، فكان معها، فلم يحب أحد شيئاً من الأشياء كحبها إياه بحيث لا تصبر عنه، فلما شب أراد يعقوب أن ينزعه منها، فأتاها فقال: يا أخية سلِّمي إلي يوسف، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة، قالت: فوالله ما أنا بتاركته، فدعه عندي أياماً أنظر إليه لعل ذلك يسليني عنه، فلما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحاق عليه السلام، فحزمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه، ثم قالت: فقدت منطقة إسحاق، فانظروا من أخذها ومن

---

(١) الصاوي.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

أصابها، فالتمست ثم قالت: اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف عليه السلام مشدودةً عليه تحت ثيابه، فقالت: إنه سرقها مني، فقالت: والله إنه لسلم لي أصنع فيه ما شئت، فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر، فقال لها: أنت وذلك إن كان فعل فهو سلم لك ما أستطيع غير ذلك، فأمسكته فما قدر عليه حتى ماتت، وكان حكمهم أن من سرق يُسترق، فتوسلت بهذه الحيلة إلى إمساكه عندها.

وهذا هو الذي عناه إخوته بقولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ وهذه الروايات لا يوثق بها كما لا يدل شيء منها على سرقة حقيقية.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾؛ أي: فأضمر يوسف مقالتهم هذه، أعني قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ﴾ في نفسه، ولم يجبهم عنها، لا أنه أسرها في بعض أصحابه كما في قوله: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾؛ أي: أكن الحزازة الحاصلة مما قالوا في نفسه وقلبه. والحزازة: وجع في القلب من غيظ ونحوه كما في «القاموس».

﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾؛ أي: لم يظهرها لهم ولم يؤاخذهم بها لا قولاً ولا فعلاً صفحاً عنهم وحلماً، كأنه قيل: فماذا قال في نفسه عند تضاعيف ذلك الإسرار؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾ يوسف في نفسه ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾؛ أي: أقبح منزلة في السرقة حيث سرقتم أخاكم من أبيكم، ثم طفقتم تفترون على البريء، وهذه الجملة تفسير لما أسرَّه يوسف؛ أي:[1] قال في نفسه: أنتم شر في مكانتكم ومنزلتكم ممن تعرضون به أو تفترون عليه بالسرقة؛ إذ أنكم سرقتم من أبيكم أحب أولاده إليه وعرضتموه للهلاك والرق، وقلتم لأبيكم: قد أكله الذئب.. إلخ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما[2]: عوقب يوسف بثلاث: حين همَّ بزليخا فسجن، وحين قال: اذكرني عند ربك فلبث في السجن بضع سنين، وحين قال:

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

إنكم لسارقون فردوا عليه، فقالوا: فقد سرق أخ له من قبل.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بما تصفون﴾ ـه به من السرقة؛ أي: أعلم بحقيقة ما تذكرون من أمر يوسف هل يوجب عود مذمة إليه أم لا؟ لأنه سبحانه وتعالى هو العليم بحقائق الأمور، فيعلم كيف كانت سرقة الذي أحلتم سرقته عليه؛ أي: والله أعلم أسرق أخ له أم لا، فـ﴿أعلم﴾ على ما قررناه على معناه التفضيلي، فإن قيل: لم يكن فيهم علم، والتفضيل يقتضي الشركة.. قلنا: يكفي الشركة بحسب زعمهم، فإنهم كانوا يدعون العلم لأنفسهم، ألا ترى إلى قولهم: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ على سبيل الجزم كما في «الحواشي السعدية».

وقيل: إن المفاضلة ليست على بابها، والمعنى عليه: والله تعالى أعلم؛ أي: عالم علماً بالغاً إلى أقصى المراتب بأن الأمر ليس كما تصفون من صدور السرقة منا، بل إنما هو افتراء علينا، فالصيغة لمجرد المبالغة لا لتفضيل علمه على علمهم، كيف لا وليس لهم بذلك من علم.

روي: أنهم كلموا العزيز في إطلاق بنيامين، فقال روبيل: أيها الملك لتردن إلينا أخانا، أو لأصيحن صيحة تضع منها الحوامل في مصر، وقامت شعور جسده، فخرجت من ثيابه، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لا يطاقون، خلا أنه إذا مس من غضب واحد منهم.. سكن غضبه، فقال يوسف لابنه: قم إلى جنبه فمسه. ويروى: خذ بيده فمسه، فسكن غضبه، فقال روبيل: إن هنا لبذراً من بذر يعقوب، فقال يوسف: مَنْ يعقوب؟ ولما رأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه خضعوا وأرادوا أن يستعطفوه ليطلق لهم أخاه بنيامين، فيرجعوا به إلى أبيهم؛ لأنه قد أخذ عليهم الميثاق بأن يردوه إليه و﴿قَالُوا۟﴾ له مستعطفين ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: يا أيها الملك ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا﴾؛ أي: إن لبنيامين ﴿أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾؛ أي: طاعناً في سن الكبر لا يكاد يستطيع فراقه، وهو علالته التي يتعلل بها عن شقيقه الهالك، أو هو كبير القدر جدير بالرعاية كما علمت مما سلف من قصصه ومن تعلقه به ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾؛ أي: بدله على وجه الاسترهان أو الاسترقاق،

فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة عنده. ثم عللوا رجاءهم في إجابته بقولهم: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ﴾ أيها الملك ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا في ميرتنا وضيافتنا وتجهيزنا، فأتم إحسانك إلينا بهذه النعمة، فما الإنعام إلا بالإتمام، أو المعنى: إن من عادتك الإحسان مطلقاً، فاجر على عادتك ولا تغيرها، فنحن أحق الناس بذلك. فأجابهم يوسف عن مقالتهم هذه بقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول به؛ أي: نعوذ بالله معاذاً من ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾؛ أي: إلا من وجدنا صواعنا عنده مدسوساً في رحله، وهو بنيامين لأنا قد أخذناه بفتواكم: ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ فلا يسوغ لنا أن نخل بموجبها.

ولم يقل[1]: إلا من سرق متاعنا اتقاءً للكذب؛ لأنه يعلم أنه ليس بسارق ﴿إِنَّآ إِذًا﴾؛ أي: إذا أخذنا غير من وجد متاعنا عنده، وأخذنا بريئاً بمذنب ولو برضاه ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ من وجهين: مخالفة شرعكم ونص فتواكم، ومخالفة شريعة الملك. قال في «بحر العلوم»: ﴿إِذًا﴾ جواب لهم وجزاء؛ لأن المعنى: إن أخذنا بدله ظلمنا، هذا ظاهره، وأما باطنه فهو أن الله أمرني بالوحي أن آخذ بنيامين لمصالح علمها الله في ذلك، فلو أخذت غيره لكنت ظالماً وعاملاً بخلاف الوحي، فصرت ظالماً لنفسي.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟﴾؛ أي: فلما يئس إخوة يوسف غاية اليأس بدلالة صيغة الاستفعال، واستحكم اليأس في أنفسهم ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من قبول العزيز لشفاعتهم واستعطافهم بعد أن أقام الحجة عليهم بشرعهم وفتواهم، وأنه إن فعل غيره يكون ظالماً بمقتضى شريعتهم وشريعة ملك مصر ﴿خَلَصُوا۟﴾؛ أي: اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم غيرهم حالة كونهم ﴿نَجِيًّا﴾؛ أي: متناجين متحدثين في تدبير أمرهم، ومتشاورين على أي صفة يذهبون وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم إذا رجعوا. وقرأ البزّي عن ابن كثير[2]: ﴿استايسوا﴾ بوزن استفعلوا من أيس مقلوباً من يئس، ومعناهما واحد. ودليل القلب كون ياء أيس

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

لم تنقلب ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

وخلاصة ذلك[1]: أن أولئك الإخوة العشرة بعد أن انتهى كبيرهم من استعطاف العزيز وعدم جدوى ما فعل.. غادر كل منهم رحله، وانضم بعضهم إلى بعض، وأدنى رأسه من رأسه، وأرهفوا آذانهم للنجوى.

والمعنى: فلما أيسوا من يوسف أن يجيبهم لما سألوه، وقيل: أيسوا من أخيهم أن يرد عليهم.. خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون ليس فيهم غيرهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السن وهو روبيل، أو في العقل وهو يهوذا، أو رئيسهم وهو شمعون، وكانت له الرياسة على إخوته كأنهم أجمعوا عند التناجي على الانقلاب والرجوع إلي أبيهم جملة، ولم يرض ذلك، فقال منكراً عليهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾ والاستفهام فيه للتقرير؛ أي: قال كبيرهم قد علمتم أيها القوم يقيناً ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ﴾ يعقوب ﴿قَدْ أَخَذَ﴾ وجعل ﴿عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: عهداً مؤكداً باليمين من الله لتردنه إليه إلا أن يحاط بكم، وقد رأيتم كيف تعذر ذلك عليكم، وكونه من الله لإذنه فيه.

والجار والمجرور في قوله: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾؛ أي: ومن قبل هذا متعلق بـ﴿فَرَّطتُمْ﴾ الآتي، و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ زائدة؛ أي: ومن[2] قبل أخذكم العهد في شأن بنيامين قصرتم في شأن يوسف، ولم تفوا بوعدكم على النصح والحفظ له، أو مصدرية عطفاً على مفعول ﴿تَعْلَمُوٓاْ﴾؛ أي: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً من الله وتفريطكم السابق في شأن يوسف، أو ترككم ميثاقه في حق يوسف، أو موصولة عطفاً على مفعول ﴿تَعْلَمُوٓاْ﴾ أيضاً؛ أي: ألم تعلموا أخذ أبيكم موثقاً من الله في شأن بنيامين، والذي قدمتموه في حق يوسف من الخيانة العظيمة من قبل تقصيركم في بنيامين، وكيف أن أباكم قد قاسى من أجله من الحزن ما قاسى.

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: فلن أفارق أرض مصر ذاهباً منها ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ بتركها وبترك بنيامين فيها والرجوع إليه، ضمن[1] ﴿أَبْرَحَ﴾ معنى المفارقة، فعدي إلى المعفول، و﴿أَبْرَحَ﴾ هنا تامة لا ناقصة؛ لأن الأرض لا تحمل على المتكلم، وكأن أيمانهم معقودة على عدم الرجوع بغير إذن يعقوب ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ بالخروج منها على وجهٍ لا يؤدي إلى نقض الميثاق، أو بخلاص أخي من يد العزيز بسبب من الأسباب كأن يتركه العزيز لي بإلهام منه تعالى، أو بسبب آخر ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ وأفضلهم؛ لأنه لا يحكم إلا بما هو الحق والعدل، وهو المسخر للأسباب والمقدر للأقدار، والمراد من هذا الكلام الالتجاء إلى الله تعالى في إقامة عذره عند والده يعقوب عليه السلام، ثم أمرهم أن يقولوا لأبيهم ما يزيلون به التهمة عن أنفسهم، فقال: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ﴾ يا إخوتي ﴿إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ يعقوب دوني ﴿فَقُولُواْ﴾ له متلطفين بخطابكم: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ﴾ بنيامين ﴿سَرَقَ﴾ صواع الملك من ذهب فيما يظهر لنا، فاسترقه وزيره العزيز القائم بالأمر في مصر عملاً بشريعتنا؛ إذ نحن أنبأناه بها بعد أن استنبأنا إياها. وقرأ الجمهور: ﴿سَرَقَ﴾ - ثلاثياً مبنياً للفاعل - إخباراً بظاهر الحال. وقرأ ابن عباس وأبو رزين والكسائي في رواية: ﴿سرق﴾ - مبنياً للمفعول - لم يقطعوا عليه بالسرقة، بل ذكروا أنه نسب إلى السرقة. وقرأ الضحاك: ﴿سارق﴾ اسم فاعل، وما عدا قراءة الجمهور شاذ وليس بمتواتر.

﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ عليه بالسرقة بسماع أو إشاعة أو تهمة، بل ما شهدنا عليه بالسرقة ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ وشاهدنا؛ إذ رأينا الصواع قد استخرج من متاعه ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ فنعلم أنه سيسرق حين أعطيناك المواثيق، ولو كنا نعلم ذلك لما آتيناك وأعطيناك العهد الموثق علينا، أو المعنى: وما كنا للغيب عالمين، فما ندري أحقيقة الأمر كما شاهدنا، أم هي بخلافه؛ لأن حقيقة الأمر غير معلومة لنا؛ فإن الغيب لا يعلمه إلا الله، فلعل الصواع دس في رحله، ونحن لا نعلم ذلك.

---

(١) روح البيان.

﴿و﴾ قولوا لأبيكم: أرسل إلى أهل مصر و﴿اسأل﴾ أهل ﴿ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا﴾ نمتار ﴿فِيهَا﴾ عن كنه هذه القصة؛ ليتبين لك صدقنا، فقد اشتهر فيهم أمر هذه السرقة حتى لو سئلوا لشهدوا، واسأل ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾؛ أي: واسأل أصحاب العير والإبل الذين كانوا يمتارون معنا وجئنا معهم، وهم قوم من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام، ثم أكدوا صدق مقالهم بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به سواء أسألت غيرنا، أم لم تسأل؛ إذ أن من عادتنا الصدق، فلا نخبرك إلا به، ولا نظنك في مرية من هذا، فرجع الأخوة التسعة إلى أبيهم، فقالوا له ما قال كبيرهم، فلم يصدقهم فيما قالوا، بل ﴿قَالَ﴾ لهم أبوهم يعقوب عليه السلام ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ وزينت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾؛ أي: كيداً آخراً، وهو إخراج بنيامين عني إلى مصر طلباً للمنفعة، فعاد من ذلك ضرر فنبذتموه، ومما يقوي ذلك عندي أنكم لقنتم ذلك الملك حكم شريعتنا، وأفتيتموه بأن جزاء السارق أن يؤخذ ويسترق، وإلا فما يعرف الملك أن السارق يؤخذ بسرقته؛ لأن ذلك إنما هو من دين يعقوب لا من دين الملك، ولولا فتواكم وتعليمكم لما حكم الملك ذلك ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ أي: فحالي على ما نالني من فقده صبر جميل لا جزع فيه ولا شكاية فيه لأحد، بل أشكوا إلى الله وحده وأعلق رجائي به.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: حقق الله سبحانه وتعالى أن يرجع إليَّ يوسف وبنيامين والأخ الثالث الباقي بمصر، وقد كان لديه إلهام بأن يوسف لم يمت وإن غاب عنه خبره، وإنما قال يعقوب هذه المقالة؛ لأنه لما طال حزنه واشتد بلائه، ومحنته علم أن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً عن قريب، فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله عز وجل؛ لأنه إذا اشتد البلاء وعظم كان أسرع إلى الفرج. ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بفقدي لهم وحزني ووجدي عليهم، وله فينا حكمة بالغة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله فيبتلي ويرفع البلاء على مقتضى سننه وحكمته في تدبير خلقه، وقد جرت سنته أنَّ الشدة إذا تناهت جعل وراءها فرجاً، والمصيبة إذا عظمت جعل بعدها المخلص منها كما قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾؛ أي: أعرض عنهم كراهة لما جاءوا به؛ أي: وأعرض يعقوب عن بنيه حين بلغوه خبر بنيامين، فحينئذ تناهى حزنه واشتد بلاؤه، وبلغ جهده وهيج حزنه على يوسف، فعند ذلك أعرض عنهم.

وقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؛ أي: يا حزني ويا حسرتي على يوسف أقبلي إلي فهذا وقتك، والحال مقتضية لك، فقد كنت أنتظر أن يأتوني من مصر ببشرى لقاء يوسف، فخاب أملي وحلّ محله ذهاب ابني المسلي عنه، ولم يشرك معه بنيامين بالأسف عليه؛ لأن مكان حب يوسف والرجاء فيه قد ملأ سويداء القلب وزواياه، ومحل غيره دون ذلك.

قال الزجاج: الأصل ياأسفي فأبدل من الياء ألفاً لخفة الفتحة، والأسف: شدة الجزع، وقيل: شدة الحزن.

قال يعقوب هذه المقالة لما بلغ منه غاية مبالغة بسبب فراقه ليوسف، وانضمام فراقه لأخيه بنيامين، وبلوغ ما بلغه من كونه أسيراً عند ملك مصر، فتضاعفت أحزانه وهاج عليه الوجد القديم بما أثاره من الخبر الأخير.

وقد روي عن سعيد بن جبير(١): أن يعقوب لم يكن عنده ما ثبت في شريعتنا من الاسترجاع والصبر على المصائب، ولو كان عنده ذلك لما قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، ومعنى المناداة للأسف طلب حضوره، كأنه قال: تعالَ يا أسفي وأقبل إلي.

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾؛ أي: أصابت عينيه غشاوة بيضاء غطت على البصر مع بقاء العصب الذي يدرك المبصرات سليماً معافى، أو المعنى: انقلب سواد عينيه بياضاً من كثرة البكاء. قيل: إنه زال إدراكه بحاسَّة البصر بالمرة. وقيل: كان يدرك إدراكاً ضعيفاً من كثرة البكاء، فإن الدمع يكثر عند غلبة البكاء، فتصير العين كأنها بيضاء من بياض الماء الخارج منها.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ أي: مكظوم مملوء غيظاً وغضباً على أولاده يردد حزنه في جوفه، ولا يتكلم بسوء، أو مملوء حزناً ممسك له كاتم له لا يبثه، ومنه كظم الغيظ؛ أي: وهو إخفاؤه، فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه، من كظم السقاء إذا سده على ما فيه.

والحزن: عرض طبيعي للنفس ولا يذم شرعاً إلا إذا بلغ بصاحبه أن يقول أو أن يفعل ما لا يرضي الله تعالى، ومن ثم قال النبي ﷺ عند موت ولده إبراهيم، وقد جعلت عيناه تذرفان، فقال له عبد الرحمٰن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟! «يا ابن عوف إنها رحمة» ثم أتبعها بأخرى، فقال: «إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون». رواه الشيخان وغيرهما.

فائدة: وقد اعترض بعض الجهال على يعقوب عليه السلام في قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ فقال هذه شكاية وإظهار جزع، فلا يليق بعلو منصبه ذلك، وليس الأمر كما قال هذا الجاهل المعترض؛ لأن يعقوب عليه السلام شكا إلى الله لا منه، فقوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ معناه: يا رب ارحم أسفي على يوسف. وقد ذكر ابن الأنباري عن بعض اللغويين أنه قال: نداء يعقوب بالأسف في اللفظ من المجاز يعني به غير المظهر في اللفظ، وتخليصه: يا إلٰهي ارحم أسفي، أو أنت رائي أسفي، أو هذا أسفي، فنادى الأسف في اللفظ، والمنادى سواه في المعنى، ولا مأثم إذا لم ينطق اللسان بكلام مؤثم؛ لأنه لم يشك إلا إلى ربه عز وجل. فلما كان قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ شكوى إلى ربه كان غير ملوم في شكواه، وقيل: إن يعقوب لما عظمت مصيبته واشتد بلاؤه وقويت محنته.. قال: يا أسفا على يوسف؛ أي: أشكو إلى الله شدة أسفي على يوسف، ولم يشكه إلى أحد من الخلق بدليل قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وقال الحسن: كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم التقيا ثمانون سنة لم تجف عينا يعقوب، وما على وجه الأرض يومئذ أكرم على الله منه.

الإعراب

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ (الواو): استئنافية. ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿دَخَلُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: متعلق به، والجملة فعل شرط ﴿لما﴾. ﴿ءَاوَىٰٓ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿أَخَاهُ﴾: مفعول به، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ من فعل شرطها وجوابها مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾. والجملة مستأنفة، أو بدل من جملة ﴿ءَاوَىٰٓ﴾. ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّىٓ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَنَا۠﴾: ضمير فصل، أو مؤكد لياء المتكلم. ﴿أَخُوكَ﴾: خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَلَا﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع، ﴿لا﴾: ناهية جازمة: ﴿تَبْتَئِسْ﴾: فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وفاعله ضمير يعود على أخي يوسف، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَبْتَئِسْ﴾. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره، بما كانوا يعملونه ويصح كون ﴿ما﴾ مصدرية.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: (الفاء): حرف عطف وتعقيب، ومر في مبحث التفسير علة الإتيان بالفاء هنا. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿جَهَّزَهُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾: متعلق به، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾: فعل ومفعول به؛ لأن ﴿جَعَلَ﴾ هنا بمعنى وضع، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه

متعلق به، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿لما﴾ في قوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جَعَلَ﴾. ﴿أَيَّتُهَا﴾: منادى نكرة مقصودة حذف منه حرف النداء، والهاء حرف تنبيه زيد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة، وجملة النداء في محل النصب مقول لقول محذوف حال من ﴿مُؤَذِّنٌ﴾ تقديره: حالة كونه قائلاً أيتها العير إنكم لسارقون. ﴿ٱلْعِيرُ﴾ بدل ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، واللام حرف ابتداء، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لذلك القول المحذوف على كونها جواب النداء.

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَأَقْبَلُواْ﴾: (الواو): واو الحال. ﴿أقبلوا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالُواْ﴾. ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُواْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿مَّاذَا﴾: استفهام مركب في محل النصب مفعول مقدم وجوباً، أو ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿ذا﴾: اسم موصول بمعنى الذي في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿تَفْقِدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: تفقدونه.

﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالُواْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾: فعل ومفعول به ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على أصحاب يوسف، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَلِمَن﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿جَآءَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿جَآءَ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَأَنَا۠﴾: مبتدأ. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بما بعده ﴿زَعِيمٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿تَٱللَّهِ﴾: (التاء): حرف جر وقسم مختص بلفظ الجلالة. ﴿الله﴾: مقسم به مجرور بتاء القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل محذوف تقديره: أقسم تالله، وجملة القسم مع جوابه الآتي في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿لَقَدْ﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿عَلِمْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿جِئْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب سادة مسد مفعول علم؛ لأنه بمعنى عرف تقديره: لقد علمتم عدم مجيئنا لنفسد في الأرض. ﴿لِنُفْسِدَ﴾: (اللام): لام كي. ﴿نفسد﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على أخوة يوسف. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به. ﴿وَمَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها تقديره: وعدم كوننا سارقين.

﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿فَمَا﴾: (الفاء): عاطفة على محذوف تقديره: قد سمعنا قولكم ما جئنا لنفسد في الأرض، وما كنا سارقين، ﴿ما جزاؤه﴾: ﴿ما﴾: استفهامية في محل الرفع مبتدأ. ﴿جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾: خبر مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على ذلك المحذوف على كونها مقولاً لـ﴿قَالُوا۟﴾، ويحتمل كون الفاء زائدة. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ﴾: فعل ناقص واسمه، وخبره في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها تقديره: إن كنتم كاذبين فما جزاؤه.

﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ﴾ إلى آخر الآية

مقول محكي لـ﴿قَالُواْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾: مبتدأ أول. ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ ثان، وخبره جملة الشرط، أو جملة الجواب، أو هما على الخلاف. ﴿وُجِدَ﴾: فعل ماض مغيّر الصيغة في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، ونائب فاعله ضمير يعود على الصواع. ﴿فِي رَحۡلِهِۦ﴾: متعلق به. ﴿فَهُوَ﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية. ﴿هو جزاؤه﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: في محل الرفع خبر المبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره في محل النصب مقول لـ﴿قَالُواْ﴾.

وفي «السمين» قوله: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ﴾ فيه أوجه:

أحدها: أن يكون ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مبتدأ، والضمير للسارق، و﴿مَن﴾ شرطية أو موصولة مبتدأ ثان، والفاء: رابطة الجواب للشرط، أو مزيدة في خبر الموصول لشبهه بالشرط، و﴿مَن﴾ وما في حيزها على وجهيها خبر المبتدأ الأول.

والثاني: أن يكون ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مبتدأ، والهاء تعود للمسروق، و﴿مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾ خبره، و﴿مَن﴾ بمعنى الذي، والتقدير: وجزاء الصواع الذي وجد في رحله.

والثالث: أن يكون ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: والمسؤول عنه جزاؤه، ثم أفتوا بقولهم: ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾. اهـ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، والعامل فيه ما بعده. ﴿نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على إخوة يوسف، والتقدير: نجزي الظالمين جزاء مثل ذلك الجزاء المذكور، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قَالُواْ﴾.

﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾.

﴿فَبَدَأَ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قال إخوة يوسف، وما قال أصحاب يوسف، وأردت بيان ما فعل يوسف بهم.. فأقول لك: ﴿بدأ بأوعيتهم﴾: ﴿بدأ﴾: فعل ماض، وفاعله

ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بدأ﴾. ﴿قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿بدأ﴾ أيضاً. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿ٱسْتَخْرَجَهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق باستخراج، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿بدأ﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف معمول لما بعده. ﴿كِدْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لِيُوسُفَ﴾: متعلق به، والتقدير: كدنا ليوسف كيداً مثل ذلك الكيد المذكور، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿يوسف﴾. ﴿لِيَأْخُذَ﴾: (اللام): حرف جر وجحود. ﴿يأخذ أخاه﴾: فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود. ﴿فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام الجحود، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿كَانَ﴾ على مذهب البصريين تقديره: ما كان يوسف مريداً لأخذ أخيه في دين الملك، ومتمكناً منه في حكمه، وهذه الجملة تعليق لما صنعه الله ليوسف من الكيد، أو تفسير له. ذكره الشوكاني وغيره. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء من أعم الأحوال. ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة مستثنى المحذوف إليه، والتقدير: ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك في حال من الأحوال إلا حال مشيئة الله سبحانه وتعالى. ﴿نَرْفَعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿دَرَجَٰتٍ مَّن﴾: مفعول به ومضاف إليه إذا قرأناه بلا تنوين، وإذا قرأناه بالتنوين ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ منصوب بنزع الخافض. ﴿مَّن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿نَّشَآءُ﴾: صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة، والتقدير: نرفع من نشاء رفعه من عبادنا في درجات. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿ذِى عِلْمٍ﴾ مضافان ﴿عَلِيمٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ

وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرࣱّ مَّكَانࣰاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخࣱ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿يَسۡرِقۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية، وفاعله ضمير يعود على بنيامين. ﴿فَقَدۡ﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لاقترانه بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿سَرَقَ أَخࣱ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. ﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿أَخࣱ﴾. ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿سَرَقَ﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ (الفاء): عاطفة. ﴿أسرها يوسف﴾: فعل ومفعول به. ﴿فِي نَفۡسِهِۦ﴾ متعلقان به ﴿وَلَمۡ يُبۡدِهَا﴾ جازم وفعل مجزوم ومفعول به، والجملة معطوفة على ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ ﴿لَهُمۡۚ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أسرها﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفُ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿أَنتُمۡ شَرࣱّ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَنتُمۡ شَرࣱّ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿مَّكَانࣰاۖ﴾: تمييز محول عن المبتدأ منصوب باسم التفضيل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعۡلَمُ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، وجملة ﴿تَصِفُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما تصفونه.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبࣰا شَيۡخࣰا كَبِيرࣰا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه. ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿لَهُۥٓ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿أَبࣰا﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر. ﴿شَيۡخࣰا﴾: صفة لـ﴿أَخࣱ﴾. ﴿كَبِيرࣰا﴾: صفة

لـ﴿شَيْخًا﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿فَخُذْ﴾: (الفاء): عاطفة تفريعية. ﴿خذ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفُ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾. ﴿أَحَدَنَا﴾: مفعول به. ﴿مَكَانَهُۥٓ﴾: ظرف متعلق بـ﴿خذ﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿نَرَىٰكَ﴾: فعل ومفعول به؛ لأن رأى بصرية. ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: متعلق به، ويصح كونها علمية، والجار والمجرور في محل المفعول الثاني، وفاعل نرى ضمير يعود على إخوة يوسف، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفُ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية: محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ منصوب. على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً تقديره: نعوذ بالله معاذ؛ أي: نتعوذ بالله تعوذاً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَن نَّأْخُذَ﴾: ناصب وفعل منصوب به، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفُ﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: نعوذ بالله من أخذنا. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿عِندَهُۥٓ﴾: متعلق به، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه. ﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء ملغاة لا عمل لها؛ لعدم دخولها على الفعل. ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾: خبر ﴿إن﴾، و(اللام): حرف ابتداء، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: (الفاء): استئنافية. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿ٱسْتَيْـَٔسُواْ﴾: فعل وفاعل، فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿مِنْهُ﴾: متعلق به. ﴿خَلَصُواْ﴾: فعل وفاعل جواب ﴿لما﴾. ﴿نَجِيًّا﴾: حال من فاعل ﴿خَلَصُواْ﴾، وجملة ﴿لما﴾: مستأنفة،

وإنما أفردت الحال مع كون صاحبها جمعاً؛ لأن فعيلاً يستوي فيه المذكر والمؤنث. والجميع وغيره. ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾: (الهمزة): للاستفهام التقريري. ﴿لم تعلموا﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿قَدْ أَخَذَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الأب. ﴿عَلَيْكُم﴾: متعلق به. ﴿مَّوْثِقًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة له، وجملة ﴿أَخَذَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم تقديره: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً من الله في شأن بنيامين.

﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

﴿وَمِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿فَرَّطتُمْ﴾. ﴿مَا﴾: زائدة، أو مصدرية. ﴿فَرَّطتُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِى يُوسُفَ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ المصدرية. ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر مؤول من جملة ﴿أَنَّ﴾ تقديره: إلم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً من الله في شأن بنيامين، وتفريطكم في شأن يوسف من قبل بنيامين. ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم وأردتم بيان شأني وحالي.. فأقول لكم، ﴿لن أبرح﴾: ناصب وفعل منصوب، و﴿أَبْرَحَ﴾ هنا تامة، وفاعله ضمير يعود على الكبير. ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به؛ لأنه في معنى لن أفارق الأرض، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يَأْذَنَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد حتى بمعنى إلى. ﴿لِىٓ﴾: متعلق به. ﴿أَبِىٓ﴾: فاعل. ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿لِىٓ﴾. ﴿لِى﴾: متعلق به، وجملة ﴿يَأْذَنَ﴾ في تأويل مصدر مجرور بحتى بمعنى إلى، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَبْرَحَ﴾، والتقدير: فلن أبرح الأرض إلى إذن أبي لي، أو حكم الله لي. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل

النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معللة لما قبلها.

﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿ٱرۡجِعُوٓاْ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَقُولُواْ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿قولوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ﴾. ﴿يَٰٓأَبَانَآ﴾ إلى آخر الآية: مقول ﴿قولوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓأَبَانَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قولوا﴾. ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿سَرَقَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الابن، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قولوا﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَمَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿شَهِدۡنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿شَهِدۡنَآ﴾. ﴿عَلِمۡنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: إلا بما علمناه، وعلم بمعنى عرف. ﴿وَمَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لِلۡغَيۡبِ﴾: متعلق بما بعده. ﴿حَٰفِظِينَ﴾: خبر كان، وجملة كان معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على كونها جواب النداء.

﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الأب، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿ٱلَّتِي﴾ صفة لـ﴿ٱلۡقَرۡيَةَ﴾. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿فِيهَا﴾: خبره، وجملة كان صلة الموصول. ﴿وَٱلۡعِيرَ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡقَرۡيَةَ﴾. ﴿ٱلَّتِيٓ﴾: صفة للعير. ﴿أَقۡبَلۡنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿فِيهَاۖ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول. ﴿وَإِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَصَٰدِقُونَ﴾: خبره، واللام حرف ابتداء، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿وَسۡـَٔلِ﴾ على كونها مقول ﴿قولوا﴾.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة مستأنفة. ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وابتداء. ﴿سَوَّلَتْ﴾: فعل ماضٍ. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به. ﴿أَنفُسُكُمْ﴾: فاعل. ﴿أَمْرًا﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم وأردتم بيان حالي لكم.. فأقول لكم: ﴿صبر جميل﴾: ﴿صبر﴾: خبر مبتدأ محذوف. ﴿جَمِيلٌ﴾: صفة له تقديره: فصبري صبر جميل، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، وهو من أفعال الرجاء. ﴿أَن يَأْتِيَنِي﴾: ناصب وفعل ونون وقاية ومفعول به. ﴿بِهِمْ﴾: متعلق به. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ضمير ﴿بِهِمْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها: في تأويل مصدر منصوب على كونه خبر ﴿عَسَى﴾، ولكنه في تأويل اسم الفاعل؛ ليصح الإخبار تقديره: عسى الله آتياً بهم جميعاً. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: خبر أول له. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثان له، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول القول مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿قال﴾. ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماضٍ معطوف على ﴿تولى﴾، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أسفى﴾: منادى مضاف منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتخفيف بعد قلب الكسرة فتحة، منع مع ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، ﴿أسفى﴾: مضاف، وياء المتكلم المنقلبة ألفاً في محل الجر مضاف إليه. ﴿عَلَىٰ

﴿يُوسُفَ﴾: متعلق بـ﴿أسفى﴾، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿قال﴾، أو حال من فاعل ﴿قال﴾. ﴿فَهُوَ﴾: (الفاء): عاطفة تعليلية، ﴿هو كظيم﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿وَٱبْيَضَّتْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾؛ أي: ضم إليه في الطعام والمنزل والمبيت كما مر في مبحث التفسير. وأصل آوى: أأوى بهمزتين ثانيتهما ساكنة على وزن أفعل الرباعي، فقلبت الثانية ألفاً ثلاثية أوى يأوي بوزن رمى يرمي إذا رق له ورحمه.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾؛ أي: فلا تحزن، والابتئاس: اجتلاب البؤس والشقاء، وهو من باب افتعل الخماسي.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾؛ أي: هيأهم بأهبة السفر. ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ والسقاية ـ بكسر أوله ـ وعاء يسقى به، وبه يكال للناس، ويقدر بكيلة مصرية (١/١٢ من الأردب المصري) ـ وهو الذي عبر عنه بصواع الملك، فيسمى سقاية باعتبار أول حاله، وصاعاً باعتبار آخر أمره؛ لأن الصاع آلة الكيل، وهو أربعة أمداد، والأردب المصري يسع اثني عشر صاعاً. ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ والرحل هو الوعاء الذي يجعل فيه ما يشتريه من الطعام من مصر. ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾؛ أي: نادى مراراً كثيرة بدليل صيغة التفعيل؛ لأنه من التأذين، وهو تكرار الأذان، والإعلام بالشيء، وكان ذلك النداء مع رفع الصوت قائلاً ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾؛ أي: يا أصحاب العير، والعير في الأصل: كل ما يحمل عليه من الأبل والحمير والبغال، سمي بذلك؛ لأنه يعير؛ أي: يذهب ويجيء، والمراد منه هنا أصحاب الإبل ونحوها. وفي «المصباح»: العير ـ بالكسر ـ اسم للإبل التي تحمل الميرة في الأصل، ثم غلب على كل قافلة. اهـ.

﴿وَأَقْبَلُوا۟﴾؛ أي: والحال أنهم؛ أي: إخوة يوسف أقبلوا عليهم؛ أي: على جماعة الملك المؤذن وأصحابه؛ أي: التفتوا إليهم وخاطبوهم بما ذكر كما مر.

﴿مَاذَا تَفۡقِدُونَ﴾؛ أي: أي شيء ضاع منكم؟ والفقد: غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه كما في «البيضاوي» من فقد من باب ضرب.

﴿صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ فالصاع والصواع لغتان معناهما واحد؛ وهو آلة الكيل، وتقدم أنه هو السقاية. قال الزجاج: الصواع هو الصاع بعينه، وهو يذكر ويؤنث، وهو السقاية، ومنه قول الشاعر:

نَشْرَبُ ٱلْخَمْرَ بِٱلصُّوَاعِ جِهَارَا

﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ والحمل ـ بكسر الحاء ـ هنا هو ما يحمله البعير من الطعام.

﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ﴾؛ أي: بحمل البعير الذي جعل لمن جاء بالصواع قبل التفتيش للأوعية. ﴿زَعِيمٞ﴾؛ أي: كفيل أجعله جزاءً لمن يجيء به.

﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ والكيد: التدبير الذي يخفى ظاهره على المتعاملين به حتى يؤدي إلى باطنه المراد منه، واعلم أن الكيد يشعر بالحيلة والخديعة، وهذا في حق الله تعالى محال إلا أنه قد تقدم أصل معتبر في هذا الباب، وهو أن أمثال هذه الألفاظ في حق الله تعالى تحمل على نهاية الأغراض لا على بداياتها، فالكيد: السعي في الحيلة والخديعة، ونهايته إيقاع الإنسان من حيث لا يشعر في أمر مكروه، ولا سبيل له إلى دفعه، فالكيد في حق الله تعالى محمول على هذا المعنى. ا هـ. «كرخي». ﴿دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ شرعه الذي يدين الله تعالى به.

﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾، يقرأ شاذاً: ﴿ذي عالم﴾ وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: هو مصدر كالباطل.

والثاني: أن ذي زائدة، وقد جاء مثل ذلك في الشعر كقول الكميت:

إِلَيْكُمْ ذَوِيْ آلِ ٱلنَّبِيِّ

والثالث: أنه أضاف الاسم إلى المسمى، وهو محذوف تقديره: ذي مسمى عالم كقول الشاعر: إلى الحول ثم اسم السلام عليكما

أي: مسمى السلام. ذكره أبو البقاء.

﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ سرق - من باب ضرب - أخذ الشيء من حرز مثله خفية. وقد سبق بيان سبب نسبة السرقة إلى يوسف في مبحث التفسير. وقولهم: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾؛ أي: كبير القدر، ولم يريدوا كبر السن؛ لأن ذلك معروف من حال الشيخ ذكره «القرطبي».

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ مصدر ميمي من عاذ يعوذ عوذاً ومعاذاً.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟﴾؛ أي: يئسوا مثل عجب واستعجب وسخر واستسخر، فالسين والتاء زائدتان للمبالغة كما في «البيضاوي» و«القرطبي»، وفي «السمين»: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟﴾ استفعل هنا بمعنى فعل المجرد، يقال: يئس واستيأس بمعنى نحو عجب واستعجب، وسخر واستسخر. وقال الزمخشري: زيادة السين والتاء للمبالغة نحو ما مر في استعصم.

﴿خَلَصُوا۟﴾؛ أي: اعتزلوا عن مجلس يوسف، وانفردوا عنه، وانحازوا على حدة. وفي «المصباح»: خلص يخلص خلوصاً من باب قعد؛ أي: انفصل. ﴿نَجِيًّا﴾: حال من فاعل ﴿خَلَصُوا۟﴾ كما مر؛ أي: اعتزلوا حالة كونهم متناجين؛ أي: متحدثين في التشاور في شأن هذه القضية، وهو لفظ يوصف به من له نجوى، واحداً كان أو جماعة مؤنثاً أو مذكراً، فهو كعدل، ويجمع على أنجية، قال لبيد:

وَشَهِدْتُ أَنْجِيَةَ ٱلإِفَاقَةِ عَالِيَاً ... كَعْبِي وَأَرْدَافُ ٱلْمُلُوْكِ شُهُوْدُ

وقال آخر:

إِنِّيْ إِذَا مَا ٱلْقَوْمُ كَانُوْا أَنْجِيَهْ ... وَٱضْطَرَبَ ٱلْقَوْمُ ٱضْطِرَابَ ٱلأَرْشِيَهْ

هُنَاكَ أَوْصِيْنِيْ وَلاَ تُوْصِيْ بِيَهْ

وفي «الكرخي» قوله: ﴿نَجِيًّا﴾ حال من فاعل ﴿خَلَصُوا۟﴾؛ أي: اعتزلوا في هذه الحالة متناجين، وإنما أفردت الحال وصاحبها جمع؛ إما لأن النجي فعيل

بمعنى فاعل كالعشير والخليط بمعنى المعاشر والمخالط كقوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾؛ أي: مناجياً، وهذا في الاستعمال يفرد مطلقاً، يقال: هم خليطك وعشيرك؛ أي: مخالطوك ومعاشروك، وإما لأنه صفة على فعيل بمنزلة صديق وبابه، فوحد لأنه بزنة المصادر كالصهيل والوحيد والذميل، وإما لأنه مصدر بمعنى التناجي كما قيل: النجوى بمعناه قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ وحينئذٍ يكون فيه التأويلات المذكورة في رجل عدل وبابه. ا هـ.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾؛ أي: رأياً وتدبيراً وعلماً؛ وهو شمعون. قاله مجاهد، أو كبيرهم في السن، وهو روبيل. قاله قتادة، وقيل: في العقل والرأي؛ وهو يهوذا ذكرهم الميثاق في قول يعقوب: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾: ﴿أَبْرَحَ﴾ هنا تامة ضمِّنت معنى أفارق، فالأرض مفعول به، ولا يجوز أن تكون تامة من غير تضمين؛ لأنها إذا كانت كذلك كان معناها ظهر وذهب، ومعنى الظهور والذهاب لا يصل إلى الظرف المخصوص إلا بواسطة في تقول: ذهبت في الأرض، ولا يجوز ذهبت الأرض. وقد جاء شيء لا يقاس عليه. واعلم أنه لا يجوز في أبرح أن تكون ناقصة؛ لأنه لا ينتظم من الضمير الذي فيها ومن الأرض مبتدأ وخبر، ألا ترى أنك لو قلت: أنا الأرض، لم يجز من غير في بخلاف: أنا في الأرض. ا هـ. «كرخي».

﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾: اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس وللناس جميعاً، ويستعمل في كل واحد منهما. قاله الراغب.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾؛ أي: زينت وخيلت لكم ﴿أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾؛ أي: كيداً آخر ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ أي: فشأني صبر جميل؛ أي: حسن، أو صبر جميل أولى بي وأليق.

واعلم: أن الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه في نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل والرضا والتسليم لمجريه عليه؛ وهو العليم الحكيم، ويقتدي بيعقوب وسائر النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقال سعيد بن عروبة عن قتادة عن الحسن قال: ما من جرعتين يتجرعهما العبد

أحب إلى الله من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾؛ أي: أعرض عنهم ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؛ أي: يا حزني عليه، والأسف أشد الحزن على ما فات،ومنه قول كثير:

فَيَا أَسَفاً لِلْقَلْبِ كَيْفَ ٱنْصِرَافُهُ وَلِلنَّفْسِ لَمَّا سُلِّيَتْ فَتَسَلَّتِ

قال يعقوب هذه المقالة لما بلغ منه الحزن غاية مبالغة بسبب فراقه ليوسف وانضمام فراقه لأخيه بنيامين، وبلوغ ما بلغه من كونه أسيراً عند ملك مصر، فتضاعفت أحزانه، وهاج عليه الوجد القديم بما أثاره من الخبر الأخير.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ أي: مملوء غيظاً على أولاده ممسك له في قلبه لا يبثه لأحد، فهو فعيل بمعنى مفعول، وقيل: الكظيم بمعنى الكاظم؛ أي: المشتمل على حزنه الممسك له، ومنه قوله:

فَإِنْ أَكُ كَاظِمَاً لِمُصَابِ نَاسٍ فَإِنِّيْ ٱلْيَوْمَ مُنْطَلِقٌ لِسَانِيْ

وقال الزجاج: معنى كظيم محزون. وعن ابن عباس أنه قال: معناه مغموم مكروب. وفي «المصباح»: كظمت الغيظ كظماً ـ من باب ضرب ـ وكظوماً أمكست على ما في نفسك منه على صفح أو غيظ. انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ وفي قوله: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾؛ لأن المراد منه أصحاب الإبل ونحوها، والعلاقة فيه المجاورة كما في «السمين».

ومنها: التعريض في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ لما فيه من التعريض إلى

سرقتهم يوسف من أبيه.

ومنها: التخصيص في قوله: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ بعد التعميم في قوله: ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾؛ لأن هذه الجملة من كلام المؤذن؛ لأنه هو الذي كفل وضمن.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام إشعاراً بأنه المقصود من العام في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ بعد قوله: ﴿مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾؛ لأن هذه الجملة بمعنى قوله: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾، فهي مؤكدة لها.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾؛ لأن حق العبارة: ثم استخرجها منه.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ وفي قوله: ﴿نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾؛ لأن صيغة المضارع في كلا الموضعين لاستحضار الصورة الماضية كما في «روح البيان».

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿أَخٞ لَّهُۥ﴾ لغرض الإبهام.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ لغرض الاستعطاف؛ لأن كبر السن معلوم من لفظ الشيخ.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾؛ أي: أهلها، والعلاقة فيه المحلية، وفي قوله: ﴿وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾؛ أي: أصحابها، والعلاقة فيه

المجاورة كما مر قريباً.

ومنها: نداء غير العاقل تنزيلاً له منزلة العاقل في قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق بين لفظي الأسف ويوسف في قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وقال الزمخشري: والتجانس بين لفظتي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير مستعمل، فيملح ويبدع، ونحوه ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾، ﴿أَرَضِيتُم﴾، ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾، ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ انتهى. ويسمى هذا تجنيس التصريف، وهو أن تنفرد كل كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف، ذكره أبو حيان.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾؛ لأنه كناية عن فقدان البصر وذهابه عنه.

ومنها: عطف العام على الخاص في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فإنه غيا الأمر بغايتين؛ إحداهما خاصة؛ وهي إذن أبيه، والثانية عامة؛ لأن إذن أبيه له في الانصراف من حكم الله تعالى. ا هـ. «كرخي».

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿يَحْكُمَ﴾ و﴿ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ﴾ ﴿يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ﴾ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال أولاد يعقوب الذين جاؤوا من مصر ومن معهم من أولاد الأولاد الحاضرين عند يعقوب حين قال يعقوب: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾؛ أي: والله لا تزال تذكر يوسف وتلهج به، ولا تفتر عن حبه ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ﴾؛ أي: تصير بذلك ﴿حَرَضًا﴾؛ أي: مريضاً مشرفاً على الهلاك ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾؛ أي: من الميتين.

وخلاصة ذلك[1]: أنك الآن في بلاء شديد، ويخاف أن يحصل لك ما هو أكثر وأشد، وهم يريدون بذلك منعه من البكاء والأسف، وإن كانوا هم سبب أحزانه ومنشأ همومه وغمومه، وإنما[2] قالوا له ذلك؛ لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك.

وأصل ﴿تَأَللَّهِ تَفْتَؤُاْ﴾؛ أي: والله لا تفتأ ولا تزال، فلا[3] محذوفة في جواب القسم للتخفيف لعدم الالتباس؛ لأنه لو كان الجواب مثبتاً.. للزمه اللام ونون التوكيد عند البصريين، أو إحداهما عند الكوفيين، وذلك نظير قول العرب: والله أقصدك أبداً، يعنون: لا أقصدك. وقال الفراء إن (لا) مضمرة؛ أي: لا تفتأ. قال النحاس: والذي قال صحيح، وقد روي عن الخليل وسيبويه مثل قول الفراء، وأنشد الفراء محتجاً على ما قاله قول امرىء القيس:

فَقُلْتُ يَمِيْنَ ٱللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدَاً وَلَوْ قَطَعُوْا رَأْسِيْ لَدَيْكِ وَأَوْصَالِيْ

يريد: لا أبرح.

وقالت الخنساء:

فَأَقْسَمْتُ آسَىٰ عَلَىٰ هَالِكٍ أَوَ أَسْأَلُ نَائِحَةً مَالَهَا

أرادت: لا آسى.

وقال الآخر:

لَمْ يَشْعُرِ ٱلنَّعْشُ مَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلْـ ـعُرْفِ وَلاَ ٱلْحَامِلُوْنَ مَا حَمَلُوْا

تَٱللَّهِ أَنْسَىٰ مُصِيْبَتِيْ أَبَدَا مَا أَسْمَعَتْنِيْ حَنِيْنَهَا ٱلإِبِلُ

وقرأ أبو عمران وابن محيصن وأبو حيوة شذوذاً[4]: ﴿قالوا بالله﴾ ـ بالباء ـ وكذلك كل قسم في القرآن، ويقال: فتىء وفتأ لغتان فيه[5]، ولا يستعملان إلا

---

(١) المراغي.
(٢) القرطبي.
(٣) روح البيان.
(٤) زاد المسير.
(٥) القرطبي.

مع الجحد.

قال الشاعر:

فَمَا فَتِئَتْ حَتَّىٰ كَأَنَّ غُبَارَهَا ... سُرَادِقُ يَوْمٍ ذِيْ رِيَاحٍ تَرَفَّعُ

أي: ما برحت.

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ وأصل الحرض: الفساد في الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم حكي ذلك عن أبي عبيدة وغيره، ومنه قول الشاعر:

سَرَىٰ هَمِّيْ فَأَمْرَضَنِيْ ... وَقَدْمًا زَادَنِيْ مَرَضَا

كَذَاكَ ٱلْحُبُّ قَبْلَ ٱلْيَوْ ... مِ مِمَّا يُوْرِثُ ٱلْحَرَضَا

وقال عبد الله بن عمر العرجي[1]:

إِنِّيْ ٱمْرُؤٌ لَجَّ بِيْ حُبٌّ فَأَحْرَضَنِيْ ... حَتَّىٰ بَلِيْتُ وَحَتَّىٰ شَفَّنِيْ ٱلسَّقَمُ

ومعنى: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾؛ أي:[2] تالفاً، وقال ابن عباس ومجاهد: دنفاً؛ أي: ملازماً للمرض، وقال قتادة: هرماً، والضحاك: بالياً داثراً، ومحمد بن إسحاق: فاسداً لا عقل لك. وقال الفراء: الحارض: الفاسد الجسم والعقل وكذا الحرض. وقال ابن زيد: الحرض الذي قد ردَّ إلى أرذل العمر. وقال الربيع بن أنس: يابس الجلد على العظم. وقال المؤرِّخ: ذائباً من الهم. وقال الأخفش، ذاهباً، وابن الأنباري: هالكاً، وكلها متقاربة.

فأجابهم والتمس لنفسه معذرة على الحزن كما حكاه الله سبحانه وتعالى عنه بقوله: ﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام، وهذه الجملة مستأنفة في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا قال يعقوب لهم حين قالوا له ما قالوا؟ فقيل: قال يعقوب جواباً لأولاده اللائمين له: لا تلوموني يا أولادي على حزني وبكائي، وأنا لم أشك إليكم حزني ولا إلى أحد من خلق الله، بل ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟﴾ وأظهر ﴿بَثِّى﴾؛ أي:

---

(١) زاد المسير.

(٢) القرطبي.

شديد حزني وهمي ﴿وَحُزْنِيٓ﴾؛ أي: وقليل حزني ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ملتجئاً إلى جنابه متضرعاً لدى بابه في دفعه. وقد[1] ذكر المفسرون أن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب.. كان ذلك حزناً، وإن لم يقدر على كتمه كان ذلك بثاً، فالبث على هذا أعظم الحزن وأصعبه. والحزن[2]: أعم من البث، فإذا عطف على الخاص يراد به الأفراد الباقية، فيكون المعنى: لا أذكر الحزن العظيم والحزن القليل إلا مع الله، لا مع غيره من الناس. وقيل: البث الهم، وقيل: هو الحاجة. وعلى هذا القول يكون عطف الحزن على البث واضح المعنى. وقرأ الجمهور: ﴿حُزْني﴾ - بضم الحاء وسكون الزاي -. وقرأ[3] الحسن وعيسى: ﴿وحَزَني﴾ - بفتحتين -. وقرأ قتادة بضمتين، وما عدا قراءة الجمهور شاذ.

فإن قيل[4]: لِمَ قال يعقوب ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، ثم قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟ فكيف يكون الصبر مع الشكوى؟

قيل: ليس هذا إلا شكاية من النفس إلى خالقها، وهو جائز، ألا ترى أن أيوب عليه السلام قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وقال تعالى مع شكواه إلى ربه في حقه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ لأنه شكا منه إليه، وبكى منه عليه، فهو المعذور لديه؛ لأن حقيقة الصبر ومعناه الحقيقي حبس النفس ومنعها عن الشكوى إلى الغير، وترك الركون إلى الغير، وتحمل الأذى والابتلاء لصدوره من قضائه وقدره، كما قيل بلسان الحقيقة:

كُلُّ شَيْءٍ مِنَ ٱلْمَلِيْحِ مَلِيْحُ ... لَكِنِ ٱلصَّبْرُ عَنْهُ غَيْرُ مَلِيْحِ

وقيل أيضاً:

وَٱلصَّبْرُ عَنْكَ فَمَذْمُوْمٌ عَوَاقِبُهُ ... وَٱلصَّبْرُ فِيْ سَائِرِ ٱلأَشْيَاءِ مَحْمُوْدُ

وذلك لأن المحب لا يصبر عن حضرة المحبوب، فلا يزال يعرض حاله

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

وافتقاره إلى حضرته، ولسان العشق لسان التضرع والحكاية، لا لسان الجزع والشكاية، فشكاية العارف الواقف في صورة الشكوى حكاية حاله وتضرعه وافتقاره إلى حبيبه.

وروى الحاكم[1] ـ أبو عبد الله ـ في «صحيحه» من حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كان ليعقوب أخ مؤاخ» فقال له ذات يوم: يا يعقوب ما الذي أذهب بصرك، وما الذي قوس ظهرك؟ قال: أما الذي أذهب بصري، فالبكاء على يوسف، وأما الذي قوّس ظهري فالحزن على بنيامين، فأتاه جبريل فقال: يا يعقوب إن الله يقرئك السلام، ويقول لك: أما تستحيي أن تشكو إلى غيري؛ فقال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، فقال جبريل: الله أعلم بما تشكو، ثم قال يعقوب: أي رب؛ أما ترحم الشيخ الكبير أذهبت بصري، وقوست ظهري، فاردد عليَّ ريحانتاي أشمهما شمة قبل الموت، ثم اصنع بي يا رب ما شئت، فأتاه جبريل فقال: يا يقعوب إن الله يقرأ عليك السلام، ويقول: أبشر فوعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك، إصنع طعاماً للمساكين، فإن أحب عبادي إلي المساكين، وهل تدري لم أذهبت بصرك وقوست ظهرك وصنع إخوة يوسف بيوسف ما صنعوا؛ لأنكم ذبحتم شاة، فأتاكم فلان المسكين وهو صائم، فلم تطعموه منها، فكان يعقوب بعد ذلك إذا أراد الغداء أمر منادياً فنادى ألا من أراد الغداء من المساكين.. فليتغد مع يعقوب، وإذا كان صائماً أمر منادياً فنادى من كان صائماً.. فليفطر مع يعقوب.

وقال وهب بن منبّه[2]: أوحى الله تعالى إلى يعقوب: أتدري لما عاقبتك، وحبست عنك يوسف ثمانين سنة؟ قال: لا، قال: لأنك شويت عناقاً، وقترت على جارك، وأكلت ولم تطعمه، وذكر بعضهم أن السبب في ذلك أن يعقوب ذبح عجل بقرة بين يديها وهي تخور، فلم يرحمها.

---

(١) زاد المسير.

(٢) زاد المسير.

فإن قيل: كيف صبر يوسف عن أبيه بعد أن صار ملكاً؟

فقد أجاب المفسرون عنه بثلاثة أجوبة:

أحدها: أنه يجوز أن يكون ذلك عن أمر الله تعالى وهو الأظهر.

والثاني: لئلا يظن الملك بتعجيل استدعائه أهله شدة فاقتهم.

والثالث: أنه أحب بعد خروجه من السجن أن يدرج نفسه إلى كمال السرور. والصحيح أن ذلك كان عن أمر الله تعالى ليرفع درجة يعقوب بالصبر على البلاء، وكان يوسف يلاقي من الحزن لأجل حزن أبيه عظيماً، ولا يقدر على دفع سببه.

﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أعلم[1] من لطفه وإحسانه وثوابه على المصيبة ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ـه أنتم، وقيل: أراد علمه بأن يوسف حي، وقيل: أراد علمه بأن رؤياه صادقة، وقيل: أعلم من إجابة المضطرين إلى الله ما لا تعلمون، فأرجو أن يرحمني ويلطف بي ولا يخيب رجائي.

والخلاصة[2]: أي وأنا أعلم في ابتلائي بفراقه مع حسن عاقبته ما لا تعلمون، فأعلم أنه حي يرزق، وأن الله يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب، وأنتم تظنون أن يوسف قد هلك، وأن بنيامين قد سرق فاسترقَّ، وتحسبون أني بحزني ساخط على قضاء الله تعالى في شيء أمضاه ولا مرد له، وأنا أعلم أن لهذا أجلاً هو بالغه، وإني لأرى البلاء ينزل عليكم من كل جانب بذنوبكم وبتفريطكم في يوسف من قبل وبأخيه الذي كان يسليني عنه من بعده.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: أنا أعلم أن رؤيا يوسف حق، وأنني سأسجد له. وقال السدي[3]: لما أخبره أولاده بسيرة الملك.. أحست نفسه، فطمع وقال: لعله يوسف، فقال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ﴾ إلى مصر

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

وارجعوا إليها ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾؛ أي: فتعرفوا ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ بنيامين، وابحثوا فيها من خبرهما بحواسكم من سمع وبصر حتى تكونوا على يقين من أمرهما. فقوله: ﴿اذْهَبُوا﴾ أمر بالذهاب إلى الأرض التي جاؤوا منها وتركوا بها أخويهم بنيامين والمقيم بها. وقوله: ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ أمر بالتحسس وهو الاستقصاء والطلب بالحواس، ويستعمل في الخير والشر. والتحسس ـ بمهملات ـ طلب الشيء بالحواس مأخوذ من الحس أو من الإحساس. وقرىء[1] بالجيم كالذي في الحجرات ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وهو أيضاً التطلب. وفي «الإحياء» بالجيم: في تطلع الأخبار، وبالحاء: في المراقبة بالعين، وقال في «إنسان العيون» أما بالحاء: أن يفحص الشخص عن الأخبار بنفسه، وأما بالجيم: أن يفحص عنها بغيره، وجاء تحسسوا ولا تجسسوا انتهى.

والمعنى: اذهبوا فتعرفوا خبر يوسف وأخيه وتطلبوه، وإنما[2] خصهما ولم يذكر الثالث، وهو الذي قال: فلن أبرح الأرض واحتبس بمصر، لأن غيبته اختيارية لا يعسر إزالتها؛ لأنه إنما أقام مختاراً.

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾؛ أي: ولا تقنطوا من فرجه سبحانه وتعالى وتنفيسه عن النفس هذا الكرب بما ترتاح إليه الروح، ويطمئن به القلب. وقرأ[3] الجمهور: ﴿تَاْيْـَٔسُوا﴾، وفرقة: ﴿تأيسوا﴾. وقرأ الأعرج: ﴿تئسوا﴾ ـ بكسر التاء ـ والقراءتان اللتان عدا قراءة الجمهور شاذتان. واليأس والقنوط: انقطاع الرجاء. و﴿رَّوْحِ اللَّهِ﴾ ـ بفتح الراء ـ: رحمته وفرجه وتنفيسه؛ أي: إزالته الكرب عن النفس. قال ابن عطية: وكان معنى هذه القراءة: لا تيأسوا من حي معه روح الله الذي وهبه، فإن من بقي روحه يرجى حضوره، ومن هذا قول الشاعر:

وفي غير من قد وارت الأرض فاطمع

ومن هذا قول عبيد بن الأبرص:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

وَكُــلُّ ذِيْ غَــيْــبَــةٍ يَــؤُوْبُ   وَغَــائِــبُ الْــمَــوْتِ لاَيَــؤُوْبُ

وقال الزمخشري: ﴿من روح الله﴾ ـ بالضم ـ أي: من رحمته التي تحيا بها العباد انتهى.

﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن الشأن والحال ﴿لَا يَاْيۡـَٔسُ﴾ ولا يقنط ﴿مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ ورحمته ﴿إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ بالله سبحانه وتعالى وبقدرته وسعة رحمته[1]، ويجهلون ما لله في عباده من حكم بالغة ولطف خفي، فإذا لم يصلوا إلى ما يبتغون من كشف ضر، أو جلب خير بخعوا أنفسهم ـ انتحروا ـ هماً وحزناً، أما المؤمن حقاً فلا تقنطه المصائب ولا الشدائد من رحمة ربه وتفريجه لكربه، يعني: أن المؤمن يصبر عند البلاء، وينتظر الفرج والرحمة، فيسأل به خيراً، ويحمد الله عند الرخاء، والكافر بضد ذلك. ومن ثم قال ابن عباس: إن المؤمن من الله تعالى على خير يرجوه في البلاء، ويحمده في الرخاء. وقرأ أبي شذوذاً: ﴿من رحمة الله﴾.

وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ فيه حذف واختصار[2]، والتقدير: فخرجوا من عند أبيهم قاصدين مصر، فذهبوا كما أمرهم أبوهم ليتحسسوا من يوسف وأخيه ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: على يوسف عليه السلام ﴿قَالُواْ﴾ ليوسف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ أي: أيا أيها الملك الممتنع القادر الغالب ﴿مَسَّنَا﴾؛ أي: أصاب إيانا ﴿وَأَهۡلَنَا﴾؛ أي: وعيالنا وأولادنا وهم من خلفوهم ﴿ٱلضُّرُّ﴾؛ أي: الفقر والحاجة، والهزال والضعف؛ لما نحن فيه من المجاعة وكثرة العيال وقلة الطعام، وقد شكوا إليه رقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة وغير ذلك مما يرقق القلب، مع أن مقصدهم التحسس من يوسف وأخيه، ليروا تأثير الشكوى فيه، فإن رق قلبه لهم ذكروا ما يريدون وإلا سكتوا، وقد كان أبوهم يرجح أنه هو يوسف، فأرادوا أن يروا تأثير هذا الاستعطاف فيه، وقالوا: ﴿وَجِئۡنَا﴾ إليك

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

﴿بِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾؛ أي: ببضاعة رديئة وأمتعة خسيسة يحتقرها التجار، ويدفعونها احتقاراً لها ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾؛ أي: فأتمه لنا كما تعودنا من جميل رعايتك وإحسانك، ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ بما تزيده على حقنا ببضاعتنا بعد أن تغمض عن رداءتها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ فيخلف ما ينفقون، ويضاعف لهم الأجر. قال الضحاك: لم يقولوا إن الله يجزيك إن تصدقت علينا؛ لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن، بل لتيقنهم كفره على عادة ملوك مصر في ذلك الوقت، فعبروا بهذه العبارة المحتملة. وقد بالغوا في الضراعة والتذلل لما كانوا يرون من تأثير ذلك في ملامح وجهه، وجرس صوته، ومغالبة دمعه، وقد قيل: كيف يطلبون التصدق عليهم وهم أنبياء، والصدقة محرمة على الأنبياء، وأجيب باختصاص ذلك بنبينا محمد ﷺ. وفي هذا الكلام[1] دليل على أنه تجوز الشكوى عند الضرورة إذا خاف من إصابته على نفسه، كما يجوز للعليل أن يشكو إلى الطبيب ما يجده من العلة. وهذه المرة التي دخلوا فيها مصر هي المرة الثالثة كما يفيده ما تقدم من سياق الكتاب العزيز.

روي[2]: أن يعقوب أمر بعض أولاده، فكتب بسم الله الرحمٰن الرحيم، من يعقوب إسرائيل الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر أما بعد: فإنّا أهل بيت موكل بنا البلاء؛ أما جدي إبراهيم فإنه ابتلي بنار النمروذ، فصبر وجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي إسحاق فابتلي بالذبح، فصبر ففداه الله بذبح عظيم، وأما أنا فابتلاني الله بفقد ولدي يوسف فبكيت عليه حتى ذهب بصري، ونحل جسمي، وقد كنت أتسلى بهذا الغلام الذي أمسكته عندك، وزعمت أنه سارق، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددته علي وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام. فلما قرأ يوسف كتاب أبيه اشتد بكاؤه وعيل صبره، وأظهر نفسه لأخوته.

ثم بعد أن ذكر طريق تحسسهم ذكر رد يوسف عليهم بقوله: ﴿قَالَ﴾ يوسف

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

عليه السلام لأخوته: ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع، وقيل: ﴿هَلْ﴾ بمعنى قد؛ أي: هل تذكرون ﴿مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ من إلقائه في الجبّ، وبيعه بثمن بخس، وتفريقه عن أبيه ﴿وَ﴾ ما فعلتم بـ﴿أخيه﴾ بنيامين من إدخال الغم عليه بفراق أخيه الشقيق، وما كان يناله من جهتهم من الاحتقار والإهانة حتى كان لا يقدر أن يكلمهم. قال الواحدي: ولم يذكر أباه يعقوب من عظم ما دخل عليه من الغم بفراقه تعظيماً له، ورفعاً من قدره، وعلماً بأن ذلك كان بلاء له من الله عز وجل؛ ليزيد في درجته عنده؛ أي: ما أعظم ما فعلتم بيوسف وأخيه، فهل تبتم عن ذلك بعد علمكم بقبحه؟ فهو سؤال عن الملزوم، والمراد لازمه، وهذا استفهام[1] يفيد تعظيم أمر هذه الواقعة، ومعناه: ما أعظم ما ارتكبتم من أمر يوسف، وما أقبح ما أقدمتم عليه من قطيعة الرحم وتفريقه من أبيه، وهذا كما يقال للمذنب: هل تدري من عصيت، وهل تعرف من خالفت؟ ولم يرد بهذا نفس الاستفهام، ولكنه أراد تفظيع الأمر وتعظيمه. ويجوز أن يكون المعنى: هل علمتم عقبى ما فعلتم بيوسف وأخيه من تسليم الله إياهما من المكروه. ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ ظرف لفعلتم؛ أي: فعلتم وقت جهلكم عقبى فعلكم ليوسف من خلاصه من الجب، وولايته السلطنة، وإنما[2] كان كلامه هذا شفقة عليهم، وتنصحاً لهم في الدين، وتحريضاً على التوبة، لا معاتبته وتثريباً إيثاراً لحق الله تعالى على حق نفسه.

روي: أنه لمَّا قرأ كتاب يعقوب بكى وكتب إليه: بسم الله الرحمٰن الرحيم إلى يقعوب إسرائيل الله من ملك مصر أما بعد: أيها الشيخ فقد بلغني كتابك وقرأته، وأحطت به علماً، وذكرت فيه آباءك الصالحين، وذكرت أنهم كانوا أصحاب البلايا، فإنهم إن ابتلوا وصبروا ظفروا، فاصبر كما صبروا والسلام. فلما قرأ يعقوب الكتاب قال: والله ما هذا كتاب الملوك، ولكنه كتاب الأنبياء، ولعل صاحب الكتاب هو يوسف.

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

واعلم[1]: أن هذه الآية تصديق لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. قال صاحب «الكشاف» في تفسير الآية: أتاهم من جهة الدين، وكان حليماً موفقاً، فكلمهم مستفهماً على معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب فـ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم﴾ أقبح ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون لا تعلمون قبحه، فلذلك أقدمتم عليه يعني: هل علمتم قبحه، فتبتم إلى الله منه، لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجر إلى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحاً لهم في الدين، لا معاتبة وتثريباً إيثاراً لحق الله تعالى على حق نفسه في ذلك المقال الذي يتنفس فيه المكروب، وينفث المصدور، ويستنفي المغيظ المحنق، ويدرك ثأره الموتور، فللّه أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسمحها، ولله حصا عقولهم ما أوزنها وأرجحها. ا هـ.

وكان سؤاله[2] إياهم عما فعلوا بيوسف وأخيه هو سؤال العارف بأمرهم فيه من البداية إلى النهاية مصدقاً لما أوحاه الله إليه حين ألقوه في غيابة الجبّ من قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. إذ يبعد أن يعرف هذا سواه.

ولما أرادوا أن يثبتوا من ذلك ويستيقنوا به وجهوا إليه سؤالاً هو سؤال المتعجب المستغرب لما يسمع وقالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؛ أي: قالوا هل من المؤكد قطعاً أنك أنت يوسف، وقد عجبوا من أنهم يترددون عليه مدى سنتين أو أكثر وهم لا يعرفونه، وهو يعرفهم، ويكتم نفسه، والاستفهام فيه للتقرير.

قرأ ابن كثير وقتادة وابن محيصن[3]: ﴿إنك﴾ على لفظ الخبر بغير همزة استفهام، والظاهر أنها مرادة، ويبعد حمله على الخبر المحض. وقرأ[4] نافع: ﴿أينك﴾ - بفتح الألف غير ممدودة وبالياء -. وقرأ أبو عمرو: ﴿آينك﴾ - بمد الألف وبالياء - وهو رواية قالون عن نافع. والباقون: ﴿أإنك﴾ بهمزتين وكل ذلك

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

(٤) المراح.

على الاستفهام؛ لأنهم فهموا من فحوى كلامه عليه السلام، أو من إبصار ثناياه وقت تبسمه عند تكلمه بذلك.

وقال: من قرأ على الخبر إن الأخوة لم يعرفوا يوسف حتى رفع التاج عن رأسه، فرأوا في قرنه علامة تشبه الشامة البيضاء كما كان ليعقوب وإسحاق مثل ذلك، فلما عرفوه بتلك العلامة قالوا ذلك.

﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام جواباً لهم ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ الذي ظلمتموني غاية الظلم، وقد نصرني الله تعالى فأكرمني وأوصلني إلى أسمى المراتب، أنا ذلك العاجز الذي أردتم قتله بإلقائه في غيابة الجبّ، ثم صرت إلى ما ترون ﴿وَهَٰذَآ﴾؛ أي: بنيامين ﴿أَخِيۖ﴾؛ أي: شقيقي الذي فرقتم بيني وبينه وظلمتموه، ثم أنعم الله عليه بما تبصرون ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾؛ أي: أنعم الله تعالى علينا، فجمع بيننا بعد الفرقة، وأعزنا بعد الذلة وآنسنا بعد الوحشة، وخلصنا مما ابتلينا به. وقيل: منَّ علينا بكل عز وخير في الدنيا والآخرة. وقيل: منَّ علينا بالسلامة في ديننا ودنيانا. وفيه إيماء إلى أنه لا وجه لطلبكم بنيامين؛ لأنه أخي لا أخوكم.

قال بعض العلماء[1]: إنما أظهر الاسم في قوله: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ ولم يقل أنا هو تعظيماً لما نزل به من ظلم إخوته له، وما عوضه الله من النصر والظفر والملك، فكأنه قال: أنا يوسف المظلوم الذي ظلمتموني، وقصدتم قتلي بأن ألقيتموني في الجبّ، ثم بعتموني بأبخس الأثمان، ثم صرت إلى ما ترون، فكان تحت ظهور الاسم هذه المعاني كلها. ولهذا قال: ﴿وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾ وهم يعرفونه؛ لأنه قصد به أيضاً وهذا أخي المظلوم كما ظلمتموني، ثم صرت أنا وهو إلى ما ترون، وهو قوله: ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ بكل عز وخير في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن الشأن والحال ﴿مَن يَتَّقِ﴾ الله سبحانه وتعالى بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات ﴿وَيَصۡبِرۡ﴾ على المحن والبلايا والإذاية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُضِيعُ﴾ ولا يبطل ﴿أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بالتقوى والصبر؛

(١) الخازن.

أي: لا يضيع أجرهم، فوضع المحسنين موضع المضمر لاشتماله على المتقين والصابرين. وقيل المعنى: من يتق مولاه ويصبر على بلواه. وقيل: من يتق الزنا ويصبر على العزوبة قاله ابن عباس. وقال مجاهد: يتقي المعصية ويصبر على السجن.

والمعنى[1]: أن الحق الذي نطقت به الشرائع وأرشدت إليه التجارب هو من يتق الله فيما به أمر وعنه نهى، ويصبر على ما أصابه من المحن وفتن الشهوات والأهواء، فلا يستعجل الأقدار بشيء قبل أوانه، فإن الله لا يضيع أجره في الدنيا، ثم يؤتيه أجره في الآخرة.

وفي الآية شهادة له من ربه بأنه من المحسنين المتقين لله، وبأن من كان مطيعاً لنفسه الأمارة بالسوء ومتبعاً لنزغات الشيطان.. فإن عاقبته الخزي في الدنيا والنكال في الآخرة إلا من تاب وعمل صالحاً، ثم اهتدى. وقرأ[2] قنبل ابن كثير: ﴿من يتقي﴾ ـ بالياء ـ وصلاً ووقفاً. فقيل: هو مجزوم بحذف الياء التي هي لام الكلمة، وهذه الياء إشباع وقيل: جزمه بحذف الحركة على لغة من يقول: لم يرمي زيد، وقد حكوا ذلك لغةً، وقيل غير ذلك. وقرأ الباقون بحذفها وصلاً ووقفاً، والإعراب على قراءتهم ظاهر واضح.

تنبيه: فإن قيل: لِمَ لَمْ يعرف يوسف إخوته بنفسه في أول مرة ليبشروا أباهم به، وبما هو عليه من حسن حال وبسطة وجاه، فيكون في ذلك السرور كل السرور له؟

فالجواب عن ذلك: ما أجاب به ابن القيم في كتابه «الإغاثة الكبرى» قال رحمه الله تعالى: لو عرفهم بنفسه في أول مرة لم يقع الاجتماع بهم وبأبيه ذلك الموقع العظيم، ولم يحل ذلك المحل، وهذه سنَّة الله تعالى في الغايات العظيمة الحميدة إذا أراد أن يوصل عبده إليها هيأ له أسباباً من المحن والبلايا والمشاق،

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

فيكون وصوله إلى تلك الغايات بعدها كوصول أهل الجنة إليها بعد الموت وأهوال البرزخ، والبعث والنشور، والموقف والحساب والصراط، ومقاساة تلك الأهوال والشدائد، وكما أدخل رسول الله ﷺ إلى مكة ذلك المدخل العظيم بعد أن أخرجه الكفار ذلك المخرج، ونصره ذلك النصر العزيز بعد أن قاسى مع أعداء الله ما قاساه، وكذلك ما فعل برسله كنوح وإبراهيم وموسى وهود وصالح وشعيب عليهم السلام، فهو سبحانه وتعالى يوصل إلى الغايات الحميدة بالأسباب التي تكرهها النفوس وتشق عليها كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾. وربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سبباً ما مثله سبب، وبالجملة فالغايات الحميدة في خبايا الأسباب المكروهة الشاقة، كما أن الغايات المكروهة في خبايا الأسباب المشتهاة المستلذة، وهذا من حين خلق الله سبحانه الجنة وحفها بالمكاره، والنار وحفها بالشهوات. ا هـ.

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال إخوة يوسف له ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى واختارك وفضلك ﴿عَلَيْنَا﴾ بالعلم والحلم والفضل والعقل والملك ﴿وَإِنْ كُنَّا﴾؛ أي: وإن الشأن والحال كنا في صنيعنا بك وتفريقنا بينك وبين أخيك ﴿لَخَاطِئِينَ﴾؛ أي: لآثمين متعمدين للخطيئة غير متقين الله؛ ولا عذر لنا فيها عند الله، ولا عند الناس، وفيه إشعار بالتوبة والاستغفار. وبعد أن قدموا له المعذرة أجابهم بالصفح عما فعلوا ولذلك ﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام: ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾؛ أي: لا لوم ولا تعنيف ولا تقريع ولا تعيير ﴿عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾؛ أي: في هذا اليوم الذي هو مظنته، ولكن لكم عندي الصفح والعفو، وهو إذا لم يثرب أول لقائه واشتعال ناره، فبعده أولى. والتثريب[1]: تفعيل من الثرب، وهو الشحم الذي يغشي الكرش، ومعناه: إزالة الثرب، فكأن التعيير والاستقصاء في اللوم يذيب جسم الكريم وثربه لشدته عليه كما في «الكواشي». وقال ابن الشيخ: سمي التقريع تثريباً تشبيهاً له بالتثريب في اشتمال كل منهما على معنى التمزيق، فإن

---

(١) روح البيان.

التقريع يمزق العرض، ويذهب ماء الوجه، و﴿اليوم﴾ منصوب بالتثريب؛ أي: لا تثريب عليكم اليوم الذي هو مظنة التثريب، فما ظنكم بسائر الأيام؟ والمراد باليوم الزمان مطلقاً كقوله:

الْـيَـوْمَ يَـرْحَـمُـنَـا مَـنْ كَـانَ يَـغْـبِـطُـنَـا ... وَالْـيَـوْمَ نَـتْـبَـعُ مَـنْ كَـانُـوْا لَـنَـا تَـبَـعَـا

كأنه أريد بعد اليوم.

ثم ابتدأ، فقال: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، ويعفو ﴿لَكُمْ﴾ عن ذنبكم وظلمكم ويستره عليكم، فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم.

وفي «الخازن»[1]: وفي محل قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ قولان:

أحدهما: أنه يرجع إلى ما قبله، فيكون التقدير: لا تثريب عليكم اليوم، **والمعنى**: إن هذا اليوم هو يوم التثريب والتقريع والتوبيخ، وأنا لا أقرعكم اليوم ولا أوبخكم ولا أثرب عليكم، فعلى هذا يحسن الوقف على قوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، ويبتدأ بقوله: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

والقول الثاني: أن اليوم متعلق بقوله: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فعلى هذا يحسن الوقف على قوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾، ويبتدأ بـ﴿ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ كأنه لما نفى عنهم التوبيخ والتقريع بقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ بشرهم بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لمن أقلع عن ذنبه وأناب إلى طاعته بالتوبة من معصيته يرحم عباده رحمة لا يتراحمون بها فيما بينهم، فيجازي، محسنهم، ويغفر لمسيئهم؛ لأن[2] رحمة الراحمين أيضاً برحمته، أو لأن رحمتهم جزء من رحمته تعالى، والمخلوق إذا رحم فكيف الخالق. قال في «بحر العلوم» الذنب للمؤمن سبب للوصلة، والقرب من الله تعالى، فإنه سبب لتوبته، وإقباله على الله تعالى.

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

وقال عطاء الخراساني: طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ، ألم تر قول يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وقال يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾.

وقد تمثل النبي ﷺ بهذه الآية يوم فتح مكة حين طاف بالبيت، وصلى ركعتين، ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب وقال: «ما تظنون أني فاعل بكم»؟ قالوا: نظن خيراً أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: وأنا أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ فخرجوا كأنما نشروا من القبور». أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس، والبيهقي عن أبي هريرة.

روي[1]: أن يوسف عليه السلام لما عرف نفسه إخوته سألهم عن أبيهم، فقالوا: ذهب بصره، فعند ذلك أعطاهم قميصه، وقال: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ الذي على بدني أو بيدي ﴿فَأَلْقُوهُ﴾؛ أي: فألقوا هذا القميص ﴿عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾ حين وصولكم إليه دون تأخير ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾؛ أي: يصير بصيراً على أن (يأت) هي التي من أخوات (كان)، قال الفراء: يرجع بصيراً. وقال السدي: يعد بصيراً، وقيل: معناه يأت إليّ إلى مصر وهو بصير قد ذهب عنه العمى. وقد علم هذا؛ إما بوحي من الله تعالى، وإما لأنه علم أن أباه ما أصابه ما إصابه إلا من كثرة البكاء وضيق النفس، فإذا ألقي عليه قميصه شرح صدره، وسر أعظم السرور، وقوي بصره، وزالت عنه هذه الغشاوة التي رانت عليه، والقوانين الطبية تؤيد هذا كما سيأتي بعد. ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ من الرجال والنساء والذراري وغيرهم. وقد روي أن أهله كانوا سبعين رجلاً وامرأة وولداً. فإن الأهل يفسر بالأزواج والأولاد، وبالعبيد والإماء، وبالأقارب وبالأصحاب وبالمجموع.

روي[2] أن يهوذا حمل القميص، وقال: أنا أحزنته بحمل القميص الملطخ بالدم إليه، فأفرحه كما أحزنته، فحمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان، ومعه سبعة

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

أرغفة لم يستوف أكلها حتى أتاه، وكانت المسافة ثمانين فرسخاً. قيل[1]: هذا القميص هو القميص الذي ألبسه الله إبراهيم لما ألقي في النار، وكساه إبراهيم إسحاق، وكساه إسحاق يعقوب، وكان يعقوب أدرج هذا القميص في قضيبه وعلقه في عنق يوسف لما كان يخاف عليه من العين، فأخبر جبريل يوسف أن يرسل به إلى يعقوب ليعود عليه بصره؛ لأن فيه ريح الجنة، وريح الجنة لا يقع على سقيم إلا شفي، ولا مبتلى إلا عوفي.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾؛ أي: ولما انفصلت عير بني يعقوب عن حدود مصر، وخرجت منها قافلة إلى أرض الشام ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ﴾ يعقوب عليه السلام لمن حضره من حفدته ومن غيرهم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾؛ أي: لأشم رائحة يوسف كما عرفتها في صغره. وفي «التبيان» هاجت الريح، فحملت ريح القميص من مسافة ثمانين فرسخاً، واتصلت بيعقوب، فوجد ريح الجنة، فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص انتهى. وهذا موافق لما سبق من أنه كان في القميص ريح الجنة لا يقع على مبتلى إلا عوفي، فالخاصية في ريح الجنة لا في ريح يوسف كما ذهب إليه «البيضاوي». وأما الإضافة في قوله: ﴿رِيحَ يُوسُفَۖ﴾ فللملابسة كما لا يخفى ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾؛ أي: لولا أن تنسبوني إلى الفند، وهو الخرف ونقصان العقل وفساد الرأي من هرم. وجواب ﴿لَوۡلَآ﴾ محذوف تقديره: لولا تفنيدكم إياي لصدقتموني فيما أقول لكم، فوجد ريحه من ثمانية أيام. وفي رواية من ثمانين فرسخاً، والمراد: من مسافات بعيدة جداً. والفند[2]: وهو نقصان العقل من هرم، يقال: شيخ مفند، ولا يقال: عجوز مفندة؛ إذ لم تكن في شبيبتها ذات رأي فتفند في كبرها؛ أي: نقصان عقلها ذاتي لا حادث من عارض الهرم.

واعلم: أن الخرف لا يطرأ على الأنبياء والورثة؛ لأنه نوع من الجنون الذي هو من النقائص، وهم مبرأون مما يشين بهم من الآفات.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال حاضروا مجلسه ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ﴾؛ أي: لفي خطئك ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾؛ أي: الذي طال أمده باعتقادك أن يوسف حي يرجى لقاؤه، وقد قرب ولا غرو فللخلي أن يقول في الشجي ما شاء، فأذنه عن العذَّل صماء:

سَلْوَتِيْ عَنْكُمُ ٱحْتِمَالٌ بَعِيْدٌ ... وَٱفْتِضَاحِيْ بِكُمْ ضَلَالٌ قَدِيْمُ

كُلُّ مَنْ يَدَّعِيْ ٱلْمَحَبَّةَ فِيْكُمْ ... ثُمَّ يَخْشَىٰ ٱلْمَلَامَ فَهُوَ مُلِيْمُ

قال قتادة في تفسيرها[1]: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾؛ أي: من حب يوسف لا تنساه ولا تسلوه. ا هـ.

قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها له.

و﴿أَن﴾ في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ صلة؛ أي: زائدة لتأكيد[2] الفعلين واتصالهما حتى كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان من غير فاصل وقت؛ أي: فلما جاء البشير وهو ابنه يهوذا الذي يحمل القميص من يوسف، وهو الذي حمل إليه قميصه الملطخ بالدم الكذب ليمحو السيئة بالحسنة ﴿أَلْقَىٰهُ﴾؛ أي: ألقى البشير القميص وطرحه ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾؛ أي: على وجه يعقوب ﴿فَٱرْتَدَّ﴾ يعقوب؛ أي: عاد ورجع يعقوب من فوره ﴿بَصِيرًا﴾؛ أي: ذا بصر كما كان قبل فراق يوسف. والارتداد: انقلاب الشيء إلى حال كان عليها، وهو من الأفعال الناقصة؛ أي: عاد ورجع بصيراً بعدما كان قد عمي، ورجعت قوته وسروره بعد الضعف والحزن، بل قد قيل: إنه عادت إليه سائر قواه، وليس ذلك بعجيب ولا منكر، فكثيراً ما شفى السرور من الأمراض، وجدد قوى الأبدان والأرواح، والتجارب وقوانين الطب شاهد صدق على صحة ذلك، وقد أجاب يعقوب من لاموه بما كان عليه من علم قطعي من ربه بصدق ما يقول، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يا بني حين أرسلتكم إلى مصر وأمرتكم بالتجسس، ونهيتكم عن اليأس من روح الله: ـ والاستفهام فيه تقريري ـ ﴿إِنِّىٓ

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

﴿أَعۡلَمُ﴾ بالوحي ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا بالخطرات من الأوهام ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ من حياة يوسف وإنزال الفرج، وقد ذكرهم الآن إذ عاد بصيراً بما كان قد قاله لهم حين ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم. وروي[١] أنه سأل البشير كيف يوسف؟ قال: هو ملك مصر. قال: ما أصنع بالملك؟ قال: على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمّت النعمة.

نبذة في تعليل شم يعقوب رائحة يوسف[٢]

أثبت العلم حديثاً أن الريح تحمل الغبار وما فيه من قارة إلى أخرى، فتحمله من إفريقية مثلاً إلى أوروبا، وهي مسافة أبعد مما بين مصر وأرض كنعان من بلاد الشام، وهي بلا شك تحمل رائحة ماله منها رائحة، ولكن الغريب شم البشر لها من المسافات البعيدة، والإنسان إذا قيس بغيره من الوحوش والحشرات كان أضعف منهما شماً. فالكلب ذو حاسة قوية في الشم حتى ليدربه الآن رجال الشرطة، ويستخدمونه في حوادث الإجرام من قتل وسرقة، لإثبات التهمة على المجرمين، فيأتون بالكلب المعلم، فيشم المجرم ويخرجه من بين أشخاص كثيرين، ويرى ذلك رجال القانون دليلاً قوياً على إثبات الجريمة على من يرشد إليه، بل دليلاً قاطعاً في بعض الدول.

والروائح منها القوي والضعيف، ومن أضعفها رائحة جسم الإنسان وعرقه وما يصيب ثوبه منها، ولكن ما نحن فيه من خوارق العادات ومن خواص عالم الغيب، لا من السنن العادية والحوادث التي تتكرر من البشر. وقد دلت الآية على أن يعقوب عليه السلام أخبر أنه وجد رائحة يوسف لما فصلت العير من أرض مصر، فعلينا أن نؤمن به؛ لأنه معصوم من الكذب، وقد تبين صدقه بعد. وليس بالواجب علينا أن نعرف كنهه، أو نصل إلى معرفة سببه، ولكن إذا نحن قلنا: إنه لشدة تفكره في أمر ولده، وتذكره لرائحته حين كان يضمه ويشمه شعر

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

بتلك الرائحة قد عادت له سيرتها الأولى.. لم يكن ذلك مجانباً للصواب ولا معارضاً للعقل، ولا ناقضاً لما يثبته العلم، أو قلنا: بأن نتقبل هذا بدون تعليل ولا تصوير لكيفية ذلك.. لا نبعد عن العقل، ولا عن العلم؛ إذ لا خلاف بين العلماء في أن ما يجهله الباحثون أضعاف ما يعرفونه. وعلى الجملة فعلينا التسليم بما أخبر به دون حاجة للبحث في كنهه أو صفته ما دام ذلك داخلاً في حيز الإمكان.

وقوله: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾ مرتب على محذوف تقديره: ولما رجع أولاد يعقوب من مصر، ووصلوا إلى أبيهم إثر مجيء البشير قالوا يا أبانا: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾؛ أي: اسأل الله سبحانه وتعالى، واطلب منه أن يغفر لنا ذنوبنا التي اجترحناها من عقوقك وإيذاء أخوينا ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾؛ أي: متعمدين لهذه الخطيئة عاصين لله، ظانين أن نكون بعدها قوماً صالحين، الآن اعترفوا بذنوبهم كما اعترفوا ليوسف من قبل، لكن يوسف بادر إلى الاستغفار لهم وهم لم يطلبوه منه.

وإنما سألوه المغفرة[1]؛ لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لا يسقط المأثم عنهم إلا بإحلاله. قلت: وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلماً في نفسه أو ماله، أو غير ذلك ظالماً له، فإنه يجب عليه أن يتحلل له ويخبره بالمظلمة وقدرها، وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينفع، فإنه لو أخبره بمظلمة لها قدر وبال ربما لم تطب نفس المظلوم في التحلل منها، والله أعلم.

وفي «صحيح البخاري» وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء.. فليحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه، فحمل عليه».

---

(١) القرطبي.

﴿قَالَ﴾ يعقوب لهم: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾؛ أي: في مستقبل الزمان أطلب لكم من ربي مغفرة ذنوبكم، وعدهم بالاستغفار لهم في مستأنف الزمان، وعلل هذا بـ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: بأن ربه واسع المغفرة والرحمة لا ينقطع رجاء المؤمن فيها وإن ظلم وأساء. قال الزجاج[1]: أراد يعقوب أن يستغفر لهم في وقت السحر؛ لأنه أخلق بإجابة الدعاء، لا أنه بخل عليهم بالاستغفار. وقيل: أخره إلى ليلة الجمعة، وقيل: أخره إلى أن يستحل لهم من يوسف، ولم يعلم أنه قد عفا عنهم. وجملة: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليل لما قبله كما مر آنفاً.

وعن الشعبي[2]: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾ قال: أسأل يوسف، إن عفا عنكم أستغفر لكم ربي، فإن عفو المظلوم شرط المغفرة، فأخر الاستغفار إلى وقت الاجتماع بيوسف، فلما قدموا عليه في مصر قام إلى الصلاة في السحر ليلة الجمعة، وكانت ليلة عشوراء، فلما فرغ رفع يديه، وقال: اللهم اغفر جزعي على يوسف، وقلة صبري منه، واغفر لأولادي ما أتوا به أخاهم، وقام يوسف خلفه يؤمِّن، وقام إخوته خلفهما أذلة خاشعين، فأوحى الله تعالى إليه أن الله قد غفر لك ولهم أجمعين، ثم لم يزل يدعو لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة إلى أن حضرت الوفاة.

وقال في «روح البيان»: سوف وعسى ولعل في وعد الأكابر والعظماء يدل على صدق الأمر وجده، ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم وترك استعجالهم، فعلى ذلك جرى وعد يعقوب كأنه قال: إني أستغفر لكم ربي لا محالة، وإن تأخر كما في «بحر العلوم».

فائدة: والفارق بين جواب يعقوب وجواب يوسف من وجوه كثيرة اقتضتها الحكمة:

١ ـ أن حال أبيهم معهم حال المربي المرشد للمذنب، لا حال المنتقم

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

الذي يخشى أذاه، وليس من حسن التربية ولا من طرق التهذيب أن يريهم أن ذنبهم هين لديه حتى يعجل بإجابة مطلبهم بالاستغفار لهم.

٢ ـ أن ذنبهم لم يكن موجهاً إليه مباشرة، بل موجه إلى يوسف وأخيه، ثم إليه بالتبع واللزوم إلا أنه ليس من العدل أن يستغفر لهم إلا بعد أن يعلم حالهم مع يوسف وأخيه، ولم يكن يعقوب قد علم بعفو يوسف عنهم واستغفاره.

٣ ـ أن هذا ذنب كبير وإثم عظيم طال عليه الأمد، وحدثت منه أضرار نفسية وخلقية، وأعمال كان لها خطرها، فلا يمحى إلا بتوبة نصوح تجتث الجذور التي علقت بالأنفس والأرجاس التي باضت وفرخت فيها. فلا يحسن بعدئذ من المربي الحكيم أن يسارع إلى الاستغفار لمقترفها عقب طلبه، حتى كأنها من هينات الأمورالتي تغفر ببادرة من الندم، ومن ثم تلبث في الاستغفار لهم إلى أجل، ليعلمهم عظيم جرمهم، ويعلمهم بأنه سوف يتوجه إلى ربه، ويطلب لهم الغفران منه بفضله ورحمته.

٤ ـ أن حال يوسف معهم كان حال القادر، بل المالك القادر مع مسيء ضعيف لديه عظم جرمه عليه، فلم يشأ أن يكون الغفران بشفاعته ودعائه، فآمنهم من خوف الانتقام تعجيلاً للسرور بالنعمة الجديدة التي جعل الله أمرها بين يديه، وليروا ويرى الناس فضل العفو عند القدرة، وليكون لهم في ذلك أحسن الأسوة. وفي هذا من ضروب التربية أكبر العظة، ولو أخر المغفرة لكانوا في وجل مما سيحل بهم، ولخافوا شر الانتقام، فكانوا في قلق دائم وتبلبل بال واضطراب نفس، فكان توجسهم له عذاباً فوق العذاب الذي هم فيه، ولكن شاءت رحمته بهم أن يجعل السرور عاماً، والحياة الجديدة حافلة بالاطمئنان وقرة العين، وهكذا شاءت الأقدار وشاء الله أن يكون ذلك، وهو العليم الحكيم.

تأويل رؤيا يوسف من قبل

وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ في محل ضرب فيه يوسف خيامه حين خرج من مصر لتلقي أبيه ﴿ءَاوَىٰٓ﴾ يوسف وضم ﴿إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾؛ أي: أباه وخالته

وأعتنقهما، فإن أمه ماتت في نفاس أخيه بنيامين، فمعنى بنيامين بالعبراية ابن الوجع؛ لأن يامين معناه الوجع، ولما ماتت أمه راحيل.. تزوج أبوه بخالته ليا والرابة، وهي موطؤة الأب، تدعى أماً؛ لقيامها مقام الأم، أو لأن الخالة أم كما أن العم أب. وظاهر الآية يدل على أن أمه كانت لا تزال حية، ورجحه ابن جرير، وخالفه أكثر المفسرين كما بينا. وفيه حذف وإيجاز يفهم من سياق الكلام، وتقدير المعنى: فبعد أن ذهب إخوة يوسف إلى أبيهم وأخبروه بمكانة يوسف في مصر، وأنه الحاكم المفوض المستقل في أمرها.. أبلغوه أن يدعوهم كلهم للإقامة معه في مصر والتمتع بحضارتها، فرحلوا حتى بلغوها، ولما دخلوا على يوسف وكان قد استقبلهم في الطريق في جمع حافل احتفاء بهم.. ضم إليه أبويه واعتنقهما.

روي[1]: أن يوسف وجه إلى أبيه جهازاً كثيراً ومئتي راحلة، وسأله أن يأتيه بأهله أجمعين، فتهيأ يعقوب للخروج إلى مصر، فتوجه مع أولاده وأهاليهم إلى مصر على رواحلهم، فلما قربوا من مصر أخبر بذلك يوسف، فاستقبله يوسف والملك الريان ـ في أربعة آلاف من الجند، أو ثلاث مئة ألف فارس ـ والعظماء وأهل مصر بأجمعهم، ومع كل واحد من الفرسان جنة من فضة وراية من ذهب، فتزينت الصحراء بهم واصطفُّوا صفوفاً، وكان الكل غلمان يوسف ومراكبه، ولما صعد يعقوب تلاً ومعه أولاده وحفدته؛ أي: أولاد أولاده ونظر إلى الصحراء مملوءة من الفرسان مزينة بالألوان نظر إليهم متعجباً، فقال له جبريل: انظر إلى الهواء، فإن الملائكة قد حضرت سروراً بحالكم كما كانوا محزونين مدة لأجلك، ثم نظر يعقوب إلى الفرسان، فقال: أيهم ولدي يوسف؟ فقال جبريل: هو ذاك الذي فوق رأسه ظلة، فلم يتمالك أن أوقع نفسه من البعير، فجعل يمشي متوكئاً على يهوذا، فقال جبريل: يا يوسف إن أباك يعقوب قد نزل لك، فانزل له، فنزل من فرسه وجعل كل واحد منهما يعدو إلى الآخر، فلما تقاربا قصد يوسف أن يبدأ بالسلام، فقال جبريل: لا حتى يبدأ يعقوب به؛ لأنه أفضل وأحق، فابتدأ به

(١) روح البيان.

وقال: السلام عليك يا مذهب الأحزان، فتعانقا وبكيا سروراً وبكت ملائكة السموات وماج الفرسان بعضهم في بعض، وصهلت الخيول وسبَّحت الملائكة، وضرب بالطبول والبوقات، فصار كأنه يوم القيامة قال يوسف: يا أبت بكيت عليّ حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ فقال: بلى، ولكن خشيت أن يسلب دينك، فيحال بيني وبينك، نسأل الله الثبات على الإيمان إنه الكريم المنان - آمين -.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف لجميع أهله قبل أن يدخلوا مصر: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ﴾ للإقامة بها ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى دخولكم حالة كونكم ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الجوع والخوف وسائر المكاره قاطبة على أنفسكم وأموالكم وأهليكم لا تخافون أحداً؛ لأنهم كانوا قبل ولاية يوسف يخافون ملوك مصر، ولا يدخلونها إلا بإجازتهم لكونهم جبابرة. قيل[1]: المراد بالدخول الأول في قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أرض مصر، وذلك حين استقبلهم، ثم قال: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ﴾ يعني البلد. وقيل: إنه أراد بالدخول الأول دخولهم مصر، وأراد بالدخول الثاني الاستيطان بها؛ أي: ادخلوا مصر مستوطنين فيها.

والمشيئة في قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ متعلقة بالدخول والأمن معاً كقولك للغازي: إرجع سالماً غانماً إن شاء الله، فالمشيئة متعلقة بالسلامة والغنم معاً. والتقدير: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله تعالى.

والمعنى: أي[2] وقال لهم يوسف: ادخلوا بلاد مصر إن شاء الله تعالى آمنين على أنفسكم وأنعامكم من الجوع والهلاك، فإن سني القحط كانت لا تزال باقية، وذكر المشيئة في كلامه للتبرؤ من مشيئته وحوله وقوته إلى مشيئة الله الذي سخر ذلك لهم، وسخر ملك مصر وأهلها له ثم لهم. وهذا من شأن المؤمنين، ولا سيما الأنبياء والصديقون.

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

﴿وَرَفَعَ﴾ يوسف ﴿أَبَوَيۡهِ﴾ عند نزولهم بمصر، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة، وكانوا حين خرجوا منها مع موسى عليه السلام ست مئة ألف وخمس مئة وبضعاً وتسعين، أو سبعين رجلاً سوى الذرية والهرمى، وكانت الذرية ألف ألف ومئتي ألف. ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾؛ أي: على السرير الرفيع الذي كان يجلس عليه يوسف؛ أي: أجلسهما معه على سرير الملك تكرمة لهما فوق ما فعله لإخوته، واشتركوا في دخول دار يوسف، لكنهم تباينوا في الإيواء، فانفرد الأبوان بالجلوس معه على سرير الملك، لبعدهما من الجفاء، كذا غداً إذا وصلوا إلى الغفران يشتركون فيه في دخول الجنة، ولكنهم يتباينون في بساط القربة، فيختص به أهل الصفاء دون من اتصف اليوم بالالتواء. ﴿وَخَرُّواْ﴾؛ أي: سقط أبوا يوسف وإخوته على الأرض ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لأجل ملاقاة يوسف واجتماعهم معه ﴿سُجَّدٗاۖ﴾؛ أي: حالة كونهم مقدرين السجود بوضع الجبهة شكراً لله تعالى على نعمة الاجتماع معه، وكان يوسف كالقبلة لهم كما سجدت الملائكة لآدم، فإن الله تعالى أمر يعقوب بالسجود لحكمة خفية، وذلك لإزالة الاستعلاء والتكبر عن قلوب إخوته، لأنهم لو لم يفعلوا ذلك السجود؛ لظهرت الأحقاد القديمة بعد كمونها، فالسجود لإزالتها، وكان ذلك جائزاً في ذلك الزمان.

فلما جاءت هذه الشريعة نسخت تلك الفعلة، فقوله: ﴿سُجَّدٗاۖ﴾ حال مقدرة كما أشرنا إليه في الحال؛ لأن السجود إنما يكون بعد الخرور.

وقيل: المراد بالسجود هنا: الانحناء لا وضع الجبهة على الأرض، والمعنى: أهوى أبوا يوسف وإخوته عن القيام والانتصاب تحية وتكرمة له حالة كونهم سجداً؛ أي: منحنين بظهورهم، وكان ذلك تحية الملوك والعظماء في عهدهم كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها من عادات الناس الناشئة في التعظيم والتوقير.

والرفع في قوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ﴾ مؤخر عن الخرور في قوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾؛ إذ السجود له كان قبل الصعود على السرير في أول الملاقاة؛ لأن ذلك هو وقت التحية إلا أنه قدم لفظاً؛ للاهتمام بتعظيمه لهما، والترتيب الذكري لا يجب كونه

على وفق الترتيب الوقوعي، وليصل به ذكر كونه تعبير رؤياه ﴿وَقَالَ﴾ يوسف لأبيه يعقوب: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾؛ أي: يا أبي ﴿هَٰذَا﴾ السجود منكم ﴿تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ﴾؛ أي: تصديق منامي التي رأيتها وقصصتها عليك ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذا الوقت في زمن الصبا يريد قوله: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾. ﴿قَدْ جَعَلَهَا﴾؛ أي: قد جعل تلك الرؤية ﴿رَبِّى حَقًّا﴾؛ أي: صدقاً في اليقظة واقعاً بعينها؛ أي: قد جعلها ربي حقيقة واقعة، واستبان أنها لم تكن أضغاث أحلام، فالكواكب الأحد عشر مثال إخوتي الأحد عشر، وأنت وأمي مثال الشمس والقمر، ولا بدع في ذلك. فهذه الأسرة هي التي حفظ الله بها ذرية إسحاق بن إبراهيم لتنشر دين التوحيد بين العالمين، فكانت خير أسر البشر جميعاً. قال سلمان: كان بين رؤياه وتأويلها أربعون عاماً. ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾ ربي وأكرمني وأنعم علي ﴿إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ والحبس، وسما بي إلى عرش الملك، إنما ذكر إخراجه من السجن، ولم يذكر إخراجه من الجبّ؛ لئلا تخجل إخوته، ولأن خروجه من السجن كان سبباً لصيرورته ملكاً، ولوصوله إلى أبيه وإخوته، ولزوال التهمة عنه، وكان ذلك من أعظم نعمه تعالى عليه، ولأن عهده بالسجن أقرب من الجبّ.

فائدة: قال لقمان الحكيم رضي الله عنه: خدمت أربعة آلاف نبي، وأخترت من كلامهم ثماني كلمات: إن كنت في الصلاة.. فاحفظ قلبك، وإن كنت في بيت الغير.. فاحفظ عينيك، وإن كنت بين الناس.. فاحفظ لسانك، واذكر اثنين وانس اثنين، أما اللذان تذكرهما فالله والموت، وأما اللذان تنساهما إحسانك في حق الغير وإساءة الغير في حقك. ذكره في «روح البيان».

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾؛ أي: من البادية، وكان يعقوب وأولاده أصحاب ماشية، فسكنوا البادية، وهي أرض كنعان بالشام. وقال علي بن طلحة؛ أي: من فلسطين. ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وأفسد ﴿بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ بالحسد، وحمل بعضنا على بعض، وأحال يوسف ذنب إخوته على الشيطان تكرماً منه وتأدباً؛ أي: وقد أحسن بي ربي من بعد أن أفسد الشيطان ما بيني وبين إخوتي من عاطفة

الأخوة، وقطع ما بيننا من وشيجة الرحم، وهيج الحسد والشر ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَطِيفٌ﴾؛ أي: عالم بدقائق الأمور رفيق بعباده مدبر ﴿لِّمَا يَشَآءُ﴾ في خلقه من خفايا الأمور بحكمته البالغة، وقدرته القاهرة، وقيل: معناه: لطيف التدبير لما يشاء من الأمور رفيق، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى حصول شيء.. سهل أسبابه فحصل، وإن كان في غاية البعد عن الحصول عند العقول.. فمن ذا الذي كان يدور بخلده أن الإلقاء في الجبّ يعقبه الرق، ويتلو الرق فتنة العشق، ومن أجله يزج في غيابات السجن، ومن ذا إلى السيادة والملك. وقال الأزهري: اللطيف من أسماء الله تعالى معناه: الرفيق بعباده، يقال: لطف فلان بفلان يلطف إذا رفق به. وقال عمرو بن أبي عمرو: اللطيف الذي يوصل إليك أربك في لطف. قال الخطابي: اللطيف هو البر بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون. وقيل: اللطيف العالم بدقائق الأمور. ذكره الشوكاني. ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده، فلا تخفى عليه مبادىء الأمور وغايتها ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل الأمور على وجه الحكمة والمصلحة، فيجازي الذين أحسنوا بالحسنى، ويجعل العاقبة للمتقين.

الإعراب

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ﴾.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿تَٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿تَٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: أقسم والله، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿تَفْتَؤُا۟﴾: فعل مضارع ناقص من أخوات زال منفي بلا المحذوفة؛ لأن جواب القسم الخالي من اللام ونون التوكيد.. يجب كونه منفياً، فلا بدّ من تقدير لا معه، واسمه ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنت يعود على يعقوب. ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿تَفْتَؤُا۟﴾، وجملة ﴿تَفْتَؤُا۟﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿تَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب

بأن مضمرة وجوباً بعد حتى بمعنى إلى، واسمه ضمير يعود على يعقوب. ﴿حَرَضًا﴾: خبره. ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾: فعل ناقص وخبره معطوف على ﴿تَكُونَ﴾ الأولى، واسمه ضمير يعود على يعقوب أيضاً، وجملة ﴿تَكُونَ﴾ الأولى، صلة أن المضرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، تقديره: إلى كونك حرضاً، أو كونك من الهالكين، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَذْكُرُ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَآ﴾: أداة حصر. ﴿أَشْكُواْ بَثِّى﴾: فعل ومفعول. ﴿وَحُزْنِىٓ﴾: معطوف على ﴿بَثِّى﴾، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَشْكُواْ﴾. ﴿وَأَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به لـ﴿أعلم﴾؛ لأنه بمعنى عرف. ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما لا تعلمونه، وجملة ﴿أعلم﴾: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَشْكُواْ﴾.

﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿يَٰبَنِىَّ﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿بني﴾: منادى منصوب، وعلامة نصبه الياء المدغمة في ياء المتكلم؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، لأن أصله: يا بنين لي، حذفت النون للإضافة، واللام للتخفيف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱذْهَبُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿تحسسوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱذْهَبُواْ﴾. ﴿مِن يُوسُفَ﴾: متعلق به. ﴿وَأَخِيهِ﴾: معطوف

على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية معطوف على قوله: ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾. ﴿مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ﴾: فعل مضارع مرفوع. ﴿مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلْقَوْمُ﴾: فاعل. ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ مسوق لتعليل ما قبلها.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء): عاطفة على محذوف تقديره: فخرجوا من عند أبيهم، فذهبوا إلى مصر، فلما دخلوا على يوسف. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿دَخَلُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾: معطوفة على الجملة المحذوفة. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أيّ﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ ﴿مَسَّنَا﴾: فعل ومفعول. ﴿وَأَهْلَنَا﴾: معطوف على ضمير المفعول. ﴿ٱلضُّرُّ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَجِئْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿مَسَّنَا﴾. ﴿بِبِضَٰعَةٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جئنا﴾. ﴿مُّزْجَىٰةٍ﴾: صفة لـ﴿بضاعة﴾. ﴿فَأَوْفِ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿أوف﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿لَنَا﴾: متعلق به. ﴿ٱلْكَيْلَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَجِئْنَا﴾. ﴿وَتَصَدَّقْ﴾: فعل أمر معطوف على ﴿أوف﴾، وفاعليه ضمير يعود على يوسف. ﴿عَلَيْنَآ﴾: متعلق به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة مستأنفة. ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام التوبيخي. ﴿عَلِمْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَّا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به؛ لأنه بمعنى عرف. ﴿فَعَلْتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِيُوسُفَ﴾: متعلق به. ﴿وَأَخِيهِ﴾: معطوف على ﴿يوسف﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَّا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما فعلتموه. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان. ﴿أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾، والظرف متعلق بـ﴿فَعَلْتُم﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت ﴿أَءِنَّكَ﴾: (الهمزة): للاستفهام التقريري. ﴿إنك﴾: ناصب واسمه. ﴿لَأَنتَ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿أنت يوسف﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، ويجوز أن يكون ﴿أنت﴾: ضمير فصل، ولا يجوز أن يكون توكيداً لاسم ﴿إن﴾؛ لأن هذه اللام لا تدخل على التوكيد. ا هـ. «سمين»، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفُ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَهَٰذَآ أَخِى﴾: مبتدأ وخبر معطوف على جملة قوله: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾. ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْنَآ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب. ﴿يَتَّقِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ على

كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿وَيَصۡبِرۡ﴾: معطوف عليه. ﴿فَإِنَّ﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، والرابط بين جملة الشرط وبين جوابها؛ إما العموم في ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، وإما الضمير المحذوف؛ أي: المحسنين منهم، وإما لقيام أل مقامه، والأصل محسنهم، فقامت أل مقام ذلك الضمير، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، وهذا الإعراب على قراءة الجمهور في ﴿يَتَّقِ﴾. وأما قراءة قنبل فاختلف الناس فيها على قولين:

أجودهما: أن إثبات حرف العلة في الجزم لغة لبعض العرب.

والثاني: أنه مرفوع غير مجزوم، و﴿مَن﴾ موصولة، والفعل صلتها، فلذلك لم تحذف لامه. ا هـ. «سمين»، وحذفت الضمة في ﴿يصبر﴾ على هذه القراءة فراراً من ثقل توالي الحركات، أو نوى الوقف عليه وأجرى الوصل مجرى الوقف.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿تَٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم والله، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿لَقَدۡ﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿عَلَيۡنَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونها جواب القسم. ﴿وَإِن﴾: (الواو): عاطفة. ﴿إن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، واللام: حرف ابتداء، وجملة ﴿كان﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إن﴾ المخففة معطوفة على جواب القسم.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة مستأنفة. ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ إلى قوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَثْرِيبَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿عَلَيْكُمُ﴾: خبر ﴿لَا﴾. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: خبر ثان لها، أو متعلق باسم ﴿لَا﴾، وجملة ﴿لَا﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿ٱذْهَبُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿بِقَمِيصِى﴾: متعلق به على أنه مفعول به، أو حال من واو ﴿اذهبوا﴾. ﴿هَٰذَا﴾: بدل من ﴿قميصي﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَأَلْقُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ٱذْهَبُوا۟﴾. ﴿عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿ألقوه﴾. ﴿يَأْتِ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿بَصِيرًا﴾: حال من فاعل ﴿يَأْتِ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأْتُونِى﴾: فعل وفاعل ومفعول ونون وقاية معطوف على ﴿ألقوه﴾. ﴿بِأَهْلِكُمْ﴾: متعلق به أو حال من واو الفاعل. ﴿أَجْمَعِينَ﴾: توكيد لـ﴿أهلكم﴾.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ (الواو): استئنافية. ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾: فعل وفاعل فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾: فعل وفاعل جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾: مستأنفة. ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّى﴾: ناصب واسمه. ﴿لَأَجِدُ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿أجد ريح يوسف﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على أبيهم، وجملة وجد في

محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لَوْلَآ﴾: حرف امتناع لوجود. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تُفَنِّدُونِ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأن أصله: تفندونني، والواو فاعل، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، والخبر محذوف تقديره: لولا تفنيدكم موجود، وجواب ﴿لَوْلَآ﴾ محذوف تقديره: لولا تفنيدكم لي موجود لصدقتموني؛ أي: امتنع تصديقكم لي لوجود تفنيدكم لي، وجملة ﴿لَوْلَآ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿تَاللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بفعل قسم محذوف، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفِى﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿في ضلالك﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾. ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾: صفة لـ﴿ضَلَٰلِكَ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ على كونها جواب القسم.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ﴾: (الفاء): استئنافية. ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿أَن﴾: زائدة. ﴿جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿أَلْقَىٰهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْبَشِيرُ﴾. ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾: مستأنفة. ﴿فَٱرْتَدَّ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿ارتد﴾: فعل ماض ناقص من أخوات صار، واسمه ضمير يعودعلى يعقوب. ﴿بَصِيرًا﴾: خبره، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أَلْقَىٰهُ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة مستأنفة. ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَلَمْ﴾: (الهمزة): للاستفهام التقريري. ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿أَقُل﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾ وفاعله ضمير يعود

على يعقوب. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي. لـ﴿أَقُل﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّيٓ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿أَقُل﴾. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿أَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما لا تعلمونه.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالُواْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾: منادى منصوب بالألف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿ٱسْتَغْفِرْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿لَنَا﴾: متعلق به ﴿ذُنُوبَنَآ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ على كونها جواب النداء. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾: فعل ماض ناقص واسمه وخبره، وجملة كان في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونها تعليلاً لما قبلها.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة مستأنفة. ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿سَوْفَ﴾: حرف تنفيس. ﴿أَسْتَغْفِرُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به. ﴿رَبِّيٓ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْغَفُورُ﴾: خبر أول لـ﴿إن﴾. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: (الفاء): عاطفة على محذوف تقديره: فرحل يعقوب وأولاده إلى

مصر. ﴿فلما دخلوا﴾: ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿دَخَلُواْ﴾: فعل وفاعل فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: متعلق به. ﴿ءَاوَىٰٓ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿إِلَيۡهِ﴾: متعلق به. ﴿أَبَوَيۡهِ﴾: مفعول به، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾: معطوفة على الجملة المحذوفة. ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَاوَىٰٓ﴾. ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِصۡرَ﴾: منصوب على الظرفية المكانية متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها تقديره: إن شاء الله ادخلوا مصر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿ءَامِنِينَ﴾: حال من فاعل ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾.

﴿وَرَفَعَ﴾ (الواو): عاطفة. ﴿رفع أبويه﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَاوَىٰٓ﴾. ﴿وَخَرُّواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق به. ﴿سُجَّدٗاۖ﴾: حال مقدرة من فاعل ﴿وَخَرُّواْ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَاوَىٰٓ﴾. ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿خروا﴾. ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول القول على كونها جواب النداء. ﴿مِن قَبۡلُ﴾: جار ومجرور حال من ﴿رُءۡيَٰيَ﴾. ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل ومفعول ثان؛ لأن جعل هنا بمعنى صير، والجملة في محل النصب حال مقدرة من ﴿رُءۡيَٰيَ﴾.

﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿وَقَدْ﴾ (الواو): حالية، أو عاطفة. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَحْسَنَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الرب. ﴿بِيٓ﴾: جار ومجرور بمعنى إليّ متعلق بـ﴿أَحْسَنَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿رَبِّي﴾، أو معطوفة على جواب النداء. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى متعلق بـ﴿أَحْسَنَ﴾. ﴿أَخْرَجَنِي﴾: فعل ومفعول ونون وقاية. ﴿مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿وَجَآءَ﴾: فعل ماضٍ معطوف على ﴿أَخْرَجَنِي﴾، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِكُم﴾: متعلق به. ﴿مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾: متعلق به أيضاً. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور بدل من الجار والمجرور قبله. ﴿أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه. ﴿بَيْنِي﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿نَّزَغَ﴾. ﴿وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾: ظرف ومضاف إليه معطوف على الظرف قبله. ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معللة لما قبلها. ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿لَطِيفٌ﴾؛ لأنه بمعنى مدبر. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: لما يشاءه. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: خبر أول. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ﴾[1] مضارع فتىء من أخوات كان الناقص، قال أوس بن حجر:

فَمَا فَتِئَتْ حَتَّىٰ كَأَنَّ غُبَارَهَا   سُرَادِقُ يَوْمٍ ذِيْ رِيَاحٍ تُرْفَعُ

وقال أيضاً:

فَمَا فَتِئَتْ خَيْلٌ تَثُوْبُ وَتَدَّعِي   وَيَلْحَقُ مِنْهَا لاَحِقٌ وَتَقَطَّعُ

---

(١) البحر المحيط.

ويقال فيها: فتأ على وزن ضرب، وأفتأ على وزن أكرم، وزعم ابن مالك أنها تكون بمعنى سكن وأطفأ، فتكون تامة، ورددنا عليه ذلك في «شرح التسهيل». ذكره أبو حيان، فتفتأ هنا بمعنى لا تزال.

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ والحرض[1]: المشفي على الهلاك: يقال: حرض فهو حرض ـ بكسر الراء ـ حرضاً ـ بفتحها ـ وهو المصدر، ولذلك يستوي فيه المذكر والمؤنث، والمفرد والجمع، وأحرضه المرض فهو محرض.

قال الشاعر:

أَرَىٰ ٱلْمَرْءَ كَٱلأَزْوَادِ يُصْبِحُ مُحْرَضاً كَإِحْرَاضِ بَكْرٍ فِيْ ٱلدِّيَارِ مَرِيْضُ

ويقال: رجل حُرُض ـ بضمتين ـ كجنب وشلل. وفي «المصباح»: حرض حرضاً ـ من باب تعب ـ أشرف على الهلاك، فهو حرض. اهـ. وقولهم: يستوي فيه المفرد وغيره؛ أي: المثنى والمجموع والمذكر والمؤنث، تقول: هو حرض وهما حرض وهم حرض وهي حرض. اهـ. «كرخي». وفي «الشوكاني»: الحَرَض ـ بفتحتين ـ مصدر يستوي فيه المفرد وغيره، والصفة المشبهة حَرِض ـ بكسر الراء ـ كدنف ودنف. قال النحاس: وحكى أهل اللغة: أحرضه الهم إذا أسقمه، ورجل حارض؛ أي: أحمق. وقال الأخفش: الحارض الذاهب. وقال ابن الأنباري: هو الهالك. والأولى تفسير الحرض هنا بغير الموت والهلاك من هذه المعاني المذكورة حتى يكون لقوله: ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ معنى غير معنى الحرض، فالتأسيس أولى من التأكيد، ومعنى ﴿مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ من الميتين. اهـ.

﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ﴾ البث في[2] الأصل: إثارة الشيء وتفريقه كبث الريح التراب، ثم استعمل في إظهار ما انطوت عليه النفس من الغم والشر. والبث[3]: ما يرد على الإنسان من الأشياء التي يعظم حزن صاحبها بها حتى لا يقدر على إخفائها كذا قال أهل اللغة، وهو مأخوذ من بثثته؛ أي: فرقته، فسميت

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

المصيبة بثاً مجازاً.

قال ذو الرمة:

وَقَفْتُ عَلَىٰ رَبْعٍ لِمَيَّةَ يَا فَتَىٰ ... فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأُخَاطِبُهْ

وَأَسْقِيهِ حَتَّىٰ كَادَ مِمَّا أَبُثُّهُ ... تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهْ

﴿فَتَحَسَّسُوا﴾؛ أي: تعرفوا أخبار يوسف بحواسكم من سمع وبصر. والتحسس[1]: طلب الخبر بالحاسة، وهو قريب من التجسس - بالجيم -، وقيل: إن التحسس - بالحاء - يكون في الخير، وبالجيم يكون في الشر، ومنه الجاسوس، وهو الذي يطلب الكشف عن عورات الناس.

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾؛ أي: لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه. قال الأصمعي: الروح ما يجده الإنسان من نسيم الهواء، فيسكن إليه، والتركيب يدل على الحركة والهزة، فكل ما يهتز الإنسان بوجوده ويلتف به، فهو روح. وحكى الواحدي عن الأصمعي أيضاً أنه قال: الروح الاستراحة من غم القلب. وقال أبو عمرو: الروح الفرج، وقيل: الرحمة، ويقال: أراح الإنسان إذا تنفس، ثم استعمل للفرج والتنفيس من الكرب.

﴿بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ البضاعة: هي القطعة من المال يقصد بها شراء شيء، يقال: أبضعت الشيء واستبضعته إذا جعلته بضاعة. وفي ماهية تلك البضاعة سبعة أقوال[2]:

أحدها: كانت دراهم.

والثاني: كانت متاعاً رثاً كالحبل والغرارة.

والثالث: كانت أقطا.

والرابع: كانت نعالاً وأدماً.

---

(١) الفتوحات.

(٢) زاد المسير.

والخامس: كانت سويق المقل.

والسادس: كانت حبة الخضراء وصنوبراً.

والسابع: كانت صوفاً وشيئاً من سمن.

﴿مُّزْجَىٰةٍ﴾؛ أي: مردودة يردها كل بائع على المشتري لردائتها. وفي «القاموس»: زجاه إذا ساقه ودفعه كزجاة وأزجاه، وبضاعة مزجاة: قليلة، أو لا يتم صلاحها. ا هـ. وفي «المصباح»: زجيته بالتثقيل دفعته برفق، والريح تزجي السحاب: تسوقه رفيقاً، يقال: أزجاه بوزن أرضاه، وزجاه بالتثقيل كزكّاه. ا هـ.

﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ جمع خاطىء، والخاطىء: هو الذي يأتي بالخطيئة عمداً، والمخطىء من إذا أراد الصواب صار إلى غيره، والخطء: الذنب، وخطأته: قلت له: أخطأت. وفي «الخازن»: يقال: خطىء إذا كان عن عمد، وأخطأ إذا لم يكن عن عمد، ولهذا قيل هنا: خاطئين، ولم يقل: مخطئين. ا هـ.

﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: لا تعيير ولا توبيخ؛ أي: لا أوبخكم ولا أقرعكم اليوم. ا هـ. «خازن». وفي «المصباح»: ثرب عليه يثرب ـ من باب ضرب ـ؛ إذا عتب ولام عليه، وبمضارعه الذي بياء الغيبة سمي رجل من العمالقة وهو الذي بنى مدينة الرسول ﷺ، فسميت المدينة باسمه. قال السهيلي: وَثرَّب ـ بالتشديد ـ مبالغة وتكثير، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾. والثَّرْبُ ـ وزان قلس ـ شحم رقيق على الكرش والأمعاء. ا هـ. وفي «المختار»: عتب عليه وجد، وبابه ضرب ونصر. ا هـ.وقال الرازي: التثريب التعيير والاستقصاء في اللوم، والمعنى: أي: لا تعداد للذنوب ولا توبيخ عليكم، يقال: ثرب فلان على فلان إذا بكته بفعله، وعدد عليه ذنوبه. ا هـ. «كرخي».

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ يقال: فصل عن البلد إذا انفصل وجاوز حيطانه ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾؛ أي: تنسبوني إلى الفند، وهو فساد الرأي وضعف العقل والخرف من الكبر. وفي «السمين»: التفنيد الإفساد يقال: فندت فلاناً؛ أي: أفسدت رأيه ورددته. وفي «المختار»: الفَنَد ـ بالتحريك الكذب وهو أيضاً ضعفُ الرأي من

الهرم، والفعل منه أفند، والتفنيد: اللوم وتضعيف الرأي. ا هـ. وفي «القاموس»: الفَنَد ـ بالتحريك ـ الخرف وإنكار العقل لهرم أو مرض، والخطأ في القول والرأي، والكذب كالإفناد، ولا تقل: عجوز مفندة؛ لأنها لم تكن ذات رأي أبداً، وفنده تفنيداً كذبه وعجزه، وخطأ رأيه كأفنده. ا هـ. وقال في «الكشاف»: التفنيد النسبة إلى الفند؛ وهو الخرف وإنكار العقل من الهرم، يقال: شيخ مفند، ولا يقال: عجوز مفندة؛ لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأي، فتفند في كبرها؛ لأن نقصان عقلها ذاتي لا حادث من عارض الهرم كما مر.

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾؛ أي: ضمهما إليه واعتنقهما أصله: أأوى من باب أفعل الرباعي، فقلبت الهمزة الثانية ألفاً، فصار أوى. ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾؛ أي: أصعدهما عليه، والعرش، كرسي تدبير الملك، لا كل سرير يجلس عليه الملك. ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾؛ أي: أهوى أبواه وإخوته إلى الأرض، وسقطوا له ساجدين.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾؛ أي: من البادية، والبدو: هو البسيط من الأرض يبدو الشخص فيه من بعد يعني: يظهر، والبدو خلاف الحضر، والبادية خلاف الحاضرة، وكان يعقوب وأولاده أصحاب ماشية، فسكنوا البادية. ا هـ. «خازن». وفي «القرطبي»: وقيل: كان يعقوب تحول إلى البادية وسكنها، وإن الله تعالى لم يبعث نبياً من أهل البادية. ا هـ.

﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾. ﴿أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ في «المختار»: نزغ الشيطان بين القوم: أفسد، وبابه قطع. ا هـ. وفي «الخازن»: وأصل النزغ: الدخول في أمر لإفساده. ا هـ.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ وفي «البيضاوي»: لطيف لما يشاء؛ أي: من أحوال خلقه؛ أي: لطيف التدبير له؛ إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته، ويتسهل دونها. ا هـ. يعني: إن اللطيف هنا بمعنى العالم بخفايا الأمور المدبر لها والمسهل لصعابها، ولنفوذ مشيئته إذا أراد شيئاً سهل أسبابه، فيطلق عليه اللطيف؛ لأن ما يلطف يسهل نفوذه. ا هـ. «شهاب».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من الفصاحة، وأنواعاً من البلاغة والبيان والبديع:

فمنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾؛ لأنه في تقدير: لا تفتأ وهو من قبيل التورية كما في «الصاوي».

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفي قوله: ﴿وَلَا تَاْيْـَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَاْيْـَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾، وفيه أيضاً الإظهار في مقام الإضمار؛ لأن حق العبارة: إنه لا ييأس منه.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ استعير الروح؛ وهو تنسيم الريح الذي يلذ شميمها، ويطيب نسيمها للفرج الذي يأتي بعد الكربة واليسر الذي يأتي بعد الشدة.

ومنها: وضع الظاهر موضع الضمير في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ حق العبارة: إن الله يجزيك، عدلوا إلى الظاهر لشكهم في إيمانه، فعبروا بهذه العبارة المحتملة.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿تصدق﴾ و﴿الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ والاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾.

ومنها: الإتيان بالاسم الظاهر بدل الضمير في قوله: ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾ لم يقل: أنا هو، بل عدل إلى هذ الظاهر تعظيماً لما نزل به من ظلم إخوته، وما عوضه الله من النصر والظفر والملك، فكأنه قال: أنا يوسف المظلوم الذي ظلمتموني وقصدتم قتلي.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وحق العبارة: فإن الله لا يضيع أجرهم.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ﴾ أكدوا كلامهم بالقسم وبإن وباللام وبإسمية الجملة، وهذا الضرب من الخبر يسمى إنكارياً لتتابع أنواع المؤكدات.

ومنها: الاعتراض بالجملة الشرطية بين الحال وصاحبها في قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾لغرض التبرك، وفي الكلام تقديم وتأخير، والأصل: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ لأن المراد بهما الأب والأم، فهو من باب التغليب.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

ولمّا أتمّ الله[١] سبحانه نعمته على يوسف عليه السلام بما خلصه منه من المحن العظيمة، وبما خوله من الملك وعلمه من العلم.. تاقت نفسه إلى الخير الأخروي الدائم الذي لا ينقطع، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾؛ أي: قال يوسف بعد ما جمع الله له أبويه وإخوته وبسط له من الدنيا ما بسط من الكرامة، ومكن له في الأرض: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي﴾؛ أي:[٢] أعطيتني بعض الملك؛ أي: بعضاً منه عظيماً، وهو ملك مصر، إذ لم يكن له ملك كل الدنيا، وجعلتني متصرفاً فيها بالفعل، وإن كان لغيري بالاسم، ولم يكن لي فيها حاسد ولا باغٍ؛

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

إذ أجريت الأمور على سنن العدل ووفق الحكمة والسداد والملك. ضابطها هي عبارة[١] عن الاتساع في المقدور لمن له السياسة والتدبير.

روي[٢]: أن يعقوب أقام مع يوسف في مصر أربعاً وعشرين سنة، وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق، فنقله يوسف بنفسه في تابوت من ساج، فوافق يوم وفاة عيص، فدفنا في قبر واحد، وكانا ولدا في بطن واحد، وكان عمرهما مئة وسبعاً وأربعين كما في تفسير أبي الليث، فلما دفن يوسف أباه وعمه رجع إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، وكان عمره مئة وعشرين سنة، فلما جمع الله شمله وانتظمت أسبابه، واطردت أحواله، ورأى أمره على الكمال.. علم أنه أشرف على الزوال، وأن نعيم الدنيا لا يدوم على كل حال، قال قائلهم:

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ دَنَا نَقْصُهُ ... تَوَقَّعْ زَوَالاً إِذَا قِيلَ تَمّ

فسأل الله تعالى الموت على الإسلام وحسن العاقبة، والخاتمة الصالحة، فقال: يا رب قد أعطيتني ملك مصر ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾؛ أي: بعضاً من تعبير الرؤيا؛ لأنه لم يؤت جميع علم التأويل على التفصيل؛ سواء أريد به مطلق العلم والفهم، أو مجرد تأويل الرؤيا. وقيل: ﴿مِنَ﴾[٣] للجنس كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾. وقيل: زائدة؛ أي: آتيتني الملك، وعلمتني تأويل الأحاديث؛ أي: ويا رب قد علمتني ما أعبر عن مآل الحوادث ومصداق الرؤيا الصحيحة، فتقع كما قلت وأخبرت.

قال ابن الكمال[٤]: الأحاديث مبني على واحده المستعمل، وهو الحديث كأنهم جمعوا حديثاً على أحدثة، ثم جمعوا الجمع على أحاديث كقطيع وأقطعة وأقاطيع. والمراد بالأحاديث: الرؤى جمع الرؤيا، وتأويلها بيان ما تؤول هي إليه في الخارج، وعلم التعبير من العلوم الجليلة، لكنه ليس من لوازم النبوة والولاية، فقد يعطيه الله تعالى بعض خواصه على التفصيل، وبعضهم على الإجمال. ﴿فَاطِرَ

---

(١) الخازن.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) روح البيان.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: يا خالق السموات والأرض وموجدهما ومبدعهما على غير مثال سبق، وأصل الفطر: الشق، يقال: فطر ناب البعير، إذا شق وظهر، وفطر الله الخلق أوجده وأبدعه كما سيأتي في مبحث التصريف. ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾؛ أي: أنت متولي أموري ومصلح جميع مهماتي، أو ناصري على من عاداني وأرادني بسوء، أو أنت سيدي وأنا عبدك، وإن نعمك لتغمرني وتشملني ﴿في الدنيا و﴾ سأتمتع بها بفضلك ورحمتك في ﴿الآخرة﴾ ولا حول لي في شيءٍ منهما ولا قوة ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾؛ أي: توفني على الإسلام لا يفارقني حتى أموت، واقبضني إليك مسلماً؛ لأنه من إتمام النعمة، وأتم لي وصية آبائي وأجدادي ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾. واختلف العلماء(١): هل هو طلب الوفاة في الحال، أم لا؟ على قولين:

أحدهما: أنه سأل الله الوفاة في الحال. قال قتادة: لم يسأل نبي من الأنبياء الموت إلا يوسف. قال أصحاب هذا القول: إنه لم يأت عليه أسبوع بعد هذا الدعاء حتى توفاه الله.

والقول الثاني ـ وعليه الجماهير ـ: أنه سأل الوفاة على الإسلام، ولم يتمن الموت في الحال. قال الحسن: إنه عاش بعد هذه الدعوة سنين كثيرة. وعلى هذا القول يكون معنى الآية: توفني إذا توفيتني على الإسلام، فهو طلب لأن يجعل الله وفاته على الإسلام، وليس في اللفظ ما يدل على أنه طلب الوفاة في الحال. قال بعض العلماء: وكلا القولين محتمل؛ لأن اللفظ صالح للأمرين، ولا يبعد من الرجل العاقل الكامل أن يتمنى الموت لعلمه أن الدنيا ولذاتها فانية زائلة سريعة الذهاب، وأن نعيم الآخرة باق دائم لا نفاد له ولا زوال. ﴿وَأَلۡحِقۡنِي﴾ يا رب ﴿بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾؛ أي: بآبائي المرسلين إبراهيم وإسحاق ويعقوب ومن قبلهم من أنبيائك ورسلك في النعمة والكرامة، فأظفر بثوابهم منك ودرجاتهم عندك، وهذا الدعاء بمعنى ما جاء في سورة الفاتحة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ

---

(١) الخازن.

﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

فإن قلت:[1] كيف قال يوسف ذلك مع علمه بأن كل نبي لا يموت إلا مسلماً؟.

فالجواب: إما أنه حصل له حالة غلب عليه الخوف فيها، فذهل عن ذلك العلم، أو أنه دعا بذلك مع علمه إظهاراً للعبودية، والافتقار وشدة الرغبة في طلب سعادة الخاتمة، وتعليماً لغيره، وهذه حالة زائدة على الإسلام الذي هو ضد الكفر، والمطلوب ههنا هو الإسلام بهذا المعنى. ا هـ. «كرخي».

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من نبأ يوسف يا محمد ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: من الأخبار التي غاب عنك علمها ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ على لسان جبريل، وهو خبر ثان لقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿لَدَيْهِمْ﴾؛ أي: عند إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾؛ أي: حين عزموا على إلقاءهم يوسف في غيابة الجبّ، فإن الإجماع العزم على الأمر، يقال: أجمعت الأمر وعليه ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم يحتالون بيوسف ليقتلوه وبأبيه يعقوب ليرسله معهم؛ أي: ذلك[2] الخبر لا سبيل إلى معرفتك إياه إلا بالوحي. وأما ما ينقله أهل الكتاب فليس على ما هو عليه. ومثل هذا التحقيق بلا وحي لا يتصور إلا بالحضور، فيكون معجزاً؛ لأن محمداً ﷺ لم يطالع الكتب، ولم يأخذ عن أحد من البشر، وما كانت بلده بلد العلماء، فإتيانه بهذه القصة على وجه لم يقع فيه غلط كيف لا يكون معجزاً.

وإنما نفي الحضور وانتفاؤه معلوم بغير شبهة تهكماً بالمنكرين للوحي من قريش وغيرهم[3]؛ لأنه كان معلوماً عند المكذبين علماً يقيناً أنه عليه السلام ليس من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا قرأ على أحد، ولا سمع منه، وليس من علم قومه، فإذا أخبر به لم يبق شبهة في أنه من جهة الوحي لا من عنده، فإذا أنكروه تهكم بهم، وقيل لهم: قد علمتم يا مكابرين أنه لا سماع له من أحد ولا قراءة، ولا حضور ولا مشاهدة لمن مضى من القرون الخالية.

---

(١) الفتوحات.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.

ومعنى الآية: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾؛ أي: إن نبأ[1] يوسف وأبيه يعقوب وإخوته، وكيف مكن ليوسف في الأرض، وجعل له العاقبة والنصر، وآتاه الملك والحكمة، فساس ملكاً عظيماً، وأحسن إدارته وتنظيمه، وكان خير قدوة للناس في جميع ما دخل فيه من أطوار الحياة بعد أن أرادوا به السوء والهلاك حين عزموا أن يجعلوه في غيابة الجبّ، كل ذلك من أخبار الغيب الذي لم تشاهده ولم تره، ولكنا نوحيه إليك لنثبت به فؤادك، فتصبر على ما نالك من الأذى من قومك، ولتعلم أن من قبلك من الرسل لما صبروا على ما نالهم في سبيل الله، وأعرضوا عن الجاهلين.. فازوا بالظفر وأيدوا بالنصر وغلبوا أعداءهم. ثم أقام الدليل على كونه من الغيب بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾؛ أي: وما كنت[2] حاضراً عندهم ولا مشاهداً حين صحت عزائمهم على أن يلقوا يوسف في غيابة الجبّ يبغون بذلك هلاكه والخلاص منه، وهذا كقوله تعالى بعد سياق قصة موسى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ الآية، وقوله في هذه القصة: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا...﴾ الآية. وفي «الخازن»: وفي هذه الآية دليل قاطع على صحة نبوته ﷺ؛ لأنه كان أمياً لم يقرأ الكتب، ولم يلق العلماء، ولم يسافر إلى غير بلده الذي نشأ فيه، ومع ذلك أتى بهذه القصة الطويلة على أحسن تركيب وأفصح عبارة، فعلم أن إتيانه ﷺ بها بوحي من الله تعالى. ا هـ.

وخلاصة هذا: أن الله تعالى أطلع رسوله على أنباء ما سبق؛ ليكون فيها عبرة للناس في دينهم ودنياهم، ومع هذا ما آمن أكثرهم، ومن ثم قال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ عام لأهل مكة وغيرهم ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم، وبالغت في إظهار الآيات الدالة على صدقك لهم. والحرص: طلب الشيء باجتهاد في إصابته ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ لعنادهم وتصميمهم على الكفر؛ أي: وما أكثر الناس من مشركي مكة وغيرهم ولو حرصت على أن يؤمنوا بك، ويتبعوا ما جئتهم به من

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

عند ربك بمصدقيك ولا متبعيك. قال الرازي: إن كفار قريش وجماعة من اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف على سبيل التعنت، فلما أخبرهم على وفق ما في التوراة.. أصروا على كفرهم، ولم يسلموا، فتأسف النبي ﷺ، وحزن على عدم إيمانهم، فعزاه الله سبحانه وتعالى بهذه الآية: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ وكأنها إشارة إلى ما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

فإن قلت[١]: فما فائدة التكليف والأمر بما يعلم عدم وقوعه؟

قلتُ: فائدته تمييز من له استعداد ذلك؛ لتظهر السعادة والشقاوة وأهلهما. فإن قلت: لم كان الكفرة أكثر مع أن الله تعالى خلق الخلق للعبادة؟.. قلت: المقصود ظهور الإنسان الكامل، وهو واحد كألف.

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على تبليغ الأنباء التي أوحينا إليك وعلى تبليغ القرآن ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: من مال يعطونك كما يفعله حملة الأخبار ونقّال الآثار. والمراد: إنا أرخينا العلة في التكذيب حيث بعثناك مبلغاً بلا أجر. وقرأ بشر بن عبيد: ﴿وما نسألهم﴾ - بالنون -؛ أي: وما[٢] تسأل يا محمد هؤلاء الذين ينكرون نبوتك على ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لربك وطاعته، وترك عبادة الأصنام والأوثان من أجر وجزاء منهم، بل ثوابك وأجر عملك على الله سبحانه وتعالى.

والخلاصة: أنك لا تسألهم على ذلك مالاً ولا منفعة، فيقولوا: إنما تريد بدعائك إيانا إلى اتباعك أن ننزل لك من أموالنا إذا سألتنا عن ذلك، فحالك حال من سبقك من الرسل، فهم لم يسألوا أقوامهم أجراً على التبليغ والهدى. والقرآن مليء بنحو هذا كما في سورتي هود والشعراء وغيرهما.

وإذا كنت لا تسألهم على ذلك أجراً، فقد كان حقاً عليهم أن يعلموا أنك

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

إنما تدعوهم إليه اتباعاً لأمر ربك ونصيحة منك لهم ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما هذا القرآن الذي أرسلك به ربك ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾؛ أي: إلا تذكير وموعظة وإرشاد ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ كافة لا لهم خاصة، وبه يهتدون وينجون في الدنيا والآخرة. وفي الآية إيماء إلى عموم رسالته ﷺ.

﴿وَكَأَيِّن﴾ في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بمعنى: كم الخبرية مبتدأ، خبره جملة ﴿يَمُرُّونَ﴾ الآتي؛ أي: وكثير من آيات وعلامات دالة على توحيد الله تعالى، وكمال علمه وقدرته من شمس وقمر، ونجوم وجبال وبحار ونباتات وأشجار كائنة في السماوات والأرض. وجملة قوله: ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ خبر ﴿وَكَأَيِّن﴾؛ أي: يمر أكثر الناس على تلك الآيات ويشاهدونها ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم عن الاعتبار بتلك الآيات معرضون ولا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون بها، وهم غافلون عما فيها من عبرة ودلالة على توحيد ربها، وأن الألوهية لا تكون إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء، فأحسن تدبيره. وبالجملة[1] فما في السموات والأرض من عجائب وأسرار، وإتقان وإبداع؛ ليدل أتم الدلالة على العلم المحيط، والحكمة البالغة، والقدرة التامة.

والذين يشتغلون بعلم ما في السموات والأرض وهم غافلون عن خالقهما ذاهلون عن ذكره، يمتعون عقولهم بلذة العلم، ولكن أرواحهم تبقى محرومة من لذة الذكر ومعرفة الله عز وجل؛ إذ الفكر وحده، وإن كان مفيداً لا تكون فائدته نافعة في الآخرة إلا بالذكر، والذكر وإن أفاد في الدنيا والآخرة لا تكمل فائدته إلا بالفكر، فطوبى لمن جمع بين الأمرين، فكان من الذين أوتوا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ونجوا من عذاب النار في الآخرة.

والمشهور في ﴿كأين﴾ عندهم أنه[2] مركب من كاف التشبيه ومن أي،

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وتلاعبت العرب به، وجاءت فيه لغات كثيرة كما مر. وذكر صاحب «اللوامح» أن الحسن قرأ في الشاذ: ﴿وكَيٍ﴾ - بياء مكسورة من غير همز ولا ألف ولا تشديد - وجاء كذلك عن ابن محيصن في الشاذ فهي لغة انتهى. وقرأ عكرمة وعمرو بن فائد: ﴿والأرضُ﴾ - بالرفع على الابتداء - وما بعده خبر. وقرأ السدي: ﴿والأرضَ﴾ - بالنصب وهو من باب الاشتغال -؛ أي: ويطوون الأرض يمرون عليها؛ أي على آياتها وما أودع فيها من الدلالات ومع ذلك لا يعتبرون. وقرأ عبد الله: ﴿والأرضُ﴾ - برفع الضاد - ومكان ﴿يَمُرُّونَ﴾ ﴿يمشون﴾، والمراد ما يرون من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك، وما عدا قراءة الجمهور شاذ.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾؛ أي: وما يصدق ويقرُّ أكثر الناس بوحدانية الله تعالى وبألوهيته، وبكونه الخالق الرازق المحيي المميت في حال من الأحوال ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بالله تعالى؛ أي: إلا في حال إشراكهم بالله تعالى في عبادتهم سواه من الأصنام والأوثان والملائكة والبشر، فالكافرون مقرون بوجود الله تعالى، لكنهم يثبتون له شريكاً في المعبودية.

قال ابن عباس(١): فأهل مكة قالوا: ربنا الله وحده لا شريك له والملائكة بناته. وقال عبدة الأوثان والأصنام: ربنا الله وحده والأصنام شفعاؤنا عنده. وقالت اليهود: ربنا الله وحده وعزير ابن الله. وقالت النصارى: ربنا الله وحده لا شريك له والمسيح ابن الله. وقال عبدة الشمس والقمر: ربنا الله وحده وهؤلاء أربابنا. وكل من هؤلاء لم يوحدوا بل أشركوا. وقال المهاجرون والأنصار: ربنا الله وحده لا شريك معه.

وقال ابن عباس أيضاً(٢): وأهل مكة كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك؛ وهذا هو الشرك الأعظم إذ يعبد مع الله غيره. وفي «صحيح مسلم» أنهم كانوا إذا قالوا: لبيك لا

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

شريك لك.. قال رسول الله ﷺ: «قد قد»؛ أي: حسب حسب لا تزيدوا على هذا. وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود. قلت يا رسول الله: أيّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». ومن درس تاريخ الأمم الماضية والحاضرة.. عرف كيف طرأ الشرك على الأمم وسرى في عبادتهم سريان السم في الدسم.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾ للاستفهام التوبيخي الإنكاري داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف؛ أي: أغفل هؤلاء المشركون عن مكر الله تعالى فأمنوه ولم يخافوا ﴿أَن تَأۡتِيَهُمۡ﴾ في الدنيا ﴿غَٰشِيَةٞ﴾؛ أي: عقوبة تغشاهم وتشملهم ﴿مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ والقيامة ﴿بَغۡتَةٗ﴾؛ أي: فجأة من غير سبق علامة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بإتيانها غير مستعدين لها؛ أي: أفأمن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ربهم، ويشركون به في عبادتهم غيره تعالى أن تأتيهم عقوبة تغشاهم وتغمرهم، أو تأتيهم الساعة فجأة من حيث لا يتوقعون، وهم مقيمون على شركهم وكفرهم بربهم، فيخلّدهم في نار جهنم. والآية كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾. وقوله: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

وجاء في «الصحيحين» عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لَقِحَتِهِ ـ الناقة ذات الدر ـ فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته ـ لقمته ـ إلى فيه فلا يطعمها». والمراد من كل هذا أنها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معايشهم، فلا يشعرون إلا وقد أتتهم. والحكمة في إبهام وقتها أن الفائدة لا تتم إلا بذلك، ليخشى أهل كل زمان إتيانها في هذا الوقت، فيحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى في أعمالهم، فيلتزموا الحق ويتحروا الخير، ويتقوا الشرور والمعاصي.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الطريقة والملة التي أنا عليها من توحيد الله، وإخلاص العبادة له دون الأوثان والأصنام، مبتدأ خبره: ﴿سَبِيلِيٓ﴾؛ أي: ملتي وسنتي ومنهاجي وطريقتي، وجملة قوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: أدعو الناس بهذه الملة إلى توحيد الله والإيمان به حالة كوني ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ وحجة واضحة، وبرهان قاطع. وضمير ﴿أَنَا۠﴾ تأكيد لفاعل ﴿أَدْعُوٓاْ﴾، ولذلك عطف عليه قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾؛ أي: أدعو إلى توحيد الله بهذه الملة، ويدعو إليه من اتبعني وآمن بي وصدقني، وهذا[1] قول الكلبي وابن زيد قالا: حق على من اتبعه وآمن به أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويذكِّر بالقرآن، وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ ثم استأنف ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ يعني: أنا على بصيرة وحجة واضحة ومن اتبعني أيضاً على بصيرة. قال ابن عباس: إن محمداً ﷺ وأصحابه كانوا على أحسن طريقة وأفضل هداية، وهم معدن العلم وكنز الإيمان وجند الرحمٰن. وقال ابن مسعود: ومن كان مستنا فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا خير هذه الأمة، وأبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، ونقل دينه فتشبهوا بأخلاقهم وطريقهم، فهؤلاء كانوا على الصراط المستقيم. والآية كقوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ﴾. وقرأ عبد الله شذوذاً: ﴿قل هذا سبيلي﴾ - على التذكير - والسبيل: يذكر ويؤنث.

﴿و﴾ قل يا محمد: ﴿سبحان الله﴾؛ أي: أسبح الله سبحانه وتعالى تسبيحاً، وأنزهه تنزيهاً عما لا يليق بجلاله من جميع العيوب والنقائص والشركاء والأضداد والأنداد، ومن أن يكون معبود سواه، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾. وقل يا محمد: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أشركوا بالله غيره تعالى، والمعنى: أنا بريء من أهل الشرك به لست منهم، ولا هم مني. وهذا معطوف على: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ عطف جملة على جملة.

---

(١) الخازن.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ مثلك لا ملائكة، فهذا رد لقولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ قالوا ذلك تعجباً وإنكاراً لنبوته ﷺ، فقال تعالى: كيف يتعجبون من إرسالنا إياك، والحال أن من قبلك من الرسل كانوا على مثل حالك ولم يتعجبوا منهم، فكيف تعجبوا من إرسالك؛ لأن الاستفادة منوطة بالجنسية، وبين البشر والملك مباينة من جهة اللطافة والكثافة، ولو أرسل ملك.. لكان في صورة البشر كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾. وقس عليه الجن؛ فلا يكون من الجن رسول إلى البشر. وفي عبارة الرجال دلالة على أنَّ الله تعالى ما بعث رسولاً إلى الخلق من النسوان؛ لأن مبنى حالهن على التستر، ومنتهى كمالهن هي الصديقية لا النبوة، فمنها آسية ومريم وخديجة وفاطمة وعائشة رضي الله عنهن.

وجملة قوله: ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ صفة أولى لـ﴿رِجَالًا﴾؛ أي: نوحي إليهم على لسان الملك كما نوحي إليك. وقوله: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ صفة ثانية له، وكأن[1] تقديم هذه الصفة على ما قبلها أكثر استعمالاً؛ لأنها أقرب إلى المفرد؛ أي: من أهل الأمصار دون أهل البوادي؛ لغلبة الجهل والقسوة والجفاء عليهم. والمراد بالقرية: الحضر خلاف البادية، فتشمل المصر الجامع وغيره؛ لأن أهل الأمصار أفضل وأعلم وأكمل عقلاً من أهل البوادي. قال الحسن: لم يبعث نبيٌّ من بدو ولا من الجن ولا من النساء. والمعنى: كيف تعجَّبوا من إرسالنا إياك يا محمد وسائر الرسل الذين كانوا من قبلك بشر مثلك حالهم كحالك!.

فإن قلت:[2] إن قوله: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ يعارضه قوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾؛ لأنه يقتضي أن يعقوب وأولاده كانوا من أهل البادية.

قلت: لم يكن يعقوب وأولاده من أهل البادية، بل خرجوا إليها لمواشيهم. وقرأ أبو[3] عبد الرحمن وطلحة وحفص: ﴿نُّوحِيٓ﴾ - بالنون وكسر الحاء - مبنياً

---

(١) الفتوحات.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

للفاعل موافقاً لقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾. وقرأ الجمهور بالياء وفتح الحاء مبنياً للمفعول.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للاستفهام التوبيخي الإنكاري داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف وتقديره: أغفلوا عن مكرنا، فلم يسيروا في الأرض؛ أي: أفلم يسر هؤلاء المشركون من أهل مكة ممن يكذبونك ويجحدون نبوتك وينكرون ما جئتهم به من توحيد الله وإخلاص العبادة له ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ فيما وطئوا من البلاد ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾؛ أي: كيف صار آخر أمر المكذبين للرسل والآيات ممن كانوا قبلهم من الأمم الماضية كقوم لوط وصالح وسائر من عذبهم الله من الأمم، فيعتبروا بما حل بهم من عذابنا حتى ينزجروا عما هم فيه من التكذيب، وإلا يحيق بهم مثل ما حاق بهم؛ لأن التماثل في الأسباب يوجب التماثل في المسببات، ثم رغب في العمل للآخرة، فقال: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ﴾ وهو من إضافة الموصوف إلى صفته كمسجد الجامع، وصلاة الأولى؛ أي: إن الدار الآخرة للذين آمنوا بالله ورسله، واتقوا الشرك به، وارتكاب الآثام والمعاصي خير من هذه الدار للمشركين المنكرين للبعث المكذبين بالرسل، والذين لا حظ لهم من هذه الحياة إلا التمتع بلذاتها. فإن نعيمها[1] البدني أكمل من نعيم الدنيا لدوامه وثباته، ولخلوه من المنغصات والآلام، فما بالك بنعيمها الروحي من لقاء الله ورضوانه وكمال معرفته.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ من حذف الموصوف وإقامة صفته مقامه، وأصله: ولدار المدة الآخرة أو النشأة الآخرة، والذي قدمنا تخريج كوفي، وهذا الأخير تخريج بصري. وقرىء شاذاً: ﴿وللدار الآخرة﴾. وإنما[2] أضاف الدار إلى الآخرة مع أن المراد بالدار هي الجنة؛ وهي نفس الآخرة؛ لأن العرب قد تضيف الشيء إلى نفسه كقولهم: حق اليقين، والحق: هو اليقين نفسه. اهـ. «خازن».

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف تقديره: أتعرضون يا أهل مكة عن إعمال فكركم في هذا، فلا تعقلون أنها خير لهم من الحياة الدنيا، فتتوسلوا إليها بالإيمان، أما إنكم لو عقلتم ذلك لآمنتم. وقرأ الجمهور[1]: ﴿أفلا يعقلون﴾ ـ بالياء ـ مراعاة لقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾. وقرأ الحسن وعلقمة والأعرج وعاصم وابن عامر ونافع: ﴿تعقلون﴾ بالتاء على خطاب هذه الأمة تحذيراً لهم مما وقع فيه أولئك، فيصيبهم ما أصابهم.

ثم ذكر سبحانه وتعالى تثبيتاً لفؤاده عليه السلام أن العاقبة لرسله، وأن نصره تعالى ينزل عليهم حين ضيق وانتظار الفرج كما قال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وأن نصره يأتيهم إذا تمادى المبطلون في تكذيبهم، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾: غاية لمحذوف دل عليه السياق تقديره: لا يغررهم[2] تماديهم فيما هم فيه من الراحة والرخاء، فإن من قبلهم أمهلوا حتى إذا استيأس الرسل عن النصر عليهم في الدنيا، أو من إيمانهم لانهماكهم في الكفر مترفهين متمادين فيه من غير رادع ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف الدال المكسورة، والمعنى عليه: وظن القوم أن الرسل قد أخلفوا في وعدهم بالنصر؛ أي: أخلف الله وعده لرسلهم بالنصر، وهذا المعنى منقول عن عائشة رضي الله عنها. وقال الواحدي معناه: وظن الأمم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله إياهم، وإهلاك أعدائهم، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد. وقرأ الباقون: بالتشديد.

والمعنى عليه: وظن الرسل وأيقنوا أنهم قد كذبتهم الأمم الذين آمنوا بهم بما جاؤوا به من الله تعالى، وارتدوا عن الإيمان بهم، وهذا المعنى منقول عن عائشة رضي الله عنها، وهو أحسن الوجوه، وقالت: إن البلاء لم يزل من الأنبياء حتى

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح وروح البيان.

خافوا من أن يكذبهم الذين قد آمنوا بهم. وحاصل المعنى على قراءة التخفيف؛ أي: وما[1] أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي من أهل القرى فدعوا من أرسلوا إليهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، فكذبوا بما جاءوهم به، وردوا ما أتوا به من عند ربهم، حتى إذا يئس الرسل من إيمانهم؛ لانهماكهم في الكفر وتماديهم في الطغيان من غير وازع، وظنت الأمم أن الرسل الذين أرسلوا إليهم قد كذبوهم فيما كانوا أخبروهم عن الله من وعده لهم النصر عليهم ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ لهم بهلاك أعدائهم فجأة، وهذه الجملة جواب ﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾. والمعنى: إن[2] زمان الإمهال قد تطاول عليهم حتى توهموا أن لا نصر لهم في الدنيا، فجاءهم نصرنا بغتة بغير سبق علامة.

وهذه سنة الله تعالى في الأمم يرسل إليهم الرسل بالبينات[3]، ويؤيدهم بالمعجزات حتى إذا أعرضوا عن الهداية، وعاندوا رسل ربهم، وامتدت مدة كيدهم وعدوانهم، واشتد البلاء على الرسل، واستشعروا بالقنوط من تمادي التكذيب وتراخي النصر.. جاءهم نصر الله فجأة، وأخذ المكذبين العذابُ بغتة كالطوفان الذي أغرق قوم نوح، والريح التي أهلكت عاداً قوم هود، والصيحة التي أخذت ثمود، والخسف الذي نزل بقرى قوم لوط وهم فيها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾. وفي هذا تذكير لكفار قريش بأن سنته تعالى في عباده واحدة لا ظلم فيها ولا محاباة، وأنهم إن لم ينيبوا إلى ربهم.. حل بهم من العذاب ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل، كما قال في سورة القمر ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾. وقد نصر الله نبيه ﷺ في غزوة بدر وما بعدها من الغزوات، وأهلك الجاحدين المعاندين من قومه.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

روى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت لابن أختها عروة بن الزبير وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ...﴾ الآية: هم أتباعُ الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عليهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم.. جاءهم نصر الله عند ذلك. وعن عائشة أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ مخففة أخرجه ابن مردويه من طريق عكرمة ونحوه عن ابن عباس قال: يئس الرسل أن يستجيبوا لهم، وظن قومهم أنَّ الرسل كذبوهم بما جاؤوهم به جاءهم نصرنا. ونحوه عن ابن مسعود قال: حفظت عن رسول الله ﷺ في «سورة يوسف»: ﴿أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ مخففة. ا هـ.

﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ نجاتهم؛ وهم الرسل والمؤمنون التابعون لهم، وإنما لم يعينهم؛ للدلالة على أنهم هم الذين يستحقون النجاة لا يشاركهم فيها غيرهم. وقرأ عاصم وابن عامر ويعقوب[1]: ﴿فَنُجِّيَ﴾ ـ بنون واحدة وجيم مشددة مكسورة وفتح الياء ـ فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول، و﴿مَن﴾ الموصولة نائب فاعله. وقرأ مجاهد والحسن والجحدري وطلحة وابن هرمز كذلك، إلا أنهم سكنوا الياء شذوذاً، وخرج على أنه ماض مبني للمجهول، ولكن سكنت الياء على لغة من يستثقل الحركة على الياء كقراءة من قرأ: ﴿ما تطعمون أهاليكم﴾ ـ بسكون الياء ـ ورويت هذه القراءة عن الكسائي ونافع في الشاذ، والمعنى على هذه: فنجي الرسل ومن آمن معهم من أقوامهم؛ لأنهم بحسب ما وضع الله من تأثير الأعمال في طهارة النفوس وزكائها هم الذين يستحقون النجاة دون غيرهم، كما قال: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

وقرأ باقي العشرة: ﴿فَنُنْجِيْ﴾ ـ بنونين أولاهما مضمومة وثانيتهما ساكنة وبياء ساكنة ـ مضارع أنجى الرباعي، وفاعله ضمير يعود على الله، والموصول مفعول به؛ أي: فننجي نحن من نشاء نجاتهم؛ وهم الرسل والمؤمنون بهم. وقرأ

(١) البحر المحيط.

نصر بن عاصم والحسن وأبو حيوة وابن السميقع ومجاهد وعيسى وابن محيصن: ﴿فنجا﴾ جعلوه مخفف الجيم فعلاً ماضياً مبنياً للفاعل، وفاعله ﴿مَن﴾ الموصولة. وقال أبو عمرو الداني: وقرأت لابن محيصن: ﴿فنَجَّى﴾ - بشد الجيم - فعلاً ماضياً مبنياً للفاعل على معنى: فنَجَّى النصر من نشاء، وفاعله النصر المعلوم من السياق وهي قراءة شاذة. وذكر الداني أن المصاحف متفقة على كتابتها بنون واحدة. وفي «التحبير» أن الحسن قرأ شذوذاً: ﴿فنُنَجّيْ﴾ - بنونين الثانية مفتوحة والجيم مشددة والياء ساكنة - مضارع نجى المضعف. وقرأ أبو حيوة شاذاً: ﴿من يشاء﴾ - بالياء -؛ أي: فنجي من يشاء الله نجاته، ومن يشاء نجاتهم هم المؤمنون لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: ولا يرد عذابنا عن القوم المشركين إذا نزل بهم. وقرأ الحسن شذوذاً: ﴿بأسه﴾ بضمير الغائب؛ أي: بأس الله. وهذه الجملة فيها وعيد وتهديد لمعاصري الرسول ﷺ؛ أي: ولا يُمنع عقابنا وبطشنا عن القوم الذين أجرموا، فكفروا بالله وكذبوا رسله، وما أتوهم به من عند ربهم.

وقد جرت سنة الله أن يبلغ الرسل أقوامهم، ويقيموا عليهم الحجة، وينذروهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب، فيؤمن المهتدون ويصر المعاندون، فينجي الله الرسل ومن آمن من أقوامهم، ويهلك المكذبين، ولا يخفى ما في الآية من التهديد والوعيد لكفار قريش ومن على شاكلتهم من المعاصرين للنبي ﷺ. واللامُ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ﴾: موطئة للقسم. ﴿فِي قَصَصِهِمْ﴾ - بفتح القاف -: مصدرُ قصَّ الخبر؛ إذا حدث به؛ أي: قصص يوسف وإخوته وأبيه عليهم السلام وخبرهم. وقرىء شاذاً بكسر القاف جمع قصة؛ أي: قصص الأنبياء وأممهم؛ أي: وعزتي وجلالي لقد كان في قصص يوسف مع أبيه وإخوته وخبرهم ﴿عِبْرَةٌ﴾؛ أي: عظة عظيمة ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: لأصحاب العقول الكاملة الراجحة والأفكار الثاقبة؛ لأنهم هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها، أما الأغرار الغافلون فلا يستعملون عقولهم في النظر والاستدلالات، ومن ثم لا يفيدهم النصح.

وجهة الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إنجاء يوسف عليه السلام بعد إلقائه في غيابة الجبّ، وإعلاء أمره بعد وضعه في السجن، وتمليكه مصر بعد أن بيع بالثمن البخس، والتمكين له في الأرض من بعد الإسار والحبس الطويل، وإعزازه على من قصده بالسوء من إخوته، وجمع شمله بأبويه وبهم بعد المدة الطويلة المدى، والمجيء بهم من الشقة البعيدة النائية؛ أي: إن الذي قدر على ذلك كله لقادر على إعزاز محمد ﷺ وإعلاء كلمته وإظهار دينه، فيخرجه من بين أظهركم، ثم يظهره عليكم، ويمكن له في البلاد، ويؤيده بالجند والرجال والأتباع والأعوان، وإن مرت به الشدائد وأتت دونه الأيام والحوادث، وإن الإخبار بهذه القصة جارٍ مجرى الإخبار عن الغيوب، فكانت معجزة لمحمد ﷺ. وقيل: إن الله تعالى قال في أول هذه السورة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ وقال في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فدل على أن هذه القصة من أحسن القصص، وأن فيها عبرة لمن اعتبرها وتأملها، وكان في أول السورة وآخرها مناسبة.

﴿مَا كَانَ﴾ هذا القرآن المشتمل على هذا المقصوص ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ ويختلق من عند البشر؛ لأن الذي جاء به من عند الله تعالى؛ وهو محمد ﷺ لا يصح منه أن يفتريه ويختلقه من عند نفسه؛ لأنه لم يقرأ الكتب ولم يخالط العلماء، ثم إنه جاء بهذا القرآن المعجز، فدل ذلك على صدقه، وأنه ليس بمفتر، فهو دليل ظاهر وبرهان قاهر على أنه جاء بطريق الوحي والتنزيل، ومن ثم قال: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: ولكن كان هذا القرآن مصدق الذي كان قبله من الكتب السماوية التي أنزلها الله تعالى من السماء على أنبيائه كالتوراة والإنجيل والزبور؛ أي: تصديق ما عندهم من الحق فيها لا كل الذي عندهم، فهو ليس بمصدق لما عندهم من خرافات فاسدة وأوهام باطلة؛ لأنه جاء لمحوها وإزالتها، لا لإثباتها وتصديقها ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاج إليه في الدين والدنيا؛ أي: إن في هذا القرآن المنزل عليك يا محمد تفصيل كل شيء تحتاج إليه من الحلال والحرام، والحدود والأحكام، والقصص والمواعظ والأمثال، وغير ذلك مما يحتاج إليه العباد في أمر دينهم ودنياهم ﴿وَ﴾ كان ﴿هدى﴾ إلى

كل خير لمن تدبره وأمعن في النظر فيه، وتلاه حق تلاوته، فهو مرشد إلى الحق، وهادٍ إلى سبيل الرشاد وعمل الخير والصلاح في الدين والدنيا ﴿و﴾ كان ﴿رحمة﴾ خاصة ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ به في دينهم ودنياهم؛ لأنهم هم الذين ينتفعون به. وقيل المعنى: ﴿وَهُدٗى﴾؛ أي: سبب هداية في الدنيا ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾؛ أي: سبباً لحصول الرحمة في الآخرة، والخاضعون لها من غير المؤمنين يكونون في ظلها آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، أحراراً في عقائدهم وعباداتهم، مساوين للمؤمنين في حقوقهم ومعاملاتهم، يعيشون في بيئة خالية من الفواحش والمنكرات التي تفسد الأخلاق وتعبث بالفضائل. وانتصاب الأربعة بعد ﴿لكن﴾ للعطف على خبر ﴿كَانَ﴾. وقرأ حمران ابن أعين وعيسى الكوفي فيما ذكر صاحب «اللوامح» وعيسى الثقفي فيما ذكر ابن عطية: ﴿تصديق وتفصيلُ وهدى ورحمةٌ﴾ - برفع الأربعة -؛ أي: ولكن هو تصديق وهذه القراءة شاذة. والجمهور بالنصب على إضمار كان؛ أي: ولكن كان تصديق الخ.

الإعراب

﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾.

﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء للتخفيف منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة، وهو مضاف، وياء المتكلم المحذوفة في محل الجر مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق. ﴿ءَاتَيۡتَنِي﴾ فعل وفاعل ومفعول أول ونون وقاية. ﴿مِنَ﴾: حرف جر وتبعيض. ﴿ٱلۡمُلۡكِ﴾: مجرور بـ﴿مِنَ﴾: الجار والمجرور متعلق بـ﴿ءَاتَيۡتَنِي﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له؛ لأنه بمعنى أعطى، وقيل: ﴿مِنَ﴾ زائدة، وقيل المفعول الثاني محذوف تقديره: عظيماً من الملك كما ذكره أبو البقاء. والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَعَلَّمۡتَنِي﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَاتَيۡتَنِي﴾. ﴿مِنۡ﴾: زائدة. ﴿تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾: مفعول ثان

ومضاف إليه. وفي «السمين»: و﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾، وفي ﴿مِن تَأْوِيلِ﴾ للتبعيض، والمفعول الثاني محذوف؛ أي: شيئاً عظيماً من الملك، فهي صفة لذلك المحذوف، وقيل: زائدة، وقيل: لبيان الجنس. ﴿فَاطِرَ﴾: نعت لـ﴿رَبِّ﴾، أو بدل، أو عطف بيان منه، أو منصوب بإضمار أعني، أو على كونه منادى ثانياً. ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف عليه. ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَلِىِّۦ﴾. ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلدُّنْيَا﴾. ﴿تَوَفَّنِى﴾: فعل ومفعول ونون وقاية، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مُسْلِمًا﴾: حال من المفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَلْحِقْنِى﴾: فعل ومفعول ونون وقاية. ﴿بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿تَوَفَّنِى﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿نُوحِيهِ﴾: فعل ومفعول. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب حال من المبتدأ، أو من الضمير في الخبر، ويجوز أن تكون خبراً ثانياً لذلك كما في «السمين». ﴿وَمَا﴾ (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لَدَيْهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر كان، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ على كونها معللة للخبرين. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بكان. ﴿أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿وَهُمْ﴾: (الواو): واو الحال. ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَمْكُرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من واو ﴿أَجْمَعُوٓا۟﴾.

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾: حجازية أو تميمية. ﴿أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾:

اسمها أو مبتدأ ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾: خبرها، أو خبر المبتدأ والباء زائدة، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَوْ﴾: (الواو): اعتراضية. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿حَرَصْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾، وجواب ﴿لو﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه تقديره: ولو حرصت على هدايتهم وبالغت في دعوتهم لا يؤمنون، وجملة ﴿لو﴾: معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين ﴿ما﴾ وخبرها.

﴿وَمَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾ نافية ﴿تَسْئَلُهُمْ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾: مفعول ثان لسأل، و﴿مِنْ﴾: زائدة، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾. ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ذِكْرٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾: متعلق به، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾ (الواو): استئنافية. ﴿كأين﴾: اسم بمعنى كم الخبرية؛ أي: بمعنى عدد كثير في محل الرفع مبتدأ مبني على السكون لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً. ﴿مِّنْ﴾: زائدة. ﴿آيَةٍ﴾: تمييز ﴿كأين﴾ منصوب. ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿آيَةٍ﴾. ﴿وَالْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾. ﴿يَمُرُّونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَهُمْ﴾: (الواو): حالية. ﴿هم﴾: مبتدأ. ﴿عَنْهَا﴾: متعلق بـ﴿مُعْرِضُونَ﴾. ﴿مُعْرِضُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَمُرُّونَ﴾، والمعنى: وآيات كثيرة كائنة في السموات والأرض مارون عليها حالة كونهم معرضين عنها.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يُؤْمِنُ﴾.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾: (الهمزة): للاستفهام التوبيخي الإنكاري داخلة على محذوف. (والفاء): عاطفة على ذلك المحذوف تقديره: أغفل هؤلاء المشركون عن مكر الله تعالى فأمنوا. ﴿أمنوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ﴾: ناصب وفعل ومفعول وفاعل. ﴿مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿غَٰشِيَةٌ﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: أفأمنوا إتيان غاشية من عذاب الله إياهم. ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل معطوف على ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ﴾ على كونها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: أو إتيان الساعة إياهم. ﴿بَغْتَةً﴾: حال من ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: باغتة. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من مفعول ﴿تَأْتِيَهُمْ﴾.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة مستأنفة. ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿أَدْعُوٓاْ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَدْعُوٓاْ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَمَنِ﴾: الموصولة معطوفة على المبتدأ، وجملة ﴿ٱتَّبَعَنِى﴾: صلة ﴿من﴾ الموصولة، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. وفي «السمين»: قوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يجوز أن يكون مستأنفاً؛ وهو الظاهر، وأن يكون حالاً من الياء، و﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾: حال من فاعل ﴿أَدْعُوٓاْ﴾؛ أي: أدعو إلى الله حالة كوني كائناً على بصيرة، وقوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾: عطف على فاعل ﴿أَدْعُوٓاْ﴾، ولذلك أكد بالضمير المنفصل، ويجوز أن يكون مبتدأ، والخبر محذوف؛ أي: ﴿ومن اتبعني﴾ يدعو أيضاً، ويجوز أن يكون ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ وحده حالاً، و﴿أَنَا۠﴾: فاعل به، ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾: عطف عليه، ومفعول ﴿أَدْعُوٓاْ﴾ يجوز

أن لا يراد، ويجوز أن يقدر؛ أي: أدعو الناس. ا هـ. ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ (الواو): عاطفة. ﴿سبحان الله﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً تقديره: وأسبح سبحان الله، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ على كونها مفسرة لها. ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾.

﴿وَمَآ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿رِجَالًا﴾: مفعول به. ﴿نُّوحِىٓ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿إِلَيْهِم﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب صفة أولى لـ﴿رجال﴾. ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: جار ومجرور صفة ثانية لـ﴿رِجَالًا﴾، والأكثر استعمالاً عندهم تقديم هذه الصفة الثانية على الأولى؛ لأنها أقرب إلى المفرد منها كما تقدم تحريره في المائدة.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿أَفَلَمْ﴾ (الهمزة): للاستفهام التوبيخي الإنكاري داخلة على محذوف. (الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف تقديره: أغفلوا عن مكرنا فلم يسيروا. ﴿لم يسيروا﴾: جازم وفعل وفاعل. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿ينظروا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَسِيرُوا۟﴾. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدّم عليه وجوباً. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ﴾: اسمها ومضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل النصب مفعول لـ﴿ينظروا﴾ معلق عنها باسم الاستفهام. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾: (الواو): استئنافية. (اللام): حرف ابتداء، ﴿دار الآخرة﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور

متعلق به، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿ٱتَّقَوْاْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: (الهمزة): للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف تقديره: أتعرضون يا أهل مكة عن إعمال فكركم في خيرية الآخرة على الدنيا. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَعْقِلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف ابتداء لدخولها على الجملة، وغاية لكونها غاية لمحذوف وتقديره: لا يغررهم تماديهم فيما هم من الراحة والرخاء، فإن من قبلهم أمهلوا حتى إذا استيأس الرسل. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسْتَيْـَٔسَ﴾. ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿قَدْ كُذِبُواْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ظن تقديره: وظنوا تكذيبهم. ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾: من فعل شرطها وجوابها في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ متعلقة بمحذوف تقديره: فإن من قبلهم أمهلوا إلى مجيء نصرنا وقت يأس الرسل عن نصرهم، وظن الأتباع كونهم مكذوبين. ﴿فَنُجِّىَ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿نجي﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿جاء﴾. ﴿نَّشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: من نشاء نجاته من عبادنا. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿لَقَدْ﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ ناقص. ﴿فِي قَصَصِهِمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿كَانَ﴾: ﴿عِبْرَةٌ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخر، وجملة ﴿كَانَ﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عِبْرَةٌ﴾؛ لأنه اسم مصدر من اعتبر الخماسي. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على القرآن المتقدم ذكره في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أو على هذا القصص المذكور في يوسف وإخوته. ﴿حَدِيثًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿يُفْتَرَىٰ﴾: صفة لـ﴿حَدِيثًا﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: مستأنفة. ﴿وَلَٰكِن﴾: (الواو): عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِي﴾: خبر لـ﴿كَانَ﴾ المحذوفة مع اسمها، ومضاف إليه؛ أي: ولكن كان هذا القرآن تصديق الذي بين يديه، والجملة الاستدراكية معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة الموصول. ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾: معطوف على ﴿تَصْدِيقَ﴾ على كونه خبراً لـ﴿كَانَ﴾ المحذوفة. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾: معطوفان عليه أيضاً. ﴿لِّقَوْمٍ﴾: جار ومجرور تنازع فيه كل من ﴿هدى﴾ و﴿رحمة﴾ على كونه صفة لهما، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾، أو صفة لـ﴿رحمة﴾ فقط.

التصريف ومفردات اللغة

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾؛ أي: بعض الملك، والمراد بذلك البعض: ملك مصر؛ إذ لم يملك جميع أقطار الأرض إلا أربعة: إثنان مسلمان: اسكندر، وسليمان بن داود واثنان كافران: بختنصر وشداد بن عاد، ولقد توارثت الفراعنة من العمالقة بعد يوسف مصر، ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا من دين يوسف وآبائه إلى أن بعث الله تعالى موسى عليه السلام. ا هـ. «أبو السعود». والملك عبارة عن الاتساع في الشيء المقدور لمن له السياسة التدبير كما مر.

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق، وأصل الفطر: الشق، يقال: فطر ناب البعير إذا شق وظهر، وفطر الله الخلق:

أوجده وأبدعه.

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾؛ أي: معيني ومتولي أمري ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾؛ أي: اقبضني إليك مسلماً.

﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ وفي «المصباح»: حرص عليه حرصاً - من باب ضرب - إذا اجتهد، والاسم الحِرص - بكسر الحاء - وحرص على الدنيا من باب ضرب أيضاً، وحَرِص حرصاً - من باب تعب لغة -، إذا رغب رغبة مذمومة. ا هـ.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ و﴿كأين﴾ هنا بمعنى كم الخبرية التي بمعنى عدد كثير وإن وردت للاستفهام، والآية هنا بمعنى الدليل الذي يرشد إلى وجود الصانع ووحدته، وكمال علمه وقدرته.

﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: يشاهدونها ولا يعبئون بها. ﴿مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: لا يعتبرون بها. ﴿غَٰشِيَةٌ﴾ والغاشية: العقوبة تغشاهم وتعمهم ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠﴾ البصيرة: الحجة الواضحة، وقيل: هي المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل. ا هـ. «خازن». ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ الظن هنا: إما بمعنى اليقين، وإما معنى الحسبان والتقدير. ﴿بَأْسُنَا﴾ والبأس العقاب.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ والقَصَص - بفتح القاف -: مصدر قَصَّ إذا تتبع الأثر والخبر، والمراد هنا المقصوص المحكي بدليل القراءة الشاذة: ﴿قِصصهم﴾ - بكسر القاف - كما في «الجمل».

﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ المراد بالعبرة: التأمل والتفكر. وفي«الخازن»: معنى الاعتبار والعبرة: الحالة التي يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد، والمراد منه التأمل والتفكر.

﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ والألباب: العقول واحدها لبّ، وسمي بذلك؛ لكونه خالص ما في الإنسان من قواه. وقال الشوكاني: والعبرة: الفكرة والبصيرة المخلصة من الجهل والحيرة، وقيل: هي نوع من الاعتبار، وهي العبور من الطريق المعلوم إلى الطريق المجهول، وأولوا الألباب: هم ذووا العقول السليمة

الذين يعتبرون بعقولهم، فيدرون ما فيه مصالح دينهم، وإنما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الإخبارات المطابقة للواقع من بعد المدة التي بين النبي ﷺ وبين الرسل الذين قص حديثهم، ومنهم يوسف وإخوته وأبوه مع كونه لم يطلع على أخبارهم ولا اتصل بأحبارهم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من الفصاحة وأنواعاً من البلاغة والبيان والبديع:

فمنها: إطلاق الكل وإرادة البعض في قوله: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ فإنه إنما أعطي ملك مصر فقط، لا ملك الأرض كلها كما مر.

ومنها: في قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ ما يسمى في علم البيان بالاحتجاج النظري، وبعضهم يسميه المذهب الكلامي؛ وهو أن يلزم الخصم ما هو لازم لهذا الاحتجاج، وتقدم نظير ذلك في آل عمران، وفي هود، وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه؛ لأنه لا يخفى على أحد أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحداً ولا سمع منه، ولم يكن من علم قومه، فإذا أخبر به وقصه هذا القصص الذي أعجز حملته ورواته.. لم تقع شبهة في أنه ليس منه، بل من وحي الله تعالى إليه، ذكره أبو حيان.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾؛ لأنه بمعنى الماضي.

ومنها: الجملة الاعتراضية في قوله: ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ لاعتراضها بين ﴿مَا﴾ الحجازية وخبرها، وجيء بهذا الاعتراض؛ لإفادة أن الهداية بيد الله سبحانه وتعالى وحده.

ومنها: حكاية الحال الماضية أيضاً في: ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾؛ لأنه بمعنى الماضي.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: إضافة الشيء إلى نفسه في قوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لأنه أضاف الدار إلى الآخرة مع أن المراد بالدار هي الجنة، وهي نفس الآخرة؛ لأن العرب تفعل ذلك لإفادة التأكيد، كما في قولهم: حق اليقين، مع أن المراد بالحق هو اليقين نفسه كما مر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

موضوعات هذه السورة

جملة ما في هذه السورة من الموضوعات تسعة وثلاثون موضوعاً:

١ ـ قص يوسف رؤياه على أبيه يعقوب.

٢ ـ نهي يعقوب لولده عن قصه قصصه على إخوته.

٣ ـ تدبيرهم المكيدة ليوسف وإلقائه في غيابة الجبّ.

٤ ـ ادعاؤهم أنَّ الذئب قد أكله.

٥ ـ عثور قافلة ذاهبة إلى مصر عليه والتقاطها له.

٦ ـ بيعها إياه في مصر بثمن بخس لعزيز مصر.

٧ ـ وصية العزيز لامرأته بإكرام مثواه.

٨ ـ مراودة المرأة له عن نفسه، وإعداد الوسائل لذلك.

٩ ـ تمنعه من ذلك إكراماً لسيده الذي أكرم مثواه.

١٠ ـ قدها لقميصه وادعاؤها عليه أنه هو الذي أراد الفاحشة.

١١ ـ شهادة شاهد من أهلها بما يجلي الحقيقة.

١٢ ـ افتضاح أمرها في المدينة لدى النسوة.

١٣ ـ تدبيرها المكيدة لأولئك النسوة وإحكام أمرها.

١٤ ـ إدخاله السجن اتباعاً لمشيئتها.

١٥ ـ تعبيره رؤيا فتيين دخلا معه السجن.

١٦ ـ رؤيا الملك وطلبه تعبيرها.

١٧ ـ إرشاد أحد الفتيين للملك عن يوسف، وأنه نعم المعبر لها.

١٨ ـ طلب الملك إحضاره من السجن، واستخلاصه لنفسه.

١٩ ـ توليته رئيساً للحكومة ومهيمناً على ماليتها.

٢٠ ـ مجيء إخوة يوسف إليه، وطلبه منهم أن يحضروا أخاهم لأبيهم.

٢١ ـ إرجاع البضاعة التي جاؤوا بها.

٢٢ ـ إحضارهم أخاه إليه بعد إعطائهم الموقف لأبيهم.

٢٣ ـ طلب أبيهم أن يدخلوا المدينة من أبواب متعددة.

٢٤ ـ إخبار يوسف لأخيه عن ذات نفسه.

٢٥ ـ أذان المؤذن أن العير قد سرقوا.

٢٦ ـ قول الإخوة: إن أخاه قد سرق من قبل.

٢٧ ـ طلبُ الإخوة من يوسف أن يأخذ أحدهم مكانه.

٢٨ ـ وجود غشاوة على عيني يعقوب من الحزن.

٢٩ ـ تعريف يوسف بنفسه لإخوته.

٣٠ ـ حين جاء البشير بقميص يوسف ارتد يعقوب بصيراً.

٣١ ـ طلب الإخوة من أبيهم أن يستغفر لهم.

٣٢ ـ رفع يوسف أبويه على العرش.

٣٣ ـ قول يوسف لأبيه: هذا تأويل رؤياي من قبل.

٣٤ ـ دعاؤه بحسن الخاتمة.

٣٥ ـ في هذا القصص إثبات لنبوة محمد ﷺ.

٣٦ ـ تحذير المشركين من نزول العذاب بهم كما حَدَث لمن قبلهم.

٣٧ ـ لم يرسل الله تعالى إلا رجالاً وما أرسَل ملائكة.

٣٨ ـ نصر الرسل بعد الاستيئاس.

٣٩ ـ في قصص الرسل أو يوسف وإخوته عبرة لأولي الألباب.

والله أعلم

* * *

سورة الرعد

سورة الرعد مكية[1] إلا آيتين فهما مدنيتان، وهما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إلى ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾. وقيل: مدنية سوى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآيتين.

وآياتها ثلاث ـ أو خمس ـ وأربعون آية، وكلماتها ثمان مئة وخمس وخمسون كلمة، وحروفها ثلاثة آلاف وخمس مئة وستة أحرف. وسميت بالرعد؛ لذكره فيها.

فضلها: ومن فضائلها أن قراءتها عند المحتضر تسهل خروج الروح.

وقد أخرج[2] ابن أبي شيبة والمروزي في «الجنائز» عن جابر بن زيد قال: كان يُستحب إذا حضر الميت أن يقرأ عنده سورة الرعد؛ فإن ذلك يخفف عن الميت، وإنه أهون لقبضه، وأيسر لشأنه.

المناسبة: ومناسبةُ هذه السورة لما قبلها من وجوه[3]:

١ ـ أنه سبحانه وتعالى أجمل في السورة السابقة الآيات السماوية والأرضية في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾، ثم فصلها هنا أتم تفصيل في مواضع منها.

٢ ـ أنه أشار في سورة يوسف إلى أدلة التوحيد بقوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، ثم فصل الأدلة هنا بإسهاب لم يذكر في سالفتها.

---

(١) المراح.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

٣ ـ أنه ذكر في كلتا السورتين أخبار الماضين مع رسلهم، وأنهم لاقوا منهم ما لاقوا، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وكتب الخزي على الكافرين، والنصر لرسله والمؤمنين، وفي ذلك تسلية لرسوله ﷺ وتثبيت لقلبه.

٤ ـ جاء في آخر السورة السابقة وصف القرآن بقوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وفي أول هذه السورة قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الناسخ والمنسوخ: قال أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله تعالى[1]: في سورة الرعد من المنسوخ أيتان فقط؛ آيةٌ مُجمع على نسخها، وآيةٌ مختلف في نسخها. فالمجمع على نسخها قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا﴾ الآية (٤٠) منسوخة بآية السيف. الآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ الآية (٦) منسوخة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآية (٤٨، ١١٦) النساء. والظلم ههنا: الشرك.

والله أعلم

* * *

---

(١) الناسخ والمنسوخ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه قد مر لك في آخر السورة السابقة وصف القرآن بقوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، ووصفه في هذه الآية بقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ...﴾ الآية، كما مرّ آنفاً.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] في الآية السالفة أن أكثر الناس لا يؤمنون. أعقبه بذكر البراهين على التوحيد والمعاد، فاستدل بأحوال السمٰوات وأحوال الشمس والقمر، وأحوال الأرض جبالها وأنهارها، وأزهارها ونخيلها وأعنابها، واختلاف ثمراتها، وتنوع غلاتها على وجود الإله القادر القاهر الذي بيده الخلق والأمر، وبيده الضر والنفع، وبيده الإحياء والإماتة، وهو على كل شيء قدير.

وعبارة أبي حيان هنا: ولما ذكر انتفاء الإيمان عن أكثر الناس.. ذكر عقيبه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد، ومايجذبهم إلى الإيمان فيما يفكر فيه العاقل، ويشاهده من عظيم القدرة وبديع الصنع والحكمة انتهت.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] إنكارهم لوحدانيته تعالى مع وضوح الأدلة على ذلك من خلق السموات بلا عمد، وتسخير الشمس والقمر يجريان إلى أجل مسمى، ومن مد الأرض وإلقاء الجبال الرواسي فيها إلى آخر ما ذكر من الآيات الدالة على عظيم قدرته وبديع صنعه لمن يتأمل ويتفكر في ذلك الملكوت العظيم.. ذكر هنا إنكارهم للبعث والنشور على وضوح طريقه وسطوع دليله قياساً على ما يرون ويشاهدون، فإن من قدر على خلق السماوات والأرض وسائر العوالم على هذا النحو الذي يحار الإنسان في الوصول إلى معرفة كنهه.. لا يعجز عن إعادته في خلق جديد، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ﴾.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر إنكار المشركين للبعث واستبعادهم له كما حكى عنهم بقوله: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

﴿خَلۡقٖ جَدِيدٍۚ﴾؛ إذ رأوا أن أجزاء الحيوان حين تفتتها وتفرقها يختلط بعضها ببعض، وقد تتناثر في بقاع شتى ونواح عدة، وربما أكل بعض الجسم سبع، وبعضه الآخر حدأة، أو نسر، وحيناً يأكل السمك قطعة منه، وأخرى يجري بها الماء وتدفن في بلد آخر.. أزال هذا الاستبعاد بأن الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، والذي يعلم الأجنة في بطون أمهاتها، ويعلم ما هو مشاهد لنا أو غائب عنا يعلم تلك الأجزاء المتناثرة ومواضعها مهما نأى بعضها عن بعض، ويضم متفرقاتها ويعيدها سيرتها الأولى.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه[1] الطبراني وغيره عن ابن عباس أن أربد بن قيس وعامر بن الطفيل قدما المدينة على رسول الله ﷺ، فقال عامر: يا محمد ما تجعل لي إن أسلمت؟ قال: «لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم»، قال: أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: «ليس ذلك لك ولا لقومك»، فخرجا، فقال عامر لأربد: إني أشغل منك وجه محمد بالحديث، فأضربه بالسيف، فرجعا فقال عامر: يا محمد قم معي أكلمك، فقام معه ووقف يكلمه، وسل أربد السيف، فلما وضع يده على قائم سيفه ـ يبست، والتفت رسول الله ﷺ فرآه، فانصرف عنهما، فخرجا حتى إذا كانا بالرقم.. أرسل الله على أربد صاعقة فقتله، فأنزل الله: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓمٓرۚ﴾ اسم للسورة خبر لمحذوف؛ أي: هذه السورة مسماة بهذا الاسم. وقيل[2]: إن هذه الحروف في أوائل السور حروف تنبيه كـ(ألا) ونحوها، وتقرأ بأسمائها، فيقال: ألف لام ميم را، فلا محل لها من الأعراب، كما قيل: إن كل سورة بدئت بهذه الحروف فيها انتصار للقرآن وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه. وقال ابن عباس[3]: معناه أنا الله أعلم وأرى ما لا يعلم الخلق وما لا

---

(١) لباب النقول.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

يرى من فوق العرش إلى ما تحت الثرى، فتكون الألف واللام مختصرتين من أنا الله الدالين على الذات، والميم والراء من أعلم وأرى الدالين على الصفة. وفي «التبيان» الألف: الله، واللام: جبريل، والميم: محمد، والراء: الرسل؛ أي: أنا الله الذي أرسل جبريل إلى محمد بالقرآن، وإلى الرسل بغيره من الكتب الإلٰهية والصحف الربانية.

﴿تِلْكَ﴾؛ أي: هذه الآيات المشتملة عليها هذه السورة ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: آيات من الكتاب العزيز والقرآن الكريم البالغ حدّ الكمال المستغني عن الوصف من بين الكتب السماوية، الجدير بأن يختص باسم الكتاب، وأشار إليها بإشارة البعيد تنزيلاً للبعد الرتبي منزلة البعد الحسي. وقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ مبتدأ خبره ﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: وكل القرآن الذي أنزله إليك ربك حق لا شك فيه، وهذا كالإجمال بعد التفصيل لما تقدم من وصف السورة بالكمال، فكأنه سبحانه وتعالى بعد أن أثبت لهذه السورة الرفعة والكمال عمم هذا الحكم، فأثبته للقرآن جميعه، فلا تختص به سورة دون أخرى.

وهذا الأسلوب جارٍ على سنن العرب في تخاطبهم[١]، فقد قالت فاطمة الأنمارية، وقد سئلت عن بنيها، أي بنيك أفضل؟ ربيعة بل عمارة بل قيس بل أنس، ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها، فبعد أن أثبتت الفضل لكل منهم على سبيل التعيين.. أجملت القول، وأثبتت لهم الفضل جميعاً.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن، ويجحدون[٢] بحقيقته لإفراطهم في العناد، وخروجهم عن طريق السداد، وعدم تفكرهم في معانيه، وإحاطتهم بما فيه، وكفرهم به لا ينافي كونه حقاً منزَّلاً من عند الله تعالى، فإن الشمس شمس، وإن لم يرها الضرير، والشهدُ شهدٌ وإن لم يجد طعمه المرور، والتربية إنما تفيد

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

المستعد والقابل دون المنكر والباطل. والمعنى[1]: ولكن أكثر الناس لا يصدقون بما أنزل عليك من ربك، ولا يقرون بهذا القرآن وما فيه من بديع الأمثال والحكم والأحكام التي تناسب مختلف العصور والأزمان، والتي لو سار الناس على سننها لسعدوا في الدنيا والآخرة، وقد سلك المسلمون سبيلها في عصورهم الأولى، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، وامتلكوا أكثر المعمور في ذلك الحين، وثلُّوا عروش كسرى والروم، ودانت لهم الرقاب، وساسوا الملك سياسة شهد لهم أعداؤهم بأنها كانت سياسة عدل ورفق، وأخذٍ على يد الظالم لإنصاف المظلوم، فللّه دين رفع من قدر أهله حتى أوصلهم إلى السماكين، ولكن خلف من بعدهم خلف أضاعوا معالمه، وألقوها ورائهم ظهرياً، فحاق بهم ما كانوا يكسبون، وصاروا أذلة بعد أن كانوا أعزة، ومستعبدين بعد أن كانوا سادة، تابعين بعد أن كانوا متبوعين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ والآية بمعنى قوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه وتعالى أدلة على وجوده ووحدانيته وقدرته؛ بعضها سماوي، وبعضها أرضي، وذكر من الأولى ثلاثة أمور:

الأول منها: ما ذكره بقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: الإله الذي يستحق منكم العبادة أيها العباد هو الإله ﴿ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع؛ أي: خلقها[2] مرفوعة بينها وبين الأرض مسيرة خمس مئة عام، لا أن تكون موضوعة فرفعها؛ أي: خلقها ورفعها ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ ودعائم وأساطين ﴿تَرَوْنَهَا﴾؛ أي: ترون أيها العباد تلك العمد، فالضمير راجع إلى العمد، والجملة صفة لها؛ أي: خلق السموات حالة كونها خالية من عند مرئية، وانتفاء العمد المرئية يحتمل أن يكون لانتفاء العمد والرؤية جميعاً؛ أي: لا عمد لها فلا ترى، ويحتمل أن يكون لانتفاء الرؤية فقط بأن يكون لها عماد غير مرئي؛ وهو القدرة، فإنه تعالى يمسكها مرفوعة بقدرته، فكأنها عماد لها، أو العدل؛ لأن بالعدل قامت السماوات والأرض؛ أي:

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

العلويات والسفليات.

ويدل[1] على كون ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة لـ﴿عَمَدٍ﴾ قراءة أبيّ شذوذاً: ﴿ترونه﴾ فعاد الضمير مذكراً على لفظ ﴿عَمَدٍ﴾؛ إذ هو اسم جمع لعمود، وقياس جمعه عمد ـ بضمتين ـ كرسول ورسل. ويجوز أن يكون ﴿تَرَوْنَهَا﴾ جملة مستأنفة، فالضمير راجع إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ كأنه قيل: ما الدليل على أن السماوات مرفوعة بغير عمد؟.. فأجيب أنكم ترونها غير معمودة. والمعنى[2]: أنه تعالى خلق السماوات مرفوعات عن الأرض بغير عمد، بل بأمره وتسخيره على أبعاد لا يدرك مداها، وأنتم ترونها كذلك بلا عمد من تحتها تسندها، ولا علاقة من فوقها تمسكها. وقرأ الجمهور[3]: ﴿عَمَدٍ﴾ ـ بفتحتين ـ، وقرأ أبو حيوة ويحيى بن وثاب شذوذاً ﴿عُمُدٍ﴾ بضمتين كقراءة أبيّ.

والثاني منها: ما ذكره بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وكلمة[4] ﴿ثُمَّ﴾ لبيان تفاضل الخلقين وتفاوتهما، فإن العرش أفضل من السماوات، لا للتراخي في الوقت لتقدمه عليها. وفي «السمين»: ثم هنا لمجرد العطف لا للترتيب؛ لأن الاستواء على العرش غير مرتب على رفع السماوات اهـ؛ أي: ثم[5] استوى على عرشه الذي جعله مركز هذا التدبير العظيم استواء يليق بعظمته وجلاله، يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من النظام، وإرادته وحكمته من إحكام وإتقان، والاستواء على العرش صفة ثابتة للّه تعالى بلا كيف نعتقدها ولا نعطلها، لا نكيفها ولا نمثلها كما هو مقرر في موضعه من علم الكلام، وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى.

والثالث منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾؛ أي: ذللهما لما يراد منهما من منافع الخلق ومصالح العباد. وقال في «بحر العلوم» معنى

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.
(٥) المراغي.

تسخيرهما: كونهما نافعتين للناس حيث يعلمون عدد السنين والحساب بمسير الشمس والقمر، وينوران لهم في الليل والنهار، ويدرآن الظلمات، ويصلحان الأرض والأبدان والأشجار والنباتات. ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: يسير إلى وقت معلوم، فاللام بمعنى إلى؛ وهو فناء الدنيا وقيام الساعة التي تكور عندها الشمس ويخسف القمر وتنكدر النجوم وتنتثر. وقيل: المراد بالأجل المسمى: درجاتهما ومنازلهما التي ينتهيان إليها لا يجاوزانها؛ وهي سنة للشمس وشهر للقمر، فللشمس والقمر منازل كل منهما يغرب في كل ليلة في منزل، ويطلع في منزل آخر حتى ينتهي إلى أقصى المنازل.

والمعنى: أي وذلل الشمس والقمر، وجعلهما طائعين لما يراد منهما لمنافع خلقه، فكل منهما يسير في منازله إلى وقت معين، فالشمس تقطع فلكها في سنة، والقمر في شهر لا يختلف جري كل منهما عن النظام الذي قدر له، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ وبقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ كما سبق إيضاح هذا في سورتي «يونس» و«هود». قال بعضهم: وهذا المعنى هو الحق في تفسير الآية كما فسرها به ابن عباس رضي الله عنه.

وبعد أن ذكر هذه الدلائل قال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؛ أي: أمر العالم وحده؛ أي: يقضي سبحانه وتعالى، ويدبر أمر ملكوته من الإعطاء والمنع، والإحياء والإماتة، ومغفرة الذنوب وتفريج الكروب، ورفع قوم ووضع آخرين، وغير ذلك؛ أي: إنه تعالى يتصرف في ملكه على أتم الحالات وأكمل الوجوه، فهو يحيي ويميت، ويوجد ويعدم، ويغني ويفقر، وينزل الوحي على من يشاء من عباده، وفي ذلك برهان ساطع على القدرة والرحمة، فإن اختصاص كل شيء بوضع خاص وصفةٍ معنية لا يكون إلا من مدبر اقتضت حكمته أن يكون كذلك، فتدبيره لعالم الأجسام كتدبيره لعالم الأرواح، وتدبيره للكبير كتدبيره للصغير، لا يشغله شأن عن شأن، ولا يمنعه تدبير شيء عن تدبير آخر، كما هو شأن المخلوقات في هذه الدنيا، وكذلك هو دليل أيضاً على أنه تعالى متعال في ذاته وصفاته وعلمه وقدرته، لا يشبه شيئاً من مخلوقاته.

﴿يُفَصِّلُ﴾؛ أي: يبين سبحانه وتعالى ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾؛ أي: البراهين الدالة على وحدته في ألوهيته وربوبيته، وكمال قدرته، وعجيب حكمته التي منها ما تقدم من رفع السماء بغير عمد، وتسخير الشمس والقمر وجريهما إلى أجل مسمى. وقرأ النخعي وأبو رزين وأبان بن تقلب عن قتادة شذوذاً: ﴿ندبر الأمر نفصل﴾ بالنون فيهما.

وكذا قال أبو عمرو الداني عن الحسن فيهما، ووافق في ﴿نفصل﴾ بالنون الخفاف وعبد الواحد عن أبي عمرو وهبيرة عن حفص شذوذاً. وقال صاحب «اللوامح»: جاء عن الحسن والأعمش شذوذاً: ﴿نفصل﴾ بالنون فقط ذكره في «البحر» أبو حيان. والمعنى[1]: أي: يلبس الموجودات ثوب الوجود بنظام محكم دقيق، ويوجد بينها ارتباطات تجعلها كأنها سلسلة متصلة الحلقات لا انفصام لبعضها عن بعض، فالمجموعة الشمسية من الشمس والقمر والكواكب مرتبطة في حركاتها بنظام خاص بوساطة الجاذبية لا تحيد عن سننه، ولا تجد معدلاً عن السير فيه بحسب النهج الذي قدر لها، ولا تزال كذلك حتى ينتهي العالم، فيحدث حينئذ تغيير لأوضاعها واختلال لحركاتها ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾.

وهكذا الموجودات الأرضية لها أسباب تعقبها مسببات بإذن الواحد الأحد، فالزارع يحرث أرضه ويلقي فيها الحب، ثم يسقيها ويضع فيها السماد، ويوالي سقيها حتى تؤتي أكلها، فإذا فقدت حلقة من تلك السلسلة.. باء صاحب الزرع بالخسران، فلم يحصل على شيء، أو حصل على القليل التافه الذي لا يعدل التعب والنصب الذي فعله. وقيل[2]: إن الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان:

الأول: الموجودات المشاهدة، وهي خلق السماوات والأرض وما فيهما

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

من العجائب، وأحوال الشمس والقمر وسائر النجوم، وهذا قد تقدم ذكره.

والقسم الثاني: الموجودات الحادثة في العالم، وهي الموت بعد الحياة، والفقر بعد الغنى، والضعف بعد القوة إلى غير ذلك من أحوال هذا العالم، وكل ذلك مما يدل على وجود الصانع وكمال قدرته.

ثم أبان سبحانه وتعالى أن هذا التدبير للأمور والتفصيل للآيات الدالين على القدرة الكاملة، والحكمة الشاملة جاء لحكمة اقتضتهما: وهي الإيقان بالبعث لفصل القضاء، ومجازاة كل عامل بما عمل ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ فإما نعيم مقيم، وإما عذاب أليم، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾؛ أي: يبين[1] الله سبحانه وتعالى الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته؛ لكي توقنوا وتصدقوا بلقائه والمصير إليه بعد الموت؛ لأن من قدر على إيجاد الإنسان من العدم قادر على إيجاده وإحيائه بعد موته، واليقين صفة من صفات العلم، وهو فوق المعرفة والدراية، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك، يقال منه: استيقن وأيقن بمعنى: علم؛ أي[2]: لعلكم عند مشاهدة هذه الآيات توقنون بذلك لا تشكون فيه ولا تمترون في صدقه. قال في «بحر العلوم»: ﴿لعل﴾[3] مستعار لمعنى الإرادة لتلاحظ معناها ومعنى الترجي، والمعنى عليه؛ أي: يفصل الآيات إرادة أن تتأملوا وتنظروا فيها، فتستدلوا بها عليه وعلى وحدته وقدرته وحكمته، وتتيقنوا أن من قدر على خلق السموات والأرض والعرش، وتسخير الشمس والقمر مع عظمها، وتدبير الأمور كلها.. كان على خلق الإنسان مع مهانته، وعلى إعادته وجزائه أقدر.

وخلاصة هذه العبرة[4]: أنه تعالى كما قدر على إبقاء الأجرام الفلكية العظيمة من الشمس والقمر وسائر الكواكب في الجوّ بلا عمد، ودبر الأمور بغاية الإحكام والدقة، ولم يشغله شأن عن شأن.. ليس بالبعيد عليه أن يرد الأرواح

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

(٤) المراغي.

إلى الأجساد، ويعيد العالم إلى حياة أخرى حياة استقرار وبقاء لا فناء بعدها، وإذا أيقنتم بذلك.. وليتم معرضين عن عبادة الأصنام والأوثان، وأخلصتم العبادة للواحد الديان، وائتمرتم بوعده ووعيده، وصدقتم برسله، وبادرتم إلى اتباع أوامره، وتركتم ما نهى عنه، ففزتم بسعادة الدارين.

فائدة: قال بعضهم[1]: لا غنية للمؤمن عن ست خصال:

أولاها: علم يدله على الآخرة.

والثانية: رفيق يعينه على طاعة الله تعالى، ويمنعه عن معصيته.

والثالثة: معرفة عدوه والحذر منه.

والرابعة: عبرة يعتبر بها في آيات الله، وفي اختلاف الليل والنهار.

والخامسة: إنصاف الخلق؛ لئلا يكونوا له يوم القيامة خصماء.

والسادسة: الاستعداد للموت ولقاء الرب قبل نزوله كيلا يكون مفتضحاً يوم القيامة.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى الدلائل السماوية على وحدانيته تعالى وكمال قدرته.. أردفها بالأدلة الأرضية، وذكر منها عدة أمور:

الأول منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: بسطها طولاً وعرضاً، ووسعها؛ أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض؛ لتثبت عليها الأقدام، ويتقلب عليها الحيوان، وينتفع الناس بخيراتها زرعها وضرعها، وبما في باطنها من معادن جامدة وسائلة، ويسيرون في أكنافها يبتغون رزق ربهم منها.

والمعنى: أنشأها ممدودة بسيطة، لا أنها كانت مجموعة في مكان فبسطها، وهذا يدل على كونها مسطحة كالأكف، وعند أصحاب الهيئة أن الأرض كرة لا شك في كرويتها عندهم لما عندهم من الأدلة على ذلك، ويجمع بينها بأن يقال:

---

(١) روح البيان.

إن كونها بسيطة لا ينافي كرويتها؛ لأن جميع الأرض جسم عظيم، والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها يشاهد كالسطح، ومع ذلك فالله تعالى قد أخبر أنه مد الأرض، وأنه دحاها وبسطها، وكل ذلك يدل على التسطيح، والله تعالى أصدق قيلاً وأبين دليلاً من أصحاب الهيئة.

والثاني منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿رَوَاسِيَ﴾؛ أي: جبالاً ثابتة، يقال: رسا الشيء يرسو إذا ثبت، وأرساه غيره أثبته، جمع راسية، والتاء فيه للمبالغة كما في علامة؛ إذ لا يقال: جبال راسية **والمعنى**[1]: وجعل فيها جبالاً ثابتةً أوتاداً للأرض؛ لئلا تضطرب فتستقر ويستقر عليها، وكان اضطرابها من عظمة الله تعالى. قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ كان أبو قبيس أول جبل وضع على الأرض. وقال في «القاموس»: أبو قبيس جبل بمكة سمي برجل حداد من مذحج كمجلس؛ لأنه أول من بنى فيه، وكان يسمى الأمين؛ لأن الركن كان مستودعاً فيه. ا هـ. قال في «إنسان العيون»: وكان أول جبل وضع عليها أبا قبيس، وحينئذ كان ينبغي أن يسمى أبا الجبال، وأن يكون أفضلها، مع أن أفضلها كما قال السيوطي: أُحد؛ لقوله عليه السلام: «أُحُد يحبنا ونحبه» وهو بضمتين جبل بالمدينة.

والثالث منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَأَنْهَـٰرًا﴾؛ أي: وجعل فيها أنهاراً ومياهاً جاريةً لمنافع الإنسان والحيوان، فَيسقي الإنسان ما جعل الله فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال، ويجعلها لنفسه طعاماً وفاكهةً، ويكون منها مادة حياته في طعامه وشرابه وغذائه. وإنما ضمها[2] إلى الجبال، وعلق بها فعلاً واحداً من حيث إن الجبال أسباب لتولدها، وذلك أن الحجر جسم صلب، فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل.. احتبست هناك، فلا تزال تتزاحم وتتضاعف حتى تحصل بسبب الجبل مياه عظيمة، ثم إنها لكثرتها وقوتها تنقب الجبل، وتخرج وتسيل على وجه الأرض. ومن الأنهار العظيمة

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

الفرات؛ وهو نهر الكوفة، ودجلة؛ وهو نهر بغداد، وسيحان ـ بفتح السين المهملة ـ؛ وهو نهر المصيصة، وسيحون؛ وهو نهر بالهند، وجيحان ـ بفتح الجيم ـ؛ وهو نهر أذنة في بلاد الأرمن، وجيحون؛ وهو نهر بلخ، والنيل؛ وهو نهر مصر.

والرابع منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ متعلق بقوله: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ اثنين تأكيد للزوجين، كما هو دأب العرب في كلامهم؛ أي: وجعل سبحانه وتعالى في الأرض من كل أنواع الثمرات زوجين زوجين؛ أي: صنفين صنفين كالحلو والحامض، والأسود والأبيض، والأصفر والأحمر، والصغير والكبير. أو المعنى[1]: جعل من كل أصناف الثمرات زوجين اثنين، ذكراً وأنثى حين تكونها، فقد أثبت العلم حديثاً أن الشجر والزرع لا يولدان الثمر والحب إلا من اثنين: ذكر وأنثى، وعضو التذكير قد يكون مع عضو التأنيث في شجرة واحدة، كأغلب الأشجار، وقد يكون عضو التذكير في شجرة، وعضو التأنيث في شجرة أخرى، كالنخل، وما كان العضوان فيه في شجرة واحدة؛ إما أن يكونا معاً في زهرة واحدة كالقطن، وإما أن يكون كل منهما في زهرة منفردة كالقرع مثلاً. وعبارة «الشوكاني» هنا: أي: جعل كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين؛ إما في اللونية كالبياض والسواد ونحوهما، أو في الطعمية كالحلو والحامض ونحوهما، أو في القدر كالصغر والكبر، أو في الكيفية كالحر والبرد. قال الفراء: يعني بالزوجين: الذكر والأنثى، والأول أولى. ا هـ.

والخامس منها: ما ذكره بقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ قرأ الجمهور: ﴿يُغْشِى﴾ من أغشى الرباعي. وقرأ حمزة[2] والكسائي وأبو بكر: ﴿يغشّي﴾ ـ بالتشديد ـ من غشى المضعف؛ أي: يجعل سبحانه وتعالى الليل غاشياً وساتراً يغشى ويستر بظلمته ضوء النهار، فيذهب بظلمته ضوء النهار؛ أي: يجعل النهار مستوراً بالليل ويغطيه بظلمته، ولم يذكر العكس اكتفاء بأحد الضدين.

---

(١) المراغي.

(٢) البيضاوي.

والمعنى: أي يلبس[1] النهار ظلمة الليل، فيصير الجو مظلماً بعد أن كان مضيئاً، فكأنه وضع عليه لباساً من الظلمة، وكذلك يلبس الليل ضياء النهار، فيصير الجو مضيئاً بعد أن كان مظلماً، وكل هذا لتتم المنافع للناس بالسكون والاستقرار، أو بالبحث على المعايش والأرزاق كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ وقال أيضاً: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾.

قال البيضاوي: يلبسه مكانه، فيصير الجو مظلماً بعدما كان مضيئاً يعني: أن الإغشاء: إلباس الشيء الشيء، ولما كان إلباس الليل النهار وتغطية النهار به غير معقول؛ لأنهما متضادان لا يجتمعان، واللباس لا بدّ أن يجتمع مع اللابس.. قدر المضاف وهو مكانه، ومكان النهار هو الجو، وهو يلبس ظلمة الليل، ففيه استعارة تبعية كما سيأتي في مبحث البلاغة.

وبعد أن ذكر هذه الأدلة التي تشاهد في رأي العين في كل صباح ومساء، وفي كل حين ووقت.. ذكر أن هذه الأدلة لا يلتفت إليها ولا يعتبر بها إلا من له فكر يتدبر به، وعقل يهتدي به إلى وجه الصواب، وينتقل من النظر في الأسباب إلى مسبباتها، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن فيما ذكر من عجائب خلق الله تعالى، وعظيم قدرته التي خلق بها هذه الأشياء العظيمة ﴿لَأَيَـٰتٍ﴾؛ أي: لدلائل وحججاً ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: لقومٍ يتفكرون فيها ويتأملون، ويعتبرون بها، فيعلموا أن الخالق لذلك هو القاهر فوق العباد، وهو ذو الإرادة المطلقة والقدرة الشاملة، فلا يعجزه إحياء من هلك من خلقه، ولا إعادة من فني منهم، ولا ابتداع ما شاء ابتداعه، ومن ثم لا تجوز العبادة إلا له تعالى، ولا التذلل والخضوع إلا لسلطانه، ولا ينبغي أن تكون لصنم أو وثن أو حجر أو شجر أو ملك أو نبي أو غير أولئك ممن سلب النفع والضرّ، بل لا يستطيع صرف الأذى عن نفسه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ

(١) المراغي.

﴿شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾، وقد روي: تفكروا في آلاء الله ولا تتفكروا في الله.

ومعنى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن[1] في كل من الأرض والجبال والأنهار والثمار والملوين[2] ﴿لَآيَاتٍ﴾ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره. أما في الأرض فمن حيث هي ممدودة مدحوة كالبساط لما فوقها، وفيها المسالك والفجاج للماشين في مناكبها، وغير ذلك مما فيها من العيون والمعادن والدواب مثلاً. وأما الجبال فمن جهة رسوها وعلوها، وصلابتها وثقلها، وقد أرسيت الأرض بها كما يرسى البيت بالأوتاد. وأما الأنهار فحصولها في بعض جوانب الجبال دون بعض لا بد أن يستند إلى الفاعل المختار الحكيم. وأما الثمار فالحبة إذا وقعت في الأرض وأثرت فيها نداوة الأرض.. ربت وكبرت، وبسبب ذلك ينشق أعلاها وأسفلها، فتخرج من الشق الأعلى الشجرة الصاعدة، وتخرج من الشق الأسفل العروق الغائصة في أسفل الأرض. وهذا من العجائب؛ لأن طبيعة تلك الحبة واحدة، وتأثير الطبائع والأفلاك والكواكب فيها واحد، ثم إنه خرج من أحد جانبي تلك الحبة جرمٌ صاعد إلى الهواء ومن الجانب الآخر منها جرم غائص في الأرض، ومن المحال أن يتولد من طبيعة واحدة طبيعتان متضادتان، فعلمنا أن ذلك إنما كان بسبب تدبير المدبر الحكيم، ثم إن الشجرة النابتة من تلك الحبة بعضها يكون خشباً، وبعضها يكون نورة، وبعضها يكون ثمرة، ثم إن تلك الثمرة أيضاً يحصل فيها أجسام مختلفة الطبائع. فالجوز له أربعة أنواع من القشور: قشرة الأعلى، وتحته القشرة الخشبية، وتحته القشرة المحيطة باللب، وتحت تلك القشرة قشرة أخرى في غاية الرقة تمتاز عما فوقها حال كون الجوز واللوز رطباً، وأيضاً قد يحصل في الثمرة الواحدة الطبائع المختلفة من الحبة الواحدة مع تساوي تأثيرات الطبائع، وتأثيرات الأنجم والأفلاك لا بد وأن يكون لأجل تدبير الحكيم القدير. وأما الملوان فلا يخفى ما في اختلافهما ووجودهما من الآية؛ أي: الدلالة الواضحة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيستدلون، والتفكر: تصرف القلب في طلب معاني الأشياء، وكما أن في العالم الكبير أرضاً وجبالاً ومعادن

---

(١) روح البيان.

(٢) **الملوان**: الليل والنهار.

وبحاراً وأنهاراً، وجداول وسواقي، فكذلك في الإنسان الذي هو العالم الصغير مثله، فجسده كالأرض، وعظامه كالجبال، ومخه كالمعادن، وجوفه كالبحر، وأمعاؤه كالأنهار، وعروقه كالجداول، وشحمه كالطين، وشعره كالنبات، ومنبت الشعر كالتربة الطيبة، ورأسه كالعمران، وظهره كالمفاوز، ووحشته كالخراب، وتنفسه كالرياح، وكلامه كالرعد، وأصواته كالصواعق، وبكاؤه كالمطر، وسروره كضوء النهار، وحزنه كظلمة الليل، ونومه كالموت، ويقظته كالحياة، وولادته كبدء سفره، وأيام صباه كالربيع، وشبابه كالصيف، وكهولته كالخريف، وشيخوخته كالشتاء، وموته كانقضاء مدة سفره، والسنون من عمره كالبلدان، والشهور كالمنازل، والأسابيع كالفراسخ، وأيامه كالأميال، وأنفاسه كالخطى، فكلما تنفس نفساً كان يخطو خطوةً إلى أجله، فلا بد من التفكر في هذه الأمور.

والسادس منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ خبر مقدم لقوله: ﴿قِطَعٌ﴾ جمع قطعة، وهي الجزء؛ أي: بقاع مختلفة في الأوصاف ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾؛ أي[1]: متقاربات متلاصقات بعضها طيبة تنبت شيئاً، وبعضها سبخة لا تنبت، وبعضها قليلة الريع، وبعضها صلبة، وبعضها كثيرة الريع، وبعضها رخوة، وبعضها يصلح للزرع دون الشجر، وبعضها بالعكس، ولولا تخصيص قادرٍ حكيمٍ موقعٍ لأفعاله على وجهٍ دون وجه.. لم يكن كذلك لاشتراك تلك القطع وانتظامها في جنس الأرضية. والمعنى؛ أي[2]: وفي الأرض بقاع متجاورات متدانيات يقرب بعضها من بعض وتختلف بالتفاضل مع من تجاورها، فمن سبخة لا تنبت شيئاً إلى أرض جيدة التربة تجاورها وتنبت أفضل الثمرات ومختلف النبات، ومن صالحه للزرع دون الشجر إلى أخرى مجاورة لها تصلح للشجر دون الزرع إلى متدانية لهما تصلح لجميع ذلك. ومنها الرخوة التي لا تكاد تتماسك، وهي تجاور الصلبة التي لا تفتتها المعاول وأدوات التدمير، وكلها من صنع الله وعظيم تدبيره في خلقه.

قيل: وفي الكلام حذف[3]؛ أي: قطع متجاورات وغير متجاورات كما في

---

(١) روح المعاني.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾؛ أي: وتقيكم البرد قيل: والمتجاورات المدن وما كان عامراً، وغير المتجاورات الصحارى وما كان غير عامر. ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾. قرأ الجمهور بالرفع عطفاً على ﴿قِطَعٌ﴾. وقرأ الحسن شذوذاً بالنصب على إضمار فعل؛ أي: وجعل فيها جنات. وقيل: عطفاً على ﴿رَوَٰسِيَ﴾؛ أي: وفي الأرض بساتين ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾؛ أي: من أشجار الكرم جمع عنب. وسمت[1] العرب العنب الكرم؛ لكرم ثمرته وجودتها وكثرة حمله وتذلله للقطف ليس بذي شوك ولا بشاق المصعد، ويؤكل غضاً ويابساً. وأصل الكرم: الكثرة، والجمع للخير، وبه سمي الرجل كرماً لكثرة خصال الخير فيه.

واعلم: أن[2] قلب المؤمن لما فيه من نور الإيمان أولى بهذا الاسم، ولذا قال عليه السلام: «لا يقولن أحدكم الكرم، فإن الكرم قلب المؤمن». قال ابن الملك: سبب النهي: أن العرب كانوا يسمون العنب وشجرته كرماً؛ لأن الخمر المتخذة منه تحمل شاربها على الكرم، فكره النبي ﷺ هذه التسمية؛ لئلا يتذاكروا به الخمر، ويدعوهم حسن الاسم إلى شربها، وجعل المؤمن وقلبه أحق أن يتصف به لطيبه وذكائه، والغرض منه تحريض المؤمن على التقوى، وكونه أهلاً لهذه التسمية. ﴿وَزَرْعٌ﴾ بالرفع عطف على ﴿جنات﴾ وتوحيده؛ لأنه مصدر في أصله. وذكر سبحانه[3] الزرع بين الأعناب والنخيل؛ لأنه في الخارج يكون كذلك كثيراً، ومثله في قوله سبحانه: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾؛ أي: وفي الأرض زرع من كل نوع وصنف من الحبوب المختلفة التي تكون غذاء للإنسان والحيوان. ﴿و﴾ فيها ﴿نخيل صنوان﴾ جمع صنو؛ أي: نخيل مجتمعات يجمعها أصل واحد، وتتشعب فروعها منه؛ أي: تنبت من أصلٍ واحد ثلاث نخلات فأكثر؛ أي: مجتمع أصول الأربعة في أصل واحد. قال أبو عبيدة: صنوان جمع صنو، وهو أن يكون الأصل واحداً، ثم يتفرع فيصير نخيلاً، ثم يحمل عليه، وهذا قول جميع أهل اللغة والتفسير. ﴿و﴾

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

نخيل ﴿غير صنوان﴾؛ أي: غير مجتمعات في أصل واحد؛ أي: متفرقات مختلفة الأصول. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص[1]: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ برفع هذه الأربع عطفاً على ﴿جنات﴾. وقرأ الباقون بالجر عطفاً على ﴿أَعْنَٰبٍ﴾. وقرأ الجمهور: ﴿صِنْوَانٌ﴾ - بكسر الصاد فيهما -. وقرأ مجاهد والسلمي وزيد بن علي شذوذاً بضمها.

وقرأ الحسن وقتادة وهو شاذ أيضاً بفتحها، وبالفتح هو اسم للجمع كالسعدان، ولا فرق في تثنيته وجمعه إلا بكسر النون في المثنى وبما يقتضيه الإعراب في الجمع. ﴿يُسْقَىٰ﴾ كل واحد مما ذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل ﴿بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ في الطبع، لا اختلاف في طبعه سواء كان السقي بماء الأمطار أو بماء الأنهار. والماء[2] ضابطه: هو جسم رقيق مائع به حياة كل نام. وقيل في حده: هو جوهر سيال به قوام الأرواح، ومعنى ﴿بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾: ماء مطر، أو ماء بحر، أو ماء نهر، أو ماء عين، أو ماء نبع لا يسيل على وجه الأرض. ﴿و﴾ مع وجود أسباب التشابه ﴿نفضل﴾ بمحض قدرتنا ﴿بَعْضَهَا﴾؛ أي: بعضاً منها ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ آخر ﴿فِى ٱلْأُكُلِ﴾؛ أي: في الثمر المأكول منها، فيكون[3] طعم بعضها حلواً، والآخر حامضاً، وهذا في غاية الجودة، وهذا ليس بجيد، وهذا فائق في حسنه، وهذا غير فائق، مما يقطع من تفكر واعتبر ونظر نظر العقلاء أن السبب المقتضي لاختلافها ليس إلا قدرة الصانع الحكيم جلّ سلطانه وتعالى شأنه؛ لأن تأثير الاختلاف فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء إلا لسببين؛ إما اختلاف المكان الذي هو المنبت، أو اختلاف الماء الذي تُسقى به، فإذا كان المكان متجاوراً وقطع الأرض متلاصقة، والماء الذي تسقى به واحداً.. لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل إلا تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المفضل من أحوال القطع والجنات ﴿لَأَيَٰتٍ﴾؛ أي: لدلالات كثيرة ظاهرة ﴿لِّقَوْمٍ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الخازن.
(٣) الشوكاني.

﴿يَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: يستعملون عقولهم في التدبر، وخص التفضيل في الأكل، وإن كانت متفاضلة في غيره؛ لأنه غالب وجوه الانتفاع من الثمرات، ألا ترى إلى تقاربها في الأشكال والألوان والروائح والمنافع، وما يجري مجرى ذلك؛ أي: إن[1] فيما فضل من الأحوال السالفة لآيات باهرة لقوم يعملون على قضية العقل، فمن ير خروج الثمار المختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح في تلك البقاع المتلاصقة مع أنها تسقى بماء واحد، وتتشابه وسائل نموها.. يجزم حتماً بأن لذلك صانعاً حكيماً قادراً مدبراً لا يعجزه شيء، وكذلك يعتقد بأن من قدر على إنشاء ذلك؛ فهو قادر على إعادة ما بدأه أول مرة، بل هو أهون منه لدى النظر والاعتبار.

وقرأ عاصم وابن عامر وزيد بن علي ويعقوب[2]: ﴿يُسۡقَىٰ﴾ - بالياء -؛ أي: يسقى ما ذكر، وباقي العشرة بالتاء، وهي قراءة الحسن وأبي جعفر وأهل مكة، أنثوا لعود الضمير على لفظ ما تقدم، ولقوله: ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ بالنون. وحمزة والكسائي بالياء وابن محيصن بالياء في ﴿يُسۡقَىٰ﴾ وفي ﴿نفضل﴾. وقرأ يحيى بن يعمر وأبو حيوة والحلبي عن عبد الوارث شذوذاً: ﴿ويفضل﴾ - بالياء وفتح الضاد - ﴿بعضها﴾ - بالرفع -. قال أبو حاتم: وجدته كذلك في مصحف يحيى بن يعمر، وهو أول من نقط المصاحف، وتقدم في البقرة خلاف القراء في ضم الكاف من الأكل وسكونها، و﴿ٱلۡأُكُلِۚ﴾ - بضم الهمزة - المأكول، كالنقض بمعنى المنقوض، وبفتحها المصدر.

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ﴾ بتحقيق الباء وإدغامها في الفاء قراءاتان سبعيتان كما في «الخطيب». والعجب: تغير النفس برؤية المستبعد في العادة. وقال القرطبي: العجب: تغير النفس بما تخفي أسبابه، وذلك في حق الله تعالى محال، وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون. اهـ. «كرخي»؛ أي: وإن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعدما كنت عندهم الصادق الأمين ﴿فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ﴾؛ أي: فأعجب منه تكذيبهم بالبعث وقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾؛ أي: أنبعث إذا كنا ترابا؟ ﴿أَءِنَّا

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

﴿لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾؛ أي: أنعاد خلقاً جديداً بعد الموت كما كنا قبله؟ والاستفهام في الموضعين للإنكار.

وقيل المعنى[1]: أي إن عجبت يا محمد إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأني خالق السموات والأرض والثمار المختلفة من الأرض الواحدة، فقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾ عجب؛ أي: عجب يعجب منه الخلق؛ لأن الإعادة في معنى الابتداء.

وقيل المعنى[2]: أي وإن تعجب يا محمد من عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام والأوثان بعد أن قامت الأدلة على التوحيد، فعجب قولهم؛ أي: فأعجب منه تكذيبهم بالبعث واستبعادهم إياه بقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾؛ أي: أئذا فنينا وبلينا نعاد بعد العدم، مع أنهم لا ينكرون قدرته تعالى على إيجادهم بدأة ذي بدء، وتصويرهم في الأرحام، وتدبير شوؤنهم حالاً بعد حال. وقد تكرر هذا الاستفهام الإنكاري في أحد عشر موضعاً في تسع سور من القرآن، في الرعد والإسراء في موضعين، والمؤمنون والنحل والعنكبوت والسجدة والصافات والواقعة والنازعات، وكلها تتضمن كمال الإنكار وعظيم الاستعباد.

وفي «الفتوحات»: يجوز[3] في هذه الجملة الاستفهامية وجهان:

أحدهما: وهو الظاهر: أنها منصوبة المحل لحكايتها بالقول.

والثاني: أنها في محل رفع بدلاً من قولهم، وبه بدأ الزمخشري، وعلى هذا فقولهم بمعنى مقولهم، ويكون بدل كل من كل؛ لأن هذا هو نفس قولهم: و﴿إذا﴾ هنا ظرف محض، وليس فيها معنى الشرط، والعامل فيها مقدر يفسره: ﴿لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾ تقديره: أئذا كنا تراباً نبعث أو نحشر، ولا يعمل فيها ﴿خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾؛ لأن ما بعد ﴿إن﴾ وكذا ما بعد أداة الاستفهام لا يعمل فيما قبلها، ولا يعمل فيها أيضاً ﴿كُنَّا﴾؛ لإضافتها إليها، والتقدير: أنبعث في خلق جديد وقت كوننا تراباً.

---

(١) القرطبي.

(٢) المراغي.

(٣) الفتوحات.

واختلف القراء في هذا الاستفهام المكرر اختلافاً منتشراً. فقرأ[1] ابن كثير وأبو عمرو: ﴿آيذا كنا تراباً آينا﴾ جميعاً بالاستفهام، غير أن أبا عمرو يمد الهمزة ثم يأتي بالياء ساكنة وابن كثير يأتي بياء ساكنة بعد الهمزة من غير مد. وقرأ نافع: ﴿آيذا﴾ مثل أبي عمرو واختلف عنه في المد، وقرأ: ﴿إنا لفي خلق جديد﴾ مكسورة على الخبر، وقرأ عاصم وحمزة: ﴿أإذا كنا﴾ ﴿أإنا﴾ - بهمزتين فيهما -، وقرأ ابن عامر: ﴿إذا كنا تراباً﴾ مكسورة الألف من غير استفهام ﴿آإنا﴾ يهمز ثم يمد ثم يهمز على وزن عاعنا. وروي عن ابن عامر شاذاً أيضاً: ﴿أأذا﴾ بهمزتين لا ألف بينهما. ثم الوجه[2] في قراءة من استفهم في الأول والثاني قصد المبالغة في الإنكار، فأتى به في الجملة الأولى، وأعاده في الثانية تأكيداً له، والوجه في قراءة من أتى به مرة واحدة حصول المقصود به؛ لأن كل جملة مرتبطة بالأخرى، فإذا أنكر في إحداهما حصل الإنكار في الأخرى. ا هـ. «سمين».

ثم وصف أولئك المنكرين للبعث بأوصاف ثلاثة، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنكرون لقدرته تعالى على البعث بعدما عاينوا الآيات الباهرة وكذبوا رسوله هم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ﴾؛ أي: تمادوا على عنادهم وكفرهم بربهم، فإن إنكار قدرته تعالى إنكار له؛ لأن الإلٰه لا يكون عاجزاً؛ أي: هم المتمادون في الكفر الكاملون فيه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكفار ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾ كائنة ﴿فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ يوم القيامة عند العرض للحساب، توضع الأغلال في أعناقهم كما يقاد الأسير الذليل بالغل، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ٧٢﴾. والأغلال: جمع غل؛ وهو طوق تشد به اليد إلى العنق يغلون بها يوم القيامة. وقيل: الأغلال أعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم لزوم الأطواق للأعناق، والمعنى عليه: وأولئك مقيدون بسلاسل وأغلال من الضلال تصدهم عن النظر في الحق، واتباع طريق الهدى، والبعد عن الهوى كما قال:

---

(١) زاد المسير.
(٢) الفتوحات.

كَيْفَ ٱلرَّشَادُ وَقَدْ خُلِّفْتُ فِيْ نَفَرٍ   لَهُمْ عَنِ ٱلرُّشْدِ أَغْلَالٌ وَأَقْيَادُ

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المقيدون بالأغلال في أعناقهم هم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾؛ أي: سكان النار دار الذل والهوان ملازموها ﴿هُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في النار ﴿خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: ماكثون فيها مكثاً مؤبداً لا يتحولون عنها ولا يبرحون بها كفاء ما سولت لهم أنفسهم من سوء الأعمال، وما اجترحوا من الموبقات والشرور والآثام. وتوسيط[1] ضمير الفصل وتقديم ﴿فِيهَا﴾ يفيد الحصر؛ أي: هم الموصوفون بالخلود في النار لا غيرهم، وإن خلودهم إنما هو في النار لا في غيرها، فثبت أن أهل الكبائر لا يخلدون في النار.

وبعد أن ذكر تكذيبهم للرسول ﷺ في إنكار عذاب يوم القيامة.. ذكر جحودهم لعذاب الدنيا الذي أوعدهم به، وكانوا كلما هددهم بالعذاب قالوا له: جئنا به وائتنا وطلبوا منه إنزاله، وهذا ما أشار إليه بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ الاستعجال[2]: طلب تعجيل الأمر قبل مجيء وقته؛ أي: يطلب مشركو مكة منك يا محمد العجلة ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ والعقوبة التي هددتهم بها إن لم يؤمنوا، وسميت العقوبة سيئة؛ لأنها تسوؤهم ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ متعلق بالاستعجال؛ أي: قبل العافية والإحسان إليهم بالإمهال؛ أي: يطلبون منك الإتيان بالعقوبة المهلكة لهم قبل انقضاء الزمان المقدر لعافيتهم وسلامتهم.

وذلك أنه ﷺ كان يهدد مشركي مكة تارة بعذاب يوم القيامة، وتارة بعذاب الدنيا، وكلما هددهم بعذاب القيامة أنكروا القيامة والبعث، وكلما هددهم بعذاب الدنيا استعجلوه، وقالوا: متى تجيئنا به، فيطلبون العقوبة والعذاب والشر بدل العافية والرحمة والخير استهزاء منهم، وإظهاراً أن الذي يقوله لا أصل له، ولذا قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والله تعالى صرف عن هذه الأمة عقوبة الاستئصال، وأخر

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

تعذيب المكذبين إلى يوم القيامة، فذلك التأخير هو الحسنة في حقهم، فهؤلاء طلبوا منه عليه السلام نزول تلك العقوبة، ولم يرضوا بما هو حسنة في حقهم.

واعلم: أن[1] استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة هو استعجالهم بالكفر والمعاصي قبل الإيمان والطاعات، فإن منشأ كل سعادة ورحمة هو الإيمان الكامل والعمل الصالح، ومنشأ كل شقاوة وعذاب هو الكفر والشرك والعمل الفاسد.

وجملة قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾ حال من واو ﴿يستعجلونك﴾؛ أي: يستعجلونك بالعقوبة حالة كونهم قد خلت ومضت ﴿مِن قَبْلِهِمُ﴾؛ أي: من قبل هؤلاء المشركين ﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾؛ أي: عقوبات أمثالهم من المكذبين لرسلهم كالخسف والمسخ والرجفة، فما لهم لم يعتبروا بها، فلا يستهزئوا، جمع مَثُلَه بفتح الثاء وضمها؛ وهي العقوبة لأنها مثل المعاقب عليه، وهو الجريمة. وفي «التبيان»: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾؛ أي: العقوبات المهلكات يماثل بعضها بعضاً.

والمعنى: أي ويستعجلونك بذلك مستهزئين بإنذارك منكرين وقوع ما تنذرهم به، والحال أنه قد مضت العقوبات الفاضحة النازلة على أمثالهم من المكذبين المستهزئين، فمن أمة مسخت قردة، وأخرى أهلكت بالرجفة، وثالثة أهلكت بالخسف إلى نحو أولئك. وقرأ الجمهور[2]: ﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ ـ بفتح الميم وضم الثاء ـ ومجاهد والأعمش بفتحهما. وقرأ عيسى بن عمير في رواية الأعمش وأبو بكر بضمهما، وابن وثاب بضم الميم وسكون الثاء، وابن مصرف بفتح الميم وسكون الثاء، وكل هذه القراءة عدا قراءة الجمهور شاذ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: لذو إمهال لهم وتأخير للعذاب عنهم حالة كونهم ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾؛ أي: ظالمين أنفسهم بالمعاصي، أو المعنى: وإن ربك لذو عفو وصفح عن ذنوب من تاب من عباده، فتارك فضيحته بها في يوم القيامة، ولولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة حين اكتسابها كما قال:

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فيعاقب من يشاء منهم حين يشاء، فتأخير ما استعجلوه ليس للإهمال.

أي: وإن ربك[1] يا محمد ليعاقب في الآخرة عقاباً شديداً لمن يجترح السيئات، وهو متمادٍ في غوايته سادر[2] في آثامه، وقد يعجل له قسطاً منه في الدنيا، ويكون جزاءً له على ما سولت له نفسه، كما يشاهد لدى المدمنين على الخمور من اعتلال وضعف، ومرض مزمن، وفقر مدقع، وذل وهوان بين الناس. وفي المقامرين من خراب عاجل وإفلاس في المال والذل بعد العز. وربما اقتضت حكمته أن يؤجل له ذلك إلى يوم مشهود يوم يقوم الناس لرب العالمين، فيستوفي قطه هناك ناراً تكوى بها الجباه والجنوب، وتبدل الجلود غير الجلود، وقد قرن المغفرة بالعقاب في مواضع كثيرة من الكتاب الكريم؛ ليعتدل الرجاء والخوف كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقوله: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الخوف والرجاء. روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ...﴾ إلخ. قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحداً العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل واحد».

وبعد[3] أن ذكر طعنهم في نبوة محمد ﷺ لقوله بالحشر والمعاد، ثم طعنهم فيه؛ لأنه أنذرهم بحلول عذاب الاستئصال.. ذكر أنهم طعنوا فيه؛ لأنه لم يأت لهم بمعجزة مبينة كما فعل الرسل من قبله، فقال: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة تعنتاً وجحوداً ﴿لَوْلَا﴾؛ أي: هلاً ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على محمد ﷺ ﴿آيَةٌ﴾؛ أي: علامة دالة على صدقه ونبوته ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ إن كان صادقاً فيما

(١) المراغي.

(٢) قوله سادر: المتحير وهو أيضاً الذي لا يهتم ولا يبالي ما صنع ا هـ مختار.

(٣) المراغي.

يدعيه من النبوة كعصا موسى وناقة صالح وإحياء عيسى للموتى، وذلك أنهم لم يقتنعوا بما رأوا من الآيات التي جاء بها رسول الله ﷺ. و﴿لَوْلَآ﴾[1] تحضيضية بمعنى هلا، والتنوين في ﴿ءَايَةٌ﴾ للتعظيم؛ أي: آية جلية يستعظمها من يدركها في بادىء نظره. والمعنى: ويقول الذين كفروا تعنتاً وعناداً: هلا يأتينا بآية من ربه كعصا موسى وناقة صالح، فيجعل لنا الصفا ذهباً، ويزيح عنا الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً، وقد طلبوا ذلك ظناً منهم أن القرآن كتاب كسائر الكتب لا يدخل في باب المعجزات التي أتى بها الرسل السالفون عليهم السلام. وقد رد الله عليهم الشبهة بقوله في آية أخرى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾؛ أي: إن سنتنا أن الآيات إن لم يؤمن بها من طلبوا بها أهلكناهم بذنوبهم، ولم نشأ أن يحل بكم عذاب الاستئصال.

ولما كان[2] النبي ﷺ راغباً في إجابة مقترحاتهم حُباً في إيمانهم.. بين وظيفته التي أرسل لأجلها، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿مُنذِرٌ﴾؛ أي: رسول مرسل للإنذار والتخويف من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون، ولا حاجة إلى إلزامهم بإتيان ما اقترحوا من الآيات، ولو أجيبوا إلى ما اقترحوا لأدى ذلك إلى إتيان ما لا نهاية له؛ لأنه كلما أتى بمعجزة طلبها واحد منهم.. جاء آخر منهم، فطلب منه معجزة أخرى، وذلك يوجب سقوط دعوة الأنبياء.

والمعنى: أن[3] وظيفتك التي بعثت لها هي الإنذار من سوء مغبة ـ عاقبة ـ ما نهى الله عنه كدأب من قبلك من الرسل، وليس عليك الإتيان بالآيات التي يقترحونها ابتغاء هدايتهم، فأمر ذلك إلى خالقهم وهاديهم: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ﴾؛ أي: ولكل أمة من الأمم ﴿هَادٍ﴾ لهم إلى سبيل الخير؛ أي: نبي له هداية مخصوصة، وشريعة لائقة بهم مخصوص[1] بمعجزة من جنس ما هو الغالب عليهم، يهديهم إلى الحق ويدعوهم إلى الصواب. ولما كان الغالب في زمان موسى هو السحر جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقهم. ولما كان الغالب في أيام عيسى الطب جعل معجزته ما يناسب الطب؛ وهو إحياء الموتى وإبراء الأبرص والأكمه. ولما كان الغالب في زمان نبينا محمد ﷺ الفصاحة والبلاغة جعل معجزته فصاحة القرآن، وبلوغه في باب البلاغة إلى حدّ خارج عن قدرة الإنسان، فإذا لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع كونها أقرب إلى طريقهم وأليق بطباعهم، فبأن لا يؤمنوا عند إظهار سائر المعجزات أولى. أو المراد بالهادي: هو الله تعالى؛ أي: إنما أنت منذر، وليس لك هدايتهم ولكل قوم من الفريقين هاد يهديهم: هادٍ لأهل العناية بالإيمان والطاعة إلى الجنة، وهاد لأهل الخذلان بالكفر والعصيان إلى النار. وهذا القول الأخير مروي[2] عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة والضحاك والنخعي.

والمعنى: إنما عليك الإنذار يا محمد، والهادي هو الله تعالى يهدي من يشاء. والقول الأول مروي عن عكرمة في رواية أبي الضحى، والمعنى عليه: إنما أنت منذر وأنت هادٍ.

وحاصل المعنى: أي ولكل أمة قائد يدعوهم إلى سبيل الخير فطره الله تعالى على سلوك طريقه بما أودع فيه من الاستعداد له بسائر وسائله، وقد شاء أن يبعث هؤلاء الهداة في كل زمان كي لا يترك الناس سدى، وأولئك هم الأنبياء الذين يرسلهم لهداية عباده، فإن لم يكونوا فالحكماء والمجتهدون الذين يسيرون على سننهم ويقتدون بما خلفوا من الشرائع وفضائل الأخلاق وحميد الشمائل، ويؤيده ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

ووقف ابن كثير[3] على ﴿هَادٍ﴾ و﴿واقٍ﴾ حيث وقعا، وعلى ﴿وَالٍ﴾ هنا،

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن بتصرف.

(٣) البحر المحيط.

و﴿باقٍ﴾ في النحل بإثبات الياء، وباقي السبعة بحذفها. وفي «الإقناع» لأبي جعفر بن الباذش عن ابن مجاهد الوقف على جميع الباب لابن كثير بالياء، وهذا لا يعرفه المكيون. وفيه عن أبي يعقوب الأزرق عن ورش أنه خيره في الوقف في جميع الباب بين أن يقف بالياء، وبين أن يقف بحذفها، والباب هو كل منقوص منون غير منصرف؛ أي: غير مجرور.

﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾؛ أي: الشيء الذي تحمله كل أنثى في بطنها من حين العلوق إلى الولادة من علقة أو مضغة، ذكر أو أنثى، واحد أو متعدد، صبيح أو قبيح، شقي أو سعيد، طويل العمر أو قصيره، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ وقال: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾.

﴿و﴾ يعلم سبحانه وتعالى ﴿ما تغيض الأرحام﴾ من الغيض؛ وهو النقص؛ أي: يعلم سبحانه ما تنقصه الأرحام ﴿وَمَا تَزۡدَادُ﴾؛ أي: وما تزيده في الجثة والمدة والعدد، واختلفوا في ذلك، فقيل: المراد نقص خلقة الحمل وزيادته، كنقص أصبع أو زيادتها. وقيل المراد: نقص مدة الحمل عن تسعة أشهر أو زيادتها، وقيل المراد: نقص في عدد الولد وزيادته، فقد يكون الولد واحداً أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة. قال أهل التفسير[1]: غيض الأرض الحيض على الحمل، فإذا حاضت الحامل كان ذلك نقصاناً في الولد؛ لأن دم الحيض هو غذاء الولد في الرحم، فإذا خرج الدم نقص الغذاء، فينقص الولد، وإذا لم تحض يزداد الولد ويتم، فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم، والزيادة تمام خلقه باستمساك الدم. وقيل: إذا حاضت المرأة في وقت حملها ينقص الغذاء، وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة أشهر طاهرة، فإن رأت خمسة أيام دماً.. وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام، فالنقصان في الغذاء زيادة في مدة الحمل. وقيل: النقصان السقط، والزيادة تمام الخلق.

---

(١) الخازن.

وأقل مدة الحمل ستة أشهر، وغالبه تسعة أشهر، وأكثره أربع سنين عند الشافعي وخمس سنين عند مالك. وفي «إنسان العيون»[١] وقع الاختلاف في مدة حمله ﷺ، فقيل: بقي في بطن أمه تسعة أشهر كملاً، وقيل: عشرة أشهر، وقيل: ستة أشهر، وقيل: سبعة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، فيكون ذلك آية، كما أن عيسى عليه السلام ولد في الشهر الثامن كما قيل به مع نص الحكماء على أن من يولد في الشهر الثامن لا يعيش، بخلاف التاسع والسابع والسادس الذي هو أقل مدة الحمل.

وقد قال الحكماء في بيان سبب ذلك[٢]: أن الولد عند استكماله سبعة أشهر تحرك للخروج حركة عنيفة أقوى من حركته في الشهر السادس، فإن خرج عاش، وإن لم يخرج استراح في البطن عقيب تلك الحركة المضعفة له، فلا يتحرك في الشهر الثامن، لذلك تقل حركته في البطن في ذلك الشهر، فإذا تحرك للخروج وخرج، فقد ضعف غاية الضعف، فلا يعيش لاستيلاء حركتين مضعفتين له مع ضعفه، وعلى فرض أن يعيش يكون مغلولاً لا ينتفع بنفسه، وذلك لأن الشهر الثامن يغلب فيه على الجنين البرد واليبس، وهو طبع الموت. والأرحام: جمع رحم، وهو مبيت للولد في البطن ووعاؤه. واعلم أن رحم المرأة عضلة وعصب وعروق، ورأس عصبها في الدماغ، وهي على هيئة الكيس، ولها فم بإزاء قبلها، ولها قرنان شبه الجناحين تجذب بهما النطفة، وفيها قوة الإمساك لئلا ينزل من المني شيء. وقد أودع الله تعالى في ماء الرجل قوة الفعل، وفي ماء المرأة قوة الانفعال، فعند الامتزاج يصير مني الرجل كالأنفحة الممتزجة باللبن.

﴿وَكُلُّ شَىۡءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها الأشياء المذكورة من الزيادة والنقصان، وخروج الولد والمكث ﴿عِندَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: في علمه ﴿بِمِقۡدَارٍ﴾؛ أي: مقدر بقدر وحدٍّ لا يجاوزه ولا ينقص عنه لقوله تعالى: ﴿إِنَّا

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾. وفي «بحر العلوم»؛ أي: مقدر مكتوب في اللوح معلوم قبل كونه قد علم حاله وزمانه ومتعلقه. وفي «التبيان»؛ أي: بحد لا يجاوزه من رزق وأجل ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو تعالى عالم كل ما يطلق عليه اسم الغيب؛ وهو ما غاب عن الحس، فيدخل فيه المعلومات والأسرار الخفية والآخرة. وقال بعضهم[١]: كل ما ورد في القرآن من إسناد الغيب إلى الله تعالى إنما هو بالنسبة إلينا، إذ لا غيب بالنسبة إلى الله تعالى؛ أي[٢]: هو تعالى عالم ما هو غائب عنكم لا تدركه أبصاركم من عوالم لا نهاية لها، فقد أثبت العلم حديثاً أن هناك عوالم لا تراها العين المجردة، بل ترى بالمنظار المعظم ـ التليسوب ـ ومنها الجراثيم ـ المكروبات ـ التي تولد كثيراً من الأمراض التي قد يعسر شفاؤها، أو يتعذر في كثير من الأحوال كجراثيم السرطان والسل والزهري، أو تشفى بعد حين كجراثيم الجدري والحصبة ونحوها، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

﴿و﴾ عالم ﴿الشهادة﴾؛ أي: كل ما يطلق عليه اسم الشهادة؛ وهو ما حضر للحس، فيدخل فيه الموجودات المدركة والعلانية والدنيا؛ أي: عالم كل ما تشاهدونه وترونه بأعينكم ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾؛ أي: هو تعالى العظيم الشأن الذي لا يخرج عن علمه شيء الذي يجل عما وصفه به الخلق من صفات المخلوقين، أو الذي يصغر غيره بالنسبة إلى كبريائه ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾؛ أي: المستعلي على كل شيء بقدرته وجبروته، وهو وحده له التصرف في ملكوته. وفي «الكواشي» المترفع عن صفات المخلوقين وقول المشركين. وفي هذا[٣] إيماء إلى أنه تعالى قادر على البعث الذي أنكروه، والآيات التي اقترحوها، والعذاب الذي استعجلوه، وإنما يؤخر

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

ذلك لمصلحة لا يدركها البشر، فيخفى عليه سرها، وفي معنى الآية قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾. وقرأ زيد بن علي: ﴿عالم الغيب﴾ ـ بالنصب ـ، وأثبت ابن كثير ويعقوب وأبو عمرو في رواية ياء ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ وقفاً ووصلاً، وهو الكثير في لسان العرب، وحذفها الباقون وصلاً ووقفاً؛ لأنها كذلك رسمت في الخط. واستشهد سيبويه بحذفها في الفواصل ومن القوافي، وأجاز غيره حذفها مطلقاً، ووجه حذفها مع أنها تحذف مع التنوين وإن تعاقب التنوين، فحذفت مع المعاقب إجراء له مجرى المعاقب. ذكره أبو حيان في «البحر».

ولما ذكر تعالى أنه عالم الغيب والشهادة على العموم.. ذكر تعالى تعلق علمه بشيء خاص من أحوال المكلفين، فقال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ في نفسه، فلم يظهره على أحد ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾؛ أي: أظهره لغيره. وقال ابن[1] عباس: أي: سواء ما أضمرته القلوب وما أظهرته الألسنة، فهو تعالى يعلم ما أسره الإنسان كعلمه بما جهر به من خير أو شر، فإسرار القول ما حدث به المرء نفسه، والجهر ما حدث به غيره. فـ﴿من﴾[2] مبتدأ خبره ﴿سواء﴾، و﴿مِّنكُمْ﴾ حال من ضمير ﴿سَوَآءٌ﴾؛ لأنه بمعنى مستو، ولم يثن الخبر مع أنه خبر عن شيئين، وهما الشخصان المرادان بـ﴿من﴾. والمعنى: مستو في علم الله تعالى من أضمر القول في نفسه، ومن أظهره بلسانه منكم أيها الناس؛ أي: من أسر قوله وأخفاه ولم يتلفظ به، أو جهر به وأظهره؛ فهو سواء عند الله تعالى يسمعه ولا يخفى عليه شيء منه، كما قال: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾؛ أي: وسواء في علم الله تعالى من هو مختف مستتر بظلمة الليل ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: ومن هو ماشٍ في سربه وطريقه ظاهر بضوء النهار، فكلاهما في علم الله تعالى سواء. وروي عن ابن عباس في تفسير

---

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

ذلك: هو صاحب ريبة مستخف بالليل، وإذا خرج بالنهار أري الناس أنه بريء من الإثم. ومعنى الآية: سواء ما أضمرت به القلوب، أو نطقت به الألسن، وسواء من أقدم على القبائح مستتراً في ظلمات الليل، أو أتى بها ظاهراً في النهار.. فإن علمه تعالى محيط بالكل.

﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لكل ممن أسر أو جهر والمستخفي والسارب، أو لعالم الغيب والشهادة، أو لكل إنسان ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾؛ أي: ملائكة حفظة يتعاقبون عليه ويتناوبون به، يعقب وينوب بعضهم بعضاً في المجيء إلى من ذكر، وحفظه من المضار وكتب أعماله ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾؛ أي: من قدام ذلك الإنسان ومن ورائه حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من المضار، ويراقبون أحواله لا يفارقونه، كما يتعاقب عليه ملائكة آخرون لحفظ أعماله من خير أو شر ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلان حافظان وكاتبان كما جاء في الحديث الصحيح: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: آتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون».

وإذ علم الإنسان أن هناك ملائكة تحصي عليه أعماله كان حذراً من وقوعه في المعاصي خيفة أن يطلع عليه الكرام الكاتبون، ويزجره الحياء عن الإقدام على فعل الموبقات، كما يحذر من الوقوع فيها إذا حضر من يستحيي منه من البشر، وهو أيضاً إذا علم أن كل عمل له في كتابٍ مدخر يكون ذلك رادعاً له داعياً إلى تركه. وقال الصاوي: وهذه الآية من تدبرها وعمل بمقتضاها أورثته الإخلاص في أعماله، فيستوي عنده إسرار العبادة وإظهارها ليلاً أو نهاراً، والمراقبة؛ لأنه إذا علم أن هذه الأشياء مستوية عنده ولا يخفى عليه شيء منها.. فلا يستطيع أن يقدم على ما نهي عنه ظاهراً ولا باطناً انتهى. وليس أمر الحفظة بالبعيد عن العقل

بعد أن أثبته الدين، وبعد أن كشف العلم أن كثيراً من الأعمال العامة يمكن إحصاؤها بآلات دقيقة لا تدع منها شيئاً إلا تحصيه. فقد أصبحت المياه والكهرباء في المدن تعد بالآلات ـ العدادات ـ، فالمياه التي يشربونها والكهرباء التي يضيئون بها منازلهم تحصى وتعد كما يعد الدرهم والدينار. وكذلك هناك آلات تحصي المسافات التي تقطعها السيارات في سيرها، وأخرى تحصي تيارات الأنهار ومساقط المياه إلى غير ذلك من دقيق الآلات التي لا تترك صغيرة ولا كبيرة من الأعمال إلا تكتبها وتحصيها، وكلما تقدمت العلوم وكشفت ما كان غائباً عنا كان في ذلك تصديق أيما تصديق لنظريات الدين، ووسيلة حافزة إلى الاعتراف بما جاء فيه مما يخفى على بعض الماديين الذين لا يقرون إلا بما يرونه رأي العين، ولا يذعنون إلا بما يقع تحت حسهم، وبهذا يصدق قول القائل: الدين والعقل في الإسلام صنوان لا يفترقان، وصديقان لا يختلفان.

والمعنى: له[1] ملائكة يتعاقب بعضهم بعضاً كائنون من أمام الإنسان ووراء ظهره؛ أي: يحيطون به من جوانبه ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: يحفظون من ذكر؛ أي: من بأسه ونقمته إذا أذنب بدعائهم له ومسألتهم ربهم أن يمهله رجاء أن يتوب من ذنبه أو ينيب، أو يحفظونه من المضار التي أمر الله بالحفظ منها. قال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما يأتيه منهم شيء يريده إلا قال: وراءك إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه. أو المعنى: هم يحفظونه[2] بأمر الله وإذنه وجميل رعايته وكلاءته، فـ﴿من﴾ بمعنى الباء، فكما جعل سبحانه للمحسوسات أسباباً محسوسة ربط بها مسبباتها بحسب ما اقتضته حكمته، فجعل الجفن سبباً لحفظ العين مما يدخل فيها فيؤذيها، كذلك جعل لغير المحسوسات أسباباً، فجعل الملائكة أسباباً للحفظ، وأفعاله تعالى لا تخلو من الحكم والمصالح. وكذلك جعل لحفظ أعمالنا كراماً كاتبين، وإن كنا لا ندري ما قلمهم وما مدادهم،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وكيف كتابتهم، وأين محلهم، وما حكمة ذلك مع أن علمه تعالى بأعمال الإنسان كافٍ في الثواب والعقاب عليها، وقد يكون من حكمة ذلك أنه إذا علم الإنسان أن أعماله محفوظة لدى الحفظة الكرام.. كان أجدر بالإذعان لما يلقاه من ثواب وعقاب يوم العرض والحساب.

وقرأ عبيد بن زياد على المنبر[1]: ﴿له المعاقب﴾، وهي قراءة أبيّ وأبراهيم. وقال الزمخشري: وقرىء: ﴿له معاقيب﴾. قال أبو الفتح: هو تكسير ﴿معْقب﴾ - بسكون العين وكسر القاف - كمطعم ومطاعم ومقدم ومقاديم، وكأن معقباً جمع على معاقبة، ثم جعلت الياء عوضاً عن الهاء المحذوفة في معاقبة. وقرىء: ﴿له معتقبات﴾ من اعتقب. وقرأ أبي من بين يديه ورقيب من خلفه. وقرأ ابن عباس: ﴿ورقباء من خلفه﴾ وذكر عنه أبو حاتم أنه قرأ له: ﴿معقبات من خلفه ورقيب من بين يديه﴾. وينبغي حمل هذه القراءات على التفسير لا أنها قرآن لمخالفتها سواد المصحف الذي أجمع عليه المسلمون فهي كلها شاذة. وقرأ علي وابن عباس وعكرمة وزيد بن علي وجعفر بن محمد: ﴿يحفظونه بأمر الله﴾. وتدل هذه القراءة الشاذة على كون ﴿مِنْ﴾ بمعنى الباء السببية في قراءة: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والأمن والنعمة والرزق، ولا يزيله عنهم ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: حتى يتركوا ما يلزمهم من الشكر، وينقلبوا من الأحوال الجميلة إلى القبيحة. وعبارة «البيضاوي»: أن الله لا يغير ما بقوم من العافية والنعمة حتى يغيروا ما بأنفسهم من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة.

والمعنى[2]: أن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية، فيزيلها عنهم ويذهبها حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضاً، واعتداء بعضهم على بعض، وارتكابهم للشرور والموبقات التي تقوض نظم المجتمع، وتفتك بالأمم كما تفتك الجراثيم، فعند ذلك تحل نقمته بهم، وهو

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾؛ أي: هلاكاً وعذاباً ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾؛ أي: فلا راد له عنهم؛ أي: لم تغن المعقبات شيئاً، فلا راد لعذاب الله ولا ناقض لحكمه؛ أي: وإذا أراد الله بقوم سوءاً من مرض وفقر ونحوهما من أنواع البلاء بما كسبت أيديهم حين أخذوا في الأسباب التي تصل بهم إلى هذه الغاية، فلا يستطيع أحد أن يدفع ذلك عنهم، ولا يرد ما قدره لهم. وفي هذا إيماء إلى أنه لا ينبغي الاستعجال بطلب السيئة قبل الحسنة، وطلب العقاب قبل الثواب، فإنه متى أراد الله ذلك وأوقعه بهم فلا دافع له.

والخلاصة: أنه ليس من الحكمة في شيء أن يستعجلوا ذلك، ولما[1] كان سياق الكلام في الانتقام من العصاة اقتصر على قوله: ﴿سوءاً﴾ وإلا فالسوء والخير إذا أراد الله تعالى شيئاً منها.. فلا مرد له، فذكر السوء مبالغة في التخويف.

﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾؛ أي: وما لهؤلاء القوم الذين أراد الله هلاكهم من دون الله سبحانه وتعالى ﴿مِن وَالٍ﴾؛ أي: وال يلي أمورهم، فيجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضر، فالآلهة التي اتخذوها لا تستطيع أن تفعل شيئاً من ذلك، ولا تقدر على دفع الأذى عن نفسها فضلاً عن دفعه عن غيرها. والوالي من أسمائه تعالى، وهو من ولي الأمور وملك الجمهور، والولاية: تنفيذ القول على الغير شاء الغير أم لا، ولله در الأعرابي الذي رأى صنماً يبول عليه الثعلب، فثارت به حميته، فأمسكه وكسره إرباً إرباً، وقال:

أَرَبٌّ يَبُوْلُ ٱلثُّعْلُبَانُ بِرَأْسِهِ لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ ٱلثَّعَالِبُ

وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾.

(١) البحر المحيط.

الإعراب

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿الٓمٓرۚ﴾ قد تقدم الكلام في هذه الحروف المقطعة الواقعة في أوائل السور بما يغني عن الإعادة، وإن قلنا إنه اسم للسورة فهو مرفوع المحل على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه السورة اسمها آلمر، وعلة بنائه شبهه بالحرف شبهاً وضعياً، أو على أنه مبتدأ خبره ما بعده، والتقدير: آلمر هذا المذكور بقولنا: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾. ﴿تِلۡكَ﴾: اسم إشارة يشار به إلى آيات هذه السورة في محل الرفع مبتدأ. ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِيٓ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿الذي﴾: مبتدأ. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على الموصول. ﴿إِلَيۡكَ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة صلة الموصول. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: متعلق أيضاً بـ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك. ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: اسمها ومضاف إليه، وجملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾: جار ومجرور ومضاف حال من ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿عَمَدٖ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الموصول. ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿رَفَعَ﴾. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ﴾: فعل ومفعول. ﴿وَٱلۡقَمَرَۖ﴾: معطوف على ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾ وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة

معطوفة على جملة ﴿اسْتَوَىٰ﴾. ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وصفه بصفة محذوفة تقديره: كل منهما. ﴿يَجْرِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿كُلٌّ﴾. ﴿لِأَجَلٍ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿مُسَمًّى﴾: صفة ﴿لِأَجَلٍ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾؛ أي: حالة كون كل منهما جارياً إلى أجل مسمى. ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿اسْتَوَىٰ﴾؛ أي: ثم استوى على العرش حالة كونه يدبر الأمر، أو الجملة مستأنفة. ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة بعاطف مقدر على جملة ﴿يُدَبِّرُ﴾. ﴿لَعَلَّكُم﴾: ناصب واسمه. ﴿بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إله متعلق بـ﴿تُوقِنُونَ﴾، وجملة ﴿تُوقِنُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾: تعليلية مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿مَدَّ الْأَرْضَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿مَدَّ﴾، وفاعله ضمير يعود على الموصول. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿جعل﴾؛ لأنه بمعنى خلق. ﴿رَوَاسِيَ﴾: مفعول به بـ﴿جعل﴾. ﴿وَأَنْهَارًا﴾: معطوف على ﴿رَوَاسِيَ﴾. ﴿وَمِن﴾ (الواو): عاطفة. ﴿من كل الثمرات﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾ المذكور بعده. ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾. ﴿زَوْجَيْنِ﴾: مفعول لـ﴿جَعَلَ﴾. ﴿اثْنَيْنِ﴾: صفة مؤكدة لـ﴿زَوْجَيْنِ﴾، وجملة ﴿جَعَلَ﴾: معطوفة على جملة ﴿جَعَلَ﴾ الأول. ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ﴾: فعل ومفعول أول. ﴿النَّهَارَ﴾: مفعول ثان، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة، أو حال من ضمير الفاعل في الأفعال التي قبله، أعني: رفع وسخر، ويدبر ويفصل، ومد وجعل كما ذكره أبو البقاء. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور

خبر ﴿إِنَّ﴾ مقدم على اسمها. ﴿لَآيَٰتٍ﴾: (اللام): ابتداء. ﴿آيات﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر. ﴿لِّقَوۡمٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿آيات﴾. وجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة.

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿قِطَعٞ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾: صفة لـ﴿قِطَعٞ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَجَنَّٰتٞ﴾: معطوف على ﴿قِطَعٞ﴾. ﴿مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾: صفة لـ﴿جنات﴾. ﴿وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ﴾: معطوفان على ﴿قِطَعٞ﴾. ﴿صِنۡوَانٞ﴾: صفة لـ﴿نخيل﴾ مرفوع بالضمة الظاهرة؛ لأنه جمع تكسر لـ﴿صنو﴾. ﴿وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ﴾: معطوف على ﴿صِنۡوَانٞ﴾ على كونه صفة لـ﴿نخيل﴾. ﴿يُسۡقَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على المذكور من ﴿جنات﴾ وما بعدها. ﴿بِمَآءٖ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُسۡقَىٰ﴾. ﴿وَٰحِدٖ﴾: صفة لـ﴿ما﴾، والجملة الفعلية صفة لـ﴿جنات﴾ وما بعدها، أو حال منها. ﴿وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾: متعلق به، وكذا يتعلق به الجار والمجرور في قوله: ﴿فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، واللام حرف ابتداء. ﴿لِّقَوۡمٖ﴾: صفة لـ﴿آيات﴾، وجملة ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾.

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾.

﴿وَإِن﴾ (الواو): استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تَعۡجَبۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿فَعَجَبٞ﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية، ﴿عجب﴾: خبر مقدم. ﴿قَوۡلُهُمۡ﴾: مبتدأ وخبر، ولا بد من حذف صفة لتتم الفائدة؛ أي: فعجب؛ أي: عجب قولهم، ويجوز أن يكون عجب مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة حينئذٍ ما ذكرته من الوصف المقدر، ولا يضر

حينئذٍ كون خبره معرفة. ا هـ. «سمين»، والجملة الاسمية في محل الجزم على كونها جواباً لـ﴿إن﴾ الشرطية، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب. ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: مقول محكي لقولهم، وإن شئت قلت: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط في محل النصب على الظرفية متعلق بمحذوف معلوم مما بعده تقديره: أنبعث إذا كنا تراباً. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿تُرَابًا﴾: خبرها، وجملة كان في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ تقديره: أنبعث وقت كوننا تراباً لا نبعث حينئذٍ، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول لقولهم. ﴿أَءِنَّا﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري مؤكدة للأولى. ﴿إنا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفِى خَلْقٍ﴾: جار ومجرور خبره، واللام حرف ابتداء. ﴿جَدِيدٍ﴾: صفة لـ﴿خَلْقٍ﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول لقولهم.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿بِرَبِّهِمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول. ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾: مبتدأ ثان. ﴿فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة المبتدأ الثاني مع خبره خبر للأول، وجملة الأولى مع خبره معطوفة على جملة قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: مبتدأ وخبر معطوف على جملة ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ الأولى. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدُونَ﴾. ﴿خَٰلِدُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة. ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾: متعلق بـ﴿يستعجلونك﴾، أو حال من ﴿السيئة﴾. ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾: (الواو): حالية. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿خَلَتْ﴾: فعل

ماضٍ. ﴿مِن قَبۡلِهِمُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَلَتۡ﴾. ﴿ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿يستعجلونك﴾. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾: خبره ومضاف إليه، (واللام): حرف ابتداء. ﴿لِّلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿مَغۡفِرَةٖ﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة. ﴿عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾: جار ومجرور حال من ﴿الناس﴾. وقال أبو البقاء: والعامل فيها ﴿مَغۡفِرَةٖ﴾ بمعنى أنه العامل في صاحبها، والتقدير: حالة كونهم ظالمين أنفسهم بالمعاصي، فيجوز العفو قبل التوبة؛ لأن قوله: ﴿لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾؛ أي: حال اشتغالهم بظلم. اهـ. «كرخي». ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾: مقول محكي لـ﴿يقول﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَوۡلَآ﴾: حرف تحضيض. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة. ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلق به. ﴿ءَايَةٞ﴾: نائب فاعل لـ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾: صفة لـ﴿ءَايَةٞ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿يقول﴾. ﴿إِنَّمَآ﴾: أداة حصر. ﴿أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿هَادٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعۡلَمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ لأنه بمعنى عرف. ﴿تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه مجرور بالفتحة المقدرة؛ لأنه اسم لا ينصرف لألف التأنيث المقصورة، والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما تحمله كل أنثى. ﴿وَمَا﴾: معطوف على

﴿مَا﴾ الأولى. ﴿تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: وما تغيضه الأرحام. ﴿وَمَا﴾: معطوفة أيضاً على ﴿مَا﴾ الأولى. ﴿تَزْدَادُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْأَرْحَامُ﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: وما تزداده الأرحام. ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿عِندَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه صفة لـ﴿شَىْءٍ﴾، أو صفة لـ﴿كل﴾ كما ذكره أبو البقاء. ﴿بِمِقْدَارٍ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾: خبر المبتدأ محذوف تقديره: هو عالم الغيب. ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْغَيْبِ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾: صفة لـ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾، أو خبر لمحذوف. ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة للوقف؛ لأنه رأس آية، ولولا ذلك لكان الجيد إثباتها. ذكره أبو البقاء، وحذفت في الخط تبعاً للفظ. ﴿سَوَآءٌ﴾: خبر مقدم. ﴿مِّنكُم﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في ﴿سَوَآءٌ﴾؛ لأنه بمعنى مستو. ﴿مَّنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر. ﴿أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّنْ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿وَمَن جَهَرَ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على ﴿مَّنْ﴾ الأولى. ﴿جَهَرَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والتقدير: من أسر القول ومن جهر به مستويان في علمه تعالى حالة كونهما كائنين منكم. ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على ﴿مَّنْ﴾ الأولى. ﴿هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿بِٱلَّيْلِ﴾: متعلق بـ﴿مُسْتَخْفٍ﴾، والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿وَسَارِبٌ﴾: معطوف على ﴿مُسْتَخْفٍ﴾. ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾: متعلق به، والتقدير: ومن هو مستتر بظلام الليل، ومن هو ظاهر بضوء النهار مستويان في علمه تعالى.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الإسمية مستأنفة. ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾. ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾: معطوف عليه، ويجوز أن يتعلق بمحذوف صفة لـ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾، ويجوز أن يتعلق بـ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾؛ أي: يحفظونه من بين يديه ومن خلفه. فإن قلت: كيف يتعلق حرفان متحدان لفظاً ومعنىً بعامل واحد، وهما ﴿مِّنۢ﴾ الداخلة على ﴿بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ و﴿مِّنۢ﴾الداخلة على ﴿أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾؟.. فالجواب أن ﴿مِنۡ﴾ الثانية مغايرة للأولى في المعنى كما مر، وسيأتي في مبحث الصرف. اهـ. «سمين». ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾، أو حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُغَيِّرُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿بِقَوۡمٍ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها. ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى. ﴿مَا﴾: مفعول به. ﴿بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى تقديره: إلى تغييرهم ما بأنفسهم، والجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿لَا يُغَيِّرُ﴾. ﴿وَإِذَآ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجر بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرطها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿بِقَوۡمٖ﴾: متعلق بـ﴿أَرَادَ﴾. ﴿سُوٓءٗا﴾: مفعول به لـ﴿أَرَادَ﴾. ﴿فَلَا﴾: (الفاء): رابطة لجواب إذا وجوباً، ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل إن. ﴿مَرَدَّ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾، والجملة الاسمية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: مستأنفة. ﴿وَمَا لَهُم﴾: (الواو): عاطفة. ﴿مَا﴾: حجازية أو تميمية. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر ﴿مَا﴾

مقدم على اسمها، أو خبر مقدم للمبتدأ. ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الخبر. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿وَالٍ﴾: اسم ﴿مَا﴾ مؤخر، أو مبتدأ مؤخر، والتقدير: وما والٍ كائناً، أو كائن لهم حالة كونه كائناً من دونه تعالى، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها جواب ﴿إذا﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ العمد: السواري والأساطين، واحدها عمود كأدم وأديم، وقرىء: ﴿عُمُد﴾ - بضمتين - فيكون جمع عماد كشهب وشهاب، وكتب وكتاب، أو جمع عمود كرسل ورسول هذا في الكثرة، ويجمعان في القلة على أعمدة كما في «البحر».

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ﴾ والتسخير: التذليل والطاعة. ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ والتدبير: التصريف للأمور على وجه الحكمة.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ والتفصيل: التبيين، والآيات هي الأدلة التي تقدم ذكرها من الشمس والقمر. ﴿تُوقِنُونَ﴾ واليقين: العلم الثابت الذي لا شك فيه.

﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: بسطها طولاً وعرضاً. قال الأصم: المد هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ والراسي: الثوابت المستقرة التي لا تتحرك ولا تنتقل، واحدها راسية؛ لأن الأرض ترسو وتثبت بها، وتمسكها من الاضطراب.

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾: واحدها نهر؛ وهو المجرى الواسع من الماء؛ أي: مياهاً جارية في الأرض فيها منافع الخلق، أو المراد: جعل فيها مجاري الماء.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ والثمرات: جمع ثمرة، والثمرة: غلة الشجر ومنافعه، والعرب تسمي الاثنين زوجين، والواحد من الذكور زوجاً لأنثاه، والأنثى زوجاً وزوجة لذكرها؛ أي: جعل من كل نوع من أنواع الثمرات

الموجودة في الدنيا ضربين وصنفين؛ إما في اللون كالأبيض والأسود، أو في الطعم كالحلو والحامض، أو في القدر كالكبير والصغير، أو في الكيفية كالحار والبارد وما أشبه ذلك.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ﴾؛ أي: يستر النهار بالليل، ومعنى تغطية هذا بذلك: الإتيان به مكانه؛ أي: الإتيان به بدله، وعد هذا في تضاعيف الآيات السفلية، وإن كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهراً باعتبار أن ظهوره في الأرض، فإن الليل إنما هو ظلها، وفيما فوق موقع ظلها لا ليل أصلاً. ا هـ. «أبو السعود».

﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، والفكر: هو تصرف القلب في طلب الأشياء. وقال صاحب «المفردات» الفكر: قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر: جريان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك الإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يكون له صورة في القلب، ولهذا روي: تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله؛ إذ الله منزه أن يوصف بصورة. ا هـ. «خازن».

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ﴾؛ أي: بقاع جمع قطعة. ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾؛ أي: متقاربات. ﴿وَنَخِيلٌ﴾ والنخل والنخيل بمعنى، والواحد نخلة. ا هـ. «مختار». لكن النخل يذكر ويؤنث، والنخيل مؤنث لا غير كما في «المصباح».

﴿صِنْوَانٌ﴾ جمع كثرة لصنو، وجمعه في القلة أصناء كحمل وأحمال، والعامة على كسر الصاد. والصنو الفرع يجمعه وآخر أصل واحد، وأصله المثل، ومنه قيل للعم: صنو ومنه الحديث: «عم الرجل صنو أبيه» وجمعه في لغة الحجاز صَنوان ـ بفتح الصاد ـ وهو اسم جمع لا جمع تكسير؛ لأنه ليس من أبنيته، فالصنوان: هي النخلات يجمعها أصل واحد، وتتشعب فروعها ذكره في «البحر».

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ﴾ الأكل ـ بضمتين وإسكان الثاني للتخفيف ـ المأكول. ا هـ. «مصباح». والمراد به هنا الثمر والحب، فالثمر من النخيل والأعناب، والحب من الزرع.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ﴾ والعجب: تغير النفس حين رؤية ما يستبعد في مجرى العادة؛ أي: حقيق بالعجب قولهم الخ. ﴿جَدِيدٍ﴾ ضد الخلق والبالي، ويقال: ثوب جديد؛ أي: كما فرغ من عمله، وهو فعيل بمعنى مفعول، كأنه كما قطع من النسج، ذكره أبو حيان في «البحر».

﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ جمع غُل بالضم، وهو طوق من حديد يجعل في العنق. ا هـ. «خازن».

﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ - بفتح فضم - جمع مثلة - بفتح فضم - كسَمُرة؛ وهي العقوبة التي تترك في المعاقب أثراً قبيحاً كصلم أذن، أو جدع أنف، أو سمل عين.

﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ والغفر هنا: الستر بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ والمراد بالآية هنا الآيات الحسية، كقلب عصا موسى حية وناقة صالح.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ والهادي: القائد الذي يقود الناس إلى الخير، كالأنبياء والحكماء والمجتهدين.

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ الغيض: النقصان، يقال: غاض الماء وغضته كما قال: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ والمراد بالعندية: عندية علم يعني: أنه تعالى يعلم كمية كل شيء وكيفيته على أكمل الوجوه. ا هـ. «خازن».

﴿بِمِقْدَارٍ﴾؛ أي: بأجل لا يتجاوزه ولا ينقص عنه، والغائب: ما غاب عن الحس، والشاهد: الحاضر المشاهد ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾: العظيم الشأن. وفي «الخازن»: الكبير: الذي يصغر كل كبير بالإضافة إلى عظمته وكبريائه. والمتعالي: المستعلي على كل شيء بقهره وجبره ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾؛ أي: مستو منكم.

﴿مَّنْ أَسَرَّ﴾ أسرَّ الشيء إذا أخفاه في نفسه، والمستخفي المبالغ في

الاختفاء، والسارب الظاهر من قولهم: سرب إذا ذهب في سربه؛ أي: طريقه. وفي «المصباح»: سرب في الأرض سروباً ـ من باب قعد ـ ذهب، وسرب الماء سروباً وسرب المال سرباً من باب قتل، رعى نهاراً بغير راع؛ فهو سارب، وسرب تسمية بالمصدر، والسرب أيضاً: الطريق، ومنه يقال: حل سربه؛ أي: طريقه. والسرب ـ بالكسر ـ النفس، وهو واسع السرب؛ أي: رخي البال، ويقال: واسع الصدر بطيء الغضب. والسَرَب ـ بفتحتين ـ بيت في الأرض لا منفذ له؛ وهو الوكر. اهـ.

﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾؛ أي: ملائكة تعتقب في حفظه، وكلاءته، واحدها معقبة من عقبة؛ أي: جاء عقبه. وفي «السمين»: وفي معقبات احتمالان:

أحدهما: أن يكون جمع معقبة بمعنى معقب، والتاء للمبالغة كعلاَّمة ونسَّابة؛ أي: ملك معقب، ثم جمع هذا كعلامات ونسابات.

والثاني: أن يكون معقبة صفة لجماعة، ثم جمع هذا الوصف كجمل وجمَّال وجمالات. اهـ.

﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾؛ أي: قدامه. ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾؛ أي: من ورائه.

﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾؛ أي: بأمره وإعانته، و﴿مِنۡ﴾ بمعنى الباء السببية.

﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾؛ أي: فلا ردَّ، فهو مصدر ميمي بمعنى الراد.

﴿مِن وَالٍ﴾؛ أي: ناصر فـ﴿من﴾ زائدة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإشارة بالبعيد إلى القريب في قوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ﴾ تنزيلاً للبعد الرتبي منزلة البعد الحسي؛ للدلالة على علو شأنها ورفعة منزلتها.

ومنها: الدلالة على التفخيم بإدخال آل على الكتاب؛ أي: تلك آيات

الكتاب العجيب الكامل في إعجازه وبيانه.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾؛ لأنه كناية عن تذليلهما لما يراد منهما؛ وهو انتفاع الخلق بهما حيث يعلمون عدد السنين والحساب بمسير الشمس والقمر، ينوران لهم في الليل والنهار، ويدرآن الظلمات، ويصلحان الأرض والأبدان والأشجار والنباتات.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ شبه إحداث ظلمة الليل في الجو الذي هو مكان الضوء بإغشاء الأغطية الحسية على الأشياء الظاهرة بجامع الستر في كل، فأطلق اسم الإغشاء والإلباس على ذلك الإحداث، فاشتق منه يغشي بمعنى يحدث على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾؛ لأنه تأكيد لزوجين.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ لأن في الكلام حذفاً على ما قيل؛ أي: قطع متجاورات وغير متجاورات كما في قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾؛ أي: والبرد.

ومنها: الاستفهام الإنكاري المفيد لكمال الاستبعاد في قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾.

ومنها: تكرير الهمزة في قوله: ﴿لَفِى خَلْقٍ﴾: لتأكيد الإنكار بالبعث.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وفي قوله: ﴿أَءِنَّا﴾.

ومنها: تقديم الظرف في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ﴾، وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لأن توسيط ضمير الفصل وتقديم ﴿فِيهَا﴾ يفيد الحصر؛ أي: هم الموصوفون بالخلود في النار لا غيرهم، وإن خلودهم إنما هو في النار لا في غيرها، فثبت أن أهل الكبائر لا يخلدون في النار، ذكره في «روح البيان».

ومنها: العدول عن الإضمار إلى الموصول ذمّاً لهم بكفرهم بآيات الله التي تخر لها الجبال، حيث لم يرفعوا لها رأساً، ولم يعدوها من جنس الآيات، وقالوا: ﴿لَوْلَآ﴾... الخ. ا هـ. «أبو السعود».

ومنها: الطباق في قوله: ﴿تَغِيضُ﴾ و﴿تَزْدَادُ﴾، وفي قوله: ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، وفي قوله: ﴿أَسَرَّ﴾ و﴿جَهَرَ﴾، وفي قوله: ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ و﴿وَسَارِبٌ﴾؛ لأن السارب الظاهر، وكلها من المحسنات البديعية اللفظية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ...﴾ الآيات، مناسبةُ هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] خوف عباده بأنه إذا أراد السوء بقوم، فلا يدفعه أحد.. أتبعه بذكر آيات تشبه النعم والإحسان حيناً، وتشبه العذاب والنقم حيناً آخر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين أن كل من في السماوات والأرض خاضع لقدرته منقاد لإرادته بالغدو والآصال، وفي كل وقت وحين، طوعاً أو

---

(١) البحر المحيط والمراغي.

كرهاً بحسب ما يريد.. أعاد الكلام مع المشركين؛ ليلزمهم الحجة، ويقنعهم بالدليل، ويضيق عليهم باب الحوار حتى لا يستطيعوا الفرار من الاعتراف بوحدانيته تعالى وشمول قدرته وإرادته، وأنه لا معبود سواه ولا رب غيره.

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ضرب مثل البصير والأعمى للمؤمن والكافر، ومثل النور والظلمات للإيمان والكفر.. ضرب مثلين للحق في ثباته وبقائه، وللباطل في اضمحلاله وفنائه، ثم بين مآل كل من السعداء والأشقياء، وما أعد لكل منهما يوم القيامة، وبين أن حاليهما لا يستويان عنده، وأن الذي يعي تلك الأمثال ويعتبر بها إنما هو ذو اللب السليم والعقل الراجح والفكر الثاقب.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[1] النسائي والبزار عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: بعث رسول الله ﷺ رجلاً من أصحابه إلى رجل من عظماء الجاهلية يدعوه إلى الله تعالى فقال: إيش ربك الذي تدعوني إليه؟ أمن حديد، أم من نحاس، أو من فضة، أو من ذهب؟ فأتى النبي ﷺ، فأخبره فأعاد الثانية والثالثة، فأرسل الله عليه صاعقة، فأحرقته، ونزلت هذه الآية: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ...﴾ إلى آخرها.

وروي في أسباب نزولها: أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد وفدا إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، وسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر، فأبى عليهما ذلك، فقال له عامر لعنه الله: أما والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً، ورجالاً مرداً، فقال له رسول الله ﷺ: «يأبى الله عليك وابنا قيلة» ـ الأنصار من الأوس والخزرج ـ ثم أنهما همّا بالفتك برسول الله ﷺ، فجعل أحدهما يخاطبه، والآخر

---

(١) لباب النقول.

يستلّ سيفه ليقتله من ورائه، فحماه الله تعالى منهما وعصمه، فخرجا من المدينة وانطلقا في أحياء العرب يجمعان لحربه، فأرسل الله تعالى على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته، وأرسل الطاعون على عامر، فخرجت فيه غدة كغدة البكر، فآوى إلى بيت سلولية، وجعل يقول: يا غدة كغدة البكر وموت في سلولية حتى مات، وأنزل الله في مثل ذلك: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ. . .﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ أيها الكفار المكذبون لرسولنا، وهو لمعان يظهر من خلال السحاب، وأسند[1] الإراءة إلى ذاته؛ لأنه الخالق في الأبصار نوراً يحصل به الرؤية للخلائق حالة كونكم ﴿خَوْفًا﴾؛ أي: خائفين[2] من وقوع الصواعق، وخراب البيوت بالمطر ﴿و﴾ حالة كونكم ﴿طمعاً﴾؛ أي: طامعين في نزول الغيث وحصول بركته، أو حالة كون البرق ذا خوف لمن له في المطر ضرر كالمسافر، وكمن يجفف التمر والزبيب والقمح وذا طمع لمن له في نفع كالحراث. فإن[3] المطر يكون لبعض الأشياء ضرراً ولبعضها رحمة، فيخاف منه المسافر ومن في خزينته التمر والزبيب، ومن له بيت لا يكف المطر، ويطمع فيه المقيم وأهل الزرع والبساتين، ومن البلاد ما لا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر، فإن انتفاعهم إنما هو بالنيل، وبالمطر يحصل الوطر.

والمعنى: أنه[4] سبحانه وتعالى يسخر البرق، فيخاف منه بعض عباده كالمسافر ومن في جرينه التمر والزبيب للتجفيف، ويطمع فيه من له فيه النفع كمن يرجو المطر لسقي زرعه، وهكذا حال كل شيء في الدنيا هو خير بالنظر إلى من يحتاج إليه في أوانه، وشر بالنظر إلى من يضره بحسب مكانه أو زمانه ﴿و﴾ هو الإله الذي ﴿ينشيء﴾؛ أي: يخلق ويوجد ﴿ٱلسَّحَابَ﴾ ويرفع الغمام المنسحب في الجو؛ أي: يبتدىء إنشاء السحاب؛ أي: خلقه. وفيه دلالة على أن السحاب

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

يعدمه الله تعالى، ثم يخلقه جديداً، والسحاب اسم جنس، والواحدة سحابة، ولذلك وصف بقوله: ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ بالمطر، جمع ثقيلة، وقيل: جمع له كما في «الخازن». والسحاب: غربال[1] الماء. قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقيل: السحاب: الغيم فيه ماء، أو لم يكن فيه ماء، ولهذا قيل: سحاب جهام؛ وهو الخالي من الماء، وأصل السحب الجرّ، وسمي السحاب سحاباً؛ إما لجر الريح له، أو لجره الماء، أو لانجراره في سيره. واختلف[2] في أن الماء ينزل من السماء إلى السحاب، أو يخلقه الله في السحاب فيمطر. وفي «حواشي ابن الشيخ»: السحاب: جسم مركب من أجزاء رطبة مائية، ومن أجزاء هوائية، وهذه الأجزاء المائية المشوبة بالأجزاء الهوائية إنما حدثت وتكونت في جو الهواء بقدرة المحدث القادر على ما شاء، والقول بأن تلك الأجزاء تصاعدت من الأرض، فلما وصلت إلى الطبقة الباردة من الهواء بردت، فثقلت فرجعت إلى الأرض باطل؛ لأن الأمطار مختلفة، فتارة تكون قطرتها كبيرة، وتارة تكون صغيرة، وتارة متقاربة، وتارة متباعدة، وتارة تدوم زماناً طويلاً، وتارة لا تدوم، فاختلاف الأمطار في هذه الصفات مع أن طبيعة الأرض واحدة، وكذا طبيعة الشمس المسخنة للبخارات واحدة لا بد أن يكون ذلك بتخصيص الفاعل المختار، وأيضاً فالتجربة دلت على أن للدعاء والتضرع في نزول الغيث أثراً عظيماً، ولذلك كانت صلاة الاستسقاء مشروعة، فعلمنا أن المؤثر فيه هو قدرة الفاعل المختار لا الطبيعة والخاصية انتهى.

والمعنى: وهو الذي يوجد السحاب منشأة جديدة ممتلئة ماء، فتكون ثقيلة قريبة من الأرض ﴿و﴾ هو سبحانه وتعالى الإله الذي ﴿يسبح الرعد﴾؛ أي: يسبحه وينزهه، ويقدسه من النقائص، ملك الرعد حالة كونه ملتبساً ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى. قيل: الرعد: اسم ملك موكل بالسحاب، والصوت المسموع لنا هو صوته بالتسبيح، يسوق بصوته السحاب كما يسوق الحادي الإبل بحدائه، فإذا

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

سبح أوقع الهيبة على الخلق كلهم حتى الملائكة. وقيل: هو صوت الإِلٰه الذي يتولد عند ضرب السحاب بها.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن اليهود سألت النبي ﷺ عن الرعد ما هو؟ فقال: «ملك من الملائكة موكل بالسحاب، ومعه مخاريق؛ أي: آلات من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله»، قالوا: فما الصوت الذي نسمع؟ قال: «زجره السحاب» أخرجه الترمذي وغيره وصححه. وقيل: الرعد: صوت السحاب، وتسبيحه هو دلالته على وحدانية الله تعالى.

وعن ابن عباس[1] - رضي الله عنهما - أنه قال: من سمع صوت الرعد، فقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير، فإن أصابه صاعقة فعلى دينه، وكان عبد الله بن الزبير إذا سمع الرعد ترك الحديث، وقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، وكان يقول: إن الوعيد لأهل الأرض شديد.

وفي الحديث: «البرق والرعد وعيد لأهل الأرض، فإذا رأيتموه فكفّوا عن الحديث وعليكم بالاستغفار».

والخلاصة: أي أن[2] في صوت الرعد لدلالة على خضوعه وتنزيهه عن الشريك والعجز، كما يدل صوت المسبح وتحميده على انقياده لقدرة ذلك الحكيم الخبير. ونحو الآية قوله سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عمر - رضي الله عنهما - كان رسول الله ﷺ إذا سمع صوت الرعد والصواعق يقول: «اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك». وأخرج ابن مردويه عن أبي

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

هريرة ـ رضي الله عنه ـ، أن رسول الله ﷺ إذا هبت الريح أو صوت الرعد.. تغير لونه حتى يعرف ذلك في وجهه، ثم يقول للرعد: «سبحان من سبحت له»، وللريح: «اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً».

﴿و﴾ هو سبحانه وتعالى الإلٰه الذي تسبح جميع ﴿الملائكة﴾ الكرام ﴿مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾؛ أي: من خوفه سبحانه وتعالى وهيبته وجلاله، وينزهونه عن اتخاذ الصاحبة والولد والأنداد. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ معطوف على ﴿ٱلرَّعْدُ﴾ عطف عام على خاص، وإنما[1] أفرد ﴿ٱلرَّعْدُ﴾ بالذكر مع دخوله في ﴿الملائكة﴾ تشريفاً له على غيره من الملائكة، فهو كقوله: ﴿وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل﴾؛ أي: ويسبح الملائكة من خوف الله تعالى وخشيته وهيبته وجلاله، وذلك لأنه إذا سبح الرعد ـ وتسبيحه ما يسمع من صوته ـ لم يبق ملك إلا رفع صوته بالتسبيح، فينزل المطر والملائكة خائفون من الله تعالى، وليس خوفهم كخوف بني آدم، فإنه لا يعرف أحدهم من على يمينه ومن على يساره، ولا يشغله عن عبادة الله طعام ولا شراب ولا شيء أصلاً.

﴿و﴾ هو سبحانه وتعالى الإلٰه الذي ﴿يرسل الصواعق﴾ وينزلها من السماء ﴿فَيُصِيبُ بِهَا﴾؛ أي: بتلك الصواعق ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إصابته بها من عباده فيهلكه. والصواعق[2] جمع صاعقة؛ وهي نار لا دخان لها تسقط من السماء وتتولد في السحاب، وهي أقوى نيران هذا العالم، فإنها إذا نزلت من السحاب فربما غاصت في البحر وأحرقت الحيتان تحت البحر، والصاعقة تصيب المسلم وغيره ولا تصيب الذاكر. يقول الفقير: لعل وجهه أن الصاعقة عذاب عاجل، ولا يصيب إلا الغافل، وأما الذاكر فهو مع الله ورحمته، وبين الرحمة والغضب تباعد. وقولهم: تصيب المسلم ـ يشير إلى أن المصاب بالصاعقة على حاله من الإيمان والإسلام، ولا أثر لها فيه كما في اعتقاد بعض العوام.

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

وجملة قوله: ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: هؤلاء الكفار مع ظهور هذه الدلائل ﴿يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: يخاصمون في الله، وينازعون في شأنه وفيما وصفه به الرسول ﷺ من كمال العلم والقدرة والتفرُّد بالألوهية وإعادة الناس للجزاء على أعمالهم يوم العرض والحساب جملة مستأنفة، أو في محل الحال مِنْ مَنْ وأعاد عليها الضمير جمعاً باعتبار معناها كما في «السمين».

﴿وَهُوَ﴾؛ أي: والحال أنه سبحانه وتعالى ﴿شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾؛ أي: شديد[1] المماحلة والمكايدة والمعاقبة لأعدائه؛ أي: شديد الأخذ بالعقوبة يأتيهم من حيث لا يحتسبون ولا يترقبون، وهو القادر على أن ينزل عليهم عذاباً من عنده لا يستطيعون حيلة لدفعه، ولا قوة على رده، لكنه يمهلهم لأجل معلوم بحسب ما تقضيه الحكمة كما صح في الحديث: «إن ربك لا يهمل ولكن يمهل» ومثل الآية قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾، وقوله: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾.

قال ابن جرير في تفسير ذلك[2]: والله شديد في عقوبة من طغى عليه، وعتا وتمادى في كفره؛ أي[3]: شديد المكر والكيد لأعدائه يهلكهم من حيث لا يحتسبون، من محل بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان، ومنه تمحل لكذا إذا تكلف في استعمال الحيلة واجتهد فيه، فالجملة حال من الجلالة. وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ، فإنه لما نعى على كفار قريش عنادهم في اقتراحهم الآيات الحسية كآيات موسى وعيسى عليهما السلام، وإنكارهم كون الذي جاء به عليه السلام آيةً.. سلاه بما ذكر كأنه قال له: إن هؤلاء لم يقصروا جحدهم وإنكارهم على النبوة، بل تخطوه إلى الألوهية، ألا تراهم مع ظهور الآيات البينات على التوحيد يجادلون في الله باتخاذ الشركاء، وإثبات الأولاد له، ومع إحاطة علمه وشمول

(١) الفتوحات.

(٢) الطبري.

(٣) روح البيان.

قدرته ينكرون البعث والجزاء والعرض للحساب، ومع شديد بطشه وعظيم سلطانه يقدمون على المكايدة والعناد.. فهون عليك ولا تذهب نفسك عليهم حسرات. وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلْمِحَالِ﴾ ـ بكسر الميم ـ، وقرأ الضحاك والأعرج شذوذاً: ﴿المَحَال﴾ ـ بفتح الميم ـ وفسرت هذه القراءة بالحول.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: له سبحانه وتعالى لا لغيره، وتقديم[2] الخبر لإفادة التخصيص، دعوة الحق؛ أي: الدعاء الحق على أن يكون من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، والدعوة بمعنى العبادة، والحق بمعنى الحقيق اللائق الغير الباطل، والمعنى: إن الدعوة التي هي التضرع والعبادة قسمان: ما يكون حقاً وصواباً، وما يكون باطلاً وخطأ. فالتي تكون حقاً منها مختصة به تعالى لا يشاركه فيها غيره، أو له الدعوة المجابة على أن يكون الحق بمعنى الثابت الغير الضائع الباطل، فإنه الذي يجيب لمن دعاه دون غيره. قال في «المدارك»: المعنى: إن الله يدعى فيستجيب الدعوة، ويعطي السائل الداعي سؤاله، فكانت دعوة ملابسة لكونه حقيقاً بأن يوجه إليه الدعاء بخلاف ما لا ينفع دعاؤه.

وعبارة الشوكاني هنا: إضافة[3] الدعوة إلى الحق للملابسة؛ أي: الدعوة الملابسة للحق والصدق المختصة به التي لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه، كما يقال كلمة الحق، والمعنى: إن له تعالى دعوة مجابة واقعة في موقعها، لا كدعوة من دونه. وقيل: هو الله سبحانه وتعالى.

والمعنى: إن لله سبحانه دعوة المدعو الحق، وهو الذي يسمع فيجيب. وقيل: المراد بدعوة ها هنا: كلمة التوحيد والإخلاص والمعنى: لله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له، وإنه شرعها وأمر بها. وقيل: دعوة الحق، دعاؤه سبحانه عند الخوف، فإنه لا يدعى فيه سواه، كما قال تعالى: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾. وقيل: الدعوة: العبادة، فإن عبادة الله هي الحق والصدق انتهت. وفي هذا[4]

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

وما قبله وعيد للكفار على مجادلتهم لرسول الله ﷺ بحلول محاله بهم وتهديدهم بإجابة دعائه عليه السلام إن دعا عليهم.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ مبتدأ، خبره جملة قوله: ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾؛ أي: والأصنام الذين يدعوهم المشركون ويتضرعون إليهم من دونه تعالى متجاوزين إليهم، فحذف العائد، أو والكفار الذين يدعون الأصنام من دونه تعالى، فحذف المفعول لا يجيبونهم؛ أي: لا يجيب الأصنام. وعبر عن الأصنام بضمير العقلاء؛ لمعاملتهم إياها معاملة العقلاء؛ أي: لا تجيب الأصنام لداعيها بشيء مما يريدونه من نفع أو ضر. والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾ استثناء مفرغ من عام المصدر؛ أي: لا يستجيبونهم استجابةً إلا استجابةً مثل استجابة الماء لمن يبسط ويمد يديه إليه ﴿لِيَبۡلُغَ﴾ الماء ﴿فَاهُ﴾؛ أي: يدعو الماء بلسانه ويشير إليه بيده ليصل إلى فمه ﴿وَمَا هُوَ﴾؛ أي: الماء ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾؛ أي: ببالغ فيه؛ لأنه جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فيه، وكذا ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم، ففي الكلام تشبيه مركب تمثيلي، كما سيأتي في مبحث البلاغة.

والمعنى: أنه تعالى شبه من يعبد الأصنام بالرجل العطشان الذي يرى الماء بعينه من بعيد، فهو يشير بكفيه إلى الماء ويدعو بلسانه، فلا يأتيه أبداً، هذا معنى قول مجاهد. وعن عطاء: كالعطشان الجالس على شفير البئر، فلا يبلغ إلى قعر البئر ليجر الماء ولا الماء يرتفع إليه، فلا ينفعه بسط الكف إلى الماء، ودعاؤه له، ولا هو يبلغه. ا هـ. «خازن».

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لأصنامهم ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾؛ أي: إلا[1] في ضياع وخسار وبطلان؛ لأن الآلهة لا تقدر على إجابتهم، وأما دعاؤهم له تعالى فالمذهب جواز استجابته، وقد أجاب الله دعاء إبليس وغيره، ألا ترى أن فرعون كان يدعو الله في مكانٍ خالٍ عند نقصان النيل فيستجيب الله دعاؤه ويمده، فإذا كان الله لا

(١) روح البيان.

يضيع دعاء الكافرين، فما ظنك بالماء. أو المعنى[1]: وما عبادة الكافرين إلا في ضياع لا منفعة فيها؛ لأنهم إن عبدوا الأصنام لم يقدروا على نفعهم، وإن عبدوا الله لم يقبل منهم لإشراكهم. وقرأ الجمهور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ ـ بالياء ـ، وقرىء بالتاء. وقرىء على هذه القراءة الشاذة: ﴿كباسطٍ كفيه﴾ ـ بتنوين باسط ـ ويكون في قوله: ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم﴾ التفات.

ثم بين عظيم قدرته تعالى، فقال: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿يَسۡجُدُ﴾ حقيقة بوضع الجبهة على الأرض ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة وأرواح الأنبياء والمؤمنين ﴿و﴾ من في ﴿الأرض﴾ من الملائكة والمؤمنين من الثقلين ﴿طَوۡعًا﴾؛ أي: حالة كونهم طائعين مختارين في حالة السعة والرخاء ﴿و﴾ حالة كونهم ﴿كرها﴾؛ أي: كارهين حالة الشدة والضرورة. أو المعنى: والله يعبد من في السماوات ومن في الأرض من الملائكة وبعض المؤمنين من الثقلين حالة كونهم طائعين بسهولة ونشاط، وحالة كونهم كارهين للعبادة بمشقة لصعوبة ذلك على بعض المؤمنين. وقوله: ﴿كرهاً﴾ راجع لمن ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فقط. ﴿و﴾ يسجد لله سبحانه وتعالى ﴿ظلالهم﴾؛ أي: ظلال من في السماوات والأرض بالعرض؛ أي: تبعاً لذي الظل؛ أي: ظلال من له ظل منهم، وهو الإنس لا الجن ولا الملك؛ إذ لا ظل لهما. ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾؛ أي: في البكر والعشايا، فالباء بمعنى في الظرفية متعلقة بـ﴿يَسۡجُدُ﴾، ويجوز أن يراد بالسجود معناه المجازي، وهو انقيادهم لأحداث ما أراده الله فيهم شاؤوا أو كرهوا، وانقياد ظلالهم لتصريفه إياها بالمد والتقليص، ونقلها من جانب إلى جانب، فالكل مذلل ومسخر تحت الأحكام والتقدير:، والغدو: جمع غداة؛ وهي البكرة. والآصال: جمع أصيل؛ وهو العشي من حين زوال الشمس إلى غيبوبتها كما في «بحر العلوم». وقال في «الكواشي» وغيره الأصيل: ما بين صلاة العصر وغروب الشمس؛ أي: يسجد في هذين الوقتين، والمراد بهما الدوام؛ لأن السجود سواء أريد به حقيقته، أو الانقياد والاستسلام لا اختصاص له بالوقتين، وتخصيصهما ـ مع أن انقياد الظلال

(١) المراح.

وميلانها من جانب إلى جانب، وطولها بسبب انحطاط الشمس، وقصرها بسبب ارتفاعها ـ لا يختص بوقت دون وقت، بل هي مستسلمة منقادة لله تعالى في عموم الأوقات؛ لأن الظلال إنما تزداد وتعظم فيهما. وقيل: لأنهما طرفا النهار، فيدخل وسطه فيما بينهما. وجاء[1] بـ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تغليباً للعقلاء على غيرهم، ولكون سجود غيرهم تبعاً لسجودهم، ومما يؤيد حمل السجود على الانقياد ما يفيده تقديم لله على الفعل من الاختصاص، فإن سجود الكفار لأصنامهم معلوم، ولا ينقادون لهم كانقيادهم لله في الأمور التي يقرّون على أنفسهم بأنها من الله، كالخلق والحياة والموت ونحو ذلك.

فصل

وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة، فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند قراءته واستماعه لهذه السجدة. وقد سبق[2] في آخر الأعراف ما يتعلق بسجدة التلاوة، فارجع إليه إن شئت. وأما سجدة الشكر؛ وهي أن يكبر ويخر ساجداً مستقبل القبلة، فيحمده تعالى ويشكره، ويسبح ثم يكبر، فيرفع رأسه. وقال الشافعي: يستحب سجود الشكر عند تجدد النعم كحدوث ولد، أو نصر على الأعداء ونحوه، وعند دفع نقمة كنجاة من عدو أو غرق ونحو ذلك. وعن أبي حنيفة ومالك: أن سجود الشكر مكروه، ولو خضع فتقرب لله تعالى بسجدة واحدة من غير سبب فالأرجح أنه حرام. قال النواوي: ومن هذا ما يفعله كثير من الجهلة الضالين من السجود بين يدي المشايخ، فإن ذلك حرام قطعاً بكل حال، سواء كان إلى القبلة، أو لغيرها، وسواء قصد السجود لله، أو غفل، وفي بعض صوره ما يقتضي الكفر كذا في الفتح القريب. وقرأ أبو مجلز: ﴿والإيصال﴾. قال ابن جنّي هو مصدر أصل؛ أي: دخل في الأصيل، كما تقول: أصبح؛ أي: دخل في الإصباح.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله تعالى: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والاستفهام فيه للتقرير؛ أي: من مالك السماوات والأرض، ومن مدبرهما وخالقهما؟ فسيقولون: الله؛ لأنهم مقرون بأن الله خالق السماوات وما فيها والأرض وما فيها، فإذا أجابوك بذلك فـ﴿قُلْ﴾ أنت يا محمد: ﴿ٱللَّهُ﴾ رب السماوات والأرض ومالكهما وخالقهما ومتولي أمرهما؛ إذ لا جواب لهم سواه؛ لأنه البين الذي لا مراء فيه؛ أي: قل لهم[1]: الذي خلقها وأنشأها وسواها على أتم موضع وأحكم بناء هو الله، وقد أمر عليه السلام ليجيب بذلك؛ للإشارة إلى أنه هو وهم سواء في ذلك الجواب الذي لا محيص منه، وهم لا ينكرونه البتة كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

وقيل[2]: لما قال هذه المقالة للمشركين عطفوا عليه، وقال: أجب أنت، فأمره الله أن يجيبهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: قل يا محمد الله خالقهما وربهما. وقيل: إنما جاء السؤال والجواب من جهة واحدة؛ لأن المشركين لا ينكرون أن الله خالق كل شيء، فلما لم ينكروا ذلك وأجاب النبي ﷺ بقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾، فكأنهم قالوا ذلك أيضاً، ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم الأصنام بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ﴾ تعالى ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ وآلهة يعني الأصنام، فالهمزة فيه للاستفهام التوبيخي الإنكاري داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أعلمتم أن ربهما هو الذي ينقاد لأمره من فيهما كافة، فاتخذتم من دونه تعالى أصناماً ﴿أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ﴾ أولئك الأولياء ﴿لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾؛ أي: لا يستطيعون لأنفسهم جلب نفع إليها ولا دفع ضرر عنها، وإذا عجزوا عن جلب النفع إلى أنفسهم، ودفع الضرر عنها.. كانوا عن نفع الغير ودفع الضرر عنه أعجز، ومن هو كذلك، فكيف يعبد ويتخذ ولياً وهذا تجهيل لهم وشهادة على غباوتهم وضلالتهم التي ليس بعدها ضلال. وفي «روح البيان» الهمزة[3] للإنكار، والفاء للاستبعاد؛ أي: أبعد إقراركم هذا وعلمكم بأنه تعالى

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

(٣) روح البيان.

صانع العالم ومالكه اتخذتم من دونه تعالى أصناماً، وعبدتم من غيره تعالى أولياء وأرباباً، لا يستجلبون لأنفسهم نفعاً ولا يدفعون عنها ضرراً، فبالأولى أن يكونوا عاجزين عن تحصيل المنفعة للغير ودفع المضرة عن الغير، فإذا عجزوا عن ذلك كانت عبادتهم محض العبث والسفه، وهو منكر بعيد من مقتضى العقل.

وخلاصة ذلك[1]: أفبعد أن علمتم أنه هو الخالق لهذا الخلق العظيم تتخذون من دونه أولياء هم غاية في العجز، وجعلتم ما كان يجب أن يكون سبباً في الاعتراف بالوحدانية، وهو علمكم بذلك سبباً في إشراككم به سواه من أضعف خلقه، وهو بمعنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ﴾.

ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً للمشركين الذين يعبدون الأصنام، والمؤمنين الذين يعترفون بأن لا رب غيره ولا معبود سواه، وأمر رسوله ﷺ أن يقوله لهم، فقال: ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ في دينه وهو الكافر ﴿وَٱلۡبَصِيرُ﴾ فيه وهو الموحد، فإن الأول جاهل لما يجب عليه وما يلزمه، والثاني عالم بذلك، والاستفهام فيه للتقريع والتوبيخ. والكلام على التشبيه[2]؛ أي: فكما لا يستوي الأعمى والبصير في الحس، كذلك لا يستوي المشرك الجاهل بعظمة الله وثوابه وعقابه، وقدرته مع الموحد العالم بذلك.

والمعنى: أي قل لهم[3] مصوِّراً سخيف آرائهم مفنِّداً قبيح معتقداتهم: هل يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً ولا يهتدي لمحجة يسلكها إلا بأن يهدى بدليل، والبصير الذي يهدي الأعمى لسلوك الطريق؟ لا شك أن الجواب أنهما غير متساويين، فكذلك المؤمن الذي يبصر الحق فيتبعه، ويعرف الهدى فيسلكه لا يستوي هو وإياكم، وأنتم لا تعرفون حقاً ولا تبصرون رشداً.

ثم ضرب مثلاً للكفر والإيمان بقوله: ﴿أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ و﴿أَمۡ﴾ هنا

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

منقطعة تقدر ببل وبهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بل[1] أهل تستوي الظلمات التي لا ترى فيها الطريق، فتسلك ﴿وَٱلنُّورُ﴾ الذي يبصر به الأشياء ويجلو ضوؤه الظلام؟ لا شك أن الجواب عن ذلك أنهما لا يستويان، فكذلك الكفر بالله صاحبه منه في حيرة يضرب أبداً في غمرة لا يهتدي إلى حقيقة، ولا يصل إلى صواب، والإيمان بالله صاحبه منه في ضياء، فهو يعمل على علم بربه ومعرفة منه بأنه يثيبه على إحسانه ويعاقبه على إساءته، ويرزقه من حيث لا يحتسب ويكلؤه بعنايته في كل وقت وحين، فهو يفوض أمره إليه إذا أظلمت الخطوب وتعقدت في نظره مدلهمات الحوادث. والكلام[2] على التشبيه أيضاً؛ أي: فكما لا تستوي الظلمات والنور، كذلك لا يستوي الشرك والإنكار، والتوحيد والمعرفة، ووحد النور وجمع الظلمة؛ لأن طريق الحق واحد والباطل طرقه كثيرة، كشرك اليهود وشرك النصارى وشرك عبدة الأوثان وشرك المجوس وغيرها بخلاف التوحيد.

وقرأ[3] الأخوان حمزة والكسائي وأبو بكر: ﴿أم هل يستوي﴾ - بالياء - والجمهور: ﴿تستوي﴾ بالتاء الفوقية. و﴿أَمْ﴾ في قوله: ﴿أَمْ هَلْ﴾ منقطعة تتقدر بـ﴿بل﴾ والهمزة على المختار، والتقدير: بل أهل تستوي، و﴿هَلْ﴾ وإن نابت عن همزة الاستفهام في كثير من المواضع، فقد جامعتها في قول الشاعر:

أَهَلْ رَأَوْنَا بِوَادِيْ ٱلْفَقْرِ ذِيْ ٱلأَكَمِ

وإذا جامعتها مع التصريح بها فلأن تجامعها مع أم المتضمنة لها أولى، وهل بعد أم المنقطعة يجوز أن يؤتى بها لشبهها بالأدوات الإسمية التي للاستفهام في عدم الأصالة فيه كقوله: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾. ويجوز أن لا يؤتى بها بعد أم المنقطعة؛ لأن أم تتضمنها، فلم يكونوا ليجمعوا بين أم والهمزة، لذلك ذكره أبو حيان في «البحر».

و﴿أَمْ﴾ في قوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ منقطعة بمعنى بل وهمزة الإنكار.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

وجملة ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ صفة لـ﴿شُرَكَآءَ﴾؛ أي: بل أجعل هؤلاء المشركون لله سبحانه وتعالى شركاء وآلهة يستحقون العبادة معه تعالى خلقوا؛ أي: خلق أولئك الشركاء سماوات وأرضين وشمساً وقمراً وجبالاً وبحاراً وجناً وإنساً كخلقه تعالى إياهن؛ أي: خلقوا مخلوقاً مماثلاً لما خلقه الله تعالى. ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: فاشتبه[1] عليهم مخلوق الله بمخلوق الشركاء حتى يقولوا: قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه، فاستحقوا العبادة، فنتخذهم له شركاء، ونعبدهم كما يعبد، ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلاً أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق. وهذا الاستفهام إنكاري[2]؛ أي: ليس الأمر كذلك حتى يشتبه عليهم الأمر، بل إذا تفكروا بعقولهم وجدوا الله تعالى هو المنفرد بخلق سائر الأشياء، والشركاء مخلوقون له أيضاً لا يخلقون شيئاً حتى يشتبه خلق الله بخلق الشركاء، وإذا كان الأمر كذلك.. فقد لزمتهم الحجة؛ وهو قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾. والمعنى؛ أي: بل[3] أخلق أوثانكم التي اتخذتموها معبودات من دون الله خلقاً كخلقه، فاشتبه عليكم أمرها فيما خلقت وخلق الله، فجعلتموها له شركاء من أجل ذلك، أم أن بكم الجهل والبعد عن الصواب؛ إذ لا يخفى على من له مسكة من العقل أن عبادة ما لا يضر ولا ينفع من الجهل بحقيقة المعبود ومن يجب له التذلل والخضوع والإنابة والزلفى والإخبات إليه، وإنما الواجب عبادة من يرجى نفعه ويخشى عقابه وضره، وهو الذي يرزقه ويمونه آناء الليل وأطراف النهار، وإذا كان الأمر كذلك كان حكمهم بكونها شركاء لله في الألوهية محض الجهل.

ثم ذكر فذلكة لما تقدم، ونتيجة لما سبق من الأدلة والأمثال التي ضربت بها، فقال: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين مبيّناً لهم وجه الحق ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الأجسام والأعراض، لا خالق غير الله فيشاركه في العبادة؛ أي: الله خالقكم وخالق أوثانكم، وخالق كل شيء مما يصح أن يكون

---

(١) النسفي.

(٢) الخازن.

(٣) المراغي.

مخلوقاً. وقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ﴾ من العموم الذي يراد به الخصوص؛ لأن الله تعالى خلق كل شيء وهو غير مخلوق. قال الزجّاج: والمعنى أنه خالق كل شيء مما يصح أن يكون مخلوقاً، ألا ترى أنه تعالى شيء وهو غير مخلوق انتهى.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾؛ أي: الفرد الذي لا ثاني له ﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾؛ أي: الغالب على كل شيء سواه، فكل ما عداه مربوب مقهور مغلوب، فكيف تعبدون غيره وتشركون به ما لا يضر ولا ينفع.

ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر للحق وذويه وللباطل ومنتحليه، فقال: ﴿أَنزَلَ﴾ سبحانه ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السحاب ﴿مَآءً﴾؛ أي: مطراً كثيراً، والتنوين[1] فيه للتكثير أو للنوعية ﴿فَسَالَتْ﴾؛ أي: فجرت بذلك الماء ﴿أَوْدِيَةٌۢ﴾؛ أي: أنهار كثيرة ﴿بِقَدَرِهَا﴾؛ أي: بحسب مقدار تلك الأودية في الصغر والكبر، فإن صغر الوادي قل الماء، وإن اتسع الوادي كثر الماء. والأودية جمع وادٍ كنادٍ وأندية، وهو كل منفرج بين جبلين أو نحوهما. وفي قوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ توسع؛ أي: سال ماؤها، ومعنى بقدرها؛ أي: بقدر مائها؛ لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها.

وفي «روح البيان»: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ أي: مطراً ينحدر منها إلى السحاب، ومنه إلى الأرض، وهو رد لمن زعم أنه يأخذه من البحر ومن زعم أن المطر إنما يتحصل من ارتفاع أبخرة رطبة من الأرض إلى الهواء، فينعقد هناك من شدة برد الهواء، ثم ينزل مرة أخرى، وعن ابن[2] عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن تحت العرش بحراً ينزل منه أرزاق الحيوانات يوحي الله إليه، فيمطر ما شاء من سماء إلى سماء الدنيا، ويوحي إلى السحاب أن غربله فيغربله، فليس من قطرة تقطر إلا ومعها ملك يضعها موضعها، ولا ينزل من السماء قطرة إلا بكيل

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

معلوم ووزن معلوم إلا ما كان يوم الطوفان من ماء، فإنه نزل بغير كيل ولا وزن انتهى.

شبه نزول القرآن الجامع للهدى والبيان بنزول المطر[1]؛ إذ نفع نزول القرآن يعم كعموم نفع نزول المطر، وشبه الأودية بالقلوب؛ إذ الأودية يستكن فيها الماء كما يستكن القرآن والإيمان في قلوب المؤمنين ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ﴾؛ أي: حمل ورفع السيل الجاري في الوادي ﴿زَبَدًا﴾؛ أي: غشاء ﴿رَّابِيٗا﴾؛ أي: منتفخاً مرتفعاً فوق الماء طافياً عليه. والزبد: اسم لكل ما علا وجه الماء من رغوة وغيرها، سواء حصل بالغليان والاضطراب أو بغيره، وهذا هو المثل الأول ضربه الله للحق والباطل، والإيمان والكفر.

والمراد من هذا تشبيه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه يضمحل ويعلق بجنبات الوادي وتدفعه الرياح، فكذلك يذهب الكفر ويضمحل.

والمعنى[2]: أي أنزل من السحاب مطراً فسالت مياه الأودية بحسب مقدارها في الصغر والكبر، فحمل السيل الذي حدث من ذلك الماء زبداً عالياً مرتفعاً فوقه طافياً عليه، وقد تم المثل الأول. ثم شرع سبحانه في ذكر المثل الثاني، فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ خبر مقدم لقوله: زبد مثله، و﴿عَلَيۡهِ﴾ متعلق بـ﴿يُوقِدُونَ﴾، والإيقاد: جعل النار تحت الشيء ليذوب، و﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ حال من الضمير في ﴿عَلَيۡهِ﴾؛ أي: ومما يوقد الناس عليه من جواهر الأرض كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد، حالة كونه ثابتاً في النار ليذوب ويخلص عن الخبث. وقوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ﴾ مفعول لأجله؛ أي: لأجل طلب اتخاذ زينة من حليٍّ كالسوار والطوق، أو اتخاذ متاع كالأواني والقدور وغيرها من آلات الحرب والحصد وأدوات المصانع وأدوات القتال والنزال ﴿زَبَدٞ﴾؛ أي: وسخ وخبث ﴿مِّثۡلُهُۥۚ﴾؛ أي: مثل زبد الماء ووسخه في أن كلاًّ منهما شيء من الأكدار، والمعنى؛ أي: وزبد مثل زبد السيل كائن وناشيء من الجواهر التي

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

يوقدون عليها النار ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل هذا التبيين للأمور الأربعة الماء والجوهر والزبدين ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، ويبين ﴿ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾؛ أي: الإيمان والكفر؛ أي: يبين مثلهما وشبههما في الثبات والاضمحلال؛ أي: وما مثل الحق والباطل إذا اجتمعا إلا مثل السيل والجوهر وزبديهما، فكما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، فالباطل لا ثبات له ولا دوام أمام الحق. ثم فصل هذا بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ من الماء والجوهر ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾؛ أي: مضمحلاً متلاشياً لا منفعة فيه ولا بقاء له؛ أي: فينعدم مرمياً؛ أي: يرميه الماء إلى الساحل ويرميه الكير ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من الماء الصافي والجوهر الخالص ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يبقى ويثبت في الأرض، فالماء يثبت بعضه في منافعه، ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والآبار والجوهر، يصاغ من بعضه أنواع الحلي، ويتخذ من بعضه أصناف الآلات، فينتفع بكل من ذلك مدة طويلة.

والمعنى[1]: أي فأما الزبد الذي يعلو السيل.. فيذهب مرمياً في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر، وتنسفه الرياح، وكذلك خبث الحديد والنحاس والذهب والفضة يذهب ولا يرجع منه شيء، وأما ما ينفع الناس من الماء والذهب والفضة.. فيمكث في الأرض، فالماء نشربه ونسقي به الأرض، فينبت جيد الزرع الذي ينتفع به الناس والحيوان. والذهب والفضة نستعملهما في الحلي وصك النقود، والحديد والنحاس ونحوهما نستعملها في متاعنا من الحرث والحصد، وفي المعامل والمصانع ووسائل الدفاع ونحو ذلك.

واعلم: أن وجه[2] المماثلة بين الزبدين في الزبد الذي يحمله السيل، والزبد الذي يعلو الأجسام المنطرقة: أن تراب الأرض لما خالط الماء وحمله معه صار زبداً رابياً فوقه، وكذلك ما يوقد عليه في النار حتى يذوب من الأجسام المنطرقة، فإنَّ أصله من المعادن التي تنبت في الأرض، فيخالطها التراب، فإذا أذيب صار

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

ذلك التراب الذي خالطها خبثاً مرتفعاً فوقها.

وقال الزجاج: مثلُ المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان له كمثل الماء المنتفع به في نبات الأرض وحياة كل شيء، وكمثل نفع الذهب والفضة وسائر الجواهر؛ لأنها كلها تبقى منتفعاً بها. ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذي يذهب جفاء، وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذي لا ينتفع به. اهـ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الضرب العجيب ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ أي: يبين الله أمثال الحق والباطل، فيجعلها في غاية الوضوح؛ أي: ومثل ضربنا لهذه الأمثال البديعة التي توضح للناس ما أشكل عليهم من أمور دينهم، وتظهر الفوارق بين الحق والباطل والكفر والإيمان نضرب لهم الأمثال، ونبين لهم الأشباه في كل باب حتى تستبين لهم طريق الهدى، فيسلكوها، وطرق الباطل فينحرفوا عنها، وتتم لهم سعادة المعاش والمعاد، ويكونوا المثل العليا بين الناس كما قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

وفي «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به، ونفع به الناس فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به».

وروى أحمد عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحُجَزكم عن النار: هلم عن النار، فتغلبوني فتقتحمون فيها».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ - بفتح الدال -، وقرأ الأشهب العقيلي وزيد بن علي وأبو عمرو في رواية شذوذاً بسكونها. وقرأ حمزة والكسائي وحفص وابن محيصن ومجاهد وطلحة ويحيى وأهل الكوفة: ﴿يوقدون﴾ بالياء على الغيبة؛ أي: يوقد الناس. وقرأ باقي السبعة والحسن وأبو جعفر والأعرج وشيبة ﴿توقدون﴾ بالتاء على الخطاب. وقرأ رؤبة شاذاً: ﴿جفالاً﴾ باللام بدل الهمزة من قولهم: جفلت الريح السحاب إذا حملته وفرقته، وعن أبي حاتم: لا يقرأ بقراءة رؤبة؛ لأنه كان يأكل الفأر بمعنى: أنه كان أعرابياً جافياً. وعن أبي حاتم أيضاً: لا تعتبر قراءة الأعراب في القرآن.

ولما فرغ سبحانه وتعالى[2] من بيان شأن كل من الحق والباطل في الحال والمآل، وأتم البيان.. شرع يبين حال أهلهما مآلاً ترغيباً فيهما، وترهيباً وتكملة لوسائل الدعوة إلى الحق والخير، وتنفيراً عن سلوك طرق الباطل والشر، فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾؛ أي: للمؤمنين الذي أجابوا ربهم في الدنيا إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والتزام الشرائع الواردة على لسان رسوله ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: المثوبة الحسنة في الآخرة والمنفعة الدائمة الخالصة عن شوائب المضرة المقرونة بالإجلال؛ وهي الجنة، وسميت بذلك؛ لأنها في نهاية الحسن؛ أي: للذين أطاعوا الله ورسوله وانقادوا لأوامره وصدقوا ما أخبر به فيما نزل عليه من عند ربه المثوبة الحسنى الخالصة من الكدر والنصب؛ الدائمة المقترنة بالتعظيم والإجلال والآية بمعنى قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى دعوته إلى التوحيد؛ أي: والأشقياء الذين لم يجيبوا دعوته تعالى إلى التوحيد على لسان رسوله ﷺ، ولم يطيعوه ولم يمتثلوا أوامره، ولم ينتهوا عما نهى عنه، وعاندوا الحق واستمروا على كفرهم وشركهم وما كانوا عليه. ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

نقودها وأمتعتها وضياعها؛ أي: لو ثبت كون جميع ما في الأرض لهم من أصناف الأموال التي يتملكها العباد، ويجمعونها بحيث لا يخرج عن ملكهم منها شيء ﴿و﴾ أن ﴿مثله﴾؛ أي: مثل ما في الأرض جميعاً لهم حالة كونه كائناً ﴿مَعَهُ﴾؛ أي: كائناً مع ما في الأرض ومنضماً إليه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِۦٓ﴾؛ أي: بمجموع ما ذكر، وهو ما في الأرض ومثله؛ أي: لجعلوا ما في الأرض ومثله فداء أنفسهم من العذاب الأليم؛ لأن محبوب كل إنسان ذاته، فإذا كانت نفسه في ضرر وكان مالكاً لكل شيء فإنه يرضى أن يجعل جميع ملكه فداء لها؛ لأنه حب ما سواها ليكون وسيلة إلى مصالحها.

والحاصل: أن للذين لم يستجيبوا لربهم أنواعاً من العذاب:

الأول منها: أنهم من شدة ما يرون من هول العذاب لو استطاعوا أن يجعلوا ما في الأرض جميعاً ومثله معه فديةً لأنفسهم.. لفعلوا، ولو فادوا به.. لم يقبل منهم، فإن المحبوب أولاً لكل إنسان هو ذاته، وما سواها فيحبه لكونه وسيلةً إلى مصالحها، فإذا كان مالكاً لهذا العالم كله ولما يساويه جعله فداء لنفسه، وفي هذا من التهويل الشديد ومن سوء ما يلقاهم في ذلك اليوم ما لا يخفى على من اعتبر وتذكر.

والثاني منها: ما ذكره بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المعاندون الذين لم يستجيبوا لربهم ﴿لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: قبيح الحساب وشديد المناقشة، فيناقشون على الجليل والفقير والحقير، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: الحساب السيء، وهو أن يحاسب الرجل على كل ما عمل من الذنوب، ولا يغفر له شيء منه، والمناقشة في الحساب أن يستقصي فيه بحيث لا يترك منه شيء، يقال: ناقشه الحساب إذا عاسره فيه واستقصى فلم يترك قليلاً ولا كثيراً. وفي الحديث: «من نوقش الحساب عذب». وقال النواوي: هذا لمن لم يحاسب نفسه في الدنيا، فيناقش بالصغيرة والكبيرة، فأما من تاب وحاسب نفسه.. فلا يناقش كما في «الفتح القريب» ذلك أن كفرهم أحبط أعمالهم، وارتكابهم للشرور والآثام ران على قلوبهم وجعلها تستمرىء الغواية والضلالة، وحبهم للدنيا جعلهم يعرضون

عما يقربهم إلى الله زلفى، فباؤوا بالخسران والهوان والنكال.

والثالث منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: مقرهم في الآخرة بعد المناقشة والحساب ﴿جَهَنَّمُ﴾؛ أي: نار جهنم. فإن قلت: هلا قيل: ومأواهم النار؟ قلت: لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيعاً، ويحتمل أن يكون جهنم هي أبعد النار قعراً، من قولهم: بئر جهنم بعيدة القعر. قال بعضهم: جهنم: لفظ معرب، وكأنه في الفرس: جَهْ نم. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾؛ أي: وبئس المسكن مسكنهم في الآخرة، والمخصوص بالذم هي؛ أي: جهنم وقيل المهاد: الفراش، يعني: وبئس الفراش يفرش لهم في جنهم، إذ أنهم غفلوا عما يقربهم إلى ربهم، وينيلهم كرامته ورضوانه، واتبعوا أهواءهم وانغمسوا في لذاتهم، فحقت عليهم كلمته ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. ونزل في حمزة - رضي الله عنه - وأبي جهل كما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾. وقيل: نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه وأبي جهل بن هشام، فالأول هو حمزة أو عمار رضي الله عنهما، والثاني أبو جهل، وحمل الآية على العموم أولى، وإن كان السبب مخصوصاً كما في «الخازن». والهمزة فيه للاستفهام الإنكاري الاستبعادي داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف كما هو مذهب الزمخشري، والتقدير: أيستوي المؤمن والكافر، فمن يعلم ويصدق أن القرآن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق كحمزة بن عبد المطلب أو عمار رضي الله عنهما كمن هو أعمى قلبه، فينكر القرآن كأبي جهل؛ أي: لا يستوي من يعلم أن الذي أنزله الله عليك من عنده هو الحق الذي لا شك فيه ولا امتراء، ومن لا يعلم ذلك فهو أعمى لا يهتدي إلى خير يفهمه، ولو فهمه ما انقاد إليه ولا صدقه، فيبقى حائراً في ظلمات الجهل وغياهب الضلالة. قال قتادة: هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه، وهؤلاء قوم كمن هو أعمى عن الحق، فلا يبصره ولا يعقله. ا هـ.

والمعنى: لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصر الحق ولا يتبعه، وإنما شبه الكافر والجاهل بالأعمى؛ لأن الأعمى لا يهتدي لرشد وربما وقع في

مهلكة وكذلك الكافر والجاهل لا يهتديان للرشد، وهما واقعان في المهلكة.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: إنما يتعظ ذوو العقول السليمة الصحيحة، وهم الذين ينتفعون بالمواعظ والأذكار؛ أي: ما يعتبر بهذه الأمثال ويتعظ بها ويصل إلى لبها وسرها إلا أولو العقول السليمة والأفكار الرجيحة. والمعنى: لا يقبل نصح القرآن ولا يعمل به إلا ذوو العقول الصافية من معارضة الوهم.

الإعراب

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾: فعل ومفعولان؛ لأنه من رأى البصرية تعدى بالهمزة إلى مفعولين، وفاعله ضمير يعود إلى الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: حالان من الكاف في ﴿يُرِيكُمُ﴾؛ أي: حال كونكم خائفين وطامعين، ويجوز أن يكون مفعولاً من أجله، ذكره أبو البقاء، ومنعه الزمخشري؛ لعدم اتحاد الفاعل يعني: أن فاعل الإراءة وهو الله تعالى غير فاعل الخوف والطمع، وهو ضمير المخاطبين، فاختلف فاعل الفعل المعلل وفاعل العلة، وهذا يمكن أن يجاب عنه بأن المفعول في قوة الفاعل، فإن معنى يريكم: يجعلكم رائين فتخافون وتطمعون. ا هـ. «سمين». ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾: فعل ومفعول. ﴿ٱلثِّقَالَ﴾: صفة لـ﴿ٱلسَّحَابَ﴾، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُرِيكُمُ﴾ على كونها صلة الموصول.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة الصلة، والعائد ضمير ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: معطوف على ﴿ٱلرَّعْدُ﴾. ﴿مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يسبح﴾ أيضاً. ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة معطوفة على جملة الصلة.

﴿فَيُصِيبُ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿يصيب﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يرسل﴾، وفاعله ضمير يعود على الموصول. ﴿بِهَا﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يصيب﴾. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: يشاءه. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة، أو في محل النصب حال من ﴿مَن﴾ الموصولة، وأعاد عليها الضمير جمعاً باعتبار معناها. ا هـ. «سمين». ﴿فِي ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب حال من لفظ الجلالة.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم. ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿يَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: والأصنام الذين يدعونهم. ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَدْعُونَ﴾ أو حال من الضمير المحذوف. ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿بِشَىْءٍ﴾: متعلق به أيضاً، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ من عام المصدر. ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، وهو من إضافة الوصف إلى مفعوله. ﴿إِلَى ٱلْمَآءِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿باسط﴾ الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: لا يستجيبون لهم استجابةً إلا استجابةً مثل استجابة الماء لمن بسط كفيه إليه. ﴿لِيَبْلُغَ﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يبلغ فاه﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود إلى ﴿ٱلْمَآءِ﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لبلوغ الماء فاه، والجار والمجرور متعلق بـ﴿باسط﴾. ﴿وَمَا﴾: (الواو): حالية. ﴿ما﴾: نافية، أو حجازية. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، أو اسمها. ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾: خبر المبتدأ، أو خبرها، والباء زائدة، والجملة الاسمية في محل

النصب حال من فاعل ﴿يبلغ﴾.

وفي «السمين»: ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ في ﴿هو﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه ضمير ﴿ٱلْمَآءِ﴾، والهاء في ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾ للفم؛ أي: وما الماء ببالغ فيه.

والثاني: أنه ضمير الفم، والهاء في ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾ لـ﴿ٱلْمَآءِ﴾؛ أي: وما الفم ببالغ الماء؛ إذ كل واحد منهما لا يبلغ الآخر على هذه الحال، فنسبة الفعل إلى كل واحد وعدمها صحيحان.

والثالث: أن يكون ﴿هُوَ﴾ ضمير ﴿الباسط﴾، والهاء في ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾ لـ﴿ٱلْمَآءِ﴾؛ أي: وما باسط كفيه إلى الماء يبلغ الماء. اهـ. ﴿وَمَا﴾: (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ (١٥)﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿للّه﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَسْجُدُ﴾. ﴿يَسْجُدُ مَن﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾: حالان من ﴿مَن﴾ الموصولة، ولكنه في تأويل مشتق؛ أي: حالة كونهم طائعين وراضين بالسجود، وحال كونهم كارهين؛ أي: غير راضين به. ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾: معطوف على ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَسْجُدُ﴾، والباء بمعنى في الظرفية. ﴿وَٱلْءَاصَالِ﴾: معطوف على ﴿الغدو﴾.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿مَن﴾: اسم استفهام للاستفهام التقريري في محل الرفع خبر مقدم وجوباً للزومها صدر الكلام. ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾،

والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾. ﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ. ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: رب السماوات والأرض الله، أو مبتدأ خبره محذوف؛ أي: الله رب السماوات والأرض، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، وجملة القول مستأنفة. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ﴾: مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت: (الهمزة): للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف كما مر، والتقدير: أعلمتم أن ربهما هو الذي ينقاد لأمره من فيهما كافة. ﴿فاتخذتم﴾: فعل وفاعل. ﴿مِّن دُونِهِۦٓ﴾: جار ومجرور حال من الفاعل؛ أي: حالة كونكم مجاوزين الله إلى غيره، أو متعلق باتخذ؛ أي: من غيره تعالى والمفعول الأول لاتخذ محذوف تقديره: فاتخذتم الأصنام من دونه أولياء. ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول ثان، وجملة ﴿اتخذتم﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿لِأَنفُسِهِمْ﴾: متعلق به. ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾: مفعول به لـ﴿يَمْلِكُونَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾.

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿هَلْ﴾: حرف تحقيق بمعنى قد. ﴿تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَٱلنُّورُ﴾: معطوف على ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة.

فائدة: وقال في «الفتوحات»: قوله: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى﴾ هذه ﴿أَمْ﴾ المنقطعة، فتقدر ببل والهمزة عند الجمهور، وببل وحدها عند بعضهم، وقد تقدم ذلك محرراً وقد يتقوى بهذه الآية من يرى تقديرها ببل فقط بوقوع هل بعدها، فلو قدرناه ببل والهمزة.. لزم اجتماع حرفي معنى واحد، فنقدرها وحدها، ولقائل أن يقول: لا نسلم أن ﴿هَلْ﴾ هذه استفهامية، بل هي بمعنى قد، وإليه ذهب جماعة، فقد ثبت مجيؤها بمعنى قد إن لم تجامعها الهمزة، كقوله تعالى: ﴿هَلْ

﴿أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾؛ أي: قد أتى، فهنا أولى والسماع. قد ورد بوقوع هل بعد أم وبعدمه، فمن الأول هذه الآية، ومن الثاني ما بعدها من قوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا﴾: انتهى. ﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل وهمزة الإنكار. ﴿جَعَلُوا﴾: فعل وفاعل، والمفعول الأول محذوف. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق بـ﴿شُرَكَآءَ﴾ أو حال ثانٍ. ﴿شُرَكَآءَ﴾ مفعول ثان، والتقدير: أم جعلوا الأصنام شركاء لله، والجملة مستأنفة. ﴿خَلَقُوا﴾: فعل وفاعل، الجملة صفة لـ﴿شُرَكَآءَ﴾. ﴿كَخَلْقِهِۦ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: خلقاً كائناً كخلقه. ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع. ﴿تشابه الخلق﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقُوا﴾. ﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾. ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾. ﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾: صفة لـ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾، أو خبر ثان.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾.

﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿مَآءً﴾: مفعول به. ﴿فَسَالَتْ﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع. ﴿سالت أودية﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿بِقَدَرِهَا﴾: متعلق بـ﴿سالت﴾ أو صفة لـ﴿أَوْدِيَةٌۢ﴾. ﴿فَٱحْتَمَلَ﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع. ﴿احتمل السيل﴾ فعل وفاعل. ﴿زَبَدًا﴾: مفعول به. ﴿رَّابِيًا﴾: صفة لـ﴿زَبَدًا﴾، والجملة مفرعة معطوفة على جملة ﴿سالت﴾.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

﴿وَمِمَّا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿مما﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿يُوقِدُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾: متعلق بـ﴿يُوقِدُونَ﴾، أو حال من الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾. ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾: مفعول لأجله، ومضاف إليه. ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾: معطوف على ﴿حِلْيَةٍ﴾. ﴿زَبَدٌ﴾: مبتدأ مؤخر.

﴿وَمِثْلُهُۥ﴾: صفة لـ﴿زَبَدٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿أَنزَلَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَٱلْبَٰطِلَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْحَقَّ﴾، والتقدير: يضرب الله الحق والباطل ويبينهما ضرباً مثل ضرب الأمور الأربعة: الماء والجوهر والزبدين، وتبييناً مثل تبيينها، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿فَأَمَّا﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت الأمثال والأمور المذكورة، وأردت بيان عاقبتها.. فأقول لك أما، ﴿أما﴾: حرف شرط وتفصيل. ﴿ٱلزَّبَدُ﴾: مبتدأ. ﴿فَيَذْهَبُ﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها؛ لأن موضعها موضع ﴿أما﴾، ﴿يذهب﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلزَّبَدُ﴾. ﴿جُفَآءً﴾: حال من ضمير الفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: جواب ﴿أما﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة أما في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَأَمَّا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿أما﴾ حرف شرط وتفصيل. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾. ﴿فَيَمْكُثُ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿يمكث﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلقَ به، والجملة معطوفة على جملة الصلة. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف. ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والتقدير: ضرباً مثل هذا الضرب العجيب يضرب الله سبحانه وتعالى أمثال الحق والباطل ويبينها، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتأكيد جملة قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾.

﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱسْتَجَابُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة

الموصول. ﴿لِرَبِّهِمُ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿أَنَّ﴾. ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل النصب اسم ﴿أَنَّ﴾. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَّا﴾. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ضمير الصلة، أو من ﴿مَّا﴾. ﴿وَمِثْلَهُۥ﴾: معطوف على اسم ﴿أَنَّ﴾. ﴿مَعَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه حال من ﴿مثله﴾، والتقدير: لو أن ما في الأرض ومثله كائنان لهم، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية بفعل محذوف تقديره: لو ثبت كون ما في الأرض مثله معه كائناً لهم، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾. ﴿لَٱفْتَدَوْا۟﴾: (اللام): رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾. ﴿افتدوا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦٓ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية جواب ﴿لَوْ﴾: الشرطية وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية: في محل الرفع خبر أول للمبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول. ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم للمبتدأ الثاني. ﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾: مبتدأ ثان مؤخر عن خبره، وجملة الثاني في محل الرفع خبر للأول، وجملة الأول في محل الرفع خبر ثان لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ثالث لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر مقدم للمخصوص بالذم المحذوف وجوباً تقديره: وبئس المهاد هي؛ أي: جهنم، والجملة الاسمية جملة إنشائية مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿أَفَمَن﴾ (الهمزة): للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف. (الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيستوي المؤمن والكافر، ﴿من يعلم﴾: ﴿من﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله

ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿أَنَّمَآ﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب اسم ﴿أن﴾. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: يتعلق به أيضاً، أو حال من ضمير النائب، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿الْحَقُّ﴾: خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم تقديره: أفمن يعلم كون ما أنزل إليك من ربك الحق. ﴿كَمَنْ﴾: جار ومجرور خبر ﴿من﴾ الموصولة في قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾، والجملة الإسمية معطوفة على الجملة المحذوفة، والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ونفي بمعنى ما النافية وإلا المثبتة. ﴿يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَٰبِ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾: البرق[1]: ما يرى من النور لامعاً خلال السحاب، من برق الشيء بريقاً إذا لمع.

﴿الرَّعْدُ﴾: هو الصوت المسموع خلال السحاب. وفي «المصباح»: رعدت السماء رعداً ـ من باب قتل ـ ورعوداً لاح منها الرعد. ا هـ. وسببهما على ما بين في العلوم الطبيعية أن البرق يحدث من تقارب سحابتين مختلفتي الكهربائية حتى يصير ميل إحداهما للاقتراب من الأخرى أشد من قوة الهواء على فصلهما، فتهجم كل منهما على الأخرى بنور زاهر وصوت قوي شديد، فذلك النور هو البرق، والصوت هو الرعد الذي نشاء من تصادم دقائق الهواء الذي تطرده كهربائية البرق أمامها.

﴿الصَّوَٰعِقَ﴾: جمع صاعقة، وسببها أن السحب قد تمتلىء بكهربائية، والأرض بكهربائية أخرى، والهواء يفصل بينهما، فإذا قاربت السحب وجه

---

(١) المراغي.

الأرض تنقض الشرارة الكهربائية منها، فتنزل صاعقة تهلك الحرث والنسل.

﴿ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ والسحاب[1] اسم جنس واحده سحابة، فلذلك وصف بالجمع، وهو الثقال جمع ثقيلة ككريمة وكرام.

﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾: من المجادلة، وأصلها من الجدل، وهو شدة الخصومة، وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله كأن المجادلين يقتل كل منهما الآخر عن رأيه. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾؛ أي: شديد المماحلة والمكايدة لأعدائه، يقال: محل فلان بفلان إذا كايده وعرضه للهلاك، وتمحل إذا تكلف في استعمال الحيلة، ولعل أصله المحل بمعنى القحط. وقيل[2]: فعال من المحال بمعنى القوة، فالميم أصلية. وقيل: أصله مفعل من الحول، أو الحيلة أُعل على غير قياس، ويعضده أنه قرىء بفتح الميم على أنه مفعل من حال يحول إذا احتال. ا هـ. «بيضاوي». وقوله: وقيل مفعل؛ أي: والميم على هذا زائدة، وقوله: أعل على غير قياس؛ إذ القياس فيه صحة الواو كمحور ومرود ومقود؛ لأن شرط قلب الواو ألفاً فتح ما قبلها. ا هـ. «شهاب». وفي «القاموس»[3]: والمِحال ـ ككتاب ـ الكيد وروم الأمر بالحيل والتدبير والقدرة والعذاب والعقاب والعداوة، والمعادلة كالمماحلة والقوة والشدة والهلاك والإهلاك، ومحل به ـ مثلث الحاء محلاً ومحالاً ـ كاده بسعاية إلى السلطان، وماحله مماحلةً ومِحالاً قاواه حتى يتبين أيهما أشد. ا هـ.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ من إضافة[4] الموصوف لصفته؛ أي: الدعوة الحق المطابقة للواقع. ا هـ. شيخنا.

﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾؛ أي: لا يجيبون، فالسين والتاء زائدتان.

﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ والظلال: جمع ظل؛ وهو الخيال الذي يظهر للجرم، فسجود[5] الظلال ميلها من جانب إلى جانب بسبب ارتفاع الشمس ونزولها، يقال: سجدت

---

(١) الفتوحات.

(٢) البيضاوي.

(٣) القاموس.

(٤) الفتوحات.

(٥) القرطبي.

النخلة إذا مالت.

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ والغدو: جمع غداة كقني جمع قناة، وهي البكرة أول النهار. والآصال: جمع أصيل، والأُصل: جمع أَصيل: وهو ما بين العصر إلى الغروب.

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ الأودية: جمع وادٍ؛ وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء، والفرجة بين الجبلين، وقد يراد به الماء الجاري فيه. قال أبو علي الفارسي: لا نعلم فاعلاً جمع على أفعلة إلا هذا، وكأنه حمل على فعيل، فجمع على أفعلة مثل: جريب وأجربة، كما أن فعيلاً حمل على فاعل فجمع على أفعال مثل يتيم وأيتام وشريف وأشراف كأصحاب وأنصار في صاحب وناصر.

﴿بِقَدَرِهَا﴾؛ أي: بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة بحسب تفاوت أمكنتها صغراً وكبراً. قال الواحدي: والقدر: مبلغ الشيء، والمعنى: بقدرها من الماء، فإن صغر الوادي قل الماء، وإن اتسع كثر.

﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ﴾؛ أي: حما فافتعل هنا بمعنى المجرد. ﴿زَبَدًا رَّابِيًاۚ﴾ والزبد: ما يعلو وجه الماء حين الزيادة كالحبب، وما يعلو القدر عند غليانها، والرابي: العالي المرتفع فوق الماء الطافي عليه.

﴿يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ وفي «المصباح»: وقدت النار وقداً ـ من باب وعد ـ ووقوداً، والوَقود ـ بالفتح ـ: الحطب، وأوقدتها إيقاداً، ومنه على الاستعارة ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾؛ أي: كلما دبروا مكيدة وخديعة أبطلها، وتوقدت النار: اتقدت. والوَقَد ـ بفتحتين ـ: النار نفسها، والموقد: موضع الوقود مثل المجلس لموضع الجلوس، واستوقدت النار استوقدتها يتعدى ولا يتعدى. وفي «الخازن»: الإيقاد: جعل الحطب في النار لتتقد تلك النار تحت الشيء المذوب. ا هـ.

﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾ والحلية[1]: ما يعمل للنساء مما يُتزين به من الذهب

---

(١) البحر المحيط.

والفضة. والمتاع: ما يُتخذ من الحديد والنحاس وما أشبههما من الآلات التي هي قوام العيش كالأواني والمساحي وآلات الحرب وقطاعات الأشجار والسكك وغير ذلك. فالمراد بالحلية: ما يُتزين به، وبالمتاع ما يُتمتع به؛ أي: يُنتفع به.

﴿جُفَآءً﴾ قال ابن[1] الأنباري: والجفاء: المتفرق، يقال: جفأت الريح السحاب؛ أي: قطعته وفرَّقته، وقيل: الجفاء ما يرمي به السيل، ويقال: جفأت القدر بزبدها تجفأ من باب قطع، وجفأ السيل بزبده وأجفأ وأجفل باللام وفي همزة جفاء وجهان:

أظهرهما: أنها أصل لثبوتها في تصاريف هذه المادة كما رأيت.

والثاني: أنها بدل من واو، وكأنه مختار أبي البقاء، وفي نظر؛ لأن مادة جفا يجفو لا يليق معناها هنا، والأصل عدم الاشتراك. ا هـ. «سمين». فالمراد بالجفاء ما رمى به الوادي من الزبد إلى جوانبه.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: أجابوا في الدنيا إلى التوحيد، فالسين والتاء فيه زائدتان. والحسنى مؤنث الأحسن، كالفضلى مؤنث الأفضل، وهو صفة الموصوف محذوف؛ أي: المثوبة الحسنى، وهي الجنة، وسميت بذلك؛ لأنها في نهاية الحسن.

﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾؛ أي: لجعلوه فداء أنفسهم من العذاب.

﴿لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: لهم الحساب السيء، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من الفصاحة، وأنواعاً من البلاغة والبيان والبديع:

---

(١) الفتوحات.

فمنها: الطباق بين ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

ومنها: عطف العام على الخاص في قوله: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قيل المراد بهؤلاء الملائكة أعوان ملك السحاب، جعل الله تعالى مع الملك الموكل بالسحاب المسمى بالرعد أعواناً من الملائكة، وقيل: المراد جميع الملائكة، وهو أولى. ا هـ. «خازن».

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم﴾ على قراءة ﴿والذين تدعون﴾ ـ بالتاء الفوقية ـ وحق العبارة لا يستجيبون لكم، وإن كانت هذه القراءة شاذة.

ومنها: التشبيه[1] المركب التمثيلي في قوله: ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ شبه حال الأصنام مع من دعاهم من المشركين؛ وهو عدم استجابتهم دعاء المشركين، وعدم فوز المشركين من دعائهم الأصنام شيئاً من الاستجابة والنفع بحال الماء الواقع بمرأى من العطشان الذي يبسط إليه كفيه يطلب منه أن يبلغ فاه وينفعه من احتراق كبده، ووجه الشبه عدم استطاعة المطلوب منه إجابة الدعاء، وخيبة الطالب عن نيل ما هو أحوج إليه من المطلوب، وهذا الوجه كما ترى منتزع من عدة أمور.

ومنها: إسناد السجود إلى الظلال في قوله: ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ تبعاً لصاحبها.

ومنها: الطباق بين الغدو والآصال في قوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ وفيه أيضاً إطلاق الطرفين وإرادة الكل.

ومنها: القصر في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم﴾.

---

(١) روح البيان.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ وفي قوله: ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ وفي قوله: ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ وفيه أيضاً الجناس المغاير.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ لأن المعنى: هل يستوي من هو كالأعمى ومن هو كالبصير؛ أي: فكما[1] لا يستوي الأعمى والبصير في الحس، كذلك لا يستوي المشرك الجاهل بعظمة الله وثوابه وعقابه وقدرته مع الموحد العالم بذلك. وكذا قوله: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ وارد[2] على التشبيه أيضاً؛ أي: فكما لا تستوي الظلمات والنور، كذلك لا يستوي الشرك والإنكار والتوحيد والمعرفة. وقيل: فيه الاستعارة التصريحية الأصلية؛ لأنه استعار لفظ الظلمات والنور للكفر والإيمان، وكذلك لفظ الأعمى للمشرك الجاهل، والبصير للمؤمن العاقل.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الله خالق السماوات والأرض.

ومنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ الآية. شبه تعالى الحق والباطل بتشبيه رائع يسمى التشبيه التمثيلي؛ لأن وجه الشبه فيه منتزع من متعدد، فمثل الحق بالماء الصافي الذي يستقر في الأرض، والجوهر الصافي من المعادن الذي به ينتفع العباد، ومثل الباطل بالزبد والرغوة التي تظهر على وجه الماء، والخبث من الجوهر الذي لا يلبث أن يتلاشى ويضمحل.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ من إسناد ما للحال إلى المحل، كما يقال: جرى النهر، والأصل: جرت المياه في الأودية.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) الفتوحات.

ومنها: تنكير[1] الأودية في قوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ إشعاراً بالمناوبة؛ لأن المطر ينزل في البقاع على المناوبة فتسيل بعض أودية الأرض دون بعض.

ومنها: تعريف السيل في قوله: ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ﴾؛ لأنه قد فهم من الفعل قبله، وهو ﴿فَسَالَتْ﴾، وهو لو ذكر لكان نكرةً، فلما أعيد... أعيد بلفظ التعريف، نحو رأيت رجلاً، فأكرمت الرجل. ا هـ. «سمين».

ومنها: اللف والنشر المشوش في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ فإنه يرجع إلى الباطل الذي ذكر أخيراً في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ وفي قوله: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ فإنه راجع إلى الحق المذكور أولاً.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فإن فيه تفخيماً لشأن هذا التمثيل وتأكيداً لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾.

ومنها: الاستعارة التبعية في قوله: ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ شبه الجهل والكفر بالعمى بجامع عدم الاهتداء في كلٍّ، فاشتق من العمى بمعنى الجهل والكفر أعمى بمعنى الجاهل الكافر على سبيل الاستعارة التبعية.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ مناسبةُ هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ضرب الأمثال لمن اتبع الحق وسلك سبيل الرشاد، ولمن ركب رأسه وسار في سبل الضلالة لا يلوي على شيء، ولا يقف لدى غاية.. بين أن من جمع صفات الخير الآتية يكون ممن اتبعوا الحق، وملكوا نواحي الإيمان، وأقاموا دعائمه، وهؤلاء قد كتب لهم حسنى العقبى والسعادة في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أوصاف المتقين وما أعد لهم

عنده في دار الكرامة بما كان لهم من كريم الصفات وفاضل الأخلاق.. بين حال الأشقياء وما ينتظرهم من العذاب والنكال، وأتبع الوعد بالوعيد، والثواب بالعقاب على سنة القرآن الدائبة في مثل هذا ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] أن من نقض عهد الله من بعد ميثاقه، ولم يقر بوحدانيته، وأنكر نبوة محمد ﷺ؛ فهو ملعون في الدنيا ومعذب في الآخرة.. بين هنا أنه تعالى يبسط الرزق لبعض عباده ويضيقه على بعض آخر، على ما اقتضته حكمته وسابق علمه بعباده، ولا تعلق لذلك بإيمان ولا كفر، فربما وسَّع على الكافر استدراجاً، وضيَّق على المؤمن زيادةً في أجره، ثم ذكر مقالة لهم كثر في القرآن تردادها، وهي طلبهم منه آية تدل على نبوته لإنكارهم أن يكون القرآن آيةً دالة على ذلك، ثم ذكر حال المؤمنين المتقين ومآلهم عند ربهم في جناتٍ تجري من تحتها الأنهار.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر طلبهم من رسوله ﷺ الآيات، كما أنزل على الرسل السالفين كموسى وعيسى وغيرهما من النبيين والمرسلين، وبين أن الهدى هدى الله، فلو أوتوا من الآيات ما أوتوا ولم يرد الله هدايتهم، فلا يجديهم ذلك فتيلاً ولا قطميراً.. ذكر هنا أن محمداً ليس ببدع من الرسل، وأن قومه سبقهم أقوام كثيرون، وطلبوا الآيات من أنبيائهم وأجابوهم إلى ما طلبوا، ولم تغنهم الآيات والنذر، فكانت عاقبتهم البوار والنكال، فأنزل على كل قوم من العذاب ما أتى عليهم جميعاً، وأصبحوا معه كأمس الدابر، ولو أن كتاباً تسير به الجبال على أماكنها، أو تشقق به الأرض، فتجعل أنهاراً وعيوناً.. لكان هذا القرآن الذي أنزلناه عليه، ثم أبان أن الله تعالى قادر على الإتيان بما

---

(١) المراغي.

اقترحوه، لكنه لم يرد ذلك؛ لأنه لا ينتج المقصود من إيمانهم ثم أتبع ذلك بالتيئيس منه وبالتهديد بقارعة تحل بهم، وبتسلية النبي ﷺ على استهزائهم به.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عطية العوفي: قال: قالوا للنبي ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه، فأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا...﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الشعبي قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ: إن كنت نبياً كما تزعم فباعد جبلي مكة أخشبيها ـ إسمي الجبلين ـ هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة، فإنها ضيقة حتى نزرع فيها ونرعى، وابعث لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرونا أنك نبي، أو احملنا إلى الشام أو اليمن أو إلى الحيرة حتى نذهب ونجيء في ليلة كما زعمت أنك فعلته، فنزلت هذه الآية. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس أنهم قالوا: سير بالقرآن الجبال، قطع بالقرآن الأرض، أخرج به موتانا، فنزلت.

وقال الزبير بن العوام[2]: قالت قريش لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يسير عنا هذه الجبال، ويفجر لنا الأرض أنهاراً فنزرع، أو يحيي لنا موتانا فنكلمهم، أو يصير هذه الصخرة ذهباً، فتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فقد كان للأنبياء آيات، فنزلت هذه الآية، ونزل قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱلَّذِينَ﴾ الموصولات موصلاتها مبتدآت خبرها قوله الآتي: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى

---

(١) لباب النقول. (٢) المراغي.

﴿ٱلدَّارِ﴾: ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: مصدر مضاف إلى مفعوله؛ أي: بما عاهدوا الله وعقدوه على أنفسهم من الشهادة والاعتراف بربوبيته حين قالوا في عالم الذر بلى شهدنا. ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾؛ أي: العهد المؤكد باليمين؛ أي: لا يخلفون ذلك العهد الذي بينهم وبين ربهم الذي وثقوه وأكدوه بالأيمان، وكذا عهودهم بينهم وبين الناس، فهذا تعميم بعد تخصيص؛ لأنه يدخل تحت الميثاق كل ما أوجبه العبد على نفسه كالنذور ونحوها. ويحتمل[1] أن يكون الأمر بالعكس، فيكون من التخصيص بعد التعميم على أن يراد بالعهد جميع عهود الله؛ وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبيده، ويدخل في ذلك الالتزامات التي يلزم بها العبد نفسه، ويراد بالميثاق: ما أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب آدم في عالم الذر المذكور في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ...﴾ الآية.

والمعنى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الذين يوفون بما عقدوه على أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وفيما بينهم وبين العباد، وشهدت فطرهم في هذه الحياة بصحته، وأنزل عليهم في الكتاب إيجابه. قال قتادة: إن الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق في بضع وعشرين موضعاً من القرآن عناية بأمره واهتماماً بشأنه ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾؛ أي: العهد الذي وثقوه وأكدوه بينهم وبين ربهم من الإيمان به، وبينهم وبين الناس من العقود كالبيع والشراء وسائر المعاملات والعهود التي تعاهدوا على الوفاء بها إلى أجل. وفي الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب».

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ﴾ مفعوله محذوف تقديره: ما أمرهم الله ﴿بِهِۦٓ﴾ من الإيمان والرحم وغيرهما، وقوله: ﴿أَن يُوصَلَ﴾ بدل من الضمير المجرور؛ أي: أمرهم بوصله، ومعنى وصل الإيمان[2]: أن يؤمنوا بجميع الكتب والرسل ولا يفرقوا بين أحد منهم. وفي «المراح» وصل ما أمر الله به[3]: هو رعاية جميع الحقوق الواجبة للعباد، فيدخل فيه صلة الرحم والقرابة الثابتة بسبب أخوة الإيمان

---

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.
(٣) المراح.

وعيادة المريض وشهود الجنائز، وإفشاء السلام على الناس والتبسم في وجوههم وكف الأذى عنهم، ومن تمام المواصلة المصافحة عند الملاقاة، ويستحب مع المصافحة البشاشة بالوجه والدعاء بالمغفرة وغيرها. ويدخل في العباد كل حيوان حتى الدجاجة والهرة. وعن الفضيل: أن العبد لو أحسن الإحسان كله، وكانت له دجاجة، فأساء إليها.. لم يكن من المحسنين.

وهذه الآية يندرج فيها أمور[1]:

الأول: صلة الرحم، واختلف في حدّ الرحم التي يجب صلتها، فقيل: كل ذي رحم محرم بحيث لو كان أحدهما ذكراً والآخر أنثى حرمت مناكحتهما، فعلى هذا لا يدخل أولاد الأعمام والعمات وأولاد الأخوال والخالات، وقيل: هو عام في كل ذي رحم محرماً كان أو غير محرم، وارثاً كان أو غير وارث، وهذا القول هو الصواب. قال النواوي: وهذا أصحّ، والمحرم من لا يحل له نكاحها على التأبيد لحرمتها، فقولنا: على التأبيد احتراز عن أخت الزوجة، وقولنا: لحرمتها احتراز عن الملاعنة، فإن تحريمها ليس لحرمتها، بل للتغليظ.

والثاني: الإيمان بكل الأنبياء عليهم السلام، فقولهم: نؤمن ببعض ونكفر ببعض قطعٌ لما أمر الله به أن يوصل.

والثالث: موالاة المؤمنين، فإنه يستحب استحباباً شديداً زيارة الإخوان والصالحين والجيران والأصدقاء والأقارب وإكرامهم وبرهم وصلتهم، وضبط ذلك يختلف باختلاف أحوالهم ومراتبهم وفراغهم، وينبغي للزائر أن تكون زيارته على وجه لا يكرهون، وفي وقت يرتضون، فإن رأى أخاه يحب زيارته ويأنس به أكثر زيارته والجلوس عنده، وإن رآه منشغلاً بعبادة أو غيرها، أو رآه يحب الخلوة يقل زيارته حتى لا يشغله عن عمله، وكذا عائد المريض لا يطيل الجلوس عنده إلا أن يأنس به المريض، ومن تمام المواصلة المصافحة عند الملاقاة كما مر آنفاً.

---

(١) روح البيان.

والرابع: مراعاة حقوق كافة الخلق حتى الهرة والدجاجة. والمعنى: أي: والذين[1] يصلون الرحم التي أمرهم الله تعالى بوصلها، فيعاملون الأقارب بالمودة والحسنى، ويحسنون إلى المحاويج وذوي الخلة منهم بإيصال الخير إليهم ودفع الأذى عنهم بقدر الاستطاعة، ويصلون المؤمنين بسبب قرابة الإيمان بالإحسان إليهم ونصرتهم والشفقة عليهم، وإفشاء السلام وعيادة المرضى، ومراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران، والرفقة في السفر إلى غير ذلك مما مر آنفاً. وأكثر المفسرين على أن المراد بالوصل هنا صلة الرحم.

واعلم[2]: أن قطع الرحم حرام، والصلة واجبة، ومعناها: التفقد بالزيارة والإهداء والإعانة بالقول والفعل، وعدم النسيان، وأقله التسليم وإرسال السلام والمكتوب، ولا توقيت فيها في الشرع، بل العبرة بالعرف والعادة كذا في «شرح الطريقة» وصلة الرحم سبب لزيادة الرزق. وزيادة العمر، وهي أسرع أثراً كعقوق الوالدين، فإن العاق لهما لا يمهل في الأغلب، ولا تنزل الملائكة على قوم فيهم قاطع رحم.

فصل في ذكر الأحاديث الواردة في صلة الرحم وقطيعتها

عن عبد الرحمٰن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تبارك وتعالى: «أنا الله وأنا الرحمٰن، خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»، أو قال: «بتته». أخرجه أبو داود والترمذي.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله». متفق عليه.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «من سره أن يبسط له في رزقه، وأن يُنْسَأ له في أثره، فليصل رحمه». أخرجه البخاري، صلة الرحم: ميرة الأهل والأقارب والإحسان إليهم، وضدُّه: القطع.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

قوله: «وأن يُنْسَأ له في أثره» الأثر هنا: الأجل، وسمي الأجل أثراً؛ لأنه تابع للحياة وسابقها، ومعنى ينسأ: يؤخر، والمراد به تأخير الأجل، وهو على وجهين:

أحدهما: أن يبارك الله له في عمره، فكأنما قد زاد فيه.

والثاني: أن يزيده في عمره زيادة حقيقية، والله يفعل ما يشاء.

وعن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع». متفق عليه. زاد في رواية: قال سفيان: يعني قاطع رحم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الواصل بالمكافىء، الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها». أخرجه البخاري.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، ومثراة في المال، ومنسأة في الأثر». أخرجه الترمذي.

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ أي: وعيده عموماً، والخشية[1]: خوف مقرون بالتعظيم والعلم بمن تخشاه، ومن ثم خص الله بها العلماء بدينه وشرائعه والعالمين بجلاله وجبروته في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾. **والمعنى**: إنهم يخشون ربهم خشيةً تحملهم على فعل المأمورات واجتناب المنهيات، ويخافونه خوف مهابة وإجلال. ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ﴾؛ أي: استقصاءه خصوصاً، فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا؛ أي: ويخافون مناقشة ربهم إياهم في الحساب وعدم الصفح لهم عن ذنوبهم، فهم لرهبتهم جادون في طاعته محافظون على اتباع أوامره وترك نواهيه، و﴿سُوٓءُ الْحِسَابِ﴾؛ أي: شديده: وهو الاستقصاء فيه والمناقشة للعبد، فمن نوقش الحساب عذب، ومن حق هذه الخيفة أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يُحاسبوا.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على ما تكرهه النفوس من أنواع المصائب ومخالفة الهوى من مشاق التكاليف؛ أي: والذين صبروا[2] على فعل العبادات وعلى ثقل

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

الأمراض والمضار والغموم وعلى ترك المشتهيات ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾؛ أي: طلباً لرضا ربهم من غير أن ينظروا إلى جانب الخلق رياء وسمعة، ولا إلى جانب النفس زينة وعجباً، فكما أن العاشق يرضى بضرب معشوقه لالتذاذه بالنظر إلى وجهه، فكذلك العبد يرضى بالمحنة لاستغراقه في معرفة الله تعالى ومحبته.

وإنما[1] قيد الصبر بقوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾؛ لأن الصبر ينقسم إلى نوعين:

الأول: الصبر المذموم؛ وهو أن الإنسان قد يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على ما تحمل من النوازل، وقد يصبر لئلا يعاب على الجزع، وقد يصبر لئلا تشمت به الأعداء، وكل هذه الأمور وإن كان ظاهرها الصبر، فليس ذلك داخلاً تحت قوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ لأنها لغير الله تعالى.

النوع الثاني: الصبر المحمود؛ وهو أن يكون الإنسان صابراً لله تعالى راضياً بما نزل به من الله طالباً في ذلك الصبر ثواب الله محتسباً أجره على الله، فهذا هو الصبر الداخل تحت قوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ يعني: صبروا على ما نزل بهم تعظيماً لله تعالى، وطلباً لرضوانه سبحانه، وجاءت[2] الصلة هنا بلفظ الماضي، وفي الموصولين قبل بلفظ المضارع في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ وما عطف عليهما على سبيل التفنن في الفصاحة، وقيل: إن اختصاص هذه الصلة بالماضي وتينك بالمضارع أن تينك الصلتين قصد بهما الاستصحاب والالتباس دائماً، وهذه الصلة قصد بها تقدمها على تينك الصلتين وما عطف عليهما؛ لأن حصول تلك الصلاة إنما هي مترتبة على حصول الصبر وتقدمه عليها، ولذلك لم تأت صلة الصبر في القرآن إلا بصيغة الماضي؛ إذ هو شرط في حصول التكاليف وإيقاعها والله أعلم.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة؛ أي: داوموا على إقامتها؛ أي: أدوها على ما رسمه الدين من خشوع القلب واجتناب الرياء والخشية لله تعالى مع تمام أركانها

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

وهيئاتها احتساباً لوجهه، وأفردها[1] بالذكر تنبيهاً على كونها أشرف من سائر العبادات، ولا يمتنع إدخال النوافل فيها ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؛ أي: وأنفقوا بعض ما زرقناهم ﴿سِرًّا﴾ فيما بينهم وبين ربهم لمن لم يعرف بالمال، أو لمن لا يتهم بترك الزكاة، أو عند إعطائه من تمنعه المروءة من أخذه ظاهراً أو في التطوع ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ بحيث يراهم الناس لغير ذلك سواء كان الإنفاق واجباً كالإنفاق على الزوجة والولد والأقارب والفقراء وفي الزكاة، أو مندوباً كالإنفاق على الفقراء والمحاويج من الأجانب.

وقال الحسن[2]: والمراد بهذا الإنفاق الزكاة المفروضة، فإن لم يتهم بترك أداء الزكاة، فالأولى أن يؤديها سراً، وإن كان متهماً بترك أداء الزكاة، فالأولى أن يؤديها علانية، وقيل: إن المراد بالسر: ما يخرج من الزكاة بنفسه، والمراد بالعلانية: ما يؤديه إلى الإمام، وقيل: المراد بالسر: صدقة التطوع، وبالعلانية: الزكاة الواجبة، وحَمْلُهُ على العموم أولى كما فسرنا ذلك آنفاً، وانتصابهما[3] على الحال؛ أي: ذوي سر وعلانية بمعنى مسرين ومعلنين، أو على الظرف؛ أي: وقتي سر وعلانية، أو على المصدر؛ أي: إنفاق سر وعلانية كما سيأتي في مبحث الإعراب إن شاء الله تعالى.

واعلم: أن الله تعالى أسند الإنفاق إليهم، وإعطاء الرزق إلى ذاته تعالى، تنبيهاً على أنهم أمناء الله فيما أعطاهم ووكلاؤه، والوكيل دخيل في التصرف لا أصيل، فينبغي له أن يلاحظ جانب الموكل لا جانب نفسه ولا جانب الخلق، وقد قالوا: من طمع في شكر أو ثناء فهو بياع لا جواد؛ لأنه اشترى المدح بماله، والمدح لذيذ مقصود في نفسه، والجود. هو بذل الشيء من غير غرض. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾؛ أي: يدفعون سيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه، كما في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أو يدفعون بالعمل الصالح العمل السيء، أو يدفعون الشر بالخير، أو المنكر بالمعروف، أو الظلم بالعفو، أو

---

(١) المراح.

(٢) الخازن.

(٣) روح البيان.

الذنب بالتوبة، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور.

قال عبد الله بن المبارك[1]: هذه ثمان خلال مشيرة إلى أبواب الجنة الثمانية.

قلت: إنما هي تسع خلال، فيحتمل أنه عد خلتين بواحدة. ولما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الخلال من أعمال البر.. ذكر بعدها ما أعد للعاملين بها من الثواب، فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين وصفناهم بتلك المحاسن والكمالات التي بلغت الغاية في الشرف والكمال هم الذين ﴿لَهُمْ﴾ ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾؛ أي: العقبى الحسنة والمرجع الحسن والمسكن الطيب في الدار الآخرة، وسميت الدار الآخرة عقبى؛ لأنها عاقبة الدنيا ومرجع أهلها. والعقبى: مصدر[2] كالعاقبة، والمراد بالدار الدنيا وعقباها الجنة، وقيل: المراد بالدار: الدار الآخرة وعقباها الجنة للمطيعين، والنار للعاصين.

ثم بين هذه العقبى، فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدل من ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾؛ أي: لهم جنات عدن، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: تلك العقبى هي جنات عدن وإقامة مؤبدة، والعدن: أصله الإقامة، ثم صار علماً لجنة من الجنان، ولكن المراد به هنا المعنى العام. وجملة قوله: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ صفة لـ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾؛ أي: تلك العقبى جنات عدن يدخلونها؛ أي: يدخل هؤلاء الموصوفون بالصفات السابقة تلك الجنات، ويخلدون فيها لا يخرجون منها بعد الدخول أبداً.

ثم ذكر ما يكون فيها من الأنس باجتماع الأهل والمحبين الصالحين، فقال: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ معطوف على الضمير المرفوع في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ وإنما ساغ للفصل بالضمير؛ أي: يدخل تلك الجنات هؤلاء الموصوفون بالصفات الحميدة، ويدخلها معهم من صلح وآمن معهم كما آمنوا ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾؛ أي: من أصولهم، وإن علوا ذكوراً كانوا أو إناثاً. قال في «بحر[3] العلوم» وآبائهم: جمع أبوي كل

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

واحد منهم، كأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم، والمعنى: أنه يلحق بهم الصلحاء من أبويهم ﴿و﴾ من ﴿أزواجهم﴾ اللاتي متن في عصمتهم ونكاحهم سواء متن قبلهم أم لا ﴿و﴾ من ﴿ذرياتهم﴾ وأولادهم وإن لم يبلغوا مبلغ فضلهم تبعاً لهم وتعظيماً لشأنهم، وتكميلاً لفرحهم؛ لأن الله تعالى جعل من ثواب المطيع سروره بحضور أهله معه في الجنة، وإن لم يعملوا مثل أعمالهم.

والمعنى: أي ويجمع فيها بينهم وبين أحبابهم من الآباء والأزواج والأبناء ممن عمل صالحاً لتقرَّ بهم أعينهم، ويزدادوا سروراً برؤيتهم حتى لقد ورد أنهم يتذاكرون أحوالهم في الدنيا، فيشكرون الله على الخلاص منها. وفي الآية إيماء[1] إلى أنه في ذلك اليوم لا تجدي الأنساب إن لم يسعفها العمل الصالح، فالآباء والأزواج والذرية لا يدخلون الجنة إلا بعملهم، وقد أشار إلى ذلك الكتاب الكريم: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

ثم ذكر ما لهم من الكرامة فيها بتسليم الملائكة عليهم، فقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ من أبواب المنازل التي يسكنونها في قدر[2] كل يوم وليلة ثلاث مرات بالهدايا وبشارات الرضا؛ أي: وتدخل عليهم الملائكة من ها هنا وهنا للتسليم عليهم والتهنئة بدخول الجنة والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والمرسلين. وجملة قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ محكية لقول محذوف تقديره: أي: قائلين لهم سلام عليكم؛ أي: أمان عليكم من المكاره والمخاوف التي تحيق بغيركم ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ متعلق بـ﴿عَلَيْكُم﴾، أو بمحذوف؛ أي: هذه الكرامة العظمى بسبب صبركم على الطاعات وترك المحرمات وعلى المحن والمتاعب والآلام التي لاقيتموها في دار الحياة الدنيا ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾؛ أي: نعم عاقبة الدار التي كنتم عملتم فيها هذه الكرامات التي ترونها، والمخصوص بالمدح الجنة؛ أي: فنعمت الجنة التي أعقبت وعوضت لكم عن الدار التي عملتم فيها هذه الأعمال الصالحة وهي دار الدنيا.

---

(١) المراغي.

(٢) النسفي.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿جَنَّتُ﴾ بالجمع، وقرأ النخعي شذوذاً: ﴿جنة﴾ بالإفراد، وروي عن ابن كثير وأبي عمرو ﴿يدخلونها﴾ مبنياً للمفعول وهي رواية شاذة. وقرأ ابن أبي عبلة شذوذاً: ﴿ومن صلح﴾ ـ بضم اللام ـ، وقرأ الجمهور بفتحها وهو أفصح. وقرأ عيسى الثقفي: ﴿وذريتهم﴾ بالتوحيد، والجمهور بالجمع. وقرأ ابن يعمر شاذاً: ﴿فنعم﴾ ـ بفتح النون وكسر العين ـ وهي الأصل. وقرأ ابن وثاب شاذاً: ﴿فَنعْمَ﴾ ـ بفتح النون وسكون العين ـ وتخفيف فعل لغة تميمية، والجمهور ﴿فَنِعْمَ﴾ ـ بكسر النون وسكون العين ـ وهي أكثر استعمالاً.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال السعداء وما أعد لهم من الكرامات والخيرات.. ذكر بعده أحوال الأشقياء وما لهم من العقوبات، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ خبره قوله الآتي: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾؛ أي: والكفار الذين يخلفون عهد الله سبحانه وتعالى ويتركون وفاء عهده المأخوذ عليهم بالطاعة والإيمان ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾؛ أي: من بعد توكيد ذلك العهد بالإقرار والقبول في عالم الذر، وهو العهد الذي جرى بينهم؛ إذا أخرجهم من ظهر آدم وعاهدهم على التوحيد والعبودية، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾.

ونقضه[2]: إما بأن لا ينظروا فيه، فلا يمكنهم العمل بموجبه، وإما بأن ينظروا فيه ويعلموا صحته، ثم هم بعد يعاندون فيه ولا يعملون بما علموه واعتقدوا صحته. وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾؛ أي: من بعد اعترافهم به وإقرارهم بصحته ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾؛ أي: ويتركون وصل ما أمر الله سبحانه بوصله من الإيمان به وبجميع أنبيائه الذين جاؤوا بالحق، فآمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، وقطعوا الرحم وموالاة المؤمنين، وكانوا حرباً على المؤمنين وعوناً للكافرين، ومنعوا المساعدات العامة التي توجب التآلف والمودة بين المؤمنين، كما جاء في الحديث: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»،

---

(١) البحر المحيط.　　　(٢) المراغي.

وجاء أيضاً: «المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو اشتكى باقي الأعضاء بالسهر والحمى».

ولم يتعرض هنا لنفي الخشية والخوف عنهم وما بعدهما من الأوصاف المتقدمة[1]؛ لدخولها في النقض والقطع ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بظلمهم لأنفسهم بعبادة غير الله تعالى، وبظلمهم لغيرهم بدعوتهم إلى الشرك وانتهاب أموالهم واغتصابها بلا حق، وتهييج الفتن بين المسلمين، وإثارة الحرب عليهم وإظهار العدوان لهم.

وفي الحديث[2]: «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها» وهي إيقاع الناس في الاضطراب والاختلال والاختلاف والمحنة والبلية بلا فائدة دينية، وذلك حرام؛ لأنه فساد في الأرض وإضرار للمسلمين وزيغ وإلحاد في الدين.

فمن الفتنة أن يغري الناس على البغي والخروج على السلطان، وذلك لا يجوز وإن كان ظالماً؛ لكونه فتنة وفساداً في الأرض، وكذا معاونة المظلومين إذا أرادوا الخروج عليه، وكذا المعاونة له لكونه إعانة على الظلم، وذلك لا يجوز.

ومنها: أن يقول للناس ما لا تصل عقولهم إليه، وفي الحديث: «أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم». ومنها أن يذكر للناس ما لا يعرفه بكنهه ولا يقدر على استخراجه، فيوقعهم في الاختلاف والاختلال، والفتنة والبلية، كما هو شأن بعض الوعاظ في زماننا.

ومنها: أن يحكم أو يفتي بقول مهجور أو ضعيف أو قوي يعلم أن الناس لا يعلمون به، بل ينكرونه أو يتركون بسببه طاعة أخرى كمن يقول لأهل القرى والبوادي والعجائز والعبيد والإماء: لا تجوز الصلاة بدون التجويد وهم لا يقدرون على التجويد، فيتركون الصلاة رأساً، وهي جائزة عند البعض، وإن كان ضعيفاً فالعمل به واجب.

وكمن يقول للناس: لا يجوز البيع والشراء والاستقراض بالدراهم والدنانير

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

إلا بالوزن؛ لأن رسول الله ﷺ نص عليها بالوزن، فهو وزني أبداً وإن ترك الناس فيه الوزن، فهذا القول قوي في نفسه، وهو قول الإمام أبي حنيفة ومحمد مطلقاً. وقول أبي يوسف في غير ظاهر الرواية وهي خروجها عن الوزنية بتعامل الناس إلى العددية، فهذه الرواية وإن كانت ضعيفة فالقول بها واجب ولازم فراراً من الفتنة، فيجب على القضاة والمفتين والوعاظ معرفة أحوال الناس وعاداتهم في القبول والرد والسعي والكسل ونحوها، فيكلمونهم بالأصلح والأوفق لهم حتى لا يكون كلامهم فتنة للناس، وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه يجب على الآمر والناهي معرفة أحوال الناس وعاداتهم وطبائعهم ومذاهبهم؛ لئلا يكون فتنة للناس وتهييجاً للشر، وسبباً لزيادة المنكر وإشاعة المكروه.

ثم حكم عليهم بما يستحقون بما دسوا به أنفسهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات الذميمة ﴿لَهُمُ﴾ بسبب تلك الصفات المذكورة ﴿ٱللَّعۡنَةُ﴾ في الآخرة؛ أي: الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى ورضوانه ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾؛ أي: الدار السيئة القبيحة، وهي جهنم دار البوار جزاء وفاقاً لما اجترحوه من السيئات وأتوا به من الشرور والآثام، فاللعنة وسوء العاقبة لاصقان بهم لا يعدوانهم إلى غيرهم، وفيه تنفير للمسلمين عن هذه الخصال الثلاث، وأن لا ترفع همتهم حول ذلك الحمى.

ولما كان[1] كثير من الأشقياء فتحت عليهم نعم الدنيا ولذاتها أخبر تعالى أنه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، والكفر والإيمان لا تعلق لهما بالرزق، فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى وحده هو الذي ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ ويوسعه في الدنيا ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ بسطه وتوسيعه عليه ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾؛ أي: يضيق الرزق على من يشاء من عباده، ويعطيه بقدر كفايته لا يفضل عنه شيء. كأنه قيل[2]: لو كان من نقض عهد الله ملعونين في الدنيا ومعذبين في الآخرة.. لِمَ فتح الله عليهم أبواب النعم واللذات في الدنيا. فقيل: إن فتح باب الرزق في الدنيا لا تعلق له بالكفر والإيمان، بل هو متعلق بمجرد مشيئة الله، فقد يضيق على المؤمن امتحاناً لصبره

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

وتكفيراً لذنوبه ورفعاً لدرجاته، ومن هذا القبيل ما وقع لأكثر الأصحاب ـ رضي الله عنهم ـ من المضايقة، ويوسع على الكافر استدراجاً، ومنه ما وقع لأكثر كفار قريش من التوسعة، ثم إن الله تعالى جعل الغنى لبعضهم صلاحاً، وجعل الفقر لبعضهم صلاحاً، وقد جعل في غنى بعضهم فساداً كالفقر، وفي الكل حكمة ومصلحة.

والمعنى: الله[1] سبحانه وتعالى يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ممن هو حاذق في جمع المال وله من الحيلة في الحصول على كسبه واستنباطه بشتى الوسائل ما يخفى على غيره، ولا علاقة لهذا بإيمان ولا كفر، ولا صلاح ومعصية، ويقدر على من يشاء ممن هو ضعيف الحيلة، وليس بالحُوَّل[2] القُلَّب في استنباط أسبابه ووسائله، وما الغنى والفقر إلا حالان يمران على البر والفاجر، كما يمر عليهما الليل والنهار والصباح والمساء.

ثم ذكر أن مشركي مكة بطروا بغناهم، فقال: ﴿وَفَرِحُواْ﴾؛ أي: وفرح الذين نقضوا العهد والميثاق من مشركي مكة وغيرهم ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: ببسط الرزق عليهم في الحياة الدنيا، وعدوه أكبر متاع لهم، وأعظم حظوة عند الناس. والفرح[3]: لذة في القلب لنيل المشتهى؛ أي: فرحوا بها فرح بطر وأشر، لا فرح شكر وسرور بفضل الله وأنعامه عليهم. وفيه دليل على أن الفرح بالدنيا حرام. قال في «شرح الحكم» عند قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ إنما لم يؤمر العبد برفض الفرح جملة؛ لأن ذلك من ضرورات البشر التي لا يمكن رفعها، بل ينبغي صرفها للوجه اللائق بها، وكذا جميع الأخلاق كالطمع والبخل والحرص والشهوة والغضب لا يمكن تبدلها، بل يصح أن تصرف إلى وجه لائق بها حتى لا تنصرف إلا فيه انتهى. وقيل: في هذه الآية تقديم

---

(١) المراغي.

(٢) قوله بالحول القلب: الحُوَّل بوزن سُكَّر، أي: بصير بتحويل الأمور وتدبيرها وتقليبها وهو حُوَّلٌ قُلَّب اهـ مختار.

(٣) روح البيان.

وتأخير، والتقدير: الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض، وفرحوا بالحياة الدنيا، فيكون ﴿فرحوا﴾ معطوفاً على ﴿يفسدون﴾. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: وما نعيم الحياة الدنيا الفاني ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: بالنسبة إلى نعيم الآخرة الباقي ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾؛ أي: إلا شيء قليل ونزر يسير سريع الزوال يتمتع به قليلاً، فهو كزاد الراعي يتزود بها إلى الآخرة، وعجالة الراكب؛ وهي ما يتعجل به من تميرات أو شربة سويق أو نحو ذلك، فلا حق لهم في البطر والأشر بما أوتوا من حظوظها، وانتفعوا به من خيراتها، فهم قد اعتزوا بالقليل السريع الزوال. و﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ ليست[1] ظرفاً لـ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾ ولا لـ﴿ٱلدُّنْيَا﴾؛ لأنهما لا يقعان فيها، بل هي حال، والتقدير: وما الحياة القريبة إلى الزوال حالة كونها كائنة في جنب حياة الآخرة؛ أي: بالقياس والنسبة إليها إلا متاع، فـ﴿في﴾: للمقايسة، وهي الداخلة بين مفضول سابق وفاضل لاحق.

وأخرج الترمذي عن المستورد قال[2]: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم يرجع»، وأشار بالسبابة.

وأخرج الترمذي عن ابن مسعود وصححه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك، فقال: «ما لي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

قال في «الحكم العطائية»[3]: إن أردت أن لا تعزل، فلا تتول ولايةً لا تدوم لك، وكل ولايات الدنيا كذلك، وإن لم تعزل عنها بالحياة عزلت عنها بالممات، قال: وقد جعل الله الدنيا محلاً للأغيار ومعدناً لوجود الأكدار تزهيداً لك فيها حتى لا يمكنك استناد إليها ولا تعريج عليها. وقد قيل: إن الله تعالى

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

أوحى إلى الدنيا: تضيقي وتشدّدي على أوليائي، وترفّهي وتوسّعي على أعدائي، تضيَّقي على أوليائي حتى لا يشتغلوا بك عني، وتوسّعي على أعدائي حتى يشتغلوا بك عني، فلا يتفرَّغوا لذكري انتهى.

فغاية[1] متاع الدنيا أنها مثل القصعة والقدح والقدر ينتفع بها، ثم تذهب، والعاقل لا يفرح بما يفارقه عن قريب ويورثه حزناً طويلاً، وإن حدثته نفسه بالفرح به يكذبها. قال الشاعر:

وَمَـنْ سَـرَّهُ أَنْ لاَ يَـرَىٰ مَـا يَـسُـوْؤُهُ فَـلاَ يَـتَّـخِـذْ شَـيْـئَـاً يَـخَـافُ لَـهُ فَـقْـدَا

ولما أبان سبحانه وتعالى أنهم قد انخدعوا بالسراب واكتفوا بالحباب - نفاخات الماء التي تعلوه -. ذكر ما ترتب على ذلك الغرور من اقتراحهم على رسوله ﷺ الآيات، فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: ثبتوا واستمروا على كفرهم وعنادهم من أهل مكة وغيرهم ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: هلا أنزل على محمد ﷺ ﴿ءَايَةٌ﴾؛ أي: علامة عظيمة ومعجزة باهرة كائنة ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾؛ أي: من رب محمد ﷺ مثل آيات موسى وعيسى عليهما السلام من العصا وإحياء الموتى ونحوهما؛ لتكون دليلاً وعلامة على صدقه.

والمعنى[2]: أي ويقول الذي كفروا من أهل مكة هلاَّ أنزل على محمد آية كما أرسل على الأنبياء والرسل السابقين، كسقوط السماء عليهم كسفاً، أو تحويل الصفا ذهباً، أو إزاحة الجبال من حول مكة حتى يصير مكانها مروجاً وبساتين إلى نحو أولئك من الاقتراحات التي حكاها القرآن عنهم كقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ وكأنهم لفرط عنادهم وعظيم مكابرتهم قد ادعو أن ما أتى به من باهر الآيات كالقرآن وغيره ليس عندهم من الآيات التي توجب الإذعان والإيمان، أو التي لا تقبل شكاً ولا جدلاً، ثم أمر رسوله أن يبين لهم أن إنزال الآيات لا دخل له في هداية ولا ضلال، بل الأمر كله بيده، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفرة المعاندين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

إضلاله باقتراح الآيات تعنتاً بعد تبين الحق وظهور المعجزات، فلا تغني عنه كثرة المعجزات شيئاً إذا لم يهده الله تعالى ﴿وَيَهْدِىٓ﴾ سبحانه تعالى ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: من أقبل إلى الحق ورجع عن العناد، فضمير ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى الحق أو إلى الإسلام، أو إلى جنابه تعالى ﴿مَنْ أَنَابَ﴾؛ أي: من أقبل إلى الحق ورجع عن العناد: فضمير ﴿إِلَيْهِ﴾ راجع إلى الحق، أو من[1] رجع إلى الله التوبة والإقلاع عما كان عليه. وأصل الإنابة: الدخول في نوبة الخير.

والمعنى[2]: أي إنه لا فائدة لكم في نزول الآيات إن لم يرد الله تعالى هدايتكم، فلا تشغلوا أنفسكم بها، ولكن تضرعوا إليه واطلبوا منه الهداية، فإن الضلال والهداية بيده، وإليه مقاليدها، وادعوه أن يهيىء لكم من أمره رشداً، وأن يمهد لكم وسائل النجاة والسعادة، ويدفع عنكم نزعات الشيطان ووساوسه؛ لتظفروا بالحسنى في الدارين.

والخلاصة: أن في القرآن وحده غنى عن كل آية، فلو أراد الله هدايتكم لصرف اختياركم إلى تحصيل أسبابها، وكان لكم فيه مرشداً أيما مرشد، ولكن الله جعلكم سادرين في الضلالة لا تلوون على شيء، ولا ينفعكم إرشاد ولا نصح؛ لسوء استعدادكم وكثرة لجاجكم وعنادكم، ومن كانت هذه حاله فأنى له أن يهتدي ولو جاءته كل آية كما قال: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

أما[3] من أقبلوا إلى الله وتأملوا في دلائله الواضحة، وسلكوا طرقه المعبدة، فالله ينير بصائرهم ويشرح صدورهم، وهم لا بد واصلون إلى الفوز

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

بالحسنى، وحاصلون على السعادة في الدنيا والآخرة، وهم من أشار إليهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ محله النصب على البدلية من قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم الذين آمنوا بالله وبرسوله وبكل ما جاء به ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾؛ أي: تسكن قلوبهم وتستأنس ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: هم الذين آمنوا بالله وبرسوله، واطمأنت واستأنست قلوبهم بذكر الله سبحانه بألسنتهم كتلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والتكبير والتوحيد، أو بسماع ذلك من غيرهم؛ أي: إذا سمعوا ذكر الله أحبوه واستأنسوا به، فالمؤمنون يستأنسون بالقرآن وذكر الله الذي هو الاسم الأعظم ويحبون استماعها، والكفار يفرحون بالدنيا، ويستبشرون بذكر غير الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقيل[1]: المراد بالذكر هنا الطاعة، وقيل: بوعد الله، وقيل: بذكر رحمته، وقيل: بذكر دلائله الدالة على توحيده. ﴿أَلَا﴾؛ أي: انتبهوا من غفلتكم واعلموا أنه ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿تَطْمَئِنُّ﴾. وتستأنس ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾؛ أي: قلوب المؤمنين ويستقر اليقين فيها؛ أي: ألا بذكر الله وحده لا بغيره تطمئن قلوب المؤمنين، ويزول القلق والاضطراب من خشيته بما يفيضه عليها من نور الإيمان الذي يذهب الهلع والوحشة، وهي بمعنى قوله في الآية الأخرى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

فإن قلت[2]: أليس قد قال الله تبارك وتعالى في أول سورة الأنفال ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ والوجل استشعار الخوف وحصول الاضطراب، وهو ضد الطمأنينة، فكيف وصفهم بالوجل والطمأنينة، وهل يمكن الجمع بينهما في حال واحدة؟

قلت: إنما يكون الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب، والطمأنينة إنما تكون عند ذكر الوعد والثواب، فالقلوب توجل إذا ذكرت عدل الله وشدة حسابه

---

(١) الشوكاني.	(٢) الخازن.

وعقابه، وتطمئن إذا ذكرت فضل الله ورحمته وكرمه وإحسانه؛ أي: فالمؤمنون[1] إذا ذكروا عقاب الله، ولم يأمنوا من وقوعهم في المعاصي وجلت قلوبهم، كما قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وإذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت نفوسهم واطمأنت إلى ذلك الوعد، وزال منها القلق والوحشة كما قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾. وفي الآية إيماء إلى أن الكفار أفئدتهم هواء؛ إذ لم تسكن نفوسهم إلى ذكره، بل سكنت إلى الدنيا وركنت إلى لذاتها، ثم بين سبحانه جزاء المطمئنين وثوابهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الذين جمعوا بين الإيمان بالقلب والعمل الصالح بالجوارح، وهو مبتدأ خبره ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: لهم عند ربهم في الآخرة حالة طيبة وعيشة طيبة ومثوبة حسنى وفرح وسرور، وقيل: طوبى: شجرة في الجنة، وقيل: هي الجنة. ﴿و﴾ لهم ﴿حسن مآب﴾؛ أي: ولهم عند ربهم مآب حسن ومرجع حسن ومنقلب طيب ينقلبون ويرجعون إليه في الآخرة وهو الجنة.

وفي هذا من الترغيب في طاعته والتحذير من معصيته ومن شديد عقابه ما لا خفاء فيه.

وخلاصة ذلك: أن أهل الجنة منعمون بكل ما يشتهون كما جاء في الحديث: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». وقرأ بكرة الأعرابي شذوذاً[2]: ﴿طِيبى﴾ ـ بكسر الطاء ـ لتسلم الياء من القلب، وإن كان وزنها فعلى كما كسروا في بيض لتسلم الياء، وإن كان وزنه فعلاً كحمر. وقرىء شذوذاً: ﴿وحُسنَ مآبُ﴾ ـ بفتح النون ورفع مآب ـ فـ﴿حسن﴾: فعل ماضٍ أصله، وحسن نقلت ضمة سينه إلى الحاء، وهذا جائز في فعل إذا كان للمدح، أو الذم، كما قالوا: حسن ذا أدباً. وقرأ الجمهور: ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ بالرفع على أنه معطوف على ﴿طُوبَىٰ﴾. وقرأ عيسى الثقفي بالنصب، وخرَّج ذلك ثعلب على أنه معطوف على ﴿طُوبَىٰ﴾ وأنها في موضع نصب على المصدرية كسَقْياً

---

(1) المراغي.

(2) البحر المحيط.

لك، وحسن مآب معطوف عليها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل إرسالنا الرسل إلى أممهم قبلك وإعطائنا إياهم كتباً تتلى عليهم ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ وبعثناك يا محمد ﴿فِىٓ أُمَّةٍ﴾؛ أي: إلى جماعة كثيرة. فـ﴿فِىٓ﴾[1] هنا بمعنى: إلى، كما في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾. وفي «بحر العلوم» وإنما عدى الإرسال بـ﴿فِىٓ﴾ وحقه أن يعدى بإلى؛ لأن الأمة موضع الإرسال؛ أي: أرسلناك إلى أمة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت وتقدمت ﴿مِن قَبْلِهَآ﴾؛ أي: من قبل هذه الأمة التي أرسلناك إليها، فالضمير عائد على أمة باعتبار لفظها ﴿أُمَمٌ﴾؛ أي: قد مضت من قبل هذه الأمة أمم كثيرة وقرون عديدة قد أرسلنا إليهم رسلنا من قبلك، فليس ببدع إرسالك إلى أمتك، فكيف ينكرون رسالتك. ثم علل الإرسال، فقال: ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ﴾؛ أي: على أمتك، فالضمير راجع إلى ﴿أُمَّةٍ﴾ باعتبار معناها، ولو عاد إلى لفظها، لقال: لتتلو عليها؛ أي: أرسلناك إليهم لكي تقرأ على تلك الأمة الكتاب العظيم ﴿ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن وما فيه من شرائع الإسلام وتزينهم بحلية الإيمان، فإن المقصود[2] من نزول القرآن هو العمل بما فيه، وتحصيل السيرة الحسنة لا التلاوة المحضة والاستماع المجرد، فالعامي المتعبد راجل سالك، والعالم المتهاون راكب نائم. وجملة قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ حال من ﴿أُمَّةٍ﴾؛ أي: أرسلناك إلى أمة قد خلت من قبلها أمم، والحال أنهم؛ أي: أن أمتك يكفرون وينكرون بالله الواسع الرحمة، ولا يعرفون قدر رحمته وإنعامه عليهم بإرسالك وإنزال الكتاب العظيم عليهم، والضمير في ﴿وَهُمْ﴾ عائد على ﴿أُمَّةٍ﴾ من حيث المعنى، ولو عاد على لفظها لكان التركيب: وهي تكفر بالرحمٰن. اهـ. «سمين».

والمعنى: أي كما[3] أرسلنا إلى الأمم الماضية رسلاً فكذبوهم، كذلك أرسلناك في هذه الأمة لتبليغهم رسالة الله إليهم، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم.

وخلاصة ذلك: أننا كما أرسلنا إلى أمم من قبلك، وأعطيناهم كتباً تتلى عليهم أرسلناك وأعطيناك هذا الكتاب لتتلوه عليهم، فلماذا يقترحون غيره ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: والحال أنهم كفروا بمن أحاطت بهم نعمه ووسعت كل شيء رحمته، ولم يشكروا نعمه وفضله عليهم، ولا سيما إحسانه إليهم بإرسالك وإنزال القرآن عليك، وهو الكفيل بمصالح الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

وكفرهم به أنهم جحدوه بتاتاً، أو أثبتوا له الشركاء. وروي أنَّ أبا جهل سمع النبي ﷺ وهو في الحجر يدعو ويقول: «يا الله يا رحمن»، فرجع إلى المشركين، وقال: إن محمداً يدعو إلٰهين يدعو الله، ويدعو آخر يسمى الرحمٰن، ولا نعرف الرحمٰن إلا رحمٰن اليمامة يعني به: مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة، وهي بلدة في البادية، فنزلت هذه الآية. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هُوَ﴾؛ أي: الرحمٰن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته ﴿رَبِّي﴾؛ أي: خالقي ومتولي أموري. وقوله: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر بعد خبر؛ أي: هو جامع لهذين الوصفين من الربوبية والألوهية، فلا مستحق للعبادة سواه. ومعنى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هو الواحد المختص بالإلٰهية، فلا يستحق العبادة له والإيمان به سواه.

والمعنى: قل لهم يا محمد إن الرحمٰن الذي كفرتم به هو خالقي ومتولي أمري ومبلغي مراتب الكمال، لا رب غيره ولا معبود سواه، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وعن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب في الكتاب: بسم الله الرحمٰن الرحيم، فقالت قريش: أما الرحمٰن فلا نعرفه، وكان أهل الجاهلية يكتبون: باسمك اللهم، فقال أصحابه: دعنا نقاتلهم، قال: «لا اكتبوا كما يريدون». ا هـ.

﴿عَلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى لا على غيره ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ واعتمدت في جميع أموري، وإليه أسندت أمري في العصمة من شركم والنصرة عليكم ﴿وَإِلَيْهِ﴾ تعالى

لا إلى غيره ﴿مَتَابِ﴾؛ أي: توبتي، وهو مصدر ميمي لتاب يتوب، وأصله[1] متابي بالإضافة إلى ياء المتكلم، ولكنها حذفت اجتزاء عنها بالكسرة؛ أي: مرجعي ومرجعكم فيرحمني وينتقم لي منكم، والانتقام من الرحمٰن أشد، ولذا قيل: نعوذ بالله من غضب الحليم.

وفي هذا[2]: بيان لفضل التوبة ومقدار عظمها عند الله، وبعث للكفار على الرجوع عما هم عليه بأبلغ وجهٍ وألطف سبيل؛ إذا أمر بها عليه السلام وهو منزه عن اقتراف الذنوب، فتوبتهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصي أحق وأجدر.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾؛ أي: ولو ثبت أن كتاباً من الكتب السماوية ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾؛ أي: نقلت بتلاوته عن أماكنها، وأذهبت عن وجه الأرض بقرائته عليها، كما فعل ذلك بالطور لموسى عليه السلام ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: أو شقت الأرض بتلاوته عليها، وجعلت أنهاراً وعيوناً، كما فعل بالحجر حين ضربه موسى بعصاه ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: أو كلم أحد به الموتى في قبورهم بأن أحياهم بقرائته عليهم، فتكلم معهم كما وقع لعيسى عليه السلام، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره: لو ثبت أمر من هذه الأمور الثلاثة لكتاب من الكتب السماوية لثبت لهذا الكتاب العظيم، ولهذا القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لما انطوى عليه من الآيات الكونية الدالة على بديع صنع الله في الأنفس والآفاق، ولما اشتمل عليه من الحكم والأحكام التي فيها صلاح البشر وسعادتهم في الدار الفانية والدار الباقية، واشتمل عليه من قوانين العمران التي تكون خيراً لمتبعيها وفوزاً لسالكيها، ويجعل منهم خير أمة أخرجت للناس.

أو التقدير: لو ثبت أمر من هذه الأمور الثلاثة لكتاب من الكتب السماوية.. لكان هو هذا القرآن لكونه ينطوي على عجائب آثار قدرة الله تعالى،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

ولكن لم يفعل، بل فعل ما عليه الشأن الآن وهذا بمعنى قوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

خلاصة ذلك[1]: لو أن ظهور أمثال ما اقترحوه مما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة؛ لكان مظهر ذلك هو القرآن الذي لم يعدوه آية، واقترحوا غيره. ولا يخفى ما في هذا من تعظيم شأنه الكريم، ووصفهم بسخف العقل وسوء التدبير والرأي، وبيان أن تلك المقترحات لا ينبغي أن يؤبه لها ولا يلتفت إليها؛ لأنها صادرة عن التشهي والهوى والتمادي في الضلال، والمكابرة والعناد، لا عن تقدير للأمور على وجهها الصحيح، وتأمل في حقائقها، وما يجب أن يكون لها من الاعتبار.

ويجوز أن يكون المعنى: لو أن كتاباً فعلت بوساطته هذه الأفاعيل العجيبة.. لما آمنوا به لفرط عنادهم وعلوهم في مكابرتهم، وهذا بمعنى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

﴿بَل لِّلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ الذي يدور[2] عليه فلك الأكوان ﴿جَمِيعًا﴾ وجوداً وعدماً إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، فله التصرف في كل شيء، وله القدرة على ما أراد، وهو قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك؛ لعلمه بأنه لا تنفعهم الآيات، وأن قلوبهم لا تلين بذلك، ولا يجدي هذا فائدة في إيمانهم.

والمعنى: بل مرجع الأمور كلها بيد الله تعالى ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن، ومن يضلل فلا هادي له، ومن يهد فما له من مضل. وهذه الجملة إضراب[3] عن ما تضمنته لو من معنى النفي؛ أي: بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك، لعلمه بأنه لا تلين له

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

(٣) البيضاوي.

شكيمتهم، ويؤيد ذلك قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾ والهمزة فيه داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، و﴿يَاْيْئَسِ﴾ هنا بمعنى يعلم و﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، والتقدير: أغفل الذين آمنوا كون الأمر جميعاً لله تعالى، فلم يعلموا أن الشأن والحال لو شاء الله سبحانه وتعالى هداية الناس أجمعين لهداهم جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات التي اقترحوها، فإنه ليس ثمة حجة ولا معجزة أنجع في العقول من هذا القرآن الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، ولكنه لم يشأ هداية جميع الناس. وقيل[1]: إن الإياس على معناه الحقيقي؛ أي: أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم؛ لأن المؤمنين تمنوا نزول الآيات التي اقترحها الكفار طمعاً في إيمانهم.

وحاصله: أن في معنى الآية قولين:

أحدهما: أن يئس بمعنى علم.

والقول الثاني: أنه من اليأس المعروف، وتقدير القولين ما تقدم. ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالرحمٰن وهم كفار مكة ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾؛ أي: بسبب ما صنعوا وفعلوا من كفرهم وأفعالهم الخبيثة ﴿قَارِعَةٌ﴾؛ أي: داهية ومصيبة تقرعهم وتفجأهم، وتفزعهم من القتل والأسر والحرب والجدب. وأصل القرع: الضرب والصدع.

وتلخيصه[2]: ولا يزال كفار مكة معذبين بقارعة من البلايا والرزايا ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ القارعة؛ أي: تنزل ﴿قَرِيبًا﴾؛ أي: مكاناً قريباً ﴿مِّن دَارِهِمْ﴾ مكة فيفزعون فيها، ويقلعون ويتطاير عليهم شرارها ويتعدى إليهم شرورها، ويجوز أن يكون ﴿تَحُلُّ﴾ خطاباً للنبي ﷺ، فإنه حل بجيشه قريباً من دارهم حيث حاصر أهل الطائف، وحيث حل بالحديبية في عامها. وقيل: هذا وعيد للكفار على العموم، لا خصوص أهل مكة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: حتى ينجز الله سبحانه وتعالى وعده الذي وعدك فيهم بظهورك عليهم وفتحك أرضهم وقهرك إياهم بالسيف

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾؛ أي: لا يترك وفاء الوعد الذي وعده لعباده؛ لامتناع الخلف في حقه تعالى؛ لكونه نقصاً منافياً للألوهية، وكمال الشيء، فما جرى به وعده فهو كائن لا محالة؛ أي: إن الله تعالى منجزك ما وعدك من النصر عليهم؛ لأنه لا يخلف وعده كما قال: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾. والميعاد[1]: بمعنى الوعد كالميلاد والميثاق بمعنى الولادة والتوثقة، والوعد عبارة عن الإخبار بإيصال المنفعة قبل وقوعها.

وقرأ علي وابن عباس قال الزمخشري[2]، وجماعة من الصحابة والتابعين، وقال غيره: وعكرمة وابن أبي مليكة والجحدري وعلي بن الحسين وابنه زيد وأبو زيد المزني وعلي بن نديمة وعبد الله بن يزيد: ﴿أفلم يتبين﴾ من بينت كذا إذا عرفته وهه قراءة شاذة وليست متواترة، وتدل هذه القراءة الشاذة على أن معنى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾ هنا معنى العلم، كما تظافرت النقول أنها لغة لبعض العرب، وهذه القراءة ليست قراءة تفسير لقوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾ كما يدل عليه ظاهر كلام الزمخشري، بل هي قراءة مسندة إلى الرسول ﷺ. وقرأ مجاهد وابن جبير: ﴿أو يحل﴾ بالياء على الغيبة وهي قراءة شاذة أيضاً، واحتمل أن يكون عائداً على معنى القارعة، وهو أوضح، راعى فيه التذكير؛ لأنها بمعنى البلاء أو العذاب، أو تكون الهاء في ﴿قَارِعَةٌ﴾ للمبالغة فهو بمعنى قارع، واحتمل أن يكون عائداً على الرسول ﷺ؛ أي: أو يحل الرسول قريباً. وقرىء شذوذاً أيضاً: ﴿من ديارهم﴾ بالجمع وهي واضحة.

الإعراب

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع ما عطف عليه: مبتدأ أول، خبره جملة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، أو بدل من ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أو نعت له، وجملة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾: مستأنفة. ﴿يُوفُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

الموصول. ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُوفُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول معطوف على الموصول الأول. ﴿يَصِلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿مَآ﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿أَمَرَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦٓ﴾: متعلق به، ومفعوله محذوف تقديره: ما أمرهم الله به. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يُوصَلَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَآ﴾، والجملة في تأويل مصدر مجرور على كونه بدلاً من ضمير به، والتقدير: والذين يصلون ما أمر الله بوصله. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يَصِلُونَ﴾. ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يَصِلُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على الموصول الأول. ﴿صَبَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾: يجوز أن يكون مفعولاً له، وهو الظاهر، وأن يكون حالاً؛ أي: مبتغين، والمصدر مضاف لمفعوله. ا هـ. «سمين». ولكن الكلام على حذف مضاف؛ أي: ابتغاء ثوابه ورضاه. ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿صَبَرُوا۟﴾. ﴿وَأَنفَقُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿صَبَرُوا۟﴾. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أنفقوا﴾. ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: إياه، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف الذي قدرناه آنفاً. ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: حالان من فاعل ﴿وَأَنفَقُوا۟﴾، ولكنه على تأويله بالمشتق تقديره: وأنفقوا حالة كونهم مسرين ومعلنين، أو على المصدرية؛ أي: إنفاق سر وعلانية، أو على الظرفية؛ أي: وقتي سر وعلانية. ذكره في «روح البيان» كما تقدم. ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾: فعل وفاعل

معطوف على ﴿صَبَرُواْ﴾. ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾: متعلق به. ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾: مفعول به. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثان. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لما بعده. ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾: مبتدأ ثالث ومضاف إليه، والجملة من المبتدأ الثالث وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره مستأنفة.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي جنات عدن، والجملة في محل الرفع بدل من ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، أو عطف بيان منه. ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾: فعل وفاعل، ومفعول، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿جَنَّٰتُ﴾، ولكنها سببية. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ للمعية ﴿من﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على المرفوع في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾، وإنما ساغ العطف بلا توكيد، لوجود الفصل بالضمير المنصوب. ﴿صَلَحَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿صَلَحَ﴾. ﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾: معطوفان على ﴿ءَابَآئِهِمْ﴾. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: مبتدأ. ﴿يَدْخُلُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به، وكذا قوله: ﴿مِّن كُلِّ بَابٍ﴾: يتعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، أو الجملة الاسمية مستأنفة.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿سَلَٰمٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة قصد الدعاء. ﴿عَلَيْكُم﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لقول محذوف حال من فاعل ﴿يَدْخُلُونَ﴾، والتقدير: والملائكة يدخلون عليهم من كل باب حالة كونهم قائلين: سلام عليكم. ﴿بِمَا﴾: (الباء): حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية: ﴿صَبَرْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بسبب صبركم في الدنيا على مشاق

التكاليف، الجار والمجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر. ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿نعم﴾: فعل ماضٍ لإنشاء المدح. ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾: فاعل ومضاف إليه، وجملة ﴿نعم﴾: في محل الرفع خبر مقدم لمبتدأ محذوف هو مخصوص بالمدح تقديره: جنات عدن، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ على كونها مقولاً لقول محذوف.

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر مبتدأ أول. ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَنقُضُونَ﴾. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يَنقُضُونَ﴾. ﴿أَمَرَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿أَن يُوصَلَ﴾: ناصب وفعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، والجملة في تأويل مصدر مجرور على كونه بدلاً من الضمير المجرور. ﴿وَيُفْسِدُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَنقُضُونَ﴾. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق به. ﴿أُولَئِكَ﴾: مبتدأ ثان. ﴿لَهُمُ﴾: خبر مقدم لما بعده. ﴿اللَّعْنَةُ﴾: مبتدأ ثالث، والجملة من المبتدأ الثالث في محل الرفع خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، وجملة الأول معطوفة على جملة قوله: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾: مبتدأ وخبر معطوف على جملة قوله: ﴿لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)﴾.

﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَبْسُطُ﴾. ﴿يَشَاءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره:

لمن يشاء البسط له. ﴿وَيَقْدِرُ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يَبْسُطُ﴾. ﴿وَفَرِحُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ﴾: متعلق به. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿الحياة﴾. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾. ﴿فِى﴾: حرف جر ومقايسة بمعنى الباء. ﴿ٱلْأَخِرَةِ﴾: مجرور بها، الجار والمجرور متعلق بمحذوف حال من المضاف المحذوف الواقع مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿مَتَٰعٌ﴾: خبر المبتدأ، والتقدير: وما نعيم الحياة الدنيا حالة كونه مقاساً بنعيم الآخرة إلا متاع.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَوْلَآ﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿ءَايَةٌ﴾: نائب فاعل. ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿ءَايَةٌ﴾؛ أي: آية كائنة من ربه، والجملة من الفعل المغير ونائب فاعله في محل النصب مقول لـ﴿يقول﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يُضِلُّ مَن﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من يشاء إضلاله. ﴿وَيَهْدِىٓ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يُضِلُّ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يهدى﴾. ﴿أَنَابَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة صلة الموصول.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ بدل كل من كل، أو عطف بيان منه. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تطمئن﴾. ﴿أَلَا﴾: حرف تنبيه. ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بما بعده. ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿طُوبَىٰ﴾: مبتدأ ثان، وجاز الابتداء به: إما لأنه علم لشيء بعينه، وإما لأنها نكرة في معنى الدعاء، كسلام عليك، وويل له. اهـ. «سمين». ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر للمبتدأ الثاني. ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾: معطوف على ﴿طُوبَىٰ﴾، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول مستأنفة.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿فِىٓ أُمَّةٍ﴾: جار ومجرور متعلق به، والتقدير: أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم إرسالاً مثل إرسالنا الرسل السالفة إلى أممهم، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿خَلَتْ﴾: فعل ماضٍ. ﴿مِن قَبْلِهَآ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿أُمَمٌ﴾: فاعل ﴿خَلَتْ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ﴿أُمَّةٍ﴾، ولكنها صفة سببية. ﴿لِّتَتْلُوَاْ﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿تتلو﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وعلامة نصبه فتحة ظاهرة؛ لأنه فعل معتل الواو، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تتلو﴾، وجملة ﴿تتلو﴾: صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لتلاوتك عليهم الذي أوحينا إليك، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أرسلنا﴾.

﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَيۡكَ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: الذي أوحينا إليك. ﴿وَهُمۡ﴾: (الواو): حالية أو استئنافية. ﴿هم﴾: مبتدأ. ﴿يَكۡفُرُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿أُمَّةٖ﴾، أو من الضمير في ﴿عَلَيۡهِمُ﴾.

﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿هُوَ رَبِّي﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هُوَ رَبِّي﴾: مبتدأ وخبر أول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسم ﴿لَآ﴾، وخبر ﴿لَآ﴾ محذوف جوازاً تقديره: موجود. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ولفظ الجلالة بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَآ﴾، وجملة ﴿لَآ﴾ في محل الرفع خبر ثان للمبتدأ. ﴿عَلَيۡهِ﴾: جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ثالث للمبتدأ، أو مستأنفة. ﴿وَإِلَيۡهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَتَابِ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة مناسبة لياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾.

﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾.

﴿وَلَوۡ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿قُرۡءَانٗا﴾: اسمها. ﴿سُيِّرَتۡ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿بِهِ﴾: متعلق به. ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾. ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿بِهِ﴾: متعلق به. ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾: نائب فاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿سُيِّرَتۡ﴾. ﴿أَوۡ كُلِّمَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿بِهِ﴾: متعلق به. ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾: نائب فاعل والجملة معطوفة على

جملة ﴿سُيِّرَتْ﴾. وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على كونه فاعلاً لفعل محذوف بعد ﴿لَوْ﴾ الشرطية، والجملة المحذوفة مع فاعلها المنسبك من ﴿أَنَّ﴾: فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾، وجوابها محذوف تقديره: لو ثبت تسيير الجبال بكتاب من الكتب السماوية، أو تقطيع الأرض به، أو تكليم الموتى به.. لثبت كونه هذا القرآن، أو لما آمنوا به، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿بَل﴾: حرف إضراب. ﴿لِلَّهِ﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلْأَمْرُ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿جَمِيعًاۗ﴾: حال من ﴿ٱلْأَمْرُ﴾، أو من الضمير المستكن في الخبر، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿أَفَلَمْ﴾: (الهمزة): للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والتقدير أغفلوا عن كون الأمر لله جميعاً، فلن يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿ءَامَنُوٓا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوفاً؛ أي: أنه ﴿لَّوْ﴾ حرف شرط. ﴿يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل فعل شرط لـ﴿لَّوْ﴾. ﴿لَهَدَى﴾: اللام: رابطة لجواب ﴿لَّوْ﴾ ﴿هدى الناس﴾: فعل ومفعول. ﴿جَمِيعًاۗ﴾: حال من الناس وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لَّوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَّوْ﴾ الشرطية: في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾: المخففة: وجملة ﴿أَن﴾ المخففة في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ييئس؛ لأنه بمعنى علم، والتقدير: أفلم يعلم الذين آمنوا هداية الله الناس جميعاً لو شاء هدايتهم، ولكنه لم يشأ هدايتهم جميعاً لحكمة اقتضت ذلك.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿تُصِيبُهُم﴾: فعل ومفعول. ﴿بِمَا﴾: (الباء): حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿صَنَعُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ(الباء) تقديره: تصيبهم بسبب صنعتهم القبيحة، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تصيب﴾. ﴿قَارِعَةٌ﴾: فاعل ﴿تصيب﴾، وجملة

﴿تُصِيبُهُم﴾: في محل النصب خبر (زال)، وجملة زال مستأنفة. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتقسيم. ﴿تَحُلُّ﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود على ﴿قَارِعَةٌ﴾، أو على محمد ﷺ، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿تصيب﴾ على كونها خبر (زال). وفي «حاشية الصاوي على الجلالين» قوله: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا﴾: معطوف على ﴿قَارِعَةٌ﴾، والمعنى: تصيبهم بما صنعوا قارعة، أو حلولك قريباً من دارهم، والعطف يقتضي المغايرة، فالمراد بالقارعة غير حلوله، وإن كان من أعظم القوارع انتهى. ﴿قَرِيبًا﴾: منصوب على الظرفية المكانية متعلق بـ﴿تَحُلُّ﴾؛ لأنه صفة لمكان محذوف. ﴿مِّن دَارِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿قَرِيبًا﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾، بمعنى: إلى تقديره إلى إتيان وعد الله، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تُصِيبُهُم﴾، أو بـ﴿تَحُلُّ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ والفرق بين العهد والميثاق أن العهد[1]: جميع ما عهد الله عليهم من أوامره ونواهيه التي وصى بها عبيده على ألسنة الرسل وفي الكتب السماوية، ويدخل في ذلك الالتزامات التي يلزم بها العبد نفسه. والميثاق: هو ما أخذه الله تعالى على عباده حين أخرجهم من صلب آدم في عالم الذر المذكور في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ...﴾ الآية.

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ قال أبو هلال العسكري[2]: الفرق بين الخوف والخشية أن الخوف: يتعلق بالمكروه نفسه وبمنزل المكروه، يقال: خفت زيداً وخفت المرض، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾، وقال: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾. والخشية: تتعلق بمنزل المكروه، فتقول: خشيت الله، ولا يسمى

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان بزيادة.

الخوف من نفس المكروه خشية، فلا تقول: خشيت المرض، بل تقول: خفت المرض، ولهذا قال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾، والإضافة في ﴿سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: الحساب السيء، وهو؛ أي: الحساب السيء: المؤاخذة بكل ما عملوه.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾، والصبر: حبس النفس على أنواع البلايا والمصائب وعلى مخالفة الهوى بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات.

واعلم أن مواد الصبر كثيرة:

منها: الصبر على العمى، وفي الحديث القدسي: «إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ـ أي العينين، وسميتا بذلك، لأنهما أحب الأشياء إلى الشخص ـ فصبر على البلاء راضياً بقضاء الله تعالى عوضته منهما الجنة» والأعمى: أول من يرى الله تعالى يوم القيامة.

ومنها: الصبر على الحمَّى وصداع الرأس وموت الأولاد والأحباب، وغير ذلك من أنواع الابتلاء.

ومنها: الصبر على الصوم، فإن فيه صبراً على ما تكرهه النفس من حيث أنها مألوفة بالأكل والشرب والصوم ربع الإيمان بمقتضى قوله عليه السلام: «الصوم نصف الصبر، والصبر نصف الإيمان» ذكره في «روح البيان».

﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ والابتغاء: كناية عن الإخلاص، وهو إخلاص العمل للخالق عن ملاحظة المخلوق رياءً وسمعةً وعجباً وزينةً.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾؛ أي: يدفعونها بها، فيجازون الإساءة بالإحسان، أو يتبعون السيئة بالحسنة، فتمحوها. ا هـ. «بيضاوي». وقوله: يدفعونها بها كدفع[1] شتم غيرهم بالكلام الحسن، وإعطاء من حرمهم، وعفو من ظلمهم، ووصف من قطعهم. ا هـ. «زادة».

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ فيه ذكر الموصوف مع حذف صفته[2]، والإضافة فيه

---

(١) زاده.
(٢) الفتوحات بتصرف.

على معنى في؛ أي: العقبى المحمودة في الدار الآخرة، فالعقبى المحمودة هي الجنة، والدار الآخرة أعم منها؛ لأنها تشمل الجنة والنار، والدليل على هذا النعت المحذوف قوله في المقابل: ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾. ا هـ. شيخنا. وقيل: المراد بالدار: دار الدنيا وعقباها؛ أي: عاقبتها هي الجنة ا هـ. وفي «الخطيب» والعقبى: الانتهاء الذي يؤدي إليه الابتداء من خير أو شر. ا هـ.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ﴾ في «المصباح»: عدن بالمكان عدناً وعدوناً ـ من بابي ضرب وقعد ـ إذا أقام فيه، ومنه جنات عدن؛ أي: جنات إقامة، واسم المكان معدن، وزان مجلس، لأن أهله يقيمون عليه الصيف والشتاء، أو لأن الجوهر الذي خلقه الله فيه عدن ربه ا هـ.

﴿وَأَزۡوَٰجِهِمۡ﴾: جمع زوج، ويقال للمرأة الزوج والزوجة، والزوج أفصح.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ يقال: قَدَر زيد إذا قتر وضيق على عياله، وفي «المصباح»: وقدر الله الرزق يقدره من باب ضرب، ويقدره من باب نصر. وقرأ السبعة بكسر الدال فهو أفصح.

﴿إِلَّا مَتَٰعٞ﴾؛ أي: متعة قليلة لا دوام لها ولا بقاء. وقيل: المتاع[1] واحد الأمتعة كالقصعة والسكرجة ونحوهما. وقيل: المعنى شيء قليل ذاهب من متع النهار إذا ارتفع، فلا بد له من زوال. وقيل: زاد كزاد الركب يتزود به منها إلى الآخرة.

﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾؛ أي: رجع عن العناد، وأقبل على الحق. وفي «القاموس»: ناب إلى الله تعالى كأناب، والإضلال[2] خلق الضلالة في العبد، والهداية خلق الاهتداء، والدلالة على طريق يوصل إلى المطلوب مطلقاً، وقد يسند كل منهما إلى الغير مجازاً بطريق السبب، والقرآن ناطق بكلا المعنيين، فيسند الإضلال إلى الشيطان في مرتبة الشريعة، وإلى النفس في مرتبة الطريقة، وإلى الله في مرتبة الحقيقة كذا ذكره في «روح البيان».

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾؛ أي: تسكن عن القلق والاضطراب وتخشع. ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عند ذكر الله؛ أي: عند ذكر وعده بالخير والثواب، فالكلام على حذف مضاف كما قدرناه. وعبارة «الشهاب»: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تضطرب للمكاره لأنسبها بالله واعتمادها عليه. ا هـ. وفي «أبي السعود» وقيل: تطمئن قلوبهم بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته، أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته، أو بذكره تعالى أنساً به وتبتلاً إليه. ا هـ. ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بذكره وحده دون غيره من الأمور التي تميل إليها النفوس من الدنيويات. ا هـ. «أبو السعود».

﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: لهم العيش الطيب وقرة العين والغبطة والسرور، فهو مصدر من الطيب كبشرى ورجعى وزلفى، فالمصدر قد يجيء على وزن فعلى. وقولنا: من الطيب فيه دلالة على أنه يائي، وأصله طيبى، قلبت الياء واواً لوقوعها ساكنة إثر ضمة، كما قلبت في موقن وموسر من اليقين واليسر. ا هـ. «شيخنا».

﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾، والمآب: المرجع والمنقلب.

﴿قَدْ خَلَتْ﴾؛ أي: مضت. ﴿مَتَابِ﴾؛ أي: توبتي ومرجعي. ﴿قُطِّعَتْ﴾؛ أي: شققت.

﴿يَاْيْـَٔسِ﴾؛ أي: يعلم، وهو لغة هوازن. وفي «المختار»: واليأس: القنوط، وقد يئس من الشيء من باب فهم، وفيه لغة أخرى يئس ييئس - بالكسر فيهما -، وهو شاذ، ويئس أيضاً بمعنى علم في لغة النخع، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾. ا هـ. وفيه أيضاً أيس من الأمر لغة في يئس، وبابهما فهم. ا هـ.

﴿قَارِعَةٌ﴾؛ أي: رزية تقرع القلوب وتفجؤها، أو تقرعهم؛ أي: تهلكهم وتستأصلهم. وفي «المختار»: قرع الباب من باب **قطع**، والقارعة الشديدة من شدائد الدهر، وهي الداهية.

﴿لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ والميعاد: مصدر ميمي بمعنى الوعد، كالميلاد بمعنى الولادة، والميثاق بمعنى التوثقة كما مر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التأكيد في قوله: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾؛ لأن عطفه على ما قبله من قبيل التوكيد، كما في «الجمل»؛ لأن عدم النقض يستلزمه الوفاء.

ومنها: الطباق بين ﴿سِرًّا﴾ ﴿وَعَلَانِيَةً﴾، وبين ﴿الحسنة﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾، وبين ﴿يَبۡسُطُ﴾ و﴿يقدر﴾، وبين ﴿يُضِلُّ﴾ و﴿يهدي﴾ للتضاد بين كل من اللفظين منها، وبين ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أيضاً.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ لحذف الأداة ووجه الشبه فيه؛ أي: إلا مثل المتاع الذي يستمتع به الإنسان في الحاجات المؤقتة في سرعة الزوال.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾؛ لأن حق العبارة ألا به تطمئن، وفيه أيضاً التكرار.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ وفي قوله: ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾.

ومنها: التحضيض في قوله: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾.

ومنها: التعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ إفادة للتجدد والاستمرار؛ لأن الطمأنينة تتجدد بعد الإيمان حيناً بعد حين. اهـ. «شهاب». وفي الكرخي المضارع قد لا يلاحظ فيه زمان معين من حال أو استقبال، فيدل إذ ذاك على الاستمرار، ومنه الآية. اهـ.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ لأن تذكير كلم خاصة دون الفعلين قبله؛ لأن الموتى تشتمل على المذكر الحقيقي، فكان حذف التاء لتغليبه أحسن، والجبال والأرض ليسا كذلك. ا هـ. «كرخي».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما كان الكفار يسألون النبي ﷺ هذه الآية على سبيل الاستهزاء والسخرية، وكان ذلك يشق عليه، ويتأذى منه.. أنزل الله تسليةً له على سفاهة قومه قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ...﴾ الآيات، مناسبةُ هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر[1] ما أعده للكافرين من العذاب

---

(١) المراغي.

والنكال في الدنيا والآخرة.. أتبعه بذكر ثواب المتقين في جنات تجري من تحتها الأنهار، ثم أردفه ذكر فرح المؤمنين من أهل الكتاب بما أنزل عليه من ربه، وإنكار بعض منهم لذلك، ثم حثّ الرسول ﷺ على القيام بحق الرسالة وتحذيره من مخالفة أوامره، ثم ختم هذا بذكر الجواب عن شبهات كانوا يوردونها لإبطال نبوته ﷺ، كقولهم: إنه كثير الزوجات ولو كان رسولاً من عند الله لما اشتغل بأمر النساء.

وخلاصة الجواب: أن محمداً ليس ببدع من الرسل، فكثير منهم كان له أزواج وذرية ولم يقدح ذلك في رسالاتهم، وكقولهم: إنه لو كان رسولاً من عند الله لم يتوقف فيما يطلب منه من المعجزات، فأجيبوا بأن أمر المعجزات مفوض إلى الله، إن شاء أظهرها، وإن شاء لم يظهرها، ولا اعتراض لأحد عليه. وقولهم: إن ما يخوفنا من العذاب وظهور النصرة له ولقومه لم يتحقق بعد، فليس بنبي ولا صادق فيما يقول، فأجيبوا عن ذلك بقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾؛ أي: لكل حادث وقتاً معيناً لا يتقدم عنه ولا يتأخر، فتأخر المواعيد لا يدل على ما تدعون.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ...﴾ الآيات. مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] أنهم اقترحوا عليه الآيات استهزاء به، وطلبوا استعجال السيئة التي توعَّدهم بها، وكان ﷺ يتمنى وقوع بعض ما توعدوا؛ ليكون زاجراً لغيرهم.. ذكر هنا لرسوله أن وظيفته التبليغ ولا يهمه ما سينالهم من الجزاء، فعلينا حسابهم، وهل هم في شك من حصول ما توعدناهم به، وهم يرون بلادهم تنقص من جوانبها بفتح المسلمين لها، وقتل أهلها وأسرهم وتشريدهم، والله يحكم في خلقه كما يريد، وقد حكم للمسلمين بالعزّ والإقبال، وعلى أعدائهم بالقهر والإذلال.

ثم بين أن قومه ليسوا ببدع في الأمم، فقد مكر من قبلهم بأنبيائهم، ولم

---

(١) المراغي.

يكن مكرهاً ليضيرهم شيئاً، فكانت العاقبة للمتقين، وأهلك الله القوم الظالمين، وسيعلم الكافرون حين يحل بهم العذاب لمن حسن العاقبة. ثم ذكر إنكار اليهود لرسالته، وأمره بالجواب عن ذلك بأن الله شهد له بأنه صادق فيها، فأيده بالأدلة والحجج، وفي شهادته غنى عن شهادة أي شاهد آخر، وكذلك شهد من آمن من أهل الكتاب بأنهم يجدون وصفه في كتبهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ...﴾ قال الكلبي[1]: عيرت اليهود رسول الله ﷺ، وقالت: ما نرى لهذا الرجل مهمة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً...﴾.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.. إلخ. تسلية[2] لرسول الله ﷺ، ووعيد للمستهزئين به والمقترحين عليه بالآيات، والتنكير في ﴿رسل﴾ للتكثير، والإملاء[3]: الإمهال، وأن يترك ملاوة من الزمان؛ أي: مدة طويلة منه في دعة وراحة وأمن كالبهيمة في المرعى؛ أي: وعزتي وجلالي لقد استحقر واستهين وأوذي وكذب برسل كثيرة من قبلك؛ أي: استهزأ بهم قومهم كما أن قومك يا محمد استهزؤوا؛ أي: إن[4] يستهزىء بك هؤلاء المشركون من قومك، ويطلبوا منك الآيات تكذيباً لما جئتهم به.. فاصبر على آذاهم، وامض لأمر ربك، فلقد استهزأت أمم من قبلك برسلهم. ثم بين سبحانه شأنه مع المكذبين، فقال: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: فأمهلت للمستهزئين الذين كفروا بالله وبرسله، وأطلت لهم مدة من الزمان في أمن وسعة وراحة؛ أي: فتركتهم ملاوة؛ أي: مدة من الزمان في أمن ودعة وراحة، كما يملي للبهيمة في المرعى ﴿ثُمَّ﴾ بعد الإملاء

---

(1) أسباب النزول.

(2) البيضاوي.

(3) روح البيان.

(4) المراغي.

والإمهال والاستدراج ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾ بالعقوبة والعذاب الذي أنزلته بهم. والاستفهام في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ للتقريع[1] والتهديد، أو التعجيب؛ أي: فكيف كان عقابي لهؤلاء الكفار الذين استهزؤوا بالرسل، فأمليت لهم ثم أخذتهم؛ أي: على أي حالة وقع عقابي لهم، هل كان ظلماً لهم أو كان عدلاً؛ أي: هو واقع موقعه؛ أي: هو عدل، فكذلك أفعل بمن استهزأ بك يا محمد.

والمعنى: كيف[2] رأيت يا محمد ما صنعت بمن استهزأ برسلي، ولم ير النبي ﷺ عقوبتهم إلا أنه علم بالتحقيق، فكأنه رأى عياناً. وفي «بحر العلوم»: فإنكم تمرون على بلادهم ومساكنهم، فتشاهدون أثر ذلك، وهذا تعجيب من شدة أخذه لهم؛ سلى رسول الله ﷺ عن استهزائهم به وأذاهم وتكذيبهم واقتراحهم الآيات بأن له في الأنبياء أسوة، وأن جزاء ما يفعلون به ينزل بهم كما نزل بالمستهزئين بالأنبياء جزاء ما فعلوا. وفيه إشارة إلى أن من أمارات الشقاء الاستهزاء بالأنبياء والأولياء.

والخلاصة[3]: أي ثم أحللت بهم عذابي ونقمتي حين تمادوا في غيهم وضلالهم، فانظر كيف كان عقابي إياهم حين عاقبتهم، ألم أذقهم أليم العذاب، وأجعلهم عبرة لأولي الألباب؟ وقد صدق الله وعده ونصر رسوله على عدوه، فدخل في دين الله من دخل، ومن أبى قتل، ودانت العرب كلها له، وانضوت تحت لوائه، وحقت عليهم كلمة ربك.

وفي هذا: تعجيب مما حلّ بهم، ودلالة على شدته وفظاعة أمره كما لا يخفى. ثم ذكر سبحانه ما يجري مجرى الحجاج عليهم، وما فيه توبيخ لهم وتعجيب من عقولهم، وكيف أنها وصلت إلى حدّ لا ينبغي لعاقلٍ أن يقبله ولا يرضى به، فقال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (الهمزة) فيه للاستفهام الإنكاري داخلة[4] على محذوف، و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف،

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) الصاوي.

و﴿من﴾ الموصولة مبتدأ خبره محذوف تقديره: كمن ليس كذلك من شركائهم التي لا تضر ولا تنفع، دل على ذلك المحذوف قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ نظير قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ تقديره: كمن قسا قلبه يدل عليه قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾، وقد جاء مبيناً كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ وقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾. وتقدير الكلام هنا: أعميتم[1] وسويتم بين الله وبين خلقه، فمن هو قائم ورقيب على كل نفس وحافظها ورازقها وعالم بها وبما عملت من خير وشر، ويجازيها بما كسبت فيثيبها إن أحسنت، ويعاقبها إن أساءت وهو الله سبحانه وتعالى وحده، كمن ليس بقائم عليها، بل هو عاجز عن نفسه، ومن كان عاجزاً عن نفسه فهو عن غيره أعجز، وهي الأصنام التي لا تضر ولا تنفع؛ أي: ليسا مستويين، بل القائم على كل نفسٍ بما كسبت هو المستحق للألوهية والربوبية، لا الأصنام التي لا تضر ولا تنفع.

ومعنى القيام[2]: التولي لأمور خلقه والتدبير للأرزاق والآجال، وإحصاء الأعمال للجزاء، يقال: قام فلان بفلان إذا كفاه وتولاه.

والمعنى: أي أفمن هو[3] قائم بحفظ أرزاق الخلق، ومتولي أمورهم، وعالم بهم وبما يكسبونه من الأعمال من خير أو شر، ولا يعزب عن شيء كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تدفع عن نفسها ولا عمن يعبدها ضراً ولا تجلب لهم نفعاً.

وخلاصة ذلك: أنه لا عجب من إنكارهم لآياتك الباهرة مع ظهورها، وإنما العجب كل العجب من جعلهم القادر على إنزالها المجازي لهم على إعراضهم عن تدبر معانيها بقوارع تترى واحدة بعد أخرى يشاهدونها رأي العين كمن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلاً عن اتخاذه رباً يُرجى نفعه أو يُخشى ضره.

---

(١) الصاوي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

ثم أكد هذا بقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾؛ أي: وجعل المشركون الأصنام شركاء لله سبحانه وتعالى، والظاهر أن هذه الجملة مستأنفة جيء بها للدلالة على الخبر المحذوف كما تقدم تقريره يعني[1]: إن الكفار سووا بين الله وبين الأصنام، واتخذوها شركاء له في العبادة، وإنما تكون سواء وشركاء فيها لو كانت سواء وشركاء في القيام على كل نفس، فما أعجب كفرهم وإشراكهم وتسويتهم مع علمهم التفاوت بينهما؛ أي: تعجبوا من ذلك. وقيل[2]: الواو للحال، والتقدير: أفمن هو قائم على كل نفس صالحة وطالحة، والحال أنهم جعلوا له شركاء كمن هو ليس كذلك، فأقيم الظاهر وهو لفظ الجلالة مقام المضمر تقريراً للإلٰهية وتصريحاً بها. وقيل: ﴿وَجَعَلُوا۟﴾ معطوف على ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾ بمعنى: ولقد استهزؤوا وجعلوا لله شركاء. وقال أبو البقاء: هو معطوف على ﴿كَسَبَتْ﴾؛ أي: وجعلهم لله شركاء. ا هـ. «سمين»؛ أي: وجعلوا لله شركاء عبدوها معه تعالى من أصنام وأوثان وأنداد.

ثم أعقب ذلك بتوبيخ إثر توبيخ، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿سَمُّوهُمْ﴾؛ أي: بينوا[3] شركاءكم بأسمائهم وصفوهم بصفاتهم، فانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة والشركة، يشير إلى أن الأسماء مأخذها من الصفات، فإن لم تروا منهم شيئاً من صفات الله، فكيف تسمونهم!؟.

وفي هذا: تبكيت لهم وتوبيخ؛ لأنه إنما يقال هذا في الشيء المستحقر الذي لا يستحق أن يلتفت إليه، فيقال: سمه إن شئت يعني: أنه أحقر من أن يسمى. وقيل: إن المعنى سموهم بالآلهة كما تزعمون، فيكون ذلك تهديداً لهم. وقيل: سموهم من هم وما أسماؤهم، فإنهم ليسوا ممن يذكر ويسمى، فإنما يسمى من ينفع ويضر.

و﴿أَمْ﴾ في قوله: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ منقطعة تقدر ببل وهمزة الاستفهام الإنكاري؛

---

(١) روح البيان.

(٢) الفتوحات.

(٣) روح البيان.

أي: بل أتنبئون الله سبحانه وتعالى وتخبرونه ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ الله سبحانه وتعالى وجوده ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولا في السموات من الشركاء الذين تعبدونهم مع كونه العالم بما في السموات والأرض، أو تخبرونه بصفات لهم يستحقون لأجلها العبادة وهو لا يعلمها. وفي هذا نفي لوجودها؛ لأنها لو كانت موجودة لعلمها الله سبحانه وتعالى؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وإنما خص[1] الأرض بنفي الشريك عنها، وإن لم يكن له شريك في غير الأرض؛ لأنهم ادعوا له شريكاً في الأرض ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: بل أتسمونهم شركاء بظاهر وهذل من القول من غير أن تكون له حقيقة ولا معنى. وقيل المعنى: قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه أم بظاهر يعلمه، فإن قالوا بباطن لا يعلمه فقد جاؤوا بدعوى باطلة، وإن قالوا بظاهر يعلمه، فقل لهم: سموهم، فإذا سموا اللات والعزى ونحوهما، فقل لهم: إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً. وقيل معنى: ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: بزائل من القول باطل، وقيل: بكذب من القول، وقيل: معنى ﴿بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: بحجة من القول ظاهرة على زعمهم.

وخلاصة حجاجه على المشركين[2]: نفي الدليل العقلي والدليل النقلي على أحقية عبادتها، فبعد أن هدم قاعدة الإشراك بقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ زاد ذلك إيضاحاً، فقال: وليتهم إذ أشركوا بربهم - الذي لا ينبغي أن يشرك به - أشركوا به من له حقيقة واعتبار، ومن ينفع ويضر، لا من لا اسم له فضلاً عن المسمى، بل من لا يعرف له وجود في الأرض ولا في السماء، ويريدون أن ينبئوا عالم السر والنجوى بما لا يعلمه، ثم زاد على ذلك، فقال: وما تلك التسمية إلا بظاهر من القول من غير أن يكون تحتها طائل، وما هي إلا أصوات جوفاء كثيرة المباني خالية عن المعاني، وما هي إلا كالألفاظ المهملة التي هي أجراس لا تدل على مكان، ولا يتكلم بها عاقل تنفراً منها واستقباحاً.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

وقوله: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إضراب عن محاجتهم بالكلية، فكأنه يقول: لا يفيد فيهم الاحتجاج؛ أي: دع هذا[1] الحجاج وألق به جانباً، فإنه لا فائدة فيه؛ لأنه زين له مكرهم وكيدهم لاستسلامهم للشرك وتماديهم في الضلال. والمكر[2]: صرف الغير عما يقصده بحيلة، والمزين هو الله تعالى؛ لأنه هو الفاعل المختار على الإطلاق، لا يقدر أحد أن يتصرف في الوجود إلا بإذنه، فتزيين الشيطان إلقاء الوسوسة فقط، ولا يقدر على إضلال أحد وهدايته إلا الله سبحانه وتعالى، ويدل على هذا سياق الآية، وهو قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾. ا هـ. «خازن». ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ ـ بضم الصاد ـ؛ أي: وصرفوا عن سبيل الحق بما زين لهم من صحة ما هم عليه؛ أي: صدهم الله تعالى أو صدهم الشيطان وبفتحها؛ أي: صدوا غيرهم ومنعوهم عن سبيل الحق، أو عن المسجد الحرام. ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾؛ أي: ومن يرد الله سبحانه وتعالى إضلاله وخذلانه لسوء اعتقاده وفساد أعماله واجتراحه للآثام والمعاصي.. فلا هادي له يوفقه إلى النجاة ويوصله إلى طرق السعادة، ونحو الآية قوله: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾. وقوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

وقرأ الحسن شاذاً[3]: ﴿تنبئونه﴾ من أنبأ. وقرأ مجاهد شذوذاً أيضاً: ﴿بل زَيَّن﴾ على البناء للفاعل ﴿مكرهم﴾ بالنصب. والجمهور: ﴿زُيِّنَ﴾ على البناء للمفعول ﴿مَكْرُهُمْ﴾ بالرفع. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿وصدوا﴾ هنا وفي غافر بضم الصاد مبنياً للمفعول فالفعل متعدٍ. وقرأ باقي السبعة بفتحها فاحتمل التعدي واللزوم؛ أي: صدوا أنفسهم أو غيرهم، وقرأ ابن وثاب: ﴿وصِدوا﴾ ـ بكسر الصاد ـ وهي كقراءة ﴿رِدت إلينا﴾ ـ بكسر الراء ـ، كلاهما شاذ. وفي «اللوامح»: نسب الكسائي لابن يعمر ﴿وصِدوا﴾ بالكسر لغة وأما في المؤمن فالبكسر لابن وثاب انتهى. وقرأ ابن أبي إسحاق شاذاً أيضاً: ﴿وصدٌّ﴾ بالتنوين

---

(1) المراغي.

(2) روح البيان.

(3) البحر المحيط.

عطفاً على مكرهم. وقرأ الجمهور[1]: ﴿هَادٍ﴾ بدون إثبات الياء على اللغة الكثيرة الفصيحة، وقرىء بإثباتها على اللغة القليلة.

ثم بين سبحانه ما يستحقونه، فقال: ﴿لَّهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المشركين ﴿عَذَابٌ﴾ شاق ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر وسائر الآفات التي يصيبهم بها ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: ولتعذيب الله سبحانه إياهم في الدار الآخرة ﴿أَشَقُّ﴾؛ أي: أشد من تعذيبه إياهم في الدنيا، وأصعب لشدته ودوامه. ثم أيأسهم من صرف العذاب عنهم، فقال: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: من عذابه ﴿مِن وَاقٍ﴾؛ أي: حافظ ومانع حتى لا يعذبوا، فـ﴿مِن﴾ الثانية زائدة، والأولى متعلقة بـ﴿وَاقٍ﴾؛ أي: وما لهم حافظ يعصمهم من عذاب الله، إذ لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ولا يأذن لأحد في الشفاعة لمن كفر به ومات على كفره.

ثم لما ذكر سبحانه ما يستحقه الكفار من العذاب في الأولى والأخرى.. ذكر ما أعده للمؤمنين، فقال: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ مبتدأ خبره محذوف؛ أي: صفة الجنة والبساتين التي وعد الله بها المتقين بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات وأعطاهم إياها كفاء إخباتهم له وإنابتهم إليه ودعائهم إياه مخلصين له الدين لا شريك له كائنة هي فيما قصصنا وقرأنا عليك يا محمد حالة كونها ﴿تَجْرِي﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها وقصورها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ الأربعة: الماء واللبن والخمر والعسل؛ أي: مقدراً جريان أنهارها تحتها؛ أي: صفتها العجيبة الشأن التي هي في الغرابة كالمثل كائنة فيما نقصه ونتلوه ونقرؤه عليكم. وقوله: ﴿تَجْرِي﴾.. إلخ تفسير[2] لذلك المحذوف، وقيل: إن قوله: ﴿تَجْرِي﴾ هو نفس الخبر. اهـ. من «البيضاوي». ووجه الأخير أن المثل هنا بمعنى الصفة، فهو كقولك: صفة زيد أنه طويل، ويجوز أن يكون ﴿تَجْرِي﴾ مستأنفاً. اهـ. من «السمين». وقرأ علي وابن مسعود: ﴿مثال الجنة﴾ على الجمع؛ أي: صفاتها وفي «اللوامح»: علي السلمي: ﴿أمثال الجنة﴾ جمع: مثل ذكره أبو حيان وكلتا القراءتين شاذتان.

---

(١) الشوكاني. (٢) الفتوحات.

﴿أُكُلُهَا﴾؛ أي: ما يؤكل فيها ويشرب من الفواكه والمطاعم والمشارب ﴿دَآئِمٌ﴾ لا ينقطع ولا يمنع بخلاف ثمر الدنيا؛ أي: دائم بحسب نوعه، فكل شيء أكل يتجدد غيره لا بحسب شخصه، إذا عين المأكول لا ترجع. وقوله: ﴿وَظِلُّهَاۚ﴾ مبتدأ حذف خبره؛ أي: وظل[1] تلك الجنة دائم لا ينسخ في الدنيا بالشمس، لأنه لا شمس في الجنة ولا حر ولا برد، فالمراد بدوام الظل دوام الاستراحة، وإنما عبر عنه به لندرة الظل عند العرب، وفيه معظم استراحاتهم في أرضهم. وبعد أن وصف الجنة بهذه الصفات الثلاث بين أنها مآل المتقين ومنتهى أمرهم، فقال: ﴿تِلْكَ﴾ الجنة التي بلغك وصفها، وسمعت بذكرها ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ﴾ الله تعالى بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات؛ أي: مآلهم وعاقبة أمرهم. ثم بين عاقبة الكافرين بعد ما بين عاقبة المتقين، فقال: ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: وعاقبة الكافرين بالله تعالى هي ﴿ٱلنَّارُ﴾ الأخروية لا غيرها بما اقترفوا من الذنوب ودنسوا به أنفسهم من الآثام، فالتقوى طريق إلى الجنة، والكفر طريق إلى النار أعاذنا الله منه ومنها. وفي الآية فتح باب الطمع على مصراعيه للمتقين، وإقفاله بالرتاج على الكافرين.

ثم بين أن أهل الكتاب انقسموا فئتين: فئة فرحت بنزول القرآن، وفرقه أنكرته وكفرت ببعضه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ وأعطيناهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة والإنجيل يريد المسلمين من اليهود كعبد الله بن سلام وأصحابه، ومن النصارى وهم ثمانون رجلاً: أربعون بنجران، وثمانية باليمن، واثنان وثلاثون بالحبشة ﴿يَفْرَحُونَ﴾ ويسرون ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَۖ﴾؛ أي: بجميع ما أنزل إليك وهو القرآن كله؛ لأنه من فضل الله ورحمته على العباد، ولا شك أن المؤمن الموقن يسره ما جاء إليه من باب الفضل والإحسان، لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ﴾. ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾؛ أي: ومن أحزابهم وجماعتهم الذين تحزبوا وتجمعوا واتفقوا على رسول الله ﷺ بالعداوة ككعب بن الأشرف وأتباعه، والسيد

---

(١) روح البيان.

والعاقب أسقفي نجران وأشياعهما وسائر المشركين، وهو مبتدأ خبره قوله: ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾؛ أي: بعض ما أنزل إليك من القرآن، وهو ما لا يوافق ما حرفوه من كتابهم وشرائعهم.

فإن قلت: إن[1] الأحزاب من المشركين وغيرهم من أهل الكتاب ينكرون القرآن كله، فكيف قال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾.؟

قلتُ: إن الأحزاب لا ينكرون القرآن بجملته؛ لأنه قد ورد فيه آيات دالة على توحيد الله وإثبات قدرته لا ينكرون ذلك أبداً. والقول الثاني: إن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل، والمراد بأهله الذين أسلموا من اليهود والنصارى مثل عبد الله بن سلام وأصحابه، ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون كما مر فرحوا بالقرآن، لكونهم آمنوا به وصدقوه ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني: بقية أهل الكتاب من اليهود والنصارى وسائر المشركين ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾. وقيل: كان ذكر الرحمٰن قليلاً في القرآن في الابتداء، فلما أسلم عبد الله بن سلام ومن معه من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ساءهم قلة ذكر الرحمٰن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة، فلما كرر الله تعالى ذكر لفظة الرحمٰن في القرآن.. فرحوا بذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني: مشركي مكة ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ وذلك لما كتب رسول الله ﷺ كتاب الصلح يوم الحديبية كتب فيه: بسم الله الرحمٰن الرحيم، فقالوا: ما نعرف الرحمٰن إلا رحمٰن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، فأنزل الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى﴾ وإنما قال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾؛ لأنهم كانوا لا ينكرون الله وينكرون الرحمٰن.

ولما ذكر سبحانه اختلاف أهل الكتاب في شأنه ﷺ.. بين بإيجاز ما يحتاج إليه المرء ليفوز بالسعادتين، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد في جواب المنكرين ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾؛ أي: إنما أمرت[2] فيما أنزل إلي بأن أعبد الله وأوحده ولا أشرك به شيئاً، وهو العمدة في الدين، لا سبيل لكم إلى إنكاره،

---

(١) الخازن. (٢) روح البيان.

وأما ما تنكرونه لما يخالف شرائعكم، فليس ببدع مخالفة الشرائع والكتب الإلٰهية في جزئيات الأحكام؛ لأن الله الحكيم ينزل بحسب ما يقتضيه صلاح أهل العالم، كالطبيب يعامل المريض بما يناسب مزاجه من التدبير والعلاج.

وقد اتفق[1] القراء على نصب ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾ عطفاً على ﴿أَعۡبُدَ﴾. وقرأ أبو خليد عن نافع: ﴿ولا أشركُ﴾ بالرفع على القطع؛ أي: وأنا لا أشرك به، وجوز أن يكون حالاً؛ أي: أن أعبد الله غير مشرك. **والمعنى**: أي[2]: قل لهم صادعاً بالحق، ولا تكترث بمن ينكره: إني أمرت فيما أنزل إلي بأن أعبد الله وحده، ولا أشرك به شيئاً سواه، وذلك ما لا سبيل إلى إنكاره، وأطبقت عليه الشرائع والكتب، كا قال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾. وذلك ما دلت الدلائل التي في الآفاق والأنفس على وجوب الإذعان له، والاعتراف به، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

﴿إِلَيۡهِ﴾؛ أي: إلى توحيد الله سبحانه وتعالى وطاعته وإخلاص العبادة له وحده، لا إلى غيره ﴿أَدۡعُواْ﴾ الناس أو أخصه بالدعاء والنداء إليه في جميع مهامي ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ سبحانه وتعالى وحده ﴿مَـَٔابِ﴾؛ أي: مآبي ومرجعي ومصيري ومرجعكم للجزاء لا إلى غيره، وهذا هو القدر المتفق عليه بين الأنبياء، فأما ما عدا ذلك من التفاريع فمما يختلف بالأعصار والأمم، فلا معنى لإنكار المخالف فيه.

وهذه الآية جامعة لشؤون النشأة الأولى والآخرة، فقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ﴾ توحي إلى ما جاء به التكليف، وقوله: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾ تشير إلى مهام الرسالة، وقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ تشير إلى البعث والجزاء للحساب يوم القيامة، ثم بين سبحانه أنه أرسل رسوله بلغة قومه كما أرسل من قبله رسلاً بلغات أقوامهم، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ﴾؛ أي: وكما أرسلنا من قبلك المرسلين

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وأنزلنا عليهم الكتب بلغة أممهم، أو مثل هذا الإنزال المشتمل على أصول الديانات المجمع عليها ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: أنزلنا عليك القرآن حالة كونه ﴿حُكْمًا﴾؛ أي: حاكماً يحكم في كل شيء يحتاج إليه العباد على مقتضى الحكمة والصواب، فالحكم مصدر بمعنى الحاكم، ولما[1] كان جميع التكاليف الشرعية مستنبطاً من القرآن كان سبباً للحكم، فأسند إليه الحكم إسناداً مجازياً، ثم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة، وقيل معنى: ﴿حُكْمًا﴾؛ أي: محكماً لا يقبل النسخ والتغيير ﴿عَرَبِيًّا﴾؛ أي: مترجماً بلسان العرب؛ أي: بلسانك ولسان قومك، ليسهل عليهم فهم معناه، وحفظه على ظهر القلب. وانتصاب[2] ﴿حُكْمًا﴾ على أنه حال موطئة، و﴿عَرَبِيًّا﴾ صفته، والحال الموطئة اسم جامد موصوف بصفة هي الحال، فكأن الاسم الجامد وطأ الطريق لما هو حال في الحقيقة؛ لمجيئه قبلها موصوفاً بها.

وروي أنه لما كان المشركون يدعونه ﷺ إلى اتباع ملة آبائهم المشركين، وكان اليهود يدعونه إلى الصلاة إلى قبلتهم؛ أي: بيت المقدس بعد ما حول عنها.. نزل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لئن اتبعت يا محمد أهواء هؤلاء الأحزاب من اليهود والمشركين التي يدعونك إليها لتقرير دينهم ابتغاء مرضاتهم، كالتوجه إلى قبلتهم وعدم مخالفتهم في شيء مما يعتقدونه جعل ما يدعونه إليه من الدين الباطل، والطريق الزائغ هوى، وهو ما يميل إليه الطبع وتهواه النفس بمجرد الاشتهاء من غير سند مقبول ودليل مقعول؛ لكونه هوى محضاً. ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الذي علمه الله إياه والدين المعلوم صحته بالبراهين ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من عذابه ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يلي أمرك وينصرك ﴿وَلَا﴾ من ﴿وَاقٍ﴾ يقيك ويحفظك من عذابه، والخطاب لرسول الله ﷺ تعريضاً لأمته.

والمعنى[3]: أي ليس لك من دون الله ولي ولا ناصر ينصرك، فينقذك منه إن هو أراد عقابك، ولا واق يقيك عذابه إن شاء عذابك، فاحذر أن تتبع أهوائهم

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

وتنهج نهجهم، وقد تقدم أن مثل هذا من قبيل قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة، فهو إنما جاء لقطع أطماع الكافرين وتهييج المؤمنين على الثبات في الدين، لا للنبي ﷺ، فهو بمكان لا يحتاج فيه إلى باعث ولا مهيج.

ونزل لما عابت[1] اليهود رسول الله ﷺ بكثرة النساء، فقالوا: لو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أرسلنا رسلاً بشراً مثلك ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾؛ أي: نساء وأولاد كما هي لك، فإذا جاز ذلك في حقهم، فلم لا يجوز مثله أيضاً في حقك؟ وهو جواب لقول اليهود ما نرى لهذا الرجل همةً إلا في النساء والنكاح، ولو كان نبياً لاشتغل بالزهد والعبادة، وقد كان لمحمد ﷺ سبعة أولاد؛ أربع إناث، وثلاثة ذكور.

والمعنى: أي وكما أرسلناك رسولاً بشرياً كذلك بعثنا المرسلين قبلك بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات ويولد لهم.

وفي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل اللحم وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». وقد كان من حكمة تعدد زوجاته أمهات المؤمنين أن اطلعن منه على الأحوال الخفية التي تكون بين الرجل والمرأة وعلمن منه أحكامها ونشرنها بين المؤمنين، وناهيك بأم المؤمنين عائشة، وفيها يقول رسول الله ﷺ: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء». ومن ثمّ كانت أكثر من حدّث عن رسول الله ﷺ بعد أبي هريرة، وأكثر من حدّث عن شمائله وأخلاقه في السر والعلن، ومنها علم المسلمون كثيراً من أحكام دينهم، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يختلفون إليها للحديث والفتيا، وكانت تحاجهم وتجادلهم وتلزمهم الحجة، ولا يجدون معدلاً عن التسليم لرأيها.

وروي[2]: أنه كان لداود عليه السلام مئة امرأة منكوحة وثلاث مئة سرية،

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

ولابنه سليمان عليه السلام ثلاث مئة امرأة مهرية وسبع مئة سرية، فكيف يضر كثرة الأزواج لنبينا عليه الصلاة والسلام. وروي أن المشركين طعنوا في نبوته لعدم إتيانه بما يقترحونه من الآيات، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ من الرسل الكرام وما صح لواحد منهم، ولم يكن في وسعه ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ تقترح عليه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وأمره وإرادته، لا باختيار نفسه ورأيه، فإنهم عبيد مربوبون منقادون، وهو جواب لقول المشركين: لو كان رسولاً من عند الله لكان عليه أن يأتي بأي شيء طلبنا منه من المعجزات ولا يتوقف فيه، وفيه إشارة إلى أن حركات عامة الخلق وسكناتهم بمشيئة الله تعالى وإرادته، وأن حركات الرسل وسكناتهم بإذن الله ورضاه.

أي: وما[1] كان في وسع رسول من الرسل أن يأتي من أرسل إليهم بمعجزة يقترحونها إلا متى شاء الله وعلم أن في الإتيان بها حكماً ومصالح لعباده، وقد جاء من الآيات بما فيه عبرة لمن اعتبر، وغناء لمن تفكر وتدبر، ولكنهم أبوا إلا التمادي في الغواية والضلال. والآيات المقترحة لا تأتي إلا على مقتضى الحكمة في أزمان يعلمها الله، وقد جعل لكل زمن من الأحكام ما فيه الصلاح والخير للناس، ولا صلاح فيما اقترحوه، وهل من الصلاح أن يرضع المراهق اللبن من ظئره، وأن يجعل له مهد ينام فيه، كذلك لا حكمة في إنزال الآيات التي اقترحوها، وهذا إيضاح قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ ووقت ﴿كِتَابٌ﴾؛ أي: حكم[2] مكتوب مفروض فيه يليق بصلاح حال أهله، فإن الحكمة تقتضي اختلاف الأحكام على حسب اختلاف الأعصار والأمم، وهو جواب لقولهم: لو كان نبياً ما نسخ أكثر أحكام التوراة والإنجيل. وقال الشيخ في «تفسيره».. أي: لكل شيء قضاه الله تعالى وقت مكتوب معلوم لا يزاد عليه ولا ينقص منه، أو لا يتقدم ولا يتأخر عنه. ا هـ.

ففي الكلام تقديم وتأخير؛ أي: لكل[3] كتاب أجل؛ أي: لكل أمر كتبه الله

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

أجل معين ووقت معلوم، فلا آية من المقترحات بنازلة قبل أوانها، ولا عذاب مما خوفوا به بحاصل في غير وقته، ولا نبوة بحاصلة في غير الزمان المقدر لها، فموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام جاؤوا في أزمنة رأى الله الصلاح في وجودهم فيها، لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون، وهكذا انقضاء أعمار الناس ووقوع أعمالهم وآجالهم كلها كتبت في آجال ومدد معينة، لا تقديم فيها ولا تأخير، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾.

فما مثل الدنيا من كواكبها وشمسها وأرضها وزرعها إلا مثل مصنع رتبت أعماله ووضعت عماله في حجر معينة، ووزع بينهم العمل على نظم خاصة في أوقات معينة، ولهم مناهج يتبعونها، فتراهم كل يوم يعملون وينصرفون من أماكنهم ثم يعودون إليها على نهج لا يتغير ولا يتبدل، فالدنيا قد جعل الله لها نظاماً على مقتضى الحقائق الثابتة التي تعلق بها علمه، وعلى هذا النظام جرت الشمس والقمر والكواكب، وظهر النبات والحيوان، وتعاقب الموت والحياة، وظهرت نجوم وفنيت أخرى، ونبت زرع وحصد آخر، ومات نبي وقام آخر، وامتد دين وانتشر وتقلص دين ونسخ.

وكل كوكب من الكواكب التي تصلح للحياة كأرضنا كأنه صحيفة يكتب فيها ويمحى، وذلك تابع لما في المنهج الأصلي، ومن ثم تتعاقب الأمم والأجيال والدول والنظم على قطر كمصر، فيتعاقب عليه قدماء المصريين واليونان والرومان، ولا شك أن كل هذا محو وإثبات على مقتضى المنهج المرسوم، وهكذا تنسخ آية من القرآن ويؤتى بغيرها، كما ينسخ زرع بزرع وليل بنهار، وقوم بقوم ودين نبي بآخر في ميقاته المعين في علمه تعالى، وهذا ما عناه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ محوه ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء إثباته، فينسخ[1] ما يستصوب نسخه، ويثبت بدله ما هو خير منه أو مثله، ويترك ما تقتضيه حكمته غير منسوخ، أو يمحو سيئات التائب ويثبت الحسنات مكانها.

---

(١) روح البيان.

وقد أثر عن أئمة السلف فيها أقوال لا تناقض فيها، بل هي داخلة فيما سلف[1]:

١ ـ قال الحسن: يمحو الله من جاء أجله، ويثبت من بقي أجله.

٢ ـ وقال عكرمة والسدي: يمحو الله القمر ويثبت الشمس، كما قال تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾.

٣ ـ وقال الربيع: يقبض الله الأرواح حين النوم، فيميت من يشاء ويمحوه، ويرجع من يشاء فيثبته.

٤ ـ وقال آخرون: يمحو الله ما يشاء من الشرائع بالنسخ، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه ولا يبدله.

٥ ـ وقال آخرون: يمحو الله المحن والمصائب بالدعاء. وقيل: يمحو الآباء ويثبت الأبناء. وقيل: يمحو ما يشاء من القرون، ويثبت ما يشاء منها. وقيل: يمحو الدنيا ويثبت الآخرة.

وظاهر النظم القرآني[2]: العموم في كل شيء مما في الكتاب، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر أو خير أو شر، ويبدل هذا بهذا، ويجعل هذا مكان هذا، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وابن عباس وأبو ائل وقتادة والضحاك وابن جريج وغيرهم، وهذا القول أولى كما تفيده ما في قوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ من العموم.

﴿وَعِندَهُۥٓ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: أصله[3] الذي لا يتغير منه شيء، وهو ما كتبه في الأزل، وهو العلم الأزلي الأبدي السرمدي القائم بذاته، وقد أحاط بكل شيء علماً بلا زيادة ولا نقصان، وكل شيء عنده بمقدار. وقيل: ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: أصله[4] وهو اللوح المحفوظ، فالمراد من الآية أنه يمحو

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) روح البيان.

ما يشاء مما في اللوح المحفوظ، فيكون كالعدم، ويثبت ما يشاء مما فيه، فيجري فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته، وهذا لا ينافي ما ثبت عنه ﷺ من قوله: «جف القلم» وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه الله سبحانه، وقيل: إن أم الكتاب هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم[1]: ﴿وَيُثْبِتُ﴾ مخففاً من أثبت، وباقي السبعة مثقلاً من ﴿ثَبت﴾. ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب في حياتك، والجواب محذوف تقديره: فذاك شافيك من أعدائك، ودليل على صدقك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾؛ أي: نقبضنك قبل أن نريك ذلك. وهذه الجملة شرط ثان لعطفه على الشرط قبله، وجوابه أيضاً محذوف تقديره: فلا تقصير منك ولا لوم عليك. وقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ تعليل لهذا المحذوف؛ أي: ليس عليك إلا تبليغ الرسالة إليهم، والبلاغ اسم مصدر أقيم مقام التبليغ ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ لا عليك؛ أي: أن نحاسبهم يوم القيامة، فنجازيهم بأعمالهم، فننتقم منهم أشد الانتقام، فلا يهمنك إعراضهم ولا تستعجل بعذابهم.

والمعنى: أي إن أريناك[2] أيها الرسول في حياتك بعض الذي نعد هؤلاء المشركين بالله من العقاب على كفرهم، أو توفيناك قبل أن نريك ذلك، فما عليك إلا تبليغ رسالة ربك لا طلب صلاحهم ولا فسادهم، وعلينا محاسبتهم ومجازاتهم بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾. وهذا تسلية من[3] الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ وإخبار له أنه قد فعل ما أمره الله به وليس عليه غيره، وأن من لم يجب دعوته ويصدق نبوته.. فالله سبحانه محاسبه على ما اجترم واجترأ عليه من ذلك. والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أأنكر أولئك

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

المشركون من أهل مكة وغيرهم نزول ما وعدناهم أو شكوا في ذلك، ولم يروا ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أرض الكفرة من مكة وغيرها؛ أي: يأتي أمرنا أرض الكفرة حالة كوننا ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾؛ أي: ننقص أرض الكفرة من أطرافها ونواحيها بالفتوح على المسلمين منها شيئاً فشيئاً، فما زاد[1] في بلاد الإسلام باستيلائهم عليها جبراً وقهراً نقص من ديار الكفرة، والله تعالى إذا قدر على جعله بعض ديار الكفرة للمسلمين.. فهو قادر على أن يجعل الكل لهم، أفلا يعتبرون؛ أي: أأنكر[2] أهل مكة نزول ما وعدناهم ولم يروا أنا نأخذ أرضهم نفتحها من نواحيها للمسلمين شيئاً فشيئاً، ونلحقها بدار الإسلام، ونذهب منها أهلها بالقتل والأسر والإجلاء، أليس هذا من ذلك.

والخلاصة: أي أشك[3] أولئك المشركون من أهل مكة الذين يسألونك الآيات ولم يروا أنا نأتي الأرض، فنفتحها لك أرضاً بعد أرض، ونلحقها بدار الإسلام، ونذهب منها أهلها بالقتل والأسر والإجلاء، أليس هذا مقدمة لما أوعدناهم بحصوله ونذيراً بما سيحل بهم من النكال والوبال في الدنيا والآخرة لو تدبروا، فما لهم عن التذكرة معرضين، ونحو الآية قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ وقرأ الضحاك: ﴿ننقِّصها﴾ مثقلاً من نقص عداه بالتضعيف من نقص اللازم.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَحْكُمُ﴾ في خلقه ما يشاء من الأزل إلى الأبد[4]، فيرفع هذا ويضع هذا، ويحيى هذا ويميت هذا، ويغني هذا ويفقر هذا، وقد حكم بعزة الإسلام وعلوه على الأديان. وجملة قوله: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ﴾؛ أي: لا راد لحكمه في محل النصب على الحال؛ أي: والله يحكم حالة كونه نافذاً حكمه خالياً عن المعارض والمناقض. ومعنى المعقب: الذي يعقب الشيء بالرد والإبطال.

والمعنى: أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس، وذلك كائن لا يمكن تغييره. وقيل: جملة ﴿لَا﴾ معترضة. ﴿وَهُوَ﴾

---

(1) روح البيان.
(2) المراح.
(3) المراغي.
(4) الشوكاني.

سبحانه وتعالى ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته على السرعة، فعما قريب[1] سيحاسبهم في الآخرة كفاء ما دنسوا به أنفسهم، وران على قلوبهم بارتكاب الآثام بعد أن يعذبهم في الدنيا بالقتل والأسر، فلا تستبطىء عقابهم، فإنه آت لا محالة وكل آت قريب. ثم بين أن قومه ليسوا ببدع في الأمم، فقد مكر كثير ممن قبلهم بأنبيائهم، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرَ﴾ الكفار ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: من قبل كفار مكة بمن أرسله الله إليهم من الرسل، فكادوهم وكفروا بهم، فنمرود مكر بإبراهيم، وفرعون مكر بموسى، واليهود مكروا بعيسى كما مكر أولئك بك في دار الندوة حيث أرادوا قتلك، ثم دارت الدائرة على الظالمين وأهلك الله الظالمين. والمكر: إيصال المكروه للممكور به خفية من حيث لا يشعر.

وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ وتصبير بأن العاقبة له لا محالة حيث أخبره أن هذا ديدن الكفار من قديم الزمان مع رسل الله سبحانه، ثم أخبره بأن مكرهم هذا كالعدم، وأن المكر كله لله، فقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ لا اعتداد بمكر غيره، وهذا تعليل لمحذوف تقديره: فلا عبرة بمكرهم ولا تأثير له. ثم فسر سبحانه هذا المكر الثابت له دون غيره، فقال: ﴿يَعْلَمُ﴾ سبحانه ﴿مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر، فيجازيها على ذلك، ومن علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها.. كان المكر كله له؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يشعرون. وقال الواحدي: إن مكر الماكرين مخلوق، فلا يضر إلا بإرادته. ا هـ. فإثباته لهم باعتبار الكسب، ونفيه عنهم باعتبار الخلق، فلا يَرد كيف أثبت لهم مكراً ثم نفاه عنهم بقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾؟ وفيه تسلية للنبي ﷺ وأمان له من مكرهم. ا هـ. «كرخي». ومكر الله سبحانه وتعالى صفة ثابتة له تعالى نثبته ولا نعطله، لا نمثله ولا نكيفه. وقيل: مكر[2] الله إهلاكهم من حيث لا يشعرون، شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة.

والمعنى: يعلم[3] سبحانه وتعالى ما تكسب كل نفس، فيعصم أولياءه

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

ويعاقب الماكرين بهم، ليوفي كل نفس جزاء ما كسبت. وفي هذا ما لا يخفى من شديد الوعيد والتهديد للكافرين الماكرين. ثم أكد هذا التهديد بقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾ إذا قدموا إلى ربهم يوم القيامة حين يدخل الرسول والمؤمنون الجنة، ويدخلون النار ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾؛ أي: لمن العاقبة المحمودة من الفريقين في الدار الآخرة، وإن جهلوا ذلك من قبل؛ أي: سيعلم[1] جنس الكافر لمن العاقبة المحمودة من الفريقين في دار الدنيا، أو الدار الآخرة، أو فيهما. وقيل: المراد بالكافر: أبو جهل.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر[2]: ﴿الكافر﴾ بالإفراد والمراد به الجنس. وقرأ الباقون: ﴿ٱلْكُفَّٰرُ﴾ بالجمع جمع تكسير، وابن مسعود شاذاً: ﴿الكافرون﴾ جمع سلامة. وأبيّ شاذا أيضاً: ﴿الذين كفروا﴾. وقرأ جناح بن حبيش: ﴿وسيعلم الكفار﴾ مبنياً للمفعول من أعلم؛ أي: وسيخبر وهي شاذة أيضاً.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قدم على رسول الله ﷺ أسقف من اليمن، فقال له عليه السلام: «هل تجدني في الإنجيل رسولاً»؟ قال: لا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: ويقول المشركون أو جميع الكفار ﴿لَسْتَ﴾ يا محمد ﴿مُرْسَلًا﴾ من عند الله إلى الناس. أي: ويقول الجاحدون لنبوتك الكافرون برسالتك: لست مرسلاً من عند الله، أرسلك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، وتدعوهم إلى عبادة إله واحد لا شريك له، وتنقذهم من عبادة الأصنام والأوثان، وتصلح حال المجتمع البشري، وتمنع عنه الظلم والفساد، فأمر الله سبحانه بأن يجيب عليهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى من جهة كونه ﴿شَهِيدًۢا﴾؛ أي: شاهداً ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فهو يعلم صحة رسالتي وصدق دعوتي، ويعلم كذبكم.

أي: قل حسبي الله شاهداً بتأييد رسالتي وصدق مقالتي؛ إذ أنزل علي هذا

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

الكتاب الذي أعجز البشر قاطبةً أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، والمراد بشهادة الله تعالى: إظهار المعجزات الدالة على صدقه في دعوى الرسالة ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: وكفى شهيداً بيني وبينكم من عنده علم الكتاب السماوي، وهم من أسلم من أهل الكتابين التوراة والإنجيل كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار وسلمان الفارسي وتميم الداري وآصف بن برخيا، فكل من كان عالماً بالتوراة والإنجيل علم أن محمداً مرسل من عند الله تعالى. وقد كان المشركون من العرب يسألون أهل الكتاب ويرجعون إليهم، فأرشدهم الله سبحانه في هذه الآية إلى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك. وقيل: المراد[1] بالكتاب القرآن، ومن عنده علم منه هم المسلمون. وقيل: المراد من عنده علم اللوح المحفوظ، وهو الله سبحانه وتعالى، واختار هذا الزجاج. وقال: لأن الأشبه أن الله لا يستشهد على خلقه بغيره.

و﴿من﴾ في قراءة[2] الجمهور في موضع خفض عطفاً على لفظ ﴿الله﴾، أو موضع رفع عطفاً على موضع ﴿الله﴾؛ إذ هو في مذهب من جعل الباء زائدة فاعل بكفى. وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون في موضع رفع الابتداء، والخبر محذوف تقديره: أعدل وأمضى قولاً، ونحو هذا مما يدل عليه لفظة ﴿شَهِيدًۢا﴾ ويراد بذلك الله تعالى. وقرىء شذوذاً[3]: ﴿بمن﴾ بدخول الباء على ﴿من﴾ عطفاً على ﴿بِٱللَّهِ﴾. وقرأ علي وأبيّ وابن عباس وعكرمة وابن جبير وعبد الرحمٰن بن أبي بكرة والضحاك وسالم بن عبد الله بن عمر وابن أبي إسحاق ومجاهد والحكم والأعمش: ﴿ومِنْ عندِه علمُ الكتاب﴾ بجعل ﴿من﴾ حرف جر وجر ما بعده به، وارتفاع ﴿علم﴾ بالابتداء، والجار والمجرور في موضع الخبر. وقرأ علي أيضاً وابن السميقع والحسن بخلاف عنه: ﴿ومِنْ عنده﴾ بجعل ﴿من﴾ حرف جر، ﴿عِلِم الكتاب﴾ بجعل ﴿عُلِمَ﴾ فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول، و﴿الكتابُ﴾ رفع به. وقرىء شذوذاً أيضاً: ﴿ومِنْ عندِه﴾ بحرف جر، ﴿عُلِّم الكتاب﴾ مشدداً مبنياً

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

للمفعول، و﴿الكتاب﴾ رفع به أيضاً، والضمير في ﴿عنده﴾ في هذه القراءات الثلاث عائد على ﴿الله﴾ تعالى، و﴿من﴾ لابتداء الغاية؛ أي: ومن عند الله سبحانه وتعالى حصل علم القرآن؛ لأن أحداً لا يعمله إلا من تعليمه.

ولما[1] أمر الله سبحانه نبيه أن يحتج عليهم بشهادة الله على رسالته، ولا يكون ذلك إلا بإظهار القرآن، ولا يعلم العبد كون القرآن معجزاً إلا بعد العلم بما فيه من أسراره.. بين الله تعالى أن هذا العلم لا يحصل إلا من عند الله تعالى.

خلاصة ما في هذه السورة[2]

ترى مما تقدم في تفسير هذه السورة أنها اشتملت على الأمور الآتية:

١ ـ إقامة الأدلة على التوحيد بما يرى من خلق السماوات والأرض، والجبال والأنهار، والزرع والنبات على اختلاف ألوانه وأشكاله، وهذا تفصيل لما أجمله في السورة قبلها من قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

٢ ـ إثبات البعث ويوم القيامة، والتعجب من إنكارهم له.

٣ ـ استعجالهم العذاب من الرسول ﷺ، وبيان أنه واقع بهم لا محالة، كما وقع لمن قبلهم من الأمم الغابرة.

٤ ـ بيان أن للإنسان ملائكة تحفظه وتحرسه، وتكتب عليه ما يكتسبه من الحسنات والسيئات بأمر الله.

٥ ـ ضرب الأمثال لمن يعبد الله وحده ولمن يعبد الأصنام بالسيل والزبد الرابي.

٦ ـ بيان حال المتقين الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

ويخافون سوء الحساب، وأقاموا الصلاة وأنفقوا في السر والعلن، وبيان مآلهم يوم القيامة.

٧ ـ بيان حال الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويفسدون في الأرض، وبيان مآلهم.

٨ ـ إنكار الشركاء مع إقامة الأدلة على أن لا شريك لله.

٩ ـ وصف الجنة التي وعد بها المتقون، وبيان أنها مآل المتقين، ومآل الكافرين النار وبئس القرار.

١٠ ـ بيان أن كثيراً ممن أسلموا من أهل الكتاب يفرحون بما ينزل من القرآن؛ إذ يرون فيه تصديقاً لما بين أيديهم من الكتاب.

١١ ـ بيان مهمة الرسول، وأن خلاصة ما جاء به عبادة الله وحده وعدم الشرك به، ودعاؤه لجلب النفع ودفع الضر، وأن إليه تعالى المرجع والمآب.

١٢ ـ بيان أن كل رسول أرسل بلغة قومه؛ ليسهل عليهم قبول دعوته وفهمها.

١٣ ـ تحذير الرسول ﷺ وأمته من قبول دعوة المشركين من بعد ما جاءهم من العلم.

١٤ ـ أن جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم كان لهم أزواج وذرية.

١٥ ـ أن المعجزات ليست بمشيئة الرسل يأتون بها كلما أرادوا، وإنما هي بإذن الله وإرادته.

١٦ ـ بيان أن هذه الحياة الدنيا إنما هي محو وإثبات، وموت وحياة، فيزيل الله قوماً ويوجد آخرين، وكل ذلك محفوظ في علم الله الذي لا تغيير فيه ولا تبديل.

١٧ ـ أن مهمة الرسول إنما هي التبليغ، أما الجزاء على مخالفة الأوامر فأمر ذلك إلى الله تعالى، ولا يعني الرسول أن يحصل في زمنه أو بعد وفاته.

١٨ ـ أن انتقام الله من المكذبين قد بدأ في حياة الرسول بقتل أعدائه

وأسرهم وتشريدهم في البلاد.

١٩ ـ أن مكر أولئك الكافرين بالرسول ليس ببدع جديد، فكثير من الأمم السابقة مكروا بأنبيائهم، وكان النصر حليف المتقين، ونكل الله بالقوم الظالمين.

٢٠ ـ إلحاف الكافرين في إنكار رسالته ﷺ، مع أن الله تعالى شهيد على ذلك بما أقام من الأدلة على صدقه، وكذلك شهادة من آمن من أهل الكتاب بوجود أمارات رسالته ﷺ في كتبهم وتبشيرها بها.

الإعراب

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

﴿وَلَقَدِ﴾ (الواو): استئنافية، و(اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿بِرُسُلٍ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل. ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿رسل﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿أمليت﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿أمليت﴾. ﴿فَكَيْفَ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت استهزاءهم بالرسل فإملائي لهم فأخذي إياهم.. فأقول لك يا محمد: كيف كان عقابي إياهم، هل هو واقع محله أم لا؟. ﴿كيف﴾: اسم استفهام للاستفهام التعجبي مع التقريع لهم في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليه وجوباً. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عِقَابِ﴾: اسمها مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة الممنوعة بسكون الوقف: ﴿عِقَابِ﴾: مضاف وياء المتكلم المحذوفة في محل الجر مضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

﴿أَفَمَنۡ﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف، و﴿من﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، خبره محذوف تقديره: كمن ليس كذلك من شركائهم التي لا تضر ولا تنفع، دل على ذلك قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿قَآئِمٌ﴾: خبره، والجملة الاسمية صلة الموصول، والتقدير: أعميتم وسويتم بين الله وبين خلقه، فمن هو قائم على كل نفس كائن كمن ليس كذلك، لا ليسوا مستويين، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قَآئِمٌ﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور حال من ﴿كُلِّ نَفۡسِۭ﴾؛ أي: حالة كونها ملتبسة بما كسبت. ﴿كَسَبَتۡۗ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿كُلِّ نَفۡسِۭ﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كسبته. ﴿وَجَعَلُواْ﴾: فعل وفاعل، وهو يتعدى إلى مفعولين أولهما محذوف تقديره: وجعلوا الأصنام شركاء لله. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿شُرَكَآءَ﴾. ﴿شُرَكَآءَ﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية مستأنفة، أو حال من ﴿كُلِّ نَفۡسِۭ﴾ كما مر في مبحث التفسير. ﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية مسأنفة. ﴿سَمُّوهُمۡۚ﴾: فعل وفاعل ومفعول به؛ لأنه بمعنى اذكروا أسماءهم أو صفوهم، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قُلۡ﴾. ﴿أَمۡ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول مرفوع بثبوت النون. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرورفي محل المفعول الثاني، والجملة مستأنفة. ﴿لَا يَعۡلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط المفعول المحذوف تقديره: بما لا يعلمه في الأرض ولا في السماوات. ﴿أَمۡ﴾: منقطعة بمعنى بل التي للإضراب الإبطالي كما في «الصاوي»، وهمزة الاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف تقديره: بل أتسمونهم بظاهر من القول. ﴿بِظَٰهِرٖ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني للفعل المحذوف. ﴿مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ﴾: جار ومجرور لـ﴿ظاهر﴾؛ أي: بل أتسمون تلك الأصنام بلفظ خالٍ عن المعنى، والجملة المحذوفة مستأنفة.

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿بَلْ﴾: حرف ابتداء وإضراب. ﴿زُيِّنَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق به، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿مَكْرُهُمْ﴾: نائب فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَصُدُّوا۟﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿زُيِّنَ﴾. ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: متعلق به. ﴿وَمَن﴾: (الواو): استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرطٍ لها، والرابط محذوف تقديره: ومن يضلله الله. ﴿فَمَا﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿ما﴾: تميمية أو حجازية. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم للمبتدأ، أو لـ﴿ما﴾ الحجازية. ﴿مِنْ﴾ زائدة. ﴿هَادٍ﴾: مبتدأ مؤخر، أو اسم ﴿ما﴾ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿هَادٍ﴾ بثبوت الياء وحذفها وقفاً سبعيتان، وفي الرسم محذوفة لا غير كالوصل.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿لَّهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾: جار ومجرور صفة لعذاب الدنيا، صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾: (الواو): عاطفة. (اللام): حرف ابتداء، ﴿عذاب الآخرة﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿أَشَقُّ﴾: خبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَمَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَاقٍ﴾. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿وَاقٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والتقدير: وما واقٍ من عذاب الله كائن لهم، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿ٱلَّتِى﴾: صفة لـ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾. ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف

تقديره: وعدها المتقون، وخبر المبتدأ محذوف تقديره: مثل الجنة التي وعدها المتقون كائن فيما يتلى عليك، والجملة مستأنفة. ﴿تَجْرِي﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلق به. ﴿الْأَنْهَارُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية مفسرة لذلك المحذوف، أو مستأنفة. ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مفسرة أو مستأنفة. ﴿وَظِلُّهَا﴾: مبتدأ حذف خبره لدلالة ما قبله عليه تقديره: وظلها دائم، والجملة معطوفة على جملة ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾. ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿اتَّقَوْا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ. ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان صلة الموصول. ﴿يَفْرَحُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَفْرَحُونَ﴾. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿أُمِرْتُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول محكي. ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية مع ﴿أَنْ﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: إنما أمرت بعبادة الله، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أُمِرْتُ﴾. ﴿وَلَا أُشْرِكَ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿أَعْبُدَ﴾. ﴿بِهِ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على محمد، والتقدير: أمرت بعبادة الله وعدم الإشراك به. ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَدْعُو﴾. ﴿أَدْعُو﴾: فعل

مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أُمِرْتُ﴾. ﴿وَإِلَيْهِ﴾ (الواو): عاطفة. ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَئَابِ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوف اجتزاء عنها بالكسرة الممنوعة بسكون الوقف. ﴿مَئَابِ﴾: مضاف وياء المتكلم المحذوفة في محل الجر مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أُمِرْتُ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والتقدير: وأنزلنا هذا القرآن عليك إنزالاً مثل إنزالنا الكتب السالفة على الرسل المتقدمة عليك، والجملة مستأنفة. ﴿حُكْمًا﴾: حال موطئة من ضمير المفعول، ولكنه في تأويل حاكماً. ﴿عَرَبِيًّا﴾: صفة لـ﴿حُكْمًا﴾. ﴿وَلَئِنِ﴾: (الواو): استئنافية، و(اللام): موطئة للقسم. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿بَعْدَ مَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿ٱتَّبَعْتَ﴾. ﴿جَآءَكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾. ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: حال من فاعل ﴿جَآءَكَ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿وَلِيٍّ﴾. ﴿مِن﴾ زائدة. ﴿وَلِيٍّ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَلَا وَاقٍ﴾: معطوف على ﴿وَلِيٍّ﴾ والتقدير: ما ولي ولا واق من الله كائن لك، والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم تقديره، وإن اتبعت أهوائهم بعد ما جاءك من العلم.. فما لك من الله من ولي ولا واق، وجملة الشرط معترضة بين القسم وجوابه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ (الواو): استئنافية. (اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿رُسُلًا﴾، أو متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَجَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جعلنا﴾. ﴿أَزْوَاجًا﴾: مفعول به؛ لأن جعل هنا بمعنى خلق. ﴿وَذُرِّيَّةً﴾: معطوف على ﴿أَزْوَاجًا﴾. ﴿وَمَا كَانَ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لِرَسُولٍ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿كَانَ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَأْتِيَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾. ﴿بِآيَةٍ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿رسول﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ تقديره: وما كان الإتيان بآية من الآيات كائناً لرسول من الرسل إلا بإذن الله، والجملة مستأنفة. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿كِتَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)﴾.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿يَشَاءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما يشاءه. ﴿وَيُثْبِتُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَمْحُوا﴾. ﴿وَعِندَهُ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.

﴿وَإِن﴾ (الواو): استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿مَّا﴾: زائدة. ﴿نُرِيَنَّكَ﴾: فعل مضارع ومفعول أول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بَعْضَ الَّذِي﴾: مفعول ثان ومضاف إليه. ﴿نَعِدُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة

الموصول، وجواب الشرط محذوف تقديره: فذاك شافيك من أعدائك، وجملة الشرط مستأنفة. ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: فعل ومفعول في محل الجزم معطوف على ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ على كونه شرطاً ثانياً، وفاعله ضمير يعود على الله، وجواب الشرط محذوف أيضاً تقديره: فلا تقصير منك ولا لوم عليك. ﴿فَإِنَّمَا﴾: (الفاء): تعليلية للجواب المحذوف. ﴿إنما﴾: أداة حصر. ﴿عَلَيْكَ﴾: خبر مقدم. ﴿الْبَلَاغُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إنما عليك البلاغ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ (الهمزة): للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف. (الواو): عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَرَوْا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾ والتقدير: أأنكروا نزول ما وعدناهم، أو شكوا في ذلك ولم يروا أنا نأتي الأرض، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿أَنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي رأى تقديره: أولم يروا إتياننا الأرض حالة كوننا ننقصها. ﴿نَنقُصُهَا﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مِنْ أَطْرَافِهَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿نَأْتِي﴾. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَحْكُمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿لاَ﴾: نافية. ﴿مُعَقِّبَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لِحُكْمِهِ﴾: متعلق به، وخبرها محذوف تقديره: موجود، وجملة﴿لَا﴾: في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَحْكُمُ﴾ على كونها خبر المبتدأ. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَقَدْ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿مَكَرَ الَّذِينَ﴾: فعل

وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. ﴿فَلِلَّهِ﴾: (الفاء): تعليلية. ﴿لله﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلۡمَكۡرُ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿جَمِيعٗاۖ﴾: حال من الضمير المستكن في الخبر، والجملة الاسمية في محل الجر مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿يَعۡلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿الله﴾، والجملة مستأنفة. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ لأنه بمعنى عرف. ﴿تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما تكسبه كل نفس. ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لِمَنۡ﴾: (اللام): حرف جر. ﴿من﴾: اسم استفهام في محل الجر باللام، الجار والمجرور خبر مقدم. ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية سادة مسد مفعولي علم معلق عنها باسم الاستفهام.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿يقول﴾. ﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل، و(الباء): زائدة. ﴿شَهِيدَۢا﴾: تمييز لفاعل ﴿كَفَىٰ﴾، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿بَيۡنِي﴾: ظرف متعلق بـ﴿شَهِيدَۢا﴾. ﴿وَبَيۡنَكُمۡ﴾: معطوف عليه. ﴿وَمَنۡ﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على فاعل ﴿كَفَىٰ﴾. ﴿عِندَهُۥ﴾: خبر مقدم. ﴿عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية صلة ﴿من﴾ الموصولة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ﴾ ومعنى الاستهزاء[1]: الاستحقار والاستهانة، والأذى

---

(١) روح البيان.

والتكذيب.

﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ والإملاء: الإمهال وأن يترك ملاءة من الزمان؛ أي: مدة طويلة منه في دعة وراحة وأمن، كالبهيمة في المرعى؛ أي: أطلت لهم المدة في أمن وسعة بتأخير العقوبة ليتمادوا في المعصية. ﴿ثُمَّ﴾ بعد الإملاء والاستدراج أخذتهم بالعقوبة.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾؛ أي: رقيب ومتول للأمور.

﴿تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾؛ أي: تخبرونه. ﴿بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: بباطل منه لا حقيقة له في الواقع.

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ بتخيلهم أباطيل، ثم ظنهم إياها حقاً والمكر[1]: صرف الغير عما يقصده بحيلة، والحيلة[2]: ما يتوصل به إلى المقصود بطريق خفي.

﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ والصد: المنع، والسبيل: هو سبيل الحق وطريقه؛ أي: منعوا عن طريق الهدى. وقرىء بفتح الصاد؛ أي: منعوا الناس عنه. وقد يستعمل صد لازماً بمعنى أعرض؛ أي: أعرضوا عنه.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وأصل العذاب[3] في كلام العرب من العذب، وهو المنع، يقال: عذبته عذباً إذا منعته، وسمي الماء عذباً؛ لأنه يمنع العطش، وسمي العذاب عذاباً؛ لأنه يمنع المعاقب من معاودة مثل جرمه، ويمنع غيره من مثل فعله.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾؛ أي: أشد وأصعب لدوامه، وهو عذاب النار، وعذاب نار القطيعة وألم البعد وحسرة التفريط في طاعة الله وندامة الإفراط في الذنوب والمعاصي، والحصول على الخسارات والهبوط من الدرجات ونزول الدركات.

---

(١) روح البيان.

(٢) قسطلاني على البخاري.

(٣) روح البيان.

﴿مِن وَاقٍ﴾؛ أي: حافظ ومانع حتى لا يعذبوا. ﴿وَاقٍ﴾: اسم فاعل من وقى يقي فهو واق بوزن قاض، أصله: واقي استثقلت الحركة على الياء، ثم حذفت فالتقى ساكنان وهما الياء والتنونين، ثم حذفت الياء لبقاء دالها، فصار واقٍ، فإعراب واق إعراب منقوص، فهو بحركة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ المثل: الصفة والنعت. قال ابن قتيبة: المثل الشبه في أصل اللغة، ثم قد يصير بمعنى صورة الشيء وصفته، يقال: مثلت لك كذا؛ أي: صورته ووصفته، فأراد هنا بمثل الجنة صورتها وصفتها. ا هـ. «الشوكاني».

﴿أُكُلُهَا﴾ والأكل - بضمتين - ما يؤكل من طعامها. ﴿دَآئِمٌ﴾؛ أي: لا ينقطع ولايمنع منه بخلاف ثمر الدنيا، والمراد بدوام الأكل: الدوام بالنوع لا الدوام بالجزء والشخص، فإنه إذا فنى منه شيء جيء ببدله، وهذا لا ينافي الهلاك لحظة، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ على أن دوامه مضاف إلى ما بعد دخول الجنة كما يقتضيه سوق الكلام عند هلاك كل شيء قبل الدخول لا ينافي وجوده وبقاءه بعده.

﴿وَظِلُّهَا﴾ دائم، والظل: واحد الظلال، والظلول والأظلال.

﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ والعقبى: مصدر كالبشرى والرجعى؛ أي: مآلهم ومنتهى أمرهم.

﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ والأحزاب واحدهم حزب: وهو الطائفة المتحزبة؛ أي: المجتمعة لشأن من الشؤون كحرب أو عداوة أو نحو ذلك. والمآب: المرجع. الواقي: الحافظ.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ والأجل: الوقت والمدة. ﴿كِتَابٌ﴾ والكتاب: الحكم المعين الذي يكتب على العباد بحسب ما تقتضيه الحكمة، والمراد بالأجل: أزمنة الموجودات، فلكل موجود زمان يوجد فيه محدود ولا يزاد عليه ولا ينقص، والمراد بالكتاب: صحف الملائكة التي تنسخها من اللوح المحفوظ. والمحو:

ذهاب أثر الكتابة.

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أصله: وهو علم الله تعالى، أو اللوح المحفوظ الذي لا يبدل ولا يغير. والأم[1]: أصل الشيء، والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الأصل للشيءأماً له، ومنه أم الرأس للدماغ، وأم القرى لمكة، والعندية عندية علم، والكتاب هو المذكور أولاً بقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ على القاعدة المشهورة عند البلغاء أن النكرة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأولى.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ مضارع أرى البصرية تعدى إلى مفعولين بالهمزة، وأكد بالنون الثقيلة.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾ والبلاغ: اسم مصدر لبلغ تبليغاً أقيم مقام المصدر، كالأداء مقام التأدية؛ أي: تبليغ الرسالة وأداء الأمانة لا غير.

﴿مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ والأطراف: الجوانب. ﴿لَا مُعَقِّبَ﴾ والمعقب: الذي يكر على الشيء فيبطله، ويقال لصاحب الحق: معقب؛ لأنه يقفو غريمه بالاقتضاء والطلب.

﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ والمكر: إرادة المكروه في خفية.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ﴾؛ لأن حق العبارة، وجعلوا له، فأقيم الظاهر مقام المضمر تقريراً للألوهية وتصريحاً بها.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ﴾.

قال الطيبي[2]: في هذه الآية احتجاج بليغ مبني على فنون من علم البيان:

---

(١) الفتوحات. (٢) الفتوحات.

أولها: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ كمن ﴿ليس كذلك﴾ احتجاج عليهم، وتوبيخ لهم على القياس الفاسد؛ لفقد الجهة الجامعة لهما.

ثانيهما: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ من وضع المظهر موضع المضمر للتنبيه على أنهم جعلوا شركاء لمن هو فرد واحد لا يشاركه أحد في اسمه.

ثالثها: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾؛ أي: عينوا أسماءهم، فقولوا: فلان وفلان، فهو إنكار لوجودها على وجه برهاني، كما تقول: إن كان الذي تدعيه موجوداً فسمه؛ لأن المراد بالاسم العلم.

رابعها: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ احتجاج من باب نفي الشيء أعني: العلم بنفي لازمه، وهو المعلوم، وهو كناية.

خامسها: ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ احتجاج من باب الاستدراج، والهمزة للتقرير لبعثهم على التفكر. المعنى: أتقولون بأفواهكم من غير روية وأنتم الباء، فتفكروا فيه لتقفوا على بطلانه.

سادسها: التدرج في كل من الإضرابات على ألطف وجه، وحيث كانت الآية مشتملة على هذه الأساليب البديعة مع اختصارها.. كان الاحتجاج المذكور منادياً على نفسه بالإعجاز، وأنه ليس من كلام البشر. ا هـ.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ولا في السماوات، وإنما خص الأرض، بنفي الشريك عنها، وإن لم يكن له شريك في غير الأرض؛ لأنهم ادعوا له شريكاً في الأرض.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾؛ أي: وظلها دائم حذف منه الخبر بدليل السياق.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾.

ومنها: تنكير ﴿رُسُلًا﴾ للدلالة على الكثرة.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ وفي قوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ وكلاهما قصر إضافي من باب قصر الموصوف على الصفة؛ أي: ليس لك من الصفات إلا صفة التبليغ.

ومنها: التهييج[1] والإلهاب والبعث للسامعين على الثبات على الدين، والتصلب فيه، لئلا يزل زال عند الشبه بعد استمساكه بالحجة في قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ وإلا فالرسول معصوم من اتباع أهوائهم؛ لأنه ﷺ كان من شدة الشكيمة بمكان.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: يأتيها أمرنا وعذابنا.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾ من التكلم إلى الغيبة لما في[2] بناء الحكم على الاسم الجليل من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة، وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلة.

فائدة: فسر بعضهم قوله تعالى: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أن نقصانها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير والصلاح، وهذا مروي عن مجاهد وابن عباس في رواية عنه، وأنشد بعضهم[3]:

---

(١) الكشاف.

(٢) أبو السعود.

(٣) ابن كثير.

ٱلأَرْضُ تَحْيَا إِذَا مَا عَاشَ عَالِمُهَا   مَتَىٰ يَمُتْ عَالِمٌ مِنْهَا يَمُتْ طَرَفُ
كَٱلأَرْضِ تَحْيَا إِذَا مَا ٱلْغَيْثُ حَلَّ بِهَا   وَإِنْ أَبَى عَادَ فِيْ أَكْنَافِهَا ٱلتَّلَفُ

والله سبحانه وتعالى أعلم[1]

* * *

(١) وقد حصل الفراغ من تفسير سورة الرعد بتوفيق الله تعالى وتيسيره قبيل الغروب، في اليوم الخامس من شهر الله رجب الفرد من شهور سنة ألف وأربع مئة وإحدى عشرة (١٤١١/٧/٥ هـ) من الهجرة المصطفوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية وصلى الله سبحانه وتعالى وسلم على سيدنا ومولانا محمد ﷺ خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين آمين.

سورة إبراهيم عليه السلام

سورة إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام مكية كلها، كما[1] أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس، وأخرجه ابن مردويه أيضاً عن الزبير، وحكاه القرطبي عن الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وقتادة إلا آيتين منها مدنيتين. وقيل: إلا ثلاث آيات نزلت في الذين حاربوا رسول الله ﷺ وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾. وأخرج النحاس في ناسخه عن ابن عباس قال: وهي مكية إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة، وهي: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾.. الآيتين. نزلتا في قتلى بدر من المشركين.

التسمية: سميت بسورة إبراهيم[2]؛ لذكر قصته فيها. فإن قلت: إن قصة إبراهيم قد ذكرت في غير هذه السورة كـ: الأنبياء والبقرة.

قلت: إن علة التسمية لا تقتضي اطراد التسمية، بل التسمية أمر توقيفي. وآياتها إحدى، أو اثنتان، أو أربع، أو خمس وخمسون آية، ففي آياتها أربعة أقوال. وكلماتها[3] ثمان مئة وإحدى وستون كلمة، وحروفها ثلاثة آلاف وأربع مئة وأربعة وثلاثون حرفاً.

المناسبة: ومناسبة هذه السورة للسورة التي قبلها من وجوه[4]:

١ ـ أنه قد ذكر سبحانه في السورة السابقة أنه أنزل القرآن حكماً عربياً، ولم يصرح بحكمة ذلك وصرح بها هنا.

٢ ـ أنه ذكر في السورة السالفة قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهنا ذكر أن الرسل قالوا: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) الشوكاني.
(٢) الصاوي.
(٣) الخازن.
(٤) المراغي.

٣ ـ ذكر هناك أمره ﷺ بالتوكل على الله وهنا حكى عن إخوانه المرسلين أمرهم بالتوكل عليه جلّ شأنه.

٤ ـ اشتملت تلك السابقة على تمثيل الحق والباطل، واشتملت هذه على ذلك أيضاً.

٥ ـ ذكر هناك رفع السماء بغير عمد، ومدّ الأرض، وتسخير الشمس والقمر، وذكر هنا نحو ذلك.

٦ ـ ذكر هناك مكر الكفار، وذكر مثله هنا، وذكر من وصفه ما لم يذكر هناك.

الناسخ والمنسوخ: وقال أبو[1] عبد الله محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه «الناسخ والمنسوخ»: سورة إبراهيم عند جميع المفسرين محكمة ليس فيها منسوخ إلا عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، فإنه قال: فيها آية منسوخة، والجمهور على خلاف قوله، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ نسخت بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ في سورة النحل آية (١٨) انتهى.

فضلها: ومن فضائلها ما روي عن النبي ﷺ أنه قال[2]: «من قرأ سورة إبراهيم أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام وعدد من لم يعبد» رواه ابن مردويه والثعلبي والواحدي، وهو موضوع كما ذكره العراقي.

والله أعلم

* * *

(١) الناسخ والمنسوخ.

(٢) الخازن.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

المناسبة

مناسبة أول هذه السورة للسورة قبلها واضح جداً[1]؛ لأنه ذكر في السورة

---

(١) البحر المحيط.

قبلها: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾، ثم ذكر قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾، ثم قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، فناسب هذه قوله في هذه السورة: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ وأيضاً، فإنهم لما قالوا في السورة السابقة على سبيل الاقتراح: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وقيل له: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.. أنزل في هذه السورة: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ وهي الضلال. ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾: وهو الهدى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما بين أنه أرسل نبيه محمداً ﷺ إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وأن في هذا الإرسال نعمة له ولقومه.. أتبع ذلك بذكر قصص بعض الأنبياء، وتفصيل ما لاقوه من أقوامهم من شديد الأذى والتمرد والعناد؛ لما في ذلك من التسلية له وجميل التأسي بهم، وبيان أن المقصود من بعثة الرسل واحد: وهو إخراج الخلق من ظلمات الضلالات إلى أنوار الهدايات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنه[2] لما تقدم أمره تعالى لموسى بالتذكير بأيام الله.. ذكرهم بما أنعم تعالى عليهم من نجاتهم من آل فرعون، وفي ضمنها تعداد شيء مما جرى عليهم من نقم الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر ما ذكر به موسى قومه بما أولاهم به من نعمة، ورفع عنهم من نقمة، ثم ذكر وعده تعالى بالزيادة لمن شكر ووعيده بالعذاب لمن كفر، ثم حذرهم بأن الكفران لا يضير ربهم، وأنه غني عن حمدهم، وحمد من في الأرض جميعاً، يذكرهم بأيام الله فيمن قبلهم من الأمم السالفة والأجيال البائدة بأسلوب طلي ومقال

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

جلي.. فذكر القول أولاً على سبيل الإجمال، ثم أتبعه بمحاورة بين الرسل وأقوامهم، أقام فيها الرسل الحجة على أممهم، ودحض ما تمسكوا به من الترهات والأباطيل.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ...﴾ الآية، سبب نزولها: أن قريشاً قالوا: ما بال الكتب كلها أعجمية وهذا عربي؟ فنزلت هذه الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓر﴾[1] يشير بالألف إلى القسم بآلائه ونعمائه، وباللام إلى لطفه وكرمه وبالراء إلى القرآن، يعني: قسماً بآلائي ونعمائي إن صفة لطفي وكرمي اقتضت إنزال القرآن وهو كتاب... إلخ، وتقدم في سورتي يونس وهود طريقة قراءته، **والمعنى**: المراد منه بما أغنى عن إعادته هنا. وقوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هذا القرآن المشتمل على هذه السورة وغيرها كتاب ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ يا محمد بواسطة جبرائيل حالة كونه حجة على رسالتك بإعجازه. ثم بين المصلحة في إنزال الكتاب على رسول الله ﷺ بقوله: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ كافةً بدعائك وإرشادك إياهم إلى ما تضمَّنه الكتاب من العقائد الحقَّة والأحكام النافعة. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: من أنواع الضلالة إلى الهدى، ومن ظلمة الكفر والنفاق والشك والبدعة إلى نور الإيمان والإخلاص واليقين والسنة ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: بحوله وقوته؛ أي: لا سبيل له إلى ذلك إلا به، وإنما قال: ﴿رَبِّهِمْ﴾: لأنه تعالى مربيهم، ولم يقل: بإذن ربك، ليعلم أن هذه التربية من الله تعالى، لا من النبي عليه السلام..

واعلم[2]: أن الدعوة عامة، والهداية خاصة كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ وإذن الله شامل لجميع الناس

---

(١) روح البيان.　(٢) روح البيان.

في الظلمات، إذ المقصود من إيجاد العوالم وإنشاء النشآت كلها ظهور الإنسان الكامل، وقد حصل وهو الواحد الذي كالألف وهو السواد الأعظم، فلا تقتضي الحكمة إتفاق الكل على الحق؛ لأن لله تعالى جمالاً وجلالاً لابدّ لكليهما من أثر.

والمعنى: هذا القرآن الذي نتلوه عليك كتاب أنزلناه إليك أيها الرسول؛ لتنقذ[1] الناس من ظلمات الضلالة والكفر إلى نور الإيمان وضيائه، وتبصِّر به أهل الجهل والعمى سبيل الرشاد والهدى بما اشتمل عليه من واضح الآيات البينات المرشدة إلى النظر في حقائق الكون الدالة على وحدانية الله تعالى، وأنه لا شريك له، وأن الواجب عبادته وحده، ثم دعاؤه لجلب النفع وكشف الضر، وفيها أيضاً سعادة البشر وصلاحهم في الدنيا والآخرة بإذن ربهم، وتوفيقه ولطفه بهم بإرسال نور الهدى إلى قلوبهم، فيسلكون طرق الفلاح والصلاح.

وقوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بدل من قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بتكرير العامل وإضافة الصراط إلى العزيز، وهو الله على سبيل التعظيم له، والمراد به: دين الإسلام، فإنه طريق موصل إلى الجنة والقربة والوصلة، والعزيز: الغالب الذي ينتقم لأهل دينه من أعدائهم، والحميد: المحمود الذي يستوجب بذلك الحمد من عباده.

والمعنى: لتخرج الناس إلى الصراط المستقيم، وهو الطريق الذي ارتضاه الله لخلقه وشرعه لهم؛ وهو العزيز الذي لا يغالب المحمود في جميع أفعاله وأقواله وأمره ونهيه. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ...﴾ الآية، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ...﴾ الآية. وقوله: ﴿ٱللَّهِ﴾ بالجر عطف بيان لـ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾؛ لأنه علم للذات الواجب الوجود الخالق العالم، وقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الموجودات من العقلاء وغيرهم صفة للجلالة؛

---

(١) المراغي.

أي: هو الله المتصف بملك ما فيهما خلقاً وتصرفاً وتدبيراً.

وفيه[1] إشارة إلى أن سير السائرين إلى الله لا ينتهي بالسير في الصفات وهو العزيز الحميد، وإنما ينتهي بالسير في الذات وهو الله، فالمكونات أفعاله، فمن بقي في أفعاله لا يصل إلى صفاته، ومن بقي في صفاته لا يصل إلى ذاته، ومن وصل إلى ذاته وصولاً بلا اتصال ولا انفصال، بل وصولاً بالخروج من أنانيته إلى هويته تعالى ينتفع به في صفاته وأفعاله، قال الملاّ الجامي رحمه الله تعالى:

سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا　　عَلَّمْتَ وَأَلْهَمْتَ لَنَا إِلْهَامَا

وهذه[2] الجملة الدالة على عظمة خالق الأكوان المنفرد بالعظمة والسلطان قد كررت في كثير من سور الكتاب الكريم للتنبيه إلى أن من أهم مقاصد هذا الدين أن يكون في المسلمين حكماء ربانيون يتفهمون حقائق هذا الكون، ويدركون أسرار بدائعه، ويستخرجون للناس ما في باطن الأرض، وينتفعون بما في ظاهرها، ويتأملون فيما في السماوات من بديع الصنع وما تقدمه لنا من الخير العميم الذي ينتفع منه الإنسان والحيوان في مأكلهما ومشربهما ومسكنهما وسائر حاجاتهما ومرافقهما.

وجاء في سورة يوسف توبيخاً للغافلين، وحثاً لهمم المستبصرين: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ ومع كل هذا فوا أسفاً رأينا كثيراً من المسلمين الذين تتلى عليهم هذه الآية صباح مساء يكتفون بمجرد تلاوتها والإيمان بها دون بحث ولا تفهم لمغزاها ولا المراد منها، ولا استبصار بما تنطوي عليه من المقاصد والمرامي، ولو كان ذلك كافياً؛ لكان ذكر الخبز حين الجوع كافياً في الشبع، والنظر إلى الماء كافياً في الري.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر[3]: ﴿الله﴾ ـ بالرفع ـ على أنه خبر مبتدأ

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط والشوكاني.

محذوف؛ أي: هو الله المتصف بملك ما في السماوات وما في الأرض. وقرأ باقي العشرة والأصمعي عن نافع: ﴿ٱللَّهِ﴾ - بالجرّ - على أنه بدل في قول ابن عطية والحوفي وأبي البقاء، وعلى أنه عطف بيان على قول الزمخشري؛ لكونه من الأعلام الغالبة كالنجم على الثريا؛ لغلبته واختصاصه بالمعبود الذي يحق له العبادة، فلا يصح وصف ما قبله به؛ لأن العلم لا يوصف به. وقيل: يجوز أن يوصف به من حيث المعنى. وقال أبو عمرو: إن قراءة الجر محمولة على التقديم والتأخير، والتقدير: إلى صراط الله العزيز الحميد، وكان يعقوب إذا وقف على الحميد رفع، وإذا وصل خفض. قال ابن الأنباري: من خفض وقف على ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾.

ثم توعد سبحانه الذين جحدوا آياته وكفروا بوحدانيته، فقال: ﴿وَوَيۡلٞ﴾ الويل[1]: الهلاك والدمار، وهو مبتدأ خبره ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ بالكتاب، وأصله: النصب كسائر المصادر إلا أنه لم يشتق منه فعل، لكنه عدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه، فيقال: ويل لهم كسلام عليكم ﴿مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ ﴿مِنۡ﴾: لبيان الجنس صفة لـ﴿ويل﴾، أو حال من ضميره في الخبر، أو ابتدائية متعلقة بالويل على معنى: إنهم يولون ويصيحون ويضجون من العذاب الشديد الذي صاروا إليه، ويقولون: يا ويلاه كقوله تعالى: ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾.

والمعنى: أي وهلاك[2] ودمار بشديد العذاب يوم القيامة لمن كفر بك ولم يستجب دعوتك بإخلاص التوحيد لخالق السماوات والأرض، وترك عبادة من لا يملك لنفسه شيئاً، بل هو مملوك له تعالى؛ لأنه بعض ما في السماوات ثم وصف سبحانه أولئك الكافرين بصفات ثلاث:

١ - ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الموصول في محل الجر

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

بدل من ﴿الكافرين﴾ أو صفة له، والاستحباب: استفعال من المحبة؛ أي: وويل وهلاك بعذاب شديد كائن للكافرين الذين يختارون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الحياة الآخرة الأبدية، فإن المؤثر للشيء على غيره، كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها وأفضل عندها من غيره.

قال ابن عباس[1] ـ رضي الله عنهما ـ: يأخذون ما تعجل فيها تهاوناً بأمر الآخرة، وهذا من أوصاف الكافر الحقيقي، فإنه يجد ويجتهد في طلب الدنيا وشهواتها، ويترك الآخرة بإهمال السعي في طلبها، واحتمال الكلفة والمشقة في مخالفة هوى النفس وموافقة الشرع، فينبغي للمؤمن الحقيقي أن لا يرضى باسم الإسلام، ولا يقنع بالإيمان التقليدي، فإنه لا يخلو عن الظلمات بخلاف الإيمان الحقيقي، فإنه نور محض وليس فيه تغيير أصلاً.

والمعنى: أي إن أولئك الكافرين يطلبون الدنيا ويعملون لها ويتمتعون بلذاتها، ويقترفون الآثام ويرتكبون الموبقات، ويؤثرون ذلك على أعمال الآخرة التي تقربهم إلى الله زلفى، وينسون يوماً تجازى فيه كل نفس بما عملت، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وفصيلته التي تؤييه ومن في الأرض جميعاً.

٢ ـ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ويمنعونهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عن قبول دينه الذي شرعه لعباده، وجملة ﴿يصدون﴾ وكذلك ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ معطوفتان على ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾؛ أي: ويمنعون من تتجه عزائمهم إلى الإيمان بالله، واتباع رسوله فيما جاء به من عند ربه أن يؤمنوا به ويتبعوه؛ لما زين لهم الشيطان من سلوك سبيل الطغيان، وران على قلوبهم من الفجور والعصيان، والبعد عن كل ما يقرب إلى الرحمٰن. وقرأ الحسن شذوذاً[2]: ﴿ويُصِدُّونَ﴾ مضارع أصد الداخل عليه همزة النقل، من صد اللازم صدوداً.

٣ ـ ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾؛ أي: ويبغون لها، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

الضمير ﴿عِوَجًاۚ﴾؛ أي: ويطلبون لها زيغاً واعوجاجاً وميلاً عن الحق؛ لموافقة أهوائهم وقضاء حاجاتهم وأغراضهم؛ أي: يقولون لمن يريدون صده وإضلاله: إنها سبيل ناكبة وزائغة غير مستقيمة.

والمعنى: أي[١] ويطلبون لها الزيغ والعوج، وهي أبعد ما تكون من ذلك، ويقولون لمن يريدون صدهم وإضلالهم عن سبيل الله ودينه، إن ذلك الدين ناء عن الصراط المستقيم وزائغ عن الحق واليقين، وإنك لتسمع كثيراً من الملحدين يقول: إن القوانين الإسلامية في الحدود والجنايات شديدة غاية الشدة، وإنها تصلح للأمم العربية في البادية، لا للأمم التي أخذت قسطاً عظيماً من الحضارة ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

فتلك شريعة دانت لها أمة غيرت وجه البسيطة[٢]، وملكت ناصية العالم ردحاً من الزمان، وكانت مضرب الأمثال في العدل وترك الجور، وثلت عروش الأكاسرة والقياصرة، وامتلكت بلادهم، وأزالت عزهم وسلطانهم إلى أن غير أهلها معالمها، فأركسهم الله بما كسبوا، فبدل عزهم ذلاً وسعادتهم شقاء، وتلك سنة الله أن الأرض يرثها عباده الصالحون لاستعمارها. واجتماع هذه الخصال الثلاثة نهاية الضلال، ولهذا وصف ضلالهم بالبعد عن الحق، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالقبائح المذكورة ﴿فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ عن طريق الحق؛ أي: ضلوا ووقعوا عنه بمراحل، فلا يوجد ضلال أكمل من هذا الضلال.

والبعد في الحقيقة من أحوال الضال[٣]؛ لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق، فوصف به فعله مجازاً للمبالغة، وفي جعل الضلال محيطاً بهم إحاطة الظرف بما فيه ما لا يخفى من المبالغة؛ أي: فهم باختيارهم لأنفسهم حب العاجلة، وصدهم عن الدين وابتغائهم له الزيغ والعوج في ضلال بعيد عن الحق، لا يرجى لهم فلاح، وأنى لهم ذلك وقد كبوا على وجوههم، وزين لهم الفساد والغي،

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

فيرون حسناً ما ليس بالحسن، وقبيحاً ما ليس بالقبيح. ثم بين سبحانه كمال نعمته وإحسانه إلى عباده، فذكر أنه يرسل رسله إلى أقوامهم بلغاتهم كي لا يشق عليهم فهم الدين وحفظه، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾؛ أي: وما أرسلنا رسولاً من الرسل قبلك إلى أمة من الأمم من قبل قومك ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: إلا متلبساً بلغة قومه الذين أرسلناه إليهم ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ ذلك الرسول ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لقومه ويفهمهم ما أرسل به إليهم من أمره ونهيه بسهولة ويسر، ولتقوم عليهم الحجة وينقطع العذر، وقد جاء هذا الكتاب بلغتهم، وهو يتلى عليهم، فأي عذر لهم في أن لا يفقهوه، وما الذي صدهم عن أن يدرسوه ليعلموا ما فيه من حكم وأحكام وحلال وحرام وإصلاح لنظم المجتمع ليسعدوا في حياتهم الدنيا والآخرة. ولفظ اللسان يستعمل فيما هو بمعنى العضو وبمعنى اللغة، والمراد هنا: هو الثاني؛ أي: بلغة قومه الذي هو منهم وبعث فيهم.

فإن قلت: لم يُبعثْ[1] رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم وإنما بعث إلى الناس جميعاً بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ بل هو مبعوث إلى الثقلين الجن الإنس وهم على ألسنة مختلفة ولغات شتى، وقوله: ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ وليس قومه سوى العرب يقتضي بظاهره أنه مبعوث إلى العرب خاصة، فكيف يمكن الجمع؟

قلتُ: بُعثَ رسول الله ﷺ من العرب وبلسانهم، والناس تبع للعرب، فكان مبعوثاً إلى جميع الخلق؛ لأنهم تبع للعرب، ثم إنه ﷺ يبعث الرسل إلى الأطراف والنواحي، فيترجمون لهم بألسنتهم، ويدعونهم إلى الله تعالى بلغاتهم. والنبي[2] ﷺ وإن أرسل إلى الناس جميعاً ولغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة، فإرساله بلسان قومه أولى من إرساله بلسان غيره، لأنهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ويوضحونه لهم حتى يصير مفهوماً لهم كما فهموه، ولو نزل بلغات من أرسل إليهم وبينه لكل قوم بلسانهم. . . لكان ذلك مظنة للاختلاف وفتحاً لباب التنازع؛ لأن كل أمة قد تدعي

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

من المعاني في لسانها ما لا يعرفه غيرها، وقد يفضي ذلك إلى التحريف والتصحيف بسبب الدَّعاوي الباطلة التي يقع فيها المتعصبون.

وقيل[1]: يحتمل أنه أراد بـ﴿قَوْمِهِۦ﴾ أهل بلده وفيهم العرب وغير العرب، فيدخل معهم من كان من غير جنسهم في عموم الدعوى. وقيل: إن الرسول إذا أرسل بلسان قومه، وكانت دعوته خاصة، وكان كتابه بلسان قومه.. وكان أقرب لفهمهم عنه، وقيام الحجة عليهم في ذلك، فإذا فهموه ونقل عنهم انتشر عنهم علمه، وقامت التراجم ببيانه وتفهيمه لمن يحتاج إلى ذلك ممن هو من غير أهله، وإذا كان الكتاب واحداً بلغة واحدة مع اختلاف الأمم وتباين اللغات.. كان ذلك أبلغ في اجتهاد المجتهدين في تعليم معانيه وتفهيم فوائده وغوامضه وأسراره وعلومه، وجميع حدوده وأحكامه.

قلتُ: هذا الإشكال لا يأتي من أول الأمر، لأن معنى الآية: وما أرسلنا قبلك يا محمد من رسول من الرسل الكرام قبلك إلى أمة من الأمم الذين قبل أمتك إلا بلغة قومه؛ ليبين لهم، لأن ذلك الرسول مرسل إلى قومه خاصة كما أشرنا إليه في الحل بخلاف رسالتك، فإنها عامة وأنت سيد الأنبياء وخاتم المرسلين، وأمتك خير الأمم وأفضلهم، فأردنا أن نجمع أمتك على كتاب واحد منزل بلسان هو سيد الألسنة وأشرفها وأفضلها إعطاء للأشرف الأشرف، وذلك هو اللسان العربي الذي هو لسان قومه، ولسان أهل الجنة، فكان سائر الألسنة تابعاً له كما أن الناس تابع للعرب انتهى.

وفي «الفتوحات»: والأولى[2] أن يحمل القوم على من أرسل إليهم الرسول أياً كان، وهم بالنسبة لغير سيدنا محمد ﷺ خصوص عشيرة رسولهم، وبالنسبة إليه كل من أرسل إليه من سائر القبائل وأصناف الخلق وهو ﷺ كان يخاطب كل قوم بلغتهم، وإن لم يثبت أنه تكلم باللغة التركية؛ لأنه لم يتفق أنه خاطب أحداً من أهلها، ولو خاطبه لكلمه بها، تأمل. انتهى.

---

(١) الخازن.

(٢) الفتوحات.

وقرأ أبو السمال وأبو الجوزاء وأبو عمران الجوني شذوذاً[1]: ﴿بلسن قومه﴾ بإسكان السين، قالوا: هو كالريش والرياش. وقال صاحب «اللوامح» واللسن: خاص باللغة، واللسان قد يقع على العضو وعلى الكلام. وقال ابن عطية مثل ذلك، قال اللسان في هذه الآية يراد به اللغة، ويقال: لسن ولسان في اللغة، فأما العضو فلا يقال فيه: لسن. وقال أبو رجاء وأبو المتوكل والجحدري شذوذاً أيضاً: ﴿لسن﴾ بضم اللام والسين، وهو جمع لسان كعماد وعمد. وقرىء شاذاً أيضاً بضم اللام وسكون السين مخففاً كرسل ورسل.

وبعد أن بين سبحانه أنه لم يكن للناس من عذر في عدم فهم شرائعه.. ذكر أن الهداية والإضلال بيده ومشيئته، فقال: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إضلاله؛ أي: يخلق فيه الكفر والضلال لمباشرة الأسباب المؤدية إليه ﴿وَيَهْدِى﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايته؛ أي: يخلق فيه الإيمان والاهتداء لاستحقاقه له لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق. وجملة قوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ استئناف إخبار، ولا يجوز نصبه عطفاً على ما قبله؛ لأن المعطوف كالمعطوف عليه في المعنى، والرسل أرسلت للبيان لا للإضلال. قال الزجاج: لو قرىء بنصبه على أن اللام لام العاقبة جاز. ا هـ. «سمين».

والخلاصة[2]: أي إن الناس فريقان: فريق هداه الله وأضاء نور قلبه وشرح صدره للإسلام، فاتبع سبيل الرشاد، وفريق رانت على قلبه الغواية والضلالة بما اجترح من الآثام، وأوغل فيه من المعاصي والذنوب، وذلك كله بتقديره تعالى ومشيئته، لا راد لقضائه ولا دافع لحكمه.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب على كل شيء، فلا يغالب في مشيئته ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه الذي لا يفعل شيئاً من الإضلال والهداية إلا لحكمة بالغة، فلا يفعل إلا ما تقتضيه السنن العامة في خلقه والنواميس التي وضعها لصلاح

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

حال عباده وضلالهم ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾. وفيه[1] أن ما فوض إلى الرسل إنما هو تبليغ الرسالة، وتبيين طريق الحق، وأما الهداية والإرشاد إليه فذلك بيد الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ثم لما بين سبحانه وتعالى أن المقصود من بعثة نبينا محمد ﷺ هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور.. أراد أن يبين أن الغرض من إرسال الأنبياء لم يكن إلا ذلك. وخصّ موسى[2] بالذكر؛ لأن أمته أكثر الأمم المتقدمة على هذه الأمة المحمدية، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ أي: وكما أرسلناك أيها الرسول وأنزلنا عليك الكتاب؛ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، وعزتي وجلالي لقد أرسلنا موسى بن عمران إلى بني إسرائيل، وأيدناه بآياتنا التسع التي سلف ذكرها في سورة الأعراف في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ﴾ الآية. وأمرناه بـ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: وأمرناه بأن يدعو قومه إلى الإيمان بالله وتوحيده؛ ليخرجوا من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى والإيمان.

وقال أبو السعود[3]: الآيات معجزاته التي أظهرها لبني إسرائيل، والمراد: إخراجهم بعد مهلك فرعون من الكفر والجهالات التي أدتهم إلى أن يقولوا: يا موسى اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة إلى الإيمان بالله وتوحيده وسائر ما أمروا به انتهى. ولما[4] كان نبينا محمد ﷺ مبعوثاً إلى الناس كافة.. قال تعالى في حقه: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ ولم يقل: لتخرج قومك كما قال في موسى عليه السلام أن أخرج قومك وخصص. وقال هنالك: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ وطواه هنا؛ لأن الإخراج بالفعل قد تحقق في دعوته ﷺ، فكانت أمته أمة دعوة وإجابة، ولم يتحقق في دعوة موسى، إذ لم يجبه القبط إلى أن هلكوا، وإن أجابه بنو إسرائيل، والعمدة في رسالته كان القبط.

﴿و﴾ أمرناه بأن ﴿ذكرهم﴾؛ أي: ذكر قومك وعظهم مرغّباً لهم في ثواب

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) أبو السعود.

(٤) روح البيان.

الله بتذكيرهم ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بنعم الله سبحانه وتعالى عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل في الأمم السابقة؛ ليكون في ذلك حافزاً لهم على العمل، ويكون لهم بمن سلف أسوة، وذكرهم وعظهم مخوفاً لهم بتذكيرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل من الأمم الغابرة كعاد وثمود؛ ليكون لهم في ذلك مزدجر، وليحذروا أن يحل بهم مثل ما حلّ بهم.

والمعنى: عظهم بالترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وأيام الله[1] في جانب موسى عليه السلام، منها ما كان محنة وبلاء، وهي الأيام التي كان فيها بنو إسرائيل تحت قهر فرعون واستعباده، ومنها ما كانت نعمة كإنجائهم من عدوهم وفلق البحر لهم، وإنزاله المنّ والسلوى عليهم.

وفي «تفسير ابن جرير»: ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأنواع عقوباته الفائضة، ونعمه الباطنة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة، فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه ا هـ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التذكير بأيام الله، أو في نفس أيام الله ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عظيمة أو كثيرة؛ أي: لدلائل دالة على وحدانية الله تعالى وقدرته ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾؛ أي: كثير الصبر على المحن والبلايا ﴿شَكُورٍ﴾؛ أي: كثير الشكر على المنح والعطايا؛ لأنه[2] إذا سمع بما نزل على من قبله من البلاء وأفيض عليهم من النعماء اعتبر وتنبه لما يجب عليه من الصبر والشكر. ا هـ. «بيضاوي». كأنه[3] قال: لكل مؤمن كامل؛ إذ الإيمان نصفان: نصفه صبر، ونصفه شكر، وتخصيص الآيات بهم؛ لأنهم المنتفعون بها، لا لأنها خافية عن غيرهم، فإن التبيين حاصل بالنسبة إلى الكل، وتقديم الصبر لكون الشكر عاقبته. وعبارة «الكرخي»: وتقديم الصبار على الشكور؛ لتقدم متعلق الصبر، أعني: البلاء على متعلق الشكر، أعني: النعماء وكون الشكر عاقبة الصبر. ا هـ.

---

(١) المراغي.
(٢) البيضاوي.
(٣) روح البيان.

قال قتادة: نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إن أمر المؤمن كله عجب لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً، إن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له».

وفي هذا[1] إيماء إلى أن الإنسان في هذه الحياة يجب أن يكون بين صبر وشكر أبداً؛ لأنه: إما في مكروه يصبر عليه، وإما في محبوب يشكر عليه. والوقت في هذه الحياة ذهب، فمتى ضاع من حياتنا زمن دون عمل نسدي فيه خدمة لأنفسنا ولديننا ووطننا، فقد كفرنا النعمة وأضعنا الفرصة، ولم نعتبر بما حل بمن قبلنا من الأمم الغابرة، فليحذر كل امرىء أن يضيع حياته بلا عمل، وليخف على وقت يضيع، ثم بعده عذاب سريع.

ولما سمع موسى أمر ربه امتثله، وأخذ يذكر قومه بأيام الله كما حكى الله عنه، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لقومك قصة إذ قال موسى لقومه بني إسرائيل: يا قوم ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: تذكروا إنعام الله سبحانه وتعالى عليكم ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: وقت إنجائه إياكم من فرعون وآله؛ أي: قومه حين كانوا ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: يذيقونكم أشد العذاب، ويكلفونكم من الأعمال ما لا يطاق مع القهر والإذلال ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ تذبيحاً كثيراً ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾ المولودين صغاراً ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾؛ أي: ويبقون نسائكم وبناتكم في الحياة ذليلات في الخدمة مستضعفات فيها، وهذا رزء من أشد الأرزاء، وأعظم أنواع البلاء. قال شاعرهم:

وَمِنْ أَعْظَمِ ٱلرُّزْءِ فِيمَا أَرَىٰ ... بَقَاءُ ٱلْبَنَاتِ وَمَوْتُ ٱلْبَنِينَا

وفي «الكرخي»: فإن قيل[2]: استحياء النساء كيف يكون ابتلاء؟

قلنا: كانوا يستخدمونهن بالاستعباد والإرقاق، ويفردونهن عن الأزواج،

---

(١) المراغي.

(٢) الفتوحات.

وذلك من أعظم المضار والابتلاء؛ إذ الهلاك أسهل من هذا. ا هـ.

وقوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ من عطف[1] الخاص على العام، كأن التذبيح لشدته وفظاعته وخروجه عن مرتبة العذاب المعتاد جنس آخر، ولو جاء بحذف الواو كما في البقرة والأعراف.. لكان تفسيراً للعذاب، وبياناً له، وإنما فعلوا ذلك؛ لأن فرعون رأى في المنام أن ناراً أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت بيوت القبط دون بيوت بني إسرائيل، فخوفه الكهنة، وقالوا له: إنه سيولد منهم ولد يكون على يده هلاكك وزوال ملكك، فشمر عن ساق الاجتهاد، وحسر من ساق العناد، وأراد أن يدفع القضاء وظهوره، ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

فإن قلت[2]: قال في سورة البقرة ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بغير واو، وقال هنا: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ بزيادة واو، فما الفرق بين الموضعين؟

قلتُ: إنما حذفت الواو في سورة البقرة؛ لأن قوله: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ تفسير لقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وفي التفسير لا يحسن ذكر الواو، كما تقول: جاءني القوم زيد وعمرو إذا أردت تفسير القوم، وأما دخول الواو هنا في هذه السورة؛ فلأن آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير التذبيح كالأعمال الشاقة وبالتذبيح أيضاً، فقوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ نوع آخر من العذاب، لا أنه تفسير للعذاب.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ المذكور من أفعالهم الفظيعة ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾؛ أي: محنة عظيمة لا تطاق واقعة من ربكم. فإن قلت: كيف يكون فعل آل فرعون بلاء من ربهم؟

قلتُ: تمكينهم وإمهالهم حتى فعلوا بهم ما فعلوا بلاء من الله تعالى واختبار منه، ويجوز أن تكون الإشارة إلى الإنجاء، والمراد بالبلاء حينئذ: النعمة؛ لأن الابتلاء كما يكون بالنقمة يكون بالنعمة، كما قال: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. وقال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ والمعنى حينئذٍ: وفي ذلكم الإنجاء نعمة عظيمة واقعة لكم من ربكم. وقرأ ابن محيصن[1]: ﴿ويذبحون﴾ بالتحفيف مضارع ذبح الثلاثي. وقرأ زيد بن علي كذلك إلا أنه حذف الواو.

وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ من كلام موسى معطوف على ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لقومك قصة إذ قال موسى لقومه: تذكروا إنعام الله عليكم، واذكروا يا بني إسرائيل حين آذنكم ربكم وأعلمكم بوعده إعلاماً بليغاً، فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لئن شكرتم ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح بطاعتي فيما آمركم به وأنهاكم عنه.. لأزيدنكم من نعمي عليكم نعمةً إلى نعمة، ولأضاعفن لكم ما آتيتكم. قيل: شكر الموجود صيد المفقود. وقيل: لئن شكرتم بالطاعة لأزيدنكم في الثواب. وأصل الشكر[2]: تصور النعمة وإظهارها، وحقيقته الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه، وتوطين النفس على هذه الطريقة.

وقد دلت التجارب أن العضو الذي يناط به عمل، كلما مرن عليه ازداد قوة[3]، وإذا عطل عن العمل ضمر وضعف، وهكذا النعم إن استعملت فيما خلقت له بقيت، وإن أهملت ذهبت.

أخرج البخاري في «تاريخه»: والضياء في «المختارة»: عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من ألهم خمسة لم يحرم خمسة» وفيها «من ألهم الشكر لم يحرم الزيادة».

والخلاصة: أن من شكر الله على ما رزقه.. وسع عليه في رزقه، ومن شكره على ما أقدره عليه من طاعته.. زاد في طاعته، ومن شكره على ما أنعم عليه من صحة.. زاده الله صحة إلى نحو أولئك من النعم. ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ نعمي وجحدتموها، فلم تقوموا بواجب حقها عليكم من شكر المنعم بها،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

(٣) المراغي.

وقابلتموها بالنسيان والكفران، والجواب محذوف تقديره: لأعذبنكم على ذلك الكفران، ويكون قوله: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ تعليلاً للجواب المحذوف، وإنما[1] حذف الجواب هنا وصرح به في جانب الوعد؛ لأن من عادة الكرام التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد، فما ظنك بأكرم الأكرمين حيث لم يقل: إن عذابي لكم؛ أي: إن عذابي لشديد بحرمانكم منها، وسلبكم ثمراتها في الدنيا والآخرة، فتعذبون في الدنيا بزوالها، وفي الآخرة بعذاب لا قبل لكم به. وفي الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه».

ثم بين سبحانه وتعالى أن منافع الشكران ومضار الكفران لا تعود إلا إلى الشاكر أو الكافر بتلك النعم، أما المعبود المشكور فهو متعالٍ عن أن ينتفع بالشكر، أو يضره الكفر، فلا جرم قال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ﴾ نعمه تعالى ولم تشكروها ﴿أَنتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الثقلين ﴿جَمِيعًا﴾ حال من المعطوف والمعطوف عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى تعليل للجواب المحذوف؛ أي: إن تكفروا لم يرجع وباله إلا عليكم، فإن الله تعالى ﴿لَغَنِىٌّ﴾ عن شكركم وشكر غيركم ﴿حَمِيدٌ﴾؛ أي: محمود في ذاته وصفاته وأفعاله لا تفاوت له بإيمان أحد ولا كفره، وإن لم يحمده أحد، بل كل ذرة من ذرات العالم ناطقة بحمده.

والمعنى[2]: أي وإن تجحدوا نعمة الله التي أنعمها عليكم ويفعل مثل فعلكم من في الأرض جميعاً، فما أضررتم بالكفر إلا أنفسكم إذ حرمتموها من مزيد الإنعام، وعرضتموها للعذاب الشديد، وإن الله غنيٌّ عن شكركم وشكر غيركم، وهو المحمود وإن كفر به من كفر، وهذا كقوله: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾.. الآية، وقوله: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

وقد يكون موسى قال هذه المقالة حين عاين منهم دلائل العناد ومخايل الإصرار على الكفر والفساد، وتيقن أنه لا ينفعهم الترغيب، ولا التعريض

---

(١) البيضاوي. (٢) المراغي.

بالترهيب. وفي خطابه لهم تحقير لشأنهم، وتعظيم لله تعالى، وكذلك في ذكر هاتين الصفتين. وقرأ ابن مسعود: ﴿وإذ قال ربكم﴾ كأنه فسر قوله: تأذن؛ لأنه بمعنى: أذن؛ أي: أعلم، وأعلم يكون بالقول.

والاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ للتقرير المضمن للتوبيخ، والخطاب فيه يحتمل أن يكون من موسى لقومه تذكيراً لهم بالقرون الأولى وأخبارهم ومجيء رسل الله إليهم، ويحتمل أنه ابتداء خطاب من الله سبحانه لقوم محمد ﷺ تحذيراً لهم عن مخالفته، والنبأ: الخبر العظيم الشأن. وقوله: ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ بدل من الموصول، أو عطف بيان منه ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ معطوفات على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾؛ أي: ألم يأتكم يا بني إسرائيل، بل أتاكم أخبار الأمم الذين من قبلكم؛ أي: ألم يأتكم خبر قوم نوح أغرقوا بالطوفان حيث كفروا ولم يشكروا نعم الله، وخبر عاد قوم هود أهلكوا بالريح الصرصر، وخبر ثمود قوم صالح أهلكوا بالصيحة، وخبر الذين من بعدهم؛ أي: من بعد هؤلاء المذكورين من قوم إبراهيم وأصحاب مدين، والمؤتفكات وغير ذلك. وجملة قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ معترضة بين المفسر بفتح السين: وهو ﴿نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وتفسيره: وهو ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾، أو حال من ﴿ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، أو من الضمير المستكن في ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ لوقوعه صلة؛ أي: حالة كون تلك الأمم لا يعلم عددهم لكثرتهم، ولا يحيط بذواتهم وصفاتهم وأسمائهم وسائر ما يتعلق بهم إلا الله سبحانه وتعالى، فإنه انقطعت أخبارهم وعفت آثارهم.

وكان مالك بن أنس يكره أن ينسب الإنسان نفسه أباً أباً إلى آدم[1]، وكذا في حق النبي عليه السلام؛ لأن أولئك الآباء لا يعلمهم أحد إلا الله، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسابون، يعني: أنهم يدعون علم الأنساب، وقد نفى الله علمها عن العباد. وجملة قوله: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان النبأ المذكور في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ كأنه[2] قيل: وما

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) الفتوحات.

خبرهم؛ أي: ما قصتهم وما شأنهم، فقال: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾؛ أي: جاءت تلك الأمم المذكورة رسلهم بالمعجزات الظاهرة والبينات الباهرة، وبين كل رسول لأمته طريق الحق ودعاهم إليه؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾؛ أي: جعلت الأمم أيدي أنفسهم ﴿فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ ليعضوها غيظاً مما جاءت به الرسل؛ لنفرتهم عن استماع كلامهم؛ إذ سفَّهوا أحلامهم وشتموا أصنامهم، وقد فعلت العرب مثل ذلك مع النبي ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾، أو المعنى[1]: وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين إلى الرسل؛ أي: كفوا عن هذا الكلام واسكتوا. وقال أبو عبيدة والأخفش[2]: وَنِعَمَّا قالا: «هو مثلٌ، والمراد: أنهم لم يؤمنوا ولم يجيبوا، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت: قد رد يده في فيه».

﴿وَقَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال الكفار للرسل: ﴿إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ من البينات على زعمكم؛ أي: إنا كفرنا بما زعمتم أن الله تعالى أرسلكم به من البينات التي أظهرتموها حجة على صحة رسالتكم، وإنما يقصدون من الكفر بها الكفر بدلالتها على صدق رسالتهم ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ﴾؛ أي: وإننا لكائنون في شك عظيم ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ﴾؛ أي: في حقيَّة ما تدعوننا إليه من الإيمان بالله وحده وترك ما سواه، وجملة ما جئتم به من الشرائع. ﴿مُرِيبٖ﴾؛ أي: موجب للريب والقلق والاضطراب وعدم طمأنينة النفس، فـ﴿مُرِيبٖ﴾ صفة توكيدية.

وخلاصة مقالهم: أنهم جاحدون نبوتهم قاطعون بعدم صحتها، لأن ما جاؤوا به من التعاليم والشرائع مما يشك في صدقه، وأن الله سبحانه يدعو إلى مثله.

فإن قلت[3]: إنهم قالوا: إنا كفرنا بما أرسلتم، فكيف يقولون ثانياً: وإنا لفي شك، والشك دون الكفر، أو داخل فيه؟

قلتُ: إنهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل، فكأنهم حصل لهم شبهة توجب

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

(٣) الخازن.

لهم الشك، فقالوا: إن لم ندع الجزم في كفرنا، فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في ذلك.

أو يقال في الجواب[1]: إنهم كانوا فرقتين: إحداهما جزمت بالكفر، والأخرى شكت، أو يقال: المراد بقولهم إنا كفرنا بما أرسلتم به؛ أي: المعجزات والبينات، وقولهم: مما تدعوننا إليه: الإيمان والتوحيد.

وحاصله: أن كفرهم بالمعجزات وشكهم في التوحيد، فلا تخالف. ا هـ. شيخنا.

وقرأ طلحة[2]: ﴿مما تدعونا﴾ بإدغام نون الرفع في الضمير، كما تدغم في نون الوقاية في مثل ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾. فردت الرسل عليهم منكرين متعجبين من تلك المقالة الحمقاء، كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالَتۡ﴾ لهم ﴿رُسُلُهُمۡ أَفِي﴾ وجود ﴿ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ووحدانيته ﴿شَكّٞ﴾ وريب، وكيف يتصور ذلك لا شك في وجوده ووحدانيته؛ لأن الفطرة شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به، فالاعتراف به ضروري لدى كل ذي رأي حصيف كما جاء في الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». وهذه الجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قالت لهم الرسل؟ والاستفهام فيه للإنكار المضمن للتوبيخ والتقريع؛ أي: أفي وحدانيته سبحانه شك، وهي في غاية الوضوح والجلاء، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الأدلة الموصلة إلى ذلك، ومن ثم ذكرت الرسل بعد إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الإنكار من الشواهد الدالة على عدم الشك في وجوده سبحانه وتعالى ووحدانيته، فقالوا: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ أي: خالقهما ومخترعهما ومبدعهما وموجدهما بعد العدم؛ أي: هو سبحانه الذي خلقهما وأبدعهما على غير مثال سابق، ودلائل الحدوث ظاهرة عليهما، فلا بدّ لهما من صانع وهو الله الذي لا إلٰه إلا هو خالق كل شيء وإلٰهه

---

(١) الفتوحات.

(٢) البحر المحيط.

ومليكه، وقد جاء هذا الوصف في محاورات الأنبياء جميعاً، وهو نفس الوصف الذي جاء في أول السورة على لسان نبينا ﷺ، ومن هذا يعلم أن كل نبي جعل مطمح نظره توجه النفوس إلى علوم السماوات والأرض. وقرأ زيد بن علي[1]: ﴿فاطرَ﴾ نصباً على المدح. ولما أقاموا الدليل على وجوده وصفوه بكمال الرحمة بقولهم: ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ سبحانه وتعالى إلى الإيمان به وتوحيده بإرساله إيانا لنخرجكم من ظلمات الوثنية إلى نور الوحدانية وإخلاص العبادة له، وهو الواحد القهار ﴿لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾؛ أي: ليغفر لكم ذنوبكم إذا آمنتم وصدقتم. فحرف ﴿من﴾ صلة، وقيل: إنها ليست صلة، بل هي تبعيضية؛ أي: يدعوكم إلى الإيمان؛ لمغفرة بعض ذنوبكم، وهي الذنوب التي بينكم وبين ربكم من الكفر والمعاصي، لا المظالم وحقوق العباد.

والمتتبع لأسلوب الكتاب الكريم[2]، يرى أن كل موضعٍ ذكر فيه مغفرة الذنوب للكافرين جاء بلفظ ﴿من﴾، كقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾، وقوله: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾؛ لأنه يخاطبهم في أمر الإيمان وحده.

وفي المواضع التي يذكر فيها مغفرة الذنوب للمؤمنين تجيء بدون ذكر ﴿مِنْ﴾، كقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾؛ لأن المغفرة منصرفة إلى المعاصي ومتوجهة إليها. ﴿وَيُؤَخِّرَكُمۡ﴾؛ أي: يؤخر موتكم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى وقت معين عند الله تعالى؛ أي: إلى وقت سماه الله وجعله منتهى أعماركم إن أنتم آمنتم به، وإلا عاجلكم بالهلاك وعذاب الاستئصال جزاء كفرانكم بدعوة الرسل إلى التوحيد، وإخلاص العبادة للواحد القهار.

ثم حكى الله سبحانه رد الأمم على مقالة الرسل، وهو يتضمن ثلاثة أشياء:

١ - ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قالت الأمم مجيبين للرسل ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾؛ أي: ما أنتم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

في الصورة والهيئات ﴿إِلَّا بَشَرٌ﴾ آدميون ﴿مِّثْلُنَا﴾ تأكلون وتشربون كما نأكل ونشرب، فلا فضل لكم علينا، فلم خصصتم بالنبوة وأطلعكم الله على الغيب، وجعلكم مخالطين لزمرة الملائكة دوننا إلى أنه لو كان الأمر كما تدعون.. لوجب أن تخالفونا في الحاجة إلى الأكل والشرب وقربان النساء وما شاكل ذلك، ولو شاء الله أن يرسل إلى البشر رسلاً.. لأرسل من جنس أفضل منهم، وهم الملائكة على زعمهم من حيث عدم التدنس بالشهوات وما يتبعها.

٢ - ﴿تُرِيدُونَ﴾ أيها المدعون بالرسالة ﴿أَن تَصُدُّونَا﴾؛ أي: أن تصرفونا بتخصيص العبادة بالله ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؛ أي: عن عبادة ما استمر آباؤنا على عبادته؛ وهو الأصنام من غير شيء يوجبه ولا حجة لكم على ما تدعون، وليس من حصافة العقل أن نترك أمراً قبل أن يقوم الدليل على خطئه. وقرأ طلحة شاذاً[1]: ﴿أن تصدونّا﴾ بتشديد النون جعل أن هي المخففة من الثقيلة، وقدر فصلا بينها وبين الفعل، وكان الأصل أنه تصدوننا، فأدغم نون الرفع في الضمير، والأولى أن تكون أن الثنائية التي تنصب المضارع، ولكنه هنا لم يعملها، بل ألغاها كما ألغاها من قرأ شذوذاً أيضاً: ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ برفع ﴿يتم﴾ حملاً على ﴿ما﴾ المصدرية أختها.

﴿فَأْتُونَا﴾؛ أي: إن لم يكن[2] الأمر كما قلنا، بل كنتم رسلاً من جهة الله كما تدعونه فأتونا ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: ببرهان ظاهر وحجة واضحة تدل على صدقكم وفضلكم، واستحقاقكم لتلك الرتبة حتى نترك ما لم نزل نعبده أباً عن جد، كأنهم لم يعتبروا ما جاءت به رسلهم من الحجج والبينات، واقترحوا عليهم آية أخرى تعنتاً ولجاجاً.

فكأنهم قالوا: أما ذكر السماوات والأرض وعجائبهما[3]، فلسنا نحفل بهما، والعجائب الأرضية والسماوية لا نعقلها، والبشر لا يخضعون إلا لمن يأتي

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

لهم بما هو خارج عن طور معتادهم، وحينئذ يعظمونه ويبجلونه، وهذه المشاهدات لا نرى فيها شيئاً خارقاً للعادة، وإذاً فلا إيمان ولا تسليم إلا بما هو فوق طاقتنا كقلب العصا حية، ونقل الجبال وما أشبه ذلك.

وبعد أن حكى عن الكفار شبهاتهم في الطعن في النبوة.. حكى عن الأنبياء جوابهم عنها، فأجابوا عن الأولى والثانية بالتسليم، لكن التماثل لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة؛ لأن هذا منصب يمنُّ الله به على من يشاء من عباده، كما لا يمنع من أن يخص بعض عباده بالتمييز بين الحق والباطل، والصدق والكذب، وأن يحرم الجمع العظيم منه، وهذا ما أشار إليه بقوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ زاد[1] لفظ ﴿لَهُمْ﴾ هنا لاختصاص الكلام بهم حيث أريد إلزامهم بخلاف ما سلف من إنكار وقوع الشك في الله، فإن ذلك عام، وإن اختص بهم ما يعقبه؛ أي: قالوا لهم معترفين بالبشرية ومشيرين إلى منة الله عليهم ﴿إِن نَّحْنُ﴾؛ أي: ما نحن ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ أي: إلا آدميون مثلكم كما تقولون لا ننكره ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَمُنُّ﴾؛ أي: يتفضل بالنبوة والوحي ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ويصطفي من يشاء منهم لهذا المنصب العظيم الشريف. وفيه[2] دلالة على أن النبوة عطائية كالسلطنة، لا كسبية كالولاية والوزارة.

وأجابوا عن الشبهة الثالثة بأن ما جئنا به حجة قاطعة وبينة ظاهرة على صدق رسالتنا، وما اقترحتموه من الآيات، فأمره إلى الله إن شاء أظهره، وهو زائد على قدر الكفاية، وذلك ما أومؤوا إليه بقولهم: ﴿وَمَا كَانَ﴾؛ أي: وما صح وما استقام ﴿لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ﴾؛ أي: بحجة من الحجج فضلاً عن السلطان المبين، ولا بشيء من الأشياء، ولا سبب من الأسباب ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ومشيئته وإرادته، فإنه أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى إن شاء كان، وإلا فلا، تلخيصه إنما نحن عبيد مربوبون، وليس ذلك في قدرتنا.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والخلاصة[1]: أي وليس لنا مع ما خصنا الله به من النبوة وشرفنا به من الرسالة أن نأتيكم بآية وبرهان ومعجزة تدل على صدقنا إلا بإذن الله به لنا في ذلك. وبعد[2] أن أجابهم الأنبياء عن شبهاتهم أخذ المشركون يخوفونهم ويتوعدونهم بالانتقام منهم وإيذائهم قدر ما يستطيعون، فقال لهم الأنبياء: إنا لا نخاف تهديدكم ولا وعيدكم، بل نتوكل على الله ونعتمد عليه، ولا نقيم لما تقولون وزناً، ولا نأبه به، وهذا ما إشار إليه سبحانه بقوله حكاية عنهم: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى وحده دون ما عداه مطلقاً ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في دفع شرور أعدائهم عنهم، وفي الصبر على معاداتهم؛ أي: وحق المؤمنين أن لا يتوكلوا على غير الله تعالى، فلنتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم. وقرأ الحسن شذوذاً بكسر لام الأمر في قوله: ﴿فَلِيَتَوَكَّلِ﴾ وهو الأصل ذكره في «البحر». وهذا أمر[3] منهم للمؤمنين بالتوكل على الله دون ما عداه، وكأن الرسل قصدوا بهذا الأمر للمؤمنين الأمر لهم أنفسهم قصداً أولياً، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا لَنَآ﴾؛ أي: وأي عذر ثبت لنا في ﴿أَلَّا نَتَوَكَّلَ﴾ ونعتمد ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى في دفع شروركم عنا ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾؛ أي: والحال أنه تعالى أرشد كلا منا سبيله ومنهاجه الذي شرع له وأوجب عليه سلوكه في الدين، وهو موجب للتوكل عليه ومستدع له. وقرأ الجمهور: ﴿سبلنا﴾ بضم السين والباء وقرأ أبو عمرو بسكون الباء.

والمعنى: أي! وكيف لا نتوكل على الله وقد هدانا إلى سبل المعرفة، وأوجب علينا سلوك طريقها، وأرشدنا إلى طريق النجاة، ومن أنعم الله عليه بنعمة فليشكره عليها بالعمل بها.

ولمَّا كانت أذية الكفار مما يوجب الاضطراب القادح في التوكل.. قالوا على سبيل التوكيد القسمي مظهرين لكمال العزيمة ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾؛ أي: ونقسم لكم بالله تعالى لنصبرن ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾ في أبداننا وأعراضنا، أو بالتكذيب، ورد الدعوة والإعراض عن الله والعناد واقتراح الآيات وغير ذلك مما لا خير فيه،

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

وهو جواب قسم محذوف. والمعنى: أي: ولنصبرن على إيذائكم بالعناد واقتراح الآيات ونحو ذلك مما لا خير فيه، وندعوكم لعبادة الله وحده؛ ليكون ذلك منا شكراً على نعمة الهداية. ثم ختموا كلامهم بمدح التوكل، وبيان أن إيذائهم لا يثنيهم عن تبليغ رسالة ربهم، فقالوا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: والتوكل على الله والاعتماد عليه، لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ أي: فليثبت المتوكلون وليدوموا على التوكل عليه، وليحتملوا كل أذى في جهادهم، ولا يبالوا بما يصيبهم من أذى، ولا بما يلاقون من صعاب وعقبات. قال ابن الجوزي: وإنما نص هذا وأمثاله على نبينا ﷺ، ليقتدي بمن قبله في الصبر، وليعلم ما جرى لهم. ا هـ. ومن عنده[1] مال أو علم فلينفع به الناس، وليكن كالنهر يسقي الزرع، والشمس تضيء العباد، وليصبر على أذى الناس كما صبر الأنبياء وأوذوا، فالهداة ما خلقوا إلا ليعملوا، فهم هداة بطباعهم، ولذاتهم في قلوبهم، ومنهم تنتقل إلى الناس.

فإن قلت[2]: كيف كرر الأمر بالتوكل، وهل من فرق بين التوكلين؟

قلت: نعم، التوكل الأول فيه إشارة إلى استحداث التوكل، والتوكل الثاني فيه إشارة إلى السعي في التثبت على ما استحدثوا من توكلهم وإبقائه وإدامته، فحصل الفرق بين التوكلين.

والمعنى[3]: فليثبت المتوكلون على ما أحدثوه من التوكل المسبب عن الإيمان، فالأول لإحداث التوكل، والثاني للثبات عليه، فلا تكرار. وقيل معنى الأول: إن الذين يطلبون المعجزات يجب عليهم أن يتوكلوا في حصولها على الله سبحانه لا علينا، فإن شاء سبحانه أظهرها، وإن شاء لم يظهرها، ومعنى الثاني: إبداء التوكل على الله في دفع شر الكفار وسفاهتهم. ا هـ. «شوكاني».

والتوكل تفويض الأمر إلى من يملك الأمور كلها، وقالوا: المتوكل من إن

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

(٣) روح البيان.

دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية، فعلى هذا إذا وقع الإنسان من شدة، ثم سأل غيره خلاصه لم يخرج عن حدّ التوكل؛ لأنه لم يحاول دفع ما نزل به عن نفسه بمعصية الله تعالى.

فائدة: ومن لطائف هذه الآية الكريمة[1]: ما روى المستغفري عن أبي ذر رفعه «إذا آذاك البرغوث فخذ قدحاً من ماء، واقرأ عليه سبع مرات: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ. . .﴾ الآية، ثم قل: إن كنتم مؤمنين فكفوا شركم وأذاكم عنا سبع مرات على الماء، ثم رشه حول فراشك، فإنك تبيت آمناً من شرهم». وقال بعضهم: إن مما أخذ الله على الكلب إذا قرىء عليه: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ﴾ لم يؤذ، ومما أخذ الله على العقرب أنه إذا قرىء عليها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ لم تؤذ، وكذلك الحية.

الإعراب

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾.

﴿الٓرۚ﴾: على القول بأنه اسم للسورة: إما مبتدأ خبره محذوف تقديره: الر هذا محله، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا الر، أو مفعول لفعل محذوف تقديره: إقرأ الر، أو مفعول لاسم فعل محذوف تقديره: هاك الر؛ لأنه من قبيل أسماء التراجم، وإن قلنا: إنه من قبيل الأعداد المسرودة فلا محل له من الإعراب. ﴿كِتَٰبٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا القرآن الذي أنزل عليك يا محمد كتاب أنزلناه إليك، والجملة مستأنفة. ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿كِتَٰبٌ﴾. ﴿لِتُخْرِجَ﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿تخرج الناس﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره:

---

(١) روح البيان.

لإخراجك الناس به، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿تخرج﴾، وكذا قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾: متعلق به ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تخرج﴾ أيضاً، أو متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿تخرج﴾ تقديره: حالة كونك مأذوناً لك من ربهم. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ﴾: جار ومجرور بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾. ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾: نعت لـ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهِ﴾: بالجر: بدل من ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ بدل كل من كل على القاعدة[1]: إن نعت المعرفة إذا تقدم على المنعوت يعرب بحسب العوامل، ويعرب المنعوت بدلاً، أو عطف بيان، والأصل: إلى صراط الله العزيز الحميد.. الخ، فالصفات ثلاثة تقدم منها ثنتان، وبقيت الثالثة مؤخرة. ا هـ. شيخنا. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الجر صفة للجلالة. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها. ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَوَيْلٌ﴾: مبتدأ سوغ الابتداء به قصد الدعاء. ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾: خبره. ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾: في موضع رفع صفة لـ﴿ويل﴾ بعد الخبر، وهو جائز، ولا يجوز[2] أن يتعلق بـ﴿ويل﴾ من أجل الفصل بينهما بالخبر. وقال أبو السعود: ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ متعلق بـ﴿ويل﴾ على معنى يولون ويضجون منه قائلين: يا ويلاه كقوله: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾. ا هـ. كما مر، والجملة الاسمية جملة دعائية لا محل لها من الإعراب.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾.

---

(١) الفتوحات.

(٢) العكبري.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل[1] الجر صفة ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، أو في محل نصب بإضمار أعني، أو في موضع رفع بإضمارهم. وفي «الفتوحات» قوله: أو في محل جر صفة، هذا الإعراب معترض[2]، لما فيه من الفصل بين النعت والمنعوت بأجنبي، وهو قوله: ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ الذي هو بيان للمبتدأ الأجنبي من الخبر، وعلى هذا الإعراب يكون قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ...﴾ إلخ: مستأنفاً، والأولى أن يعرب ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ الخ مبتدأ ويكون قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ...﴾ إلخ: خبره. اهـ. شيخنا. ﴿يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول صلة الموصول. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾. ﴿عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾. ﴿وَيَصُدُّونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يصدون﴾. ﴿عِوَجًا﴾: حال من ضمير المفعول، كما في «أبي البقاء». ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾: خبره. ﴿بَعِيدٍ﴾: صفة لـ﴿ضَلَٰلٍ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾.

﴿وَمَا﴾: (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾: فعل وفاعل ومفعول، و﴿مِن﴾: زائدة، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من ﴿رَّسُولٍ﴾؛ أي: إلا حالة كونه متكلماً بلغة قومه. ﴿لِيُبَيِّنَ﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يبين﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَّسُولٍ﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ أي: لتبيينه لهم.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

---

(١) أبو البقاء.

(٢) الفتوحات.

﴿فَيُضِلُّ﴾ (الفاء): استئنافية. ﴿يضل الله من﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: فيضل الله من يشاء إضلاله. وفي «الجمل» قوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ بالرفع هو استئناف[1] إخبار، ولا يجوز نصبه عطفاً على ﴿لِيُبَيِّنَ﴾؛ لأن المعطوف كالمعطوف عليه في المعنى، والرسل أرسلت للبيان لا للإضلال. قال الزجاج: لو قرىء بنصبه على أن اللام لام العاقبة.. جاز. اهـ. «سمين». وجملة قوله: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثان، أو صفة لـ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: (الواو): استئنافية. (اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: جار ومجرور حال من ﴿مُوسَىٰ﴾: أي حالة كونه متلبساً بآياتنا، والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف، وجملة القسم مستأنفة. ﴿أَنْ﴾ مصدرية. ﴿أَخْرِجْ﴾: فعل أمر في محل نصب بـ﴿أن﴾ المصدرية مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿قَوْمَكَ﴾: مفعول به. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾: جاران ومجروران متعلقان بـ﴿أَخْرِجْ﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: ولقد أرسلنا موسى بآياتنا بإخراج قومك من الظلمات، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، وهذه المقدرة للتعدية، والباء في بآياتنا للحال، فلا اتحاد في المعنى، ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ مفسرة؛ لأن الضابط موجود، وهو أن يتقدمها جملة فيها معنى القول دون حروفه، و﴿أَرْسَلْنَا﴾ فيه معنى قلنا. ﴿وَذَكِّرْهُم﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿أَخْرِجْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿ذكر﴾. ﴿إِنَّ﴾:

---

(١) الفتوحات.

حرف نصب وتوكيد. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبرها مقدم على اسمها. ﴿لَآيَاتٍ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿آيات﴾: اسمها مؤخر. ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿آيات﴾. ﴿شَكُورٍ﴾: صفة ﴿صَبَّارٍ﴾: وجملة ﴿أَنَّ﴾: مستأنفة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾.

﴿وَإِذْ﴾: (الواو) استئنافية. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد لقومك قصة إذ قال موسى لقومه، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل. ﴿لِقَوْمِهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾؛ لأنه بمعنى إنعام الله عليكم، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى متعلق بـ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ بالمعنى المذكور، أو بدل اشتمال منها كذلك ا هـ «بيضاوي». ﴿أَنجَاكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهِ﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَنجَاكُم﴾.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾، أو حال من ضمير المخاطبين. ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل النصب معطوف على ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: وكذا ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف أيضاً على ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾. ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿بَلَاءٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: صفة أولى لـ﴿بَلَاءٌ﴾. ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة ثانية، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ⑦﴾.

﴿وَإِذْ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان معطوف على ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾، والتقدير: واذكر إذ قال موسى لقومه: اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا إذ تأذن ربكم، أو معطوف على ﴿إِذْ أَنجَاكُم﴾، تقديره: اذكروا نعمة الله عليكم حين أنجاكم وحين تأذن ربكم. ﴿تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿لَئِن﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿شَكَرْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾: (اللام): موطئة للقسم مؤكدة للأولى. ﴿أزيدنكم﴾: فعل مضارع ومفعول في محل الرفع؛ لتجرده عن الناصب والجازم مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: وإذ تأذن ربكم، وقال: لئن شكرتم.. الخ، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم تقديره: إن شكرتم أزدكم، وجملة الشرط معترضة لاعتراضها بين القسم وجوابه لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَئِن﴾: (الواو): عاطفة. (اللام): موطئة للقسم. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿كَفَرْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجواب القسم محذوف دل عليه ما بعده تقديره: لأعذبنكم، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم الأول على كونها مقولاً لقول محذوف، وجواب الشرط محذوف أيضاً تقديره: إن كفرتم أعذبكم، وجملة الشرط معترضة أيضاً. ﴿إِنَّ عَذَابِي﴾: ناصب واسمه. ﴿لَشَدِيدٌ﴾: خبره، واللام: حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الجواب المحذوف.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ⑧﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ إلى الآخر: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾: جازم وفعل وفاعل. ﴿أَنتُمْ﴾: تأكيد لضمير الفاعل؛ ليعطف عليه ما بعده. ﴿وَمَن﴾: اسم موصول في محل

الرفع معطوف على فاعل ﴿تَكْفُرُوٓا۟﴾. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. ﴿جَمِيعًا﴾: حال مؤكدة لكل من المعطوف والمعطوف عليه. ﴿فَإِنَّ﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه. ﴿لَغَنِىٌّ﴾: (اللام): حرف ابتداء، ﴿غني﴾: خبره. ﴿حَمِيدٌ﴾: صفة ﴿غني﴾، أو خبر بعد خبر، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: (الهمزة): للاستفهام التقريري. ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ومفعول وفاعل ومضاف إليه مجزوم بـ﴿لم﴾، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صلة الموصول. ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾: بدل من الموصول بدل تفصيل من مجمل. ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾: معطوفان على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف أيضاً على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: جار ومجرور صلته. ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ﴾: فعل ومفعول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾، أو من الضمير المستكن في ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ لوقوعه صلة. ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: حال من ﴿رُسُلُهُم﴾، والجملة الفعلية مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: وما خبرهم؛ أي: ما قصتهم وما شأنهم؟ فقيل: جاءتهم رسلهم.. إلخ، وهذه الجملة في المعنى تفسير لـ﴿نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿جَآءَتْهُمْ﴾. ﴿فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ردوا﴾. ﴿وَقَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ردوا﴾. ﴿إِنَّا كَفَرْنَا﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿كَفَرْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول قال. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كَفَرْنَا﴾. ﴿أُرْسِلْتُم﴾: فعل ونائب فاعل.

﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿وَإِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفِى شَكٍّ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿في شك﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿شَكٍّ﴾. ﴿تَدْعُونَنَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿مُرِيبٍ﴾: صفة لـ﴿شَكٍّ﴾.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه قيل: فماذا قالت لهم رسلهم؟ فأجيب بأنهم: قالوا.. الخ. ﴿أَفِى ٱللَّهِ﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري. ﴿في الله﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿شَكٌّ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول قال. وفي «السمين»: يجوز في ﴿شَكٌّ﴾ وجهان:

أظهرهما: أنه فاعل بالجار قبله، وجاز ذلك لاعتماده على الاستفهام.

والثاني: أنه مبتدأ وخبره الجار والمجرور قبله، والأول أولى؛ لأنه يلزم على الثاني الفصل بين الصفة والموصوف بأجنبي، وهو المبتدأ بخلاف الأول، فإن الفاصل ليس أجنبياً؛ إذ هو فاعل، والفاعل كالجزء من رافعه. ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صفة للجلالة. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿يَدْعُوكُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب حال من الجلالة. ﴿لِيَغْفِرَ﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يغفر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَكُم﴾: متعلق به. ﴿مِّن﴾: زائدة. ﴿ذُنُوبِكُمْ﴾: مفعول به، والجملة في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل تقديره: لغفرانه لكم ذنوبكم. ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿يغفر لكم﴾، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾: متعلق بـ﴿يؤخركم﴾. ﴿مُّسَمًّى﴾: صفة لـ﴿أَجَلٍ﴾. ﴿قَالُوٓا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت:

﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بَشَرٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿مِّثْلُنَا﴾: صفة لـ﴿بَشَرٌ﴾؛ لأنه بمعنى مماثل لنا، والإضافة فيه لا تفيد التعريف؛ لأنه من الأسماء المتوغلة، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿تُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة صفة ثانية لـ﴿بَشَرٌ﴾، أو مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَصُدُّونَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به منصوب بـ﴿أن﴾، وعلامة نصبه حذف النون: والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: تريدون صدنا. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تصدون﴾. ﴿كَانَ﴾: زائدة. ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: فعل وفاعل والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: عما كان يعبده آباؤنا ﴿فَأْتُونَا﴾: الفاء: رابطة لجواب شرط محذوف تقديره: إن كنتم رسلاً من عند الله كما تدعون. ﴿أتونا﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها. ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾: متعلق به. ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة لـ﴿سلطان﴾، وجملة الشرط المحذوف في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

﴿قَالَتْ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به. ﴿رُسُلُهُمْ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَتْ﴾: وإن شئت قلت: ﴿إن﴾: نافية. ﴿نَّحْنُ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بَشَرٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿مِّثْلُكُمْ﴾: صفة لـ﴿بَشَرٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ (الواو): عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَمُنُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿عَلَىٰ مَن﴾: جار ومجرور متعلق به، وجملة ﴿يَمُنُّ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾ وجملة ﴿لكن﴾: في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها مقول ﴿قَالَتْ﴾. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير على يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: على من يشاءه. ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المحذوف.

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿وَمَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَنَآ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم على اسمها. ﴿أَن نَّأۡتِيَكُم﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الرسل. ﴿بِسُلۡطَٰنٍ﴾: متعلق به، والجملة في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ تقديره: وما كان الإتيان إياكم بلسطان كائناً لنا، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على ما قبلها على كونها مقول ﴿قَالَتۡ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ﴿نَّأۡتِيَكُم﴾ تقديره: وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا حالة كوننا ملتبسين بإذن الله. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾ (الفاء): زائدة، أو فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما قلنا لكم، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم.. فنقول لكم ﴿ليتوكل المؤمنون﴾، (اللام): لام الأمر. ﴿يتوكل المؤمنون﴾: فعل وفاعل مجزوم بلام الأمر، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَتۡ﴾.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: استفهامية للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ. ﴿لَنَآ﴾: جار ومجرور خبره، والجملة معطوفة على الجمل التي قبلها على كونها مقول ﴿قَالَتۡ﴾. ﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿لا﴾: نافية. ﴿نَتَوَكَّلَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود على الرسل. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: في عدم توكلنا على الله، الجار والمجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر. ﴿وَقَدۡ﴾: (الواو): حالية. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة في محل النصب حال من الجلالة؛ أي: حالة كونه هادياً إيانا سبلنا. ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ﴾: (الواو): عاطفة. (اللام): موطئة للقسم. ﴿نصبرن﴾: فعل مضارع مبني على

الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الرسل، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم معطوفة على ما قبلها على كونها مقول ﴿قَالَتْ﴾.
﴿عَلَىٰ﴾: حرف جر. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة الفعلية مع ﴿مَا﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بـ﴿عَلَىٰ﴾ تقديره: على إيذائكم إيانا، الجار والمجرور متعلق بـ﴿نصبرن﴾. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾: فعل وفاعل، و(الفاء): زائدة، و(اللام): لام الأمر، أو (الفاء): فاء الفصيحة، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الضلالات، والنور: الهدى، فعبر عن الجهل والكفر والضلال بالظلمات: وهي صيغة جمع، وعبر عن الإيمان والهدى بالنور: وهو لفظ مفرد، وذلك يدل على أن طرق الكفر والجهل كثيرة، وأما طرق العلم والإيمان فليس إلا واحداً. ا هـ. «خازن».

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: بتيسيره وتوفيقه.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا يغالب. ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ المحمود المثنى عليه بحمده لنفسه أزلاً، وبحمد عباده له أبداً.

﴿وَوَيْلٌ﴾؛ أي: هلاك ودمار، والويل: نقيض الوأل؛ وهو؛ أي: الوأل: النجاة. ا هـ. «أبو السعود». وقوله: وهو نقيض الوأل بالهمز، وفي «المختار: الموئل الملجأ، وقد وأل إليه إذا لجأ، وبابه وعد، ووؤلاً بوزن وجود. ا هـ. ثم قال: والويل واد في جهنم، لو أرسلت فيه الجبال.. لا نماعت من حره. ا هـ. وقيل: الويل هنا بمعنى التأوه.

﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾: من الاستحباب: وهو استفعال من المحبة، والمعنى: يختارون الحياة الدنيا.

﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: دينه الذي ارتضاه لعباده. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾؛ أي: يطلبون لها عوجاً؛ أي: زيغاً واعوجاجاً، والعوج.. بكسر العين في المعاني، وبفتحها في الأعيان.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ وفي «القاموس»: وأيام الله نعمه، ويوم أَيْوَم شديد وآخر يوم في الشهر. ا هـ. وفي «المختار»: وربما عبروا عن الشدة باليوم. ا هـ. ويقال: أيام الله وقائعه في الأمم السابقة، ويقال: فلان عالم بأيام العرب؛ أي: بحروبها وملاحمها.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾؛ أي: يذيقونكم ويكلفونكم. وفي «بحر العلوم»: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ من سام السلعة إذا طلبها، والمعنى: يذيقونكم أو يبغونكم شدة العذاب، ويريدونكم عليه، والسوء مصدر ساء يسوء: وهو اسم جامع للآفات كما في «التبيان»، والمراد: جنس العذاب السيء، أو استعبادهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة، والاستهانة بهم وغير ذلك مما لا يحصر.

﴿بَلَآءٌ﴾؛ أي: ابتلاء واختبار.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: آذن وأعلم، وتأذن بمعنى آذن، كوعد بمعنى أوعد، غير أنه أبلغ؛ لما في التفعل من التكلف والمبالغة. ا هـ. «بيضاوي».

﴿إِنَّا كَفَرْنَا﴾ إن مخففة من الثقيلة، وأدغمت نونها في نون نا الذي هو اسمها، ويصح أن تكون المشددة، فلما اتصلت بنون الضمير اجتمع ثلاثة أمثال، فحذفت واحدة منهن لتوالي الأمثال، والمحذوف إما الثانية من نوني إن المشددة، وإما نون الضمير، وكذا يقال في قوله: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾.

﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ﴾ فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل، فهو مسند لواو الجماعة، ونا مفعول به، وهذا بخلاف ما في سورة هود من قوله: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ﴾ فإن ذلك مسند لمفرد: وهو ضمير صالح عليه السلام، فهو مرفوع بضمة مقدرة على الواو، منع من ظهورها الثقل، والفاعل ضمير يعود على صالح تقديره: أنت، ونا: مفعول به. ا هـ. شيخنا.

﴿مُرِيبٍ﴾؛ أي: موقع في الريبة، وهي اضطراب النفس وعدم اطمئنانها بالأمر، يقال: أربته إذا فعلت أمراً أوجب ريبةً وشكاً.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ حيث استعار الظلمات للكفر والضلال بجامع عدم الاهتداء إلى المقصود، واستعار النور للهدى والإيمان بجامع الاهتداء إلى المقصود. وفي قوله: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حيث استعار السبيل الذي هو محل المرور لدين الله بجامع الاهتداء إلى المقصود.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ حيث وصف الضلال بالبعد للمبالغة؛ لأن البعد من صفات الضال، فهو نظير قولهم جد جده، وداهية دهياء، ويجوز أن يكون المعنى: في ضلال ذي بعد، أو فيه بعد، فإن الضال قد يضل عن الطريق مكاناً قريباً، وقد يضل بعيداً، وفي جعل الضلال محيطاً بهم إحاطة الظرف بما فيه ما لا يخفى من المبالغة.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾، وفي قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿يضل﴾ و﴿يهدي﴾، وبين ﴿شَكَرْتُمْ﴾ و﴿كَفَرْتُمْ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾؛ لأن فيه التفاتاً عن التكلم إلى الغيبة، فكان حق العبارة: فنضل من نشاء.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن المراد بأيام الله نعمه، ووجهه أن العرب تتجوز بنسبة الحدث إلى الزمان مجازاً، فتضيفه إليه كقولهم: نهاره صائم، وليله قائم، ومكر الليل.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾؛ لأن إضافة الصراط إلى العزيز؛ وهو الله على سبيل التعظيم له، والمراد به دين الإسلام، فإنه طريق موصل إلى الجنة والقربة والوصلة.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

﴿وَمِنْهَا﴾: التخصيص بعد التعميم في قوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾؛ لأنه داخل في سوء العذاب.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية؛ لأنه شبه ترك قتلهن بالإحياء بجامع الإبقاء في كل.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾؛ لأنها كناية عن تعذيبهم.

ومنها: استعمال اللفظ العام في المعنى الخاص في قوله: ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾؛ لأن لفظ اللسان يستعمل بمعنى العضو، وبمعنى اللغة، والمراد هنا هو المعنى الثاني؛ أي: بلغة قومه الذين هو منهم وبعث فيهم.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: قالوا لهم.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ﴾ عن الغيبة إلى التكلم كما في «الفتوحات».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ (٢٣) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ (٢٤) تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ (٢٧)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] ما دار من الحوار والجدل بين

(١) المراغي.

الرسل وأقوامهم، وذكر الحجج التي أدلى بها الرسل، وقد كان فيها المقنع لمن أراد الله له الهداية والتوفيق، ومن كان له قلب يعي به الحكمة وفصل الخطاب.. ذكر هنا أنهم بعد أن أفحموا لم يجدوا وسيلة إلا استعمال القوة مع أنبيائهم كما هو دأب المحجوج المغلوب في الخصومة، فخيروا رسلهم بين أحد أمرين: إما الخروج من الديار، وإما العودة إلى الملة التي عليها الآباء والأجداد، فأوحى الله تعالى إلى أنبيائه أن العاقبة لكم، وستدور عليهم الدائرة، وستحلون في ديارهم، وسيعذبون في الآخرة بنار جهنم، ويرون ألواناً من العذاب لا قبل لهم بها.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] ما سيلاقيه الكافرون في هذا اليوم العصيب من سائر أنواع العذاب التي سلف وصفها.. بين هنا أن ما عملوه في الدنيا من صالح الأعمال لا يجديهم فتيلاً ولا قطميراً، فما أشبهه إذ ذاك برماد أطارته الريح في يوم عاصفٍ، فذهبت به في كل ناحية، فهم لا يجدون من أعمالهم فيه شيئاً، ثم بين أن ذلك اليوم آتٍ لا ريب فيه، فإن من أنشأ السموات والأرض بلا معين ولا ظهير قادر على أن يفنيهم ويأتي بخلق سواهم، وليس ذلك بعزيز ولا بممتنع عليه.

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر ما يلقاه الأشقياء في ذلك اليوم من العذاب، وذكر أن أعمالهم الطيبة التي كانت في الدنيا أحبطت فلم تغن عنهم شيئاً.. ذكر هنا محاورةً بين الأتباع المستضعفين والرؤساء المتبوعين، وما يحدث في ذلك الوقت من الخجل لهم، ثم أردفها مناظرة وقعت بين الشيطان وأتباعه من الإنس، وبعد أن ذكر أحوال الأشقياء وبالغ في بيانها وتفصيلها شرح أحوال السعداء وما أعد لهم من الثواب العظيم والأجر الجزيل.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ...﴾ الآية، مناسبة[2] هذه الآية

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

لما قبلها: أنه لما ذكر محاورة الأتباع لرؤسائهم الكفرة.. ذكر محاورة الشيطان وأتباعه من الإنس، وذلك لاشتراك الرؤساء والشياطين في التلبس بالإضلال.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: لما[1] بين الله سبحانه وتعالى حال الأشقياء ومآل أمرهم، وما يلاقونه من الشدائد والأهوال في نار جهنم التي لا يجدون عنها محيصاً، وذكر أحوال السعداء وما ينالون من الفوز عند ربهم.. ضرب لذلك مثلاً يبين حال الفريقين، ويوضح الفرق بين الفئتين، وبه ألبس المعنويات لباس الحسيات؛ ليكون أوقع في النفس وأتم لدى العقل، والأمثال عند العرب هي المهيع المسلوك والطريق المتبع لإيضاح المعاني إذا أريد تثبيتها لدى السامعين، والقرآن الكريم مليء بها، والسنة النبوية جرت على منهاجه، فكثيراً ما تتبع المسائل الهامة بضرب الأمثال لها؛ لتستقر في النفوس وتنقش في الصدور.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: الغالون في الكفر ﴿لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾؛ أي: من مدينتنا وديارنا ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ عاد هنا بمعنى[2]: صار، والظرف خبره؛ أي: لتصيرن داخلين في ملتنا، فإن الرسل لم يكونوا في ملتهم قط إلا أنهم لما لم يظهروا المخالفة لهم قبل الاصطفاء.. اعتقدوا أنهم على ملتهم، فقالوا ما قالوا على سبيل التوهم، أو بمعنى رجع، والظرف صلة، والخطاب لكل رسول ومن آمن به، فغلَّبوا في الخطاب الجماعة على الواحد؛ أي: لتدخُلن في ديننا وترجعن إلى ملتنا.

وفي «الخازن»: فإن قلت: هذا[3] يوهم بظاهره أنهم كانوا على ملتهم في أول الأمر حتى يعودوا فيها؟

قلت: معاذ الله، ولكن العود هنا بمعنى الصيرورة، وهو كثير في كلام

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الخازن.

العرب، وفيه وجه آخر: وهو أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل الرسالة لم يظهروا خلاف أممهم، فلما أرسلوا إليهم أظهروا مخالفتهم ودعوهم إلى الله، فقالوا لهم: لتعودن في ملتنا ظناً منهم أنهم كانوا على ملتهم، ثم خالفوهم، وإجماع الأمة على أن الرسل من أول الأمر إنما نشؤوا على التوحيد لا يعرفون غيره.

وهذا كله تسلية للنبي ﷺ؛ ليصبر على أذى المشركين كما صبر من قبله من الرسل عليهم الصلاة والسلام. والمعنى: أي[1]: وقال الذين كفروا بالله لرسلهم حين دعوهم إلى توحيده تعالى وترك عبادة الأصنام والأوثان: لنخرجنكم من بلادنا مطرودين منها إلا أن تعودوا في ديننا الذي نحن عليه من الآية، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾.. الآية، وكما قال قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾.. الآية. وقال إخباراً عن مشركي قريش: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾.

وخلاصة هذا: ليكونن أحد الأمرين لا محالة: إما إخراجكم، وإما صيرورتكم في ملتنا ملة الآباء والأجداد، وهي عبادة الآلهة والأوثان، وقد مكن لهم في ذلك أنهم كانوا كثرة، وكان أهل الحق قلة كما جرت بذلك العادة في كل زمان ومكان، فإن الظلمة يكونون متعاونين متعاضدين، ومن ثم استطاعوا أن يبرموا هذا الحكم بلا هوادة ولا رفق، كما هو شأن المعتز بقوته الذي لا يخشى اعتراضاً ولا خلافاً.

والأنبياء صلوات الله عليهم لم يكونوا في ملتهم، ولم يعبدوا الأصنام طيلة حياتهم، لكنهم لما نشؤوا بين ظهرانيهم، وكانوا من أهل تلك البلاد، ولم يظهروا في أول أمرهم مخالفة لهم.. ظنوا أنهم كانوا على دينهم، أو يكون[2] المعنى في عودهم إلى ملتهم: سكوتهم عنهم وكونهم أغفالاً عنهم لا يطالبونهم بالإيمان بالله وما جاءت به الرسل.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

ولما تمادت الأمم في الكفر وتوعدوا الرسل بأخذهم بالشدة والإيقاع بهم.. أوحى الله إليهم بإهلاك من كفر بهم، ووعدهم بالنصر والغلب على أعدائهم، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: إلى الرسل ﴿رَبُّهُمْ﴾؛ أي: مالك أمرهم عند تناهي كفر الكفرة بحيث انقطع الرجاء عن إيمانهم، وقال: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: المشركين، فإن الشرك لظلم عظيم فلا تخافوهم ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أرض الظالمين وديارهم ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: من[1] بعد إهلاكهم عقوبة لهم على قولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾، وفي الحديث: «من آذى جاره ورثه الله داره». وقرأ أبو حيوه[2]: ﴿ليهلكن الظالمين وليسكننكم﴾ بياء الغيبة اعتباراً بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ إذ لفظ لفظ الغائب، وجاء في قوله: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ﴾ بضمير الخطاب تشريفاً لهم بالخطاب، ولم يأت بضمير الغيبة كما في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ ولما أقسموا بهم على إخراج الرسل، والعودة في ملتهم.. أقسم تعالى على إهلاكهم، وأيُّ إخراجٍ أعظم من الإهلاك بحيث لا يكون لهم عودة إليها أبداً، وأقسم أيضاً على إسكان الرسل ومن آمن بهم وذرياتهم أرض أولئك المقسمين على إخراج الرسل.

والمعنى[3]: أي فأوحى الله تعالى إلى رسله قائلاً لهم: لنهلكن من تناهى في الظلم من المشركين، ولنسكننكم أرضهم وديارهم بعد إهلاكهم عقوبةً لهم على قولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾. وفي ذلك وعيد وتهديد للمشركين من قريش على كفرهم وجراءتهم على نبيه، وتثبيت وأمر له بالصبر على ما يلقى من المكروه، كما صبر من كان قبله من الرسل، وبيان بأن عاقبة من كفر به الهلاك، وعاقبته النصر عليهم، كما قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾، وقال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإسكان ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾؛ أي[4]: خاف مقامي بين يدي يوم

---

(1) روح البيان.
(2) البحر المحيط.
(3) المراغي.
(4) الخازن.

القيامة، فأضاف قيام العبد إلى نفسه؛ لأن العرب قد تضيف أفعالها إلى أنفسها كقولهم: ندمت على ضربي إياك، وندمت على ضربك مثله. والخوف[1]: غم يلحق لتوقع المكروه؛ أي: ذلك المذكور من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم ثابت لمن خاف مقامي وموقفي، وهو موقف الحساب؛ لأنه موقف الله الذي يقف فيه عباده يوم القيامة ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ بحذف الياء اجتزاء عنها بالكسرة؛ أي: وخاف وعيدي بالعذاب، وعقابي وعذابي الموعود للكفار على أن يكون الوعيد بمعنى الموعود، **والمعنى**: أن ذلك ثابت وحق لمن جمع بين الخوفين؛ أي: حق للمتقين كقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهذه الآية تدل على أن الخوف من الله غير الخوف من وعيده؛ لأن العطف يقتضي التغاير. ا هـ. «كرخي».

والمعنى: أي[2] هكذا أفعل بمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة، وخاف وعيدي، فأتقاني بطاعتي وتجنب سخطي، أنصره على من أراد سوءاً وبقي به مكروهاً من أعدائي، وأورثه أرضه ودياره، وأثبت الياء[3] هنا وفي «ق» في موضعين: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وصلاً، وحذفها وقفاً ورش عن نافع، وحذفها الباقون وصلاً ووقفاً. ا هـ. «سمين».

ثم بين أن كلاً من الفريقين ـ الأمم والرسل ـ طلبوا المعونة والتأييد من ربهم، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾؛ أي: واستفتحت الرسل على أممها؛ أي: استنصرت الله عليها واستفتحت الأمم على أنفسها، كما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فهو معطوف[4] على ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾. والضمير: إما للرسل؛ أي: استنصروا الله وسألوه الفتح والنصرة على أعدائهم، أو للكفار وذلك أنهم[5] لما أيسوا من إيمان قومهم استنصروا الله ودعوا عليهم بالعذاب. ا هـ. «خازن». والعامة على أن يكون ﴿استفتحوا﴾ فعلاً ماضياً، وفي ضميره أقوال:

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الفتوحات.
(٤) روح البيان.
(٥) الفتوحات.

أحدها: أنه عائد على الرسل الكرام، ومعنى الاستفتاح: الاستنصار، كقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ وقيل: طلب الحكم من الفتاحة؛ أي: الحكم بين الخصمين.

الثاني: أن يعود على الكفار؛ أي: استفتح أمم الرسل عليهم، كقوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. وقيل: عائد على الفريقين؛ لأن كلاً طلب النصر على صاحبه. وقيل: يعود على قريش؛ لأنهم في سني الجدب استمطروا فلم يمطروا، وهو على هذا مستأنف، وأما على غيره من الأقوال، فهو عطف على قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن: ﴿واستفتحوا﴾ بكسر التاء الثانية على لفظ الأمر أمراً للرسل بطلب النصرة، وهي مقوية لعوده في المشهور على الرسل، والتقدير: قال لهم لنهلكن، وقال لهم استفتحوا. ا هـ. «سمين».

ثم ذكر مآل المشركين وبين أن النصر للمتقين، فقال: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾؛ أي: وهلك كل متكبر مجانب للحق منحرف عنه، فهو معطوف[1] على محذوف تقديره: واستفتحوا فنصروا عند استفتاحهم، وظفروا بما سألوا، وأفلحوا وخاب وخسر وهلك عند نزول العذاب قومهم الجبارون المعاندون، والجبار: المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقاً، والعنيد: المعاند للحق والمجانب له.

وإنما قيل: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ذمّاً لهم وتسجيلاً عليهم بالتجبر والعناد، لا أن بعضهم ليسوا كذلك، وأنه لم تصبهم الخيبة. وقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ جملة في محل جر صفة لـ﴿جَبَّارٍ﴾، ويجوز أن تكون الصفة وحدها الجار، و﴿جَهَنَّمُ﴾ فاعل به؛ أي: من وراء[2] ذلك الجبار العنيد؛ أي: قدامه وأمامه جهنم؛ أي: هي له بالمرصاد تنتظره ليسكنها مخلداً فيها أبداً، ويعرض عليها في الدنيا غدواً وعشياً إلى يوم التناد، وهذا[3] وصف حال كل جبار عنيد،

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

وهو في الدنيا؛ أي: بين يديه وقدامه جهنم، فإنه معد لجهنم واقف على شفيرها في الدنيا مبعوث إليها في الآخرة، أو من وراء حياته وهو ما بعد الموت، فيكون وراء بمعنى خلف، كما قال الكاشفي. ثم بين شرابه فيها، فقال: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾؛ أي: ليس له في النار شراب إلا ماءٌ يخرج من جوفه، وقد خالطه القيح والدم، وخص بالذكر؛ لأنه آلم أنواع العذاب، فهو معطوف على مقدّر جواباً عن سؤال سائل، كأنه قيل: فماذا يكون إذن؟ فقيل: يلقى فيها ويسقى ﴿مِن مَّآءٍ﴾ مخصوص لا كالمياه المعهودة. ﴿صَدِيدٍ﴾: هو القيح المختلط بالدم، أو ما يسيل من أجساد أهل النار وفروج الزناة، وهو عطف بيان لماء، أبهم أولاً ثم بين بالصديد تعظيماً وتهويلاً لأمره، وتخصيصه بالذكر من بين عذابها يدل على أنه من أشد أنواعه، أو صفة عند من لا يجيز عطف البيان في النكرات وهم البصريون، فإطلاق الماء عليه لكونه بدله في جهنم. وقيل[1]: صديد بمعنى مصدود عنه؛ أي: لكراهته يصد عنه، فيكون مأخوذاً من الصد بمعنى الإعراض.

ثم ذكر ألمه من ذلك الشراب، فقال: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ استئناف بياني، كأنه قيل: فماذا يفعل به؟ فقيل: يتجرعه؛ أي: يتحساه ويشربه مرة بعد مرة لا بمرة واحدة، بل جرعة بعد جرعة لمرارته وحرارته وكراهته ونتنه ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾؛ أي: لا يقارب أن يسيغه ويبتلعه فضلاً عن الإساغة، بل يغص به ولا يقدر على ابتلاعه من شدة كراهته ورداءة طعمه ولونه وريحه وحرارته، كما قال: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾، وقال: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾.

وعن أبي أمامة[2] ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قال: «يقرب إلى فيه فيكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

قال: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾، وقال: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾» أخرجه الترمذي، وقال: حديث غريب. قوله: «وقعت فروة رأسه»؛ أي: جلدة رأسه، وإنما شبهها بالفروة للشعر الذي عليها.

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾؛ أي: وتأتيه[1] أسباب الموت من كل جهة من الجهات، أو من كل موضع من مواضع بدنه حتى من أصول شعره، وإبهام رجله. وقال الأخفش: المراد بالموت هنا البلايا التي تصيب الكافر في النار، سماها موتاً لشدتها. ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾؛ أي: والحال أنه ليس بميت حقيقة فيستريح. وقيل: تعلق نفسه في حنجرته، فلا تخرج من فيه فيموت، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فيحيا، ومثله قوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

والمعنى: أي وتحيط[2] به أسبابه من الشدائد وأنواع العذاب من كل جهة من الجهات، من قدامه ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته، وعن يمينه وعن شماله في نار جهنم ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت لكنه لا يموت كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾.

ثم أكد شدائدها وعظيم أهوالها فقال: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾؛ أي: ومن وراء ذلك الصديد؛ أي: من أمامه أو من بعده ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾؛ أي: عذاب شديد؛ أي: وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ؛ أي: مؤلم أغلظ من الذي قبله، وأمر لا يعرف كنهه؛ أي: يستقبل كل وقت عذاباً أشد وأشق مما كان قبله، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ ففي قوله: ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ رفع ما يتوهم من الخفة بحسب الاعتياد، كما في عذاب الدنيا. وقيل: الضمير يعود إلى ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾.

والمعنى[3]: أي ومن بعد ذلك العذاب عذاب شديد أشد مما هو عليه لا

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) المراح.

ينقطع ولا يخف بسبب الاعتياد، كما في عذاب الدنيا.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: صفتهم وحالهم العجيبة الشأن التي هي كالمثل في الغرابة، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ كقولك صفة زيد ماله منهوب، أو خبره محذوف؛ أي: فيما يتلى عليكم مثلهم. وقوله: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ جملة مستأنفة مبنية على سؤال من يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: أعمالهم كرماد؛ أي: صفة أعمالهم الصالحة كصدقة وصلة رحم وإعتاق رقاب وفداء أسير وقرى ضيف وبر والد وإغاثة ملهوف ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ﴾؛ أي: ذرت ﴿بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ ريحه؛ أي: شديد الريح، فحذف الريح ووصف اليوم بالعصوف مجازاً، كقولك: يوم ماطر وليلة ساكنة، وإنما السكون لريحها. وقرأ نافع وأبو جعفر: ﴿الرياح﴾ بالجمع، والجمهور بالإفراد. وقرأ ابن أبي إسحاق وإبراهيم بن أبي بكر عن الحسن شذوذاً: ﴿في يومِ عاصفٍ﴾ على إضافة يوم لعاصف، وهو على حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، تقديره: في يوم ريح عاصف ذكره في «البحر».

والمعنى[1]: أي ما مثل أعمال الكافرين التي كانوا يعملونها في الدنيا ويزعمون أنها تنفعهم يوم الجزاء إلا كمثل رماد حملته الريح وأسرعت الذهاب به في يوم عاصف، فنسفته ولم تبق له أثراً، فهم يوم القيامة لا يجدون شيئاً ينفعهم عند الله تعالى فينجيهم من عذابه؛ إذ لم يكونوا يعملونها لله خالصة، بل كانوا يشركون فيها الأصنام والأوثان.

ثم أكد نفي فائدتها لهم إذ ذاك، فقال: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ وعملوا في الدنيا من أعمال الخير ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ ما؛ أي[2]: لا يجدون يوم القيامة أثراً مما عملوا في الدنيا من ثواب، أو تخفيف عذاب، كما لا يوجد من الرماد شيء إذا ذرته الريح، وذلك لفقد شرط الأعمال وهو الإيمان. ونحو الآية: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾، وقال: ﴿مَّثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.

هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور الذي[1] دلّ عليه التمثيل دلالة واضحة من ضلالهم؛ أي: كفرهم وأعمالهم المبنية عليه، وعلى التفاخر والرياء مع حسبانهم محسنين، وهو جهل مركب وداء عضال، حيث زين لهم سوء أعمالهم، فلا يستغفرون منها ولا يتوبون بخلاف عصاة المؤمنين، ولذا قال: ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ صاحبه عن طريق الحق والصواب بمراحل، أو نيل الثواب، فأسند البعد الذي هو من أحوال الضال إلى الضلال الذي هو فعله مجازاً مبالغة؛ أي: ذلك[2] السعي والعمل على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم منه أحوج ما كانوا إليه هو الضلال البعيد عن طريق الحق والصواب.

والمعنى: ذلك المذكور من عملهم هو الضياع البعيد عن نيل الثواب والخسران الكبير.

شبه الله سبحانه وتعالى صنائع الكفار[3] ـ من الصدقة وصلة الرحم وعتق الرقاب وفك الأسير، وإغاثة الملهوفين وإطعام الجائع وعقر الإبل للأضياف ونحو ذلك مما هو من باب المكارم ـ في حبوطها وذهابها هباءً منثوراً، لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان وكونها لوجهه، برماد طيرته الريح العاصف، فكما لا ينتفع بذلك الرماد المطير، كذلك لا ينتفع بالأعمال المقرونة بالكفر والشرك، ففيه رد أعمال الكفار وأعمال أهل الأهواء والبدع؛ لاعتقادهم السوء، فدل على أنَّ الأعمال مبنية على الإيمان، وهو على الإخلاص، وورد في الصحيح عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: يا رسول الله إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل ويطعم المسكين، هل ذلك نافعه؟ قال: «لا ينفعه؛ لأنه لم يقل: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين».

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

ثم ذكر دليل وحدانيته، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ أي: ألم تعلم يا محمد ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَلَقَ﴾ وأنشأ وأبدع ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي[1]: متلبساً بالحكمة البالغة وعلى الوجه الصحيح الذي ينبغي أن يخلقا عليه، لا باطلاً ولا عبثاً، والخطاب فيه لرسول الله ﷺ، والمراد: أمته بدليل قوله: ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ والأمة أمة الدعوة، والرؤية رؤية القلب. ﴿إِن يَشَأْ﴾ الله سبحانه وتعالى إعدامكم أيها الناس ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾؛ أي: يعدمكم بالكلية ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ أي: يخلق بدلكم خلقاً آخر من جنسكم آدميين، أو من غيره خيراً منكم وأطوع لله ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إذهابكم والإتيان بخلق جديد مكانكم ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾؛ أي: بمتعذر أو متعسر، بل هو هين عليه يسير، فإنه قادر لذاته على جميع الممكنات، لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. ومن هذا شأنه حقيق أن يؤمن به ويعبد ويرجى ثوابه ويخشى عقابه، والآية تدل على كمال قدرته تعالى وصبوريته، حيث لا يؤاخذ العصاة على العجلة.

وفي «الصحيحين»: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله! إنه يشرك به ويجعل له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم». ثم إن[2] تأخير العقوبة يتضمن حكماً، منها رجوع التائب وانقطاع حجة المصر، فعلى العاقل أن يخشى الله تعالى على كل حال، فإنه ذو القهر والكبرياء والجلال.

والمعنى: ألم[3] تعلم أيها الرسول الكريم أن الله سبحانه وتعالى أنشأ السماوات والأرض بالحكمة البالغة وعلى الوجه الصحيح الذي يحق أن يخلقا عليه، ولم يخلقهما عبثاً ولا باطلاً، ومن قدر على خلقهما على أتم نظام وأحكم وضع بلا معين ولا ظهير.. فهو قادر على أن يفنيكم ويأتي بخلق جديد سواكم، وما ذلك بممتنع ولا متعذر عليه. ومثل الآية قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)﴾.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

وخلاصة ذلك: أنهم بعدوا في الضلال وأمعنوا في الكفر بالله مع وضوح الآيات الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة، وأنه هو الحقيق بأن يرجى ثوابه ويخشى عقابه. وقرأ السلمي شاذاً[1]: ﴿ألم ترْ﴾ - بسكون الراء - ووجهه أنه أجري الوصل مجرى الوقف، وفيه توجيه آخر؛ وهو أنَّ (ترى) حذفت العرب ألفها في قولهم: قام القوم ولو تر ما زيد، كما حذفت ياء (لا أبالي) في (لا أبال)، فلما دخل الجازم تخيل أن الراء هي آخر الكلمة، فسكنت للجازم، كما قالوا في لا أبالي: «لم أبل» تخيلوا اللام آخر الكلمة. وقرأ الأخوان حمزة والكسائي وخلف العاشر: ﴿خالق﴾ اسم فاعل ﴿والأرضِ﴾ بالخفض. وقرأ باقي العشرة: ﴿خَلَقَ﴾ فعلاً ماضياً و﴿الأرضَ﴾ بالفتح. ﴿وَبَرَزُواْ﴾؛ أي: برزت الخلائق كلها برها وفاجرها ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد القهار حالة كونهم ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: مجتمعين في براز من الأرض وصعيد واحد، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً؛ أي: خرج الموتى من قبورهم يوم القيامة واجتمعوا في أرض المحشر للقاء الله ومحاسبته على أعمالهم عند النفخة الثانية حين تنتهي مدة لبثهم في بطن الأرض. وقرأ زيد بن علي في الشاذ[2]: ﴿وبُرِّزوا﴾ - مبنياً للمفعول وبتشديد الراء - من برز المضعف.

﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ في الرأي وهم السفلة ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ عن عبادة الله وهم أكابرهم ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ في تكذيب الرسل والإعراض عن نصيحتهم؛ أي: فقال الأتباع لقادتهم وسادتهم الذين استكبروا عن عبادة الله تعالى وحده وعن اتباع الرسل، وصدوا عنهما: إنا كنا تابعين لكم في الدنيا تأمروننا فنأتمر وتنهوننا فننتهي ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾؛ أي: دافعون عنا في هذا اليوم ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾؛ أي: بعض شيء من عذاب الله، فـ﴿مِنۡ﴾[3] الأولى للبيان واقعة موقع الحال قدمت على صاحبها؛ لكونه نكرة، والثانية

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الخازن.

للتبعيض واقعة موقع المفعول؛ أي: بعض الشيء الذي هو عذاب الله تعالى. ويجوز أن تكونا للتبعيض؛ أي: بعض شيء هو بعض عذاب الله تعالى، والإعراب ما سبق. ويحتمل أن تكون الأولى مفعولاً والثانية مصدر؛ أي: فهل أنتم مغنون بعض العذاب بعض الإغناء، والفاء للدلالة على سببية الإتباع للإغناء. والاستفهام فيه[1] للتوبيخ لهم والعتاب على استغوائهم؛ لأنهم علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم؛ أي: فهل تدفعون عنا اليوم شيئاً من ذلك العذاب كما كنتم تعدوننا وتمنوننا في الدنيا. وقد حكى الله تعالى رد أولئك السادة عليهم بقوله: ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: المستكبرون جواباً عن معاتبة الأتباع، واعتذاراً عما فعلوا بهم: يا قوم ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ إلى الإيمان ووفقنا له ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ إلى طريق الرشاد، ولكن ضللنا فأضللناكم؛ أي: اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا؛ أي[2]: لو أرشدنا الله تعالى وأضاء لنا أنوار بصائرنا وأفاض علينا من توفيقه ومعونته لأرشدناكم إلى سبل الهدى، ووجهنا أنظاركم إلى طريق الخير والفلاح، ولكنه لم يهدنا فضللنا السبيل فأضللناكم.

والخلاصة: أي لو خلصنا الله من العقاب، وهدانا إلى طريق الجنة لهديناكم طريق النجاة، ودفعنا عنكم بعض العذاب، ولكن سد الله عنا طريق الخلاص. ولما كان هذا القول منهم أمارة الجزع قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ العذاب ﴿أَجَزِعْنَآ﴾؛ أي: أصحنا وتضرعنا مما لقينا ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ على ذلك؛ أي: الصياح، فالتضرع والصبر مستويان علينا في عدم الإنجاء؛ أي: سواء[3] علينا أجزعنا في طلب النجاة من ورطة الهلاك والعذاب، والجزع عدم الصبر على البلاء، أم صبرنا على ما لقينا انتظاراً للرحمة؛ أي: مستو علينا الجزع والصبر في عدم الإنجاء، ففيه إقناط الضعفاء، والهمزة وأم لتأكيد التسوية ونحوه: ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾.

---

(1) السنفي.

(2) المراغي.

(3) روح البيان.

ولما كان عتاب الأتباع من باب الجزع ذيلوا جوابهم ببيان أن لا جدوى في ذلك، فقالوا: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: من منجاً، ومهرب؛ أي: ليس لنا مهرب ولا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا أو جزعنا.

وخلاصة ذلك[1]: سيان الجزع والصبر، فلا نجاة لنا من عذاب الله، ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾، وقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

ولما ذكر سبحانه وتعالى المناظرة التي ستكون بين الأتباع والرؤساء.. أردفها بالمناظرة التي ستكون بين الشيطان وأتباعه، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الذي أضل الضعفاء والمستكبرين؛ أي: يقول إبليس رئيس الشياطين خطيباً في محفل الأشقياء من الثقلين ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: حين أحكم وفرغ من أمر الخلائق بالحساب والمجازاة بأن استقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وقد قالوا له: اشفع لنا، فإنك أضللتنا؛ أي: قال: إبليس مخاطباً أتباعه من الإنس بعد أن حكم الله بين عباده، فأدخل المؤمنين فراديس الجنات، وأسكن الكافرين سحيق الدركات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَعَدَكُمْ﴾ على ألسنة رسله ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ والصدق بالبعث وجزاء كل عامل على عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ووعده حق وخبره صدق، فصدق في وعده إياكم، فوفى لكم بما وعدكم به ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ وعد الباطل بأن لا بعث ولا جزاء ولا جنة ولا نار، ولئن كانا فالأصنام شفعاؤكم، ولم يصرح ببطلانه لما دل عليه قوله: ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ موعدي، فحذف المفعول الثاني؛ أي: نقضته، والإخلاف[2] حقيقة هو عدم إنجاز من يقدر على إنجاز وعده، وليس الشيطان كذلك، فقوله: ﴿أخلفتكم﴾ يكون مجازاً جعل

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

تبين خلف وعده كالإخلاف منه، كأنه كان قادراً على إنجازه وأنى له ذلك؛ أي: كذبت عليكم وتبين خلف وعدي إذ لم أقل إلا بهرجاً من القول وباطلاً منه، فاتبعتموني وتركتم وعد ربكم، وهو وليكم ومالك أمركم، ونحو الآية قوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: تسلط وقهر فألجئكم إلى الكفر والمعاصي، وأجبركم عليهما؛ أي: وما كان لي قوة وتسلط تجعلني ألجئكم إلى متابعتي على الكفر والمعاصي ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾؛ أي: إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾؛ أي: أجبتموني؛ أي[1]: ولكن بمجرد أن دعوتكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني أسرعتم إلى إجابتي واتبعتم شهوات النفوس وأطعتم الهوى، وخضتم في مسالك الردى. قال في[2] «بحر العلوم»: لقائل أن يقول: قول الشيطان هذا مخالف؛ أي: معارض لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾، فما حكم قول الشيطان أحق هو أم باطل على أنه لا طائل تحته في النطق بالباطل في ذلك المقام انتهى. يقول الفقير: جوابه بأنه يجمع بينهما بأن نفي السلطان بمعنى القهر والغلبة لا ينافي إثباته بمعنى الدعوة والتزيين، فالشيطان ليس له سلطان بالمعنى الأول على المؤمنين والكافرين جميعاً، وله سلطان بالمعنى الثاني على الكفار فقط كما دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ وأما المؤمنون وهم أولياء الله، فيتولون الله بالطاعة، فهم خارجون عن دائرة الإتباع بوسوسته.

والخلاصة: أن السلطان المنفي هنا هو بمعنى القهر والغلبة، والمثبت هو السلطان بمعنى الوسوسة والتزيين. ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾؛ أي: ولا تعاتبوني فيما وعدتكم بالباطل حيث لم يكن ذلك على طريقة القسر والقهر؛ لأني خلقت لهذا، ولأني عدو مبين لكم، وقد حذركم الله عداوتي حيث قال: ﴿لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ومن تجرد للعداوة لا يُلام إذا دعا إلى أمر قبيح ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ حيث أجبتموني باختياركم حيث دعوتكم بلا دليل، فما كان مني إلا الدعاء وإلقاء الوسوسة، وقد سمعتم دلائل الله وحججه، وجاءتكم الرسل فصدقتموني فيما كذبتكم، وكذبتم الله فيما صدقكم، وكان من الواجب عليكم أن لا تغتروا بقولي الباطل، فلما رجحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم عليكم لا علي في هذا الباب ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾؛ أي: بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب، فأزيل صراخكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾؛ أي: بمغيثي مما أنا فيه من العذاب والنكال، يعني: لا ينجي بعضنا بعضاً من عذاب الله. والإصراخ[1]: الإغاثة، وإنما تعرض لذلك مع أنه لم يكن في حيز الاحتمال مبالغةً في بيان عدم إصراخه إياهم وإيذاناً بأنه أيضاً مبتلى بمثل ما ابتلوا به، ومحتاج إلى الإصراخ، فكيف من إصراخ الغير. وقرأ الجمهور: ﴿بِمُصْرِخِيَّ﴾ بفتح الياء وتشديدها. وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة[2]: ﴿بمصرخيِ﴾ بكسر الياء. وطعن كثير من النحاة في هذه القراءة. قال الفراء: لعلها من وهم القراء؛ فإنه قل من سلم منهم من الوهم. وقال أبو عبيد: نراهم غلطوا، وقد نقل جماعة من أهل اللغة أنها لغة، لكنه قل استعمالها، ونص قطرب على أنها لغة في بني يربوع.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾ اليوم ﴿بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾؛ أي: بإشراككم إياي مع الله في الطاعة ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذا اليوم؛ أي: في الدنيا بمعنى: تبرأت منه واستنكرته؛ أي: إني جحدت اليوم أن أكون شريكاً لله فيما أشركتموني فيه من قبل هذا اليوم؛ أي: في الدنيا، وهذا كقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾. قال في «الإرشاد»[3]: يعني إن إشراككم لي بالله هو الذي يطمعكم في نصرتي لكم بأن كان لكم علي حق حيث جعلتموني معبوداً، وكنت أود ذلك وأرغب فيه، فاليوم كفرت بذلك ولم أحمده ولم أقبله منكم، بل تبرأت منه ومنكم، فلم يبق بيني وبينكم علاقة. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من تمام[4] كلام إبليس

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

(٤) المراح والمراغي.

قطعاً لأطماع أولئك الكفار عن الإغاثة والنجاة من النار، فالوقف على ﴿مِن قَبْلُ﴾ حسن، أو ابتدأ كلام من حضرة الله تعالى إيقاظاً للسامعين وخصالهم على النظر في عاقبة أمرهم والاستعداد لذلك اليوم الذي يقول فيه الشيطان ما يقول، فيتوبوا إلى رشدهم ويرجعوا عن غيّهم، ويتذكروا هول ذلك الموقف ورهبته، فالوقف على ﴿مِن قَبْلُ﴾ تام كما هو عند أبي عمرو. والظالمون هم الشيطان ومتبعوه من الإنس؛ لأن الشيطان وضع الدعوة إلى الباطل في غير موضعها، وإنهم وضعوا الإتباع في غير موضعه.

ولما جمع سبحانه فريقي السعداء والأشقياء في قوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وبالغ في وصف حال الأشقياء من وجوه كثيرة.. ذكر حال السعداء وما أعد لهم من نعيم مقيم في ذلك اليوم، فقال: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ أي: صدقوا الله ورسوله، فأقروا بوحدانيته تعالى ورسالة رسله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: عملوا بطاعته، فانتهوا إلى أمره ونهيه، والمدخلون هم الملائكة؛ أي: وأدخلت الملائكة الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: بساتين تسيل من تحت أشجارها وقصورها الأنهار الأربعة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾؛ أي: ماكثين فيها أبداً لا يتحولون عنها ولا يزولون منها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بـ﴿أدخل﴾؛ أي: ادخلوها بإذن ربهم؛ أي: أدخلتهم الملائكة بأمر ربهم وإذنه وتوفيقه ولطفه وهدايته، هذا على قراءة الجمهور؛ لأنهم قرؤوا: ﴿وأدخل﴾ على البناء للمفعول. وقرأ الحسن شاذاً: ﴿وأُدخِلُ﴾ على صيغة المتكلم والبناء للفاعل؛ أي: وأنا أدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وعلى هذه القراءة فقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بـ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾؛ أي: تحييهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم تعظيماً لشأنهم وعناية بأمرهم.

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ التحية[1]: دعاء بالتعمير، وإضافتها إلى الضمير من إضافة المصدر إلى المفعول؛ أي: تحييهم الملائكة في الجنات بالسلام من

---

(١) روح البيان.

الآفات، أو يحيي المؤمنون بعضهم بعضاً بالسلام، والسلام تحية المؤمنين في الدنيا أيضاً، وأصله صدر من أبينا آدم عليه السلام لما روىٰ وهب بن منبه أن آدم لما رأى ضياء نور نبينا محمد ﷺ سأل الله عنه، فقال: هو نور النبي العربي محمد من أولادك، فالأنبياء كلهم تحت لوائه، فاشتاق آدم إلى رؤيته، فظهر نور النبي عليه السلام في أنملة مسبِّحة آدم، فسلم عليه، فرد الله سلامه من قبل النبي عليه السلام، فمن هنا بقي السلام سنة لصدوره عن آدم، وبقي رده فريضة، لكونه عن الله تعالى.

ولما شرح الله سبحانه وتعالى أحوال الأشقياء وأحوال السعداء[1].. ضرب مثلاً فيه حكم هذين القسمين، فقال جلّ وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد وتنظر بعين قلبك، فتعلم[2] علم يقين بإعلامي إياك، فعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب فيه للنبي ﷺ، ويدخل معه غيره، ويحتمل أن يكون الخطاب لكل فرد من الناس، فيكون المعنى: ألم تر أيها الإنسان ﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾؛ أي: كيف جعل الله تعالى كلمة طيبة ـ وهي لا إلٰه إلا الله ـ مثلاً.

وقيل[3]: هي كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة إلى الله قاله الزمخشري. وضرب هنا بمعنى جعل وصير، فهو متعد إلى اثنين ﴿كَلِمَةً﴾ المفعول الأول، وأخرت عن المفعول الثاني، وهو ﴿مَثَلًا﴾ لئلا تبعد عن صفتها، و﴿مَثَلًا﴾ المفعول الثاني بمعنى جعلها مثلاً، وعلى هذا ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي كشجرة طيبة كما قاله ابن عطية، وأجازه الزمخشري، و﴿كَيْفَ﴾ منصوب على الحال من المفعول الثاني الذي هو ﴿مَثَلًا﴾، والتقدير: ألم تر ضرب الله مثلاً حالة كونه كيف؛ أي: حال كونه مسؤولاً عن حاله من غرابته. والاستفهام في ﴿كَيْفَ﴾ للتعجب، وفي ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتقرير. والمثل عبارة عن قولٍ في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة

(١) الخازن.
(٢) الخازن.
(٣) الفتوحات.

لتبيين أحدهما من الآخر وتصويره، وقيل هو على قول سائر المفسرين تشبيه شيء بشيء آخر. ا هـ. «خازن». وهذا المعنى هو المراد هنا.

والمعنى: ألم تعلم يا محمد كيف جعل الله سبحانه وتعالى وصير كلمة طيبة مثلاً؛ أي: شبها لشيء آخر، وهي؛ أي: الكلمة الطيبة ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ في الإثمار وهي النخلة. وقرىء شاذاً: ﴿كلمةٌ طيبةٌ﴾ بالرفع قال أبو البقاء على الابتداء و﴿كَشَجَرَةٍ﴾ خبره. انتهى، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف والتقدير: هو؛ أي: المثل كلمة طيبة، وكشجرةٍ نعت لكلمة ذكره في «البحر». وجملة قوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ مع ما عطف عليها صفة لـ﴿شجرة﴾؛ أي: أسفلها ذاهب بعروقه في الأرض متمكن فيها. ﴿وَفَرْعُهَا﴾؛ أي: أعلاها ورأسها طالع نابت ﴿فِي السَّمَآءِ﴾؛ أي: في الهواء ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾؛ أي: تعطي هذه الشجرة ثمرها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾؛ أي: كل وقت[1] وقته الله تعالى لإثمارها، وهي السنة الكاملة؛ لأن النخلة تثمر في كل سنة مرة، ومدة إطلاعها إلى وقت صرامها ستة أشهر.

وقيل المعنى[2]: تؤتي أكلها كل وقت وكل ساعة ليلاً أو نهاراً شتاء أو صيفاً، فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والخلال والبسر والنصف والرطب، وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس إلى حين الطري الرطب، فأكلها دائم كل وقت ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾؛ أي: بإرادة خالقها وتيسيره وتكوينه، فكذلك كلمة التوحيد ثابتة في قلب المؤمن بالبرهان، وعمل المؤمن المخلص يرفع إلى السماء وفي كل وقت وحين يعمل خيراً بأمر ربه.

وحكمة تمثيل كلمة التوحيد بالشجرة أن الشجرة تكون ثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل قائم، وفرع عال، كذلك التوحيد يكون ثلاثة أشياء: تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى شبه[3] الكلمة الطيبة: وهي الإيمان

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.

الثابت في قلب المؤمن الذي يرفع به عمله إلى السماء، وتنال بركته وثوابه في كل وقت وحين بالشجرة الطيبة المثمرة الجميلة المنظر الشذية الرائحة التي لها أصل راسخ في الأرض به يؤمن قلعها وزوالها، وفروعها متصاعدة في الهواء، فيكون ذلك دليلاً على ثبات الأصل ورسوخ العروق، على بعدها عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية، فتأتي الثمرة نقية خالية من جميع الشوائب، وتثمر في كل حين بأمر ربها، وإذنه، وإذا اجتمع لهذه الشجرة كل هذه المميزات كثر رغبة الناس فيها.

وخلاصة ذلك: أنه تعالى شبه كلمة الإيمان بشجرة ثبتت عروقها في الأرض وعلت أغصانها إلى السماء، وهي ذات ثمر في كل حين ذاك أن الهداية إذا حلت قلباً فاضت منه على غيره وملأت قلوباً كثيرة، فكأنها شجرة أثمرت كل حين؛ لأن ثمراتها دائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وكل قلب يتلقى عما يشاكله ويأخذ منه بسرعة أشد من سرعة إيقاد النار في الهشيم، أو سريان الكهرباء في المعادن، أو الضوء في الأثير. وقد روي عن ابن عباس أن الكلمة الطيبة هي قول: لا إلٰه إلا الله، وأن الشجرة الطيبة هي: النخلة. وعن ابن عمر قال: (كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «أخبروني عن شجرة تشبه الرجل المسلم لا يتحات ورقها لا صيفاً ولا شتاء، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها» قال ابن عمر فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ: «النخلة»، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تتكلم، قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم، أو أقول شيئاً، قال: لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا). رواه البخاري. ثم نبه سبحانه إلى عظم هذا المثل ليكون ذلك داعية تدبره ومعرفة المراد منه، فقال: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ والأشباه ويبينها ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: يتفكرون في أحوال المبدأ والمعاد، وبدائع صنعه سبحانه الدالة على وجوده ووحدانيته، ويتعظون؛ لأن في ضربها زيادة إفهام وتذكير، فإنه تصوير للمعاني بصور المحسوسات وتقريب لها من الحسن؛ لأن أنس النفوس بها أكثر، فهي تخرج المعنى من خفي إلى جلي ومما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع، وبها يطبق المعقول على المحسوس، فيحصل العلم التام

بالشيء الممثل له، فتكون عبرة لمن اعتبر وعظة لمن اتعظ.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾؛ أي: صفة كلمة قبيحة وهي كلمة الكفر بأنواعه، ويدخل[1] فيها كل كلمة قبيحة من الدعاء إلى الكفر وتكذيب الحق ونحوهما ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾؛ أي: كمثل شجرة رديئة؛ أي: صفتها كصفتها، ويدخل فيها كل ما لا يطيب أكلها ولا ينتفع بها. قيل: هي شجرة الحنظلة، وقيل: الكمأة، وقيل: الطحلبة، وقيل: هي الكشوث - بالضم - وآخره مثلثة، وهي شجرة[2] لا ورق لها ولا عروق في الأرض، أو هي نبت[3] يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض. وقرىء[4]: ﴿ومثلاً كلمة﴾ بالنصب عطفاً على ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾.

﴿اجْتُثَّتْ﴾؛ أي: اقتلعت واستؤصلت ﴿مِن فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ لكون عروقها في وجه الأرض؛ أي: ليس[5] لها أصل ولا عرق يغوص في الأرض، فتسميتها شجرة للمشاكلة، فكذلك الشرك بالله ليس له حجة ولا قوة ﴿مَا لَهَا﴾؛ أي: لهذه الشجرة ﴿مِن قَرَارٍ﴾؛ أي: من[6] ثبات على الأرض؛ لأنها ليس لها أصل ثابت في الأرض ولا فرع صاعد إلى السماء، كذلك الكافر ليس فيه خير، ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح، ولا لاعتقاده أصل ثابت، فهذا وجه تمثيل الكافر بهذه الشجرة الخبيثة؛ أي: ومثل[7] كلمة الكفر وما شاكلها مثل شجرة خبيثة كالحنظل ونحو مما ليس له أصل ثابت في الأرض، بل عروقها لا تتجاوز سطحها، وقد اقتلعت من فوق الأرض؛ لأن عروقها قريبة منه ولا عروق لها في الأرض، فكما أن هذه لا ثبات لها ولا دوام، فكذلك الباطل لا يدوم ولا يثبت، بل هو زائل ذاهب وثمره مر كريه كالحنظل، وفي الحقيقة تسميتها شجرة مجاز، لأن الشجرة ما له ساق، والنجم ما لا ساق له، وهي من النجم، فتسميتها شجرة

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراح.
(٤) الشوكاني.
(٥) المراح.
(٦) الخازن.
(٧) المراغي.

للمشاكلة، وما أقوى الحق وأثبته وأكثر نفعه للناس، فهو ثابت الدعائم متين الأركان.

والخلاصة: أن أرباب النفوس العالية، وكبار المفكرين هم أصحاب الكلمة الطيبة، وعلومهم تعطي أممهم نعماً ورزقاً في الدنيا، وهي مستقرة في نفوسهم، وفروعها ممتدة إلى العوالم العلوية والسفلية، وتثمر كل حين لأبناء أمتهم ولغيرهم، فيهتدي بها المؤمنون، وما أشبههم بالنخلة التي لها أصل مستقر وفروع عالية وثمر دائم، ويأكل الناس منها صيفاً وشتاء، وأرباب الشهوات والنفوس الضعيفة والمقلدون في العلم هم أصحاب الكلمة الخبيثة التي لا ثبات لها كالحنظل.

وبعد أن وصف الله سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بما سلف.. أخبر بفوز أصحابها ببغيتهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله وصدقوا بوحدانيته وبما جاءت به رسله على دينهم، وهذا راجع للمثل الأول، وقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾.. إلخ. راجع للمثل الثاني. ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الذي ثبت عندهم بالحجة، وتمكن في قلوبهم، وهو قول: لا إله إلا الله. ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: قبل[1] موتهم، فإذا ابتلوا وافتتنوا في الحياة الدنيا.. ثبتوا عليه، ولم يرجعوا عنه، ولو عذبوا أنواع العذاب كمن تقدمنا من الأنبياء والصالحين مثل زكريا ويحيى، والذين قتلهم أصحاب الأخدود، والذين مشطت لحومهم بأمشاط الحديد، وكما جرى لبلال وغيره من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿و﴾ يثبتهم على دينهم الحق ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: في القبر عند سؤال منكر ونكير، وفي سائر المواطن وقت المسألة يوم القيامة، والقبر من الآخرة، فإنه أول منزل من منازل الآخرة. وقيل: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني[2]: في القبر عند السؤال ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ يعني: يوم القيامة عند البعث والحساب، وهذا القول واضح.

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.

والمعنى: أي يثبتهم بالكلمة الطيبة التي ذكرت صفاتها العجيبة فيما سلف من مدة حياتهم إذا وجد من يفتنهم عن دينهم ويحاول زللهم، كما جرى لبلال وغيره من أصحاب النبي ﷺ، وبعد الموت في القبر الذي هو أول منزل من منازل الآخرة حين يقال له: من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ، وفي مواقف القيامة فلا يضطربون إذا سئلوا عن معتقدهم، ولا تدهشهم الأهوال.

أخرج ابن أبي شيبة عن البراء بن عازب أنه قال في الآية: التثبيت في الحياة الدنيا إذا جاء الملكان إلى الرجل في القبر، فقالا له: من ربك؟ قال: ربي الله، وقالا: وما دينك؟ قال: ديني الإسلام، وقالا: وما نبيّك؟ قال: نبيي محمد ﷺ.

وعن عثمان بن عفان قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل». أخرجه أبو داود. وقد وردت أحاديث كثيرة في سؤال الملائكة للميت في قبره وفي جوابه لهم وفي عذاب القبر وفتنته، وليس هذا موضعها نسأل الله التثبيت في القبر وحسن الجواب بمنه وكرمه إنه على ما يشاء قدير.

وعلى هذا[1]: فالمراد بالحياة الدنيا مدة الحياة قبل الموت، وبالآخرة ما بعد الموت من القبر ويوم القيامة والعرض للحساب. وبعد أن وصف الكلمة الخبيثة في الآية المتقدمة بين حال أصحابها بقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾؛ أي: يضلهم[2] عن حجتهم التي هي القول الثابت، فلا يقدرون على التكلم بها في قبورهم ولا عند الحساب، كما أضلهم عن اتباع الحق في الدنيا. والمراد بالظالمين هنا الكفرة؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بتبديلهم فطرة الله التي فطر الناس عليها، وعدم اهتدائهم إلى القول الثابت. وقيل: كل من ظلم نفسه ولو بمجرد الإعراض عن البينات الواضحة، فإنه لا يثبت في مواقف الفتن، ولا يهتدي إلى الحق. وقيل معنى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾؛ أي: يخلق[3] الله في الكفرة

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

والمشركين الضلال، فلا يهديهم إلى الجواب بالصواب، كما ضلوا في الدنيا، ثم ذكر سبحانه أنه يفعل ما يشاء من التثبيت والخذلان، لا راد لحكمه ولا يسأل عما يفعل، فقال: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى في عباده ﴿مَا يَشَآءُ﴾ ويريد من تثبيت وإضلال؛ أي: خلق ثبات في بعضٍ، وخلق ضلالٍ في آخرين من غير اعتراض عليه. وأخرج[1] ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن الكافر إذا حضره الموت تنزل عليه الملائكة عليهم السلام يضربون وجهه ودبره، فإذا دخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ لم يرجع إليهم شيئاً، وأنساه الله تعالى ذكر ذلك، وإذا قيل له: من الرسول الذي بعث إليك؟ لم يهتد له، ولم يرجع إليهم شيئاً، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾؛ أي: وبيده تعالى الهداية والإضلال بحسب ما تقتضيه سننه العامة التي سنها في عباده بحسب استعداد النفوس وقبولها لكل منهما، فلا تنكروا قدرته على اهتداء من كان ضالاً وإضلال من كان منكم مهتدياً، فإن بيده تعالى تصريف خلقه وتدبيرهم وتقليب قلوبهم، يفعل فيهم ما يشاء من إرشاد وإضلال، لا يسئل عما يفعل وهم يسألون، فسبحانه من حكيم عليم.

الإعراب

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿لِرُسُلِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بقالوا. ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾ إلى قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿نخرجنكم﴾: فعل مضارع ومفعول به في محل الرفع؛ لتجرده عن الناصب والجازم مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. ﴿مِّنْ أَرْضِنَآ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الكفار، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة

---

(١) المراغي.

القسم في محل النصب مقول قالوا: ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتخيير. ﴿لَتَعُودُنَّ﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿تعودن﴾: فعل مضارع ناقص؛ لأنه من أخوات صار مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الجماعة المحذوفة للتخلص من التقاء الساكنين في محل الرفع اسمها، والنون المشددة حرف تأكيد. ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر عاد تقديره: أو لتعودن داخلين في ملتنا، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم في محل النصب معطوفة على جملة القسم الأول على كونها مقولاً لقالوا. ﴿فَأَوْحَىٰ﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع. ﴿أوحى﴾: فعل ماض. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق به. ﴿رَبُّهُمْ﴾: فاعل، والجملة معطوفة مفرغة على جملة قالوا. ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿نهلكن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿الظَّالِمِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة القسم في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: وقال لنهلكن الظالمين.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ﴾ (الواو): عاطفة. (اللام): موطئة للقسم. ﴿نسكننكم﴾: فعل مضارع، ومفعول به مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿الْأَرْضَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق به. ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق به أيضاً، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾ على كونها مقولاً لقول محذوف. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿لِمَنْ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لقول محذوف. ﴿خَافَ مَقَامِي﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿وَخَافَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَافَ﴾ الأول. ﴿وَعِيدِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بالكسرة الممنوعة بسكون الوقف.

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنِيدٍ﴾: صفة لـ﴿جَبَّارٍ﴾، والجملة معطوفة على جملة محذوفة تقديره: واستفتحوا فنصروا وسعدوا وربحوا، وخاب كل جبار عنيد. ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿جَهَنَّمُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجر صفة ثانية لـ﴿جَبَّارٍ﴾، ويجوز أن تكون الصفة وحدها الجار، و﴿جَهَنَّمُ﴾: فاعل به. ﴿وَيُسْقَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿جَبَّارٍ﴾. ﴿مِن مَّآءٍ﴾: متعلق به. ﴿صَدِيدٍ﴾: عطف بيان، أو بدل من ﴿مَّآءٍ﴾، والجملة في محل الجر معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها صفة لـ﴿جَبَّارٍ﴾، عطف جملة فعلية على جملة فعلية.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿جَبَّارٍ﴾، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿مَّآءٍ﴾، أو مستأنفة. ﴿وَلَا يَكَادُ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمه ضمير يعود على ﴿الجبار﴾. ﴿يُسِيغُهُۥ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿الجبار﴾، والجملة الفعلية في محل النصب خبر كاد، وجملة كاد في محل النصب حال من فاعل ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾، أو من مفعوله، أو منهما جميعاً، وقيل: كاد هنا صلة لا عمل لها. ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بيأتي، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾. ﴿وَمَا﴾ (الواو): حالية. ﴿ما﴾: حجازية، أو تميمية. ﴿هُوَ﴾: في محل الرفع اسمها، أو مبتدأ. ﴿بِمَيِّتٍ﴾: خبرها، أو خبره، والباء زائدة، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿يأتيه﴾. ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿غَلِيظٌ﴾: صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾، أو مستأنفة.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِرَبِّهِمْ﴾: متعلق به، وخبر المبتدأ محذوف تقديره: مثل الذين كفروا بربهم كائن فيما يتلى، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾: مبتدأ. ﴿كَرَمَادٍ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر تقديره: وما ذلك المثل، فقال: مثل أعمالهم كرماد.

وفي «السمين» قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ...﴾ إلخ فيه أوجه:

أحدها: وهو مذهب سيبويه أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره: فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا، وتكون الجملة في قوله: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ مستأنفة جواباً لسؤال مقدر، كأنه قيل: كيف مثلهم؟ فقيل: كيت وكيت.

والثاني: أن يكون ﴿مثل﴾: مبتدأ أول، و﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾: مبتدأ ثان، و﴿كَرَمَادٍ﴾: خبر الثاني، والثاني وخبره خبر الأول.

والثالث: أن يكون ﴿مثل﴾ مبتدأ، و﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾: بدل منه بدل اشتمال، و﴿كَرَمَادٍ﴾ الخبر اهـ. ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِ﴾: متعلق به، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿رماد﴾. ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بـ﴿ٱشْتَدَّتْ﴾. ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة كما ذكره أبو البقاء. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور حال من شيء؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿كَسَبُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما كسبوه. ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَقْدِرُونَ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلضَّلَٰلُ﴾: خبر. ﴿ٱلْبَعِيدُ﴾: صفة لـ﴿ٱلضَّلَٰلُ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: للاستفهام التقريري. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل ومفعول به. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾، أو حال من فاعل ﴿خَلَقَ﴾، أو من المفعول؛ أي: حال كونه متلبساً بالحق، وجملة ﴿خلق﴾: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي رأى. ﴿إِن يَشَأْ﴾: جازم وفعل مجزوم على كونه فعل شرط لـ﴿أَنَّ﴾ الشرطية، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾: فعل ومفعول مجزوم على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿وَيَأْتِ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿بِخَلْقٍ﴾: متعلق بـ﴿يأت﴾. ﴿جَدِيدٍ﴾: صفة ﴿خَلَقَ﴾. ﴿وَمَا﴾ الواو عاطفة ﴿ما﴾: حجازية، أو تميمية. ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسمها، أو مبتدأ. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عزيز﴾. ﴿بِعَزِيزٍ﴾: خبرها، أو خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَبَرَزُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق به. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من فاعل ﴿برزوا﴾. ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾: فعل وفاعل، و(الفاء): حرف عطف وترتيب، والجملة معطوفة على جملة ﴿برزوا﴾. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قال﴾. ﴿ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا۟﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿تَبَعًا﴾: خبر كان، وجملة كان في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿فَهَلْ﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع.

وفي «روح البيان»، و(الفاء): للدلالة على سببية الإتباع للاعتناء. ا هـ. ﴿هل﴾: حرف للاستفهام التوبيخي. ﴿أَنتُم مُّغْنُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها مقول ﴿قال﴾. ﴿عَنَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مُّغْنُونَ﴾. ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿شَيْءٍ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿شَيْءٍ﴾: مفعول ﴿مغنون﴾؛ لأنه اسم فاعل يعمل عمل الفصيح الصحيح. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالُوا۟﴾، وإن شئت قلت ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾. ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾: (اللام): رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾. ﴿هديناكم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية جواب ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿سَوَآءٌ﴾: خبر مقدم لمبتدأ متصيد من الجملة التي بعدها. ﴿عَلَيْنَآ﴾: جار ومجرور متعلق به؛ لأنه بمعنى مستو. ﴿أَجَزِعْنَآ﴾: (الهمزة): لتأكيد التسوية. ﴿جزعنا﴾: فعل وفاعل. ﴿أَمْ﴾: متصلة عاطفة. ﴿صَبَرْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جزعنا﴾، وجملة ﴿جزعنا﴾ مع ما عطف عليه: في تأويل مصدر مرفوع على كونه مبتدأ مؤخراً لـ﴿سَوَآءٌ﴾، والتقدير: جزعنا وصبرنا مستو علينا، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿مَا﴾: حجازية، أو تميمية. ﴿لَنَآ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿مَا﴾، أو للمبتدأ. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿مَّحِيصٍ﴾: اسم ﴿مَا﴾ مؤخر، أو مبتدأ مؤخر، والتقدير: ما محيص كائناً لنا، أو كائن لنا.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَمَّا﴾: حينية في محل النصب على الظرفية. ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿قال﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه.

﴿وَعَدَكُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾. و﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على كونها مقول ﴿قال﴾. ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿أخلفتكم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿وعدتكم﴾. ﴿وَمَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لِيَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿كَانَ﴾. ﴿عَلَيْكُم﴾: متعلق بـ﴿سُلْطَٰنٍ﴾؛ لأنه بمعنى تسلط. ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخر، و﴿من﴾: زائدة، والتقدير: وما كان سلطان عليكم كائناً لي، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أخلفتكم﴾ على كونها مقول ﴿قال﴾. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء منقطع. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿دَعَوْتُكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل النصب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على الاستثناء، والتقدير: وما كان لي عليكم من سلطان إلا دعوتي إياكم، فالاستثناء منقطع؛ لأن دعوته إياهم ليست من جنس السلطان حتى تستثنى منه؛ أي: لكن دعوتكم فاستجبتم لي. ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿استجبتم﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿دَعَوْتُكُمْ﴾. ﴿لِي﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿فَلَا﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَلُومُونِي﴾: فعل وفاعل ومفعول ونون وقاية مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾. ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على قوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾.

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾.

﴿مَّآ﴾: نافية، أو حجازية. ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ، أو اسم ﴿مَّآ﴾. ﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾: خبر المبتدأ، أو خبر ﴿مَّآ﴾، والباء: زائدة، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿وَمَآ﴾: الواو: عاطفة. ﴿ما﴾: حجازية، أو تميمية. ﴿أَنتُم﴾: اسم ﴿ما﴾، أو مبتدأ. ﴿بِمُصْرِخِيَّ﴾: (الباء): زائدة. ﴿مصرخي﴾: خبر ﴿مَآ﴾

الحجازية منصوب، وعلامة نصبه الياء الممنوعة لاشتغال المحل بالياء المجلوبة لحرف جر زائد، وياء المتكلم في محل الجر مضاف إليه، لأن أصله ما أنتم بمصرخين لي كما سيأتي في مباحث الصرف، والجملة في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿كَفَرْتُ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿بِمَآ﴾: (الباء): حرف جر. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿أَشْرَكْتُمُونِ﴾: فعل ماض مبني على السكون؛ لاتصاله بضمير رفع متحرك، التاء ضمير لجماعة المخاطبين في محل الرفع فاعل، الميم: حرف دال على الجمع، الواو: حرف زائد لإشباع حركة الميم، والنون: نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَشْرَكْتُمُونِ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور بالباء، الجار والمجرور متعلق بـ﴿كَفَرْتُ﴾، والتقدير: إني كفرت بإشراككم إياي بالله من قبل. ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة له وجملة الابتداء في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾ إن قلنا: إنه من تمام كلام إبليس اللعين، أو مستأنفة إن قلنا: إنه من كلام الله.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿جَنَّٰتٍ﴾: منصوب على الظرفية المكانية متعلق بـ﴿أدخل﴾. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلق به. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ولكنها سببية. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من اسم

الموصول الواقع نائب فاعل لـ﴿أدخل﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أدخل﴾. ﴿تَحِيَّتُهُمۡ﴾: مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال من ضمير الغائبين. ﴿سَلَٰمٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، أو حال من مرفوع ﴿أدخل﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾: (الهمزة): للاستفهام التقريري. ﴿لم تر﴾: جازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب، والجملة مستأنفة. ﴿كَيۡفَ﴾: اسم استفهام تعجبي في محل النصب على الحال من المفعول الثاني الذي هو ﴿مَثَلٗا﴾. ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل بمعنى: صير يتعدى إلى مفعولين. ﴿مَثَلٗا﴾: مفعول ثان. ﴿كَلِمَةٗ﴾: مفعول أول، وأخرت عن المفعول الثاني، وهو ﴿مَثَلٗا﴾، لئلا تبعد عن صفتها. ﴿طَيِّبَةٗ﴾: صفة لـ﴿كَلِمَةٗ﴾، والتقدير: ألم تر كيف صير كلمة طيبة مثلاً حالة كون ذلك المثل كيف؛ أي: حالة كونه مسؤولاً عن حاله من غرابته وإحكامه وتوضيحه، وجملة ﴿ضَرَبَ﴾: في محل النصب سادة مسد مفعولي رأى. ﴿كَشَجَرَةٖ﴾: جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي؛ أي: الكلمة الطيبة كائنة كشجرة طيبة، والجملة الاسمية جملة مفسرة للمثل، لا محل لها من الإعراب. ﴿طَيِّبَةٍ﴾ مضاف إليه ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل الجر صفة ثانية لـ﴿شجرة﴾. ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها صفة لـ﴿شجرة﴾.

﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿تُؤۡتِيٓ﴾: فعل مضارع بمعنى تعطي، وفاعله ضمير يعود على ﴿شجرة﴾. ﴿أُكُلَهَا﴾: مفعول ثان لأتى، والأول محذوف تقديره تؤتي أصحابها أكلها. ﴿كُلَّ حِينِۭ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿تُؤۡتِيٓ﴾، وجملة ﴿تُؤۡتِيٓ﴾: في محل الجر صفة لـ﴿شجرة﴾. ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تُؤۡتِيٓ﴾. ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة.

﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق به. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿خَبِيثَةٍ﴾: صفة لـ﴿كَلِمَةٍ﴾. ﴿كَشَجَرَةٍ﴾: جار ومجرور خبر مبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿خَبِيثَةٍ﴾: صفة أولى لـ﴿شجرة﴾. ﴿اجْتُثَّتْ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿شجرة﴾. ﴿مِن فَوْقِ الْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجر صفة ثانية لـ﴿شجرة﴾. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَهَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِن قَرَارٍ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿مِن﴾: زائدة، والجملة الاسمية في محل الجر صفة لـ﴿شجرة﴾، أو في محل النصب حال من الضمير في ﴿اجْتُثَّتْ﴾، وهذه الجملة بمنزلة التعليل.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِالْقَوْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُثَبِّتُ﴾. ﴿الثَّابِتِ﴾: صفة لـ﴿القول﴾. ﴿فِي الْحَيَاةِ﴾: متعلق بـ﴿يُثَبِّتُ﴾ أيضاً. ﴿الدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿الْحَيَاةِ﴾. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يُثَبِّتُ﴾. ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يُثَبِّتُ﴾. ﴿يَشَاءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما يشاء، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ من عاد بمعنى صار؛ أي: لتصيرن داخلين في ملتنا، أصله لتعودونن، حذفت نون علامة الرفع لتوالي الأمثال وواو الجماعة لالتقاء الساكنين، فصار لتعودن، والملة: الدين والشريعة.

﴿مَقَامِى﴾ والمقام: موقف الحساب. وفي «السمين»: وفي ﴿مَقَامِى﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مقحم، وهو بعيد، إذ الأسماء لا تقحم.

الثاني: أنه مصدر مضاف للفاعل، قال الفراء: مقامي مصدر مضاف لفاعله؛ أي: قيامي عليه بالحفظ.

الثالث: أنه اسم مكان، قال الزجاج: مكان وقوفه بين يدي للحساب، كقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، والمقام ـ بفتح الميم ـ: مكان الإقامة، وبالضم فعل الإقامة.

﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾؛ أي: وعيدي بالعذاب، أو عذابي الموعود للكفار على أن يكون الوعيد بمعنى الموعود. والخوف: غم يلحق لتوقع المكروه، والوعيد: الاسم من الوعد.

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾؛ أي: استنصروا الله تعالى ودعوا عليهم بالعذاب، من الاستفتاح استفعال من الفتح. وفي «القاموس»: والفتح كالفِتاحة ـ بضم الفاء وكسرها ـ: الحكم بين الخصمين. اهـ. أي: طلبوا الفتح بالنصرة على الأعداء.

﴿وَخَابَ﴾؛ أي: هلك، وقيل: خسر. ﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، والجبار: العاتي المتكبر عن طاعة الله، والعنيد: المعاند للحق المخالف له، وقيل: الجبار في صفة الإنسان، يقال لمن تجبر بنفسه بادعاء منزلة عالية لا يستحقها، وهو صفة ذم في حق الإنسان. وقيل: الجبار الذي لا يرى فوقه أحداً. وقيل: الجبار المتعظم في نفسه المتكبر على أقرانه. وقيل: العنيد هو المعرض عن الحق. وقيل: هو المعجب بما عنده، وهو فعيل بمعنى مفاعل؛ أي: بمعنى معاند، كالخليط بمعنى المخالط. اهـ. «كرخي». وقال الزجاج: العنيد الذي يعدل عن القصد، وبمثله قال الهروي، وقال أبو عبيد: هو الذي عند وبغى.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾؛ أي[1]: من بعده جهنم، والمراد بعد هلاكه، على أن

---

(١) الشوكاني.

وراء هنا بمعنى بعد، ومنه قول النابغة:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ ٱللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

أي: ليس بعد الله، ومثله قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾؛ أي: ومن بعده كذا، قال الفراء: وقيل: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾؛ أي: من أمامه. قال أبو عبيد هو من أسماء الأضداد، ومنه قول الشاعر:

وَمِنْ وَرَائِكَ يَوْمٌ أَنْتَ بَالِغُهُ ... لاَ حَاضِرٌ مُعْجِزٌ عَنْهُ وَلاَ بَادِيْ

وقال ثعلب: هو اسم لما توارى عنك، سواء كان خلفك أو قدامك. ا هـ.

﴿صَدِيدٍ﴾: هو ما يسيل من جوف أهل النار مختلطاً بالقيح والدم. وقال محمد بن كعب القرظي: هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾؛ أي: يكلف[1] على جرعه وبلعه مرة بعد مرة، وتجرع من باب تفعل الخماسي، وفيه احتمالات:

أحدها: أنه مطاوع جرعته بالتشديد، نحو علمته فتعلم.

والثاني: أن يكون للتكلف نحو تحلم؛ أي: يتكلف جرعه، ولم يذكر الزمخشري غيره. ومعنى التكلف أن الفاعل يتعافى ذلك الفعل ليحصل بمعاناته، كتشجع، إذ معناه: استعمل الشجاعة وكلف نفسه إياها لتحصل. ذكره في «روح البيان».

والثالث: أنه دال على المهلة نحو تفهمته؛ أي: يتناوله شيئاً فشيئاً بالجرع، كما يتفهم شيئاً فشيئاً بالتفهيم.

والرابع: أنه بمعنى جرعه المجرد نحو: عدوت الشيء وتعديته. ا هـ. «سمين».

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾؛ أي: ولا يقارب أن يسيغه فضلاً عن الإساغة، بل يغض به، والسواغ انحدار الشراب في الخلق بسهولة وقبول نفس، يقال: ساغ

(١) الفتوحات.

الشراب إذا جاز الخلق بسهولة، وقال بعض المفسرين: إن كاد هنا صلة، والمعنى: يتجرعه ولا يسيغه. ا هـ.

﴿كَرَمَادٍ﴾ والرماد معروف، وهو ما سحقته النار من الأجرام، وجمعه في الكثرة رمد، وفي القلة على أرمد. ا هـ. «سمين». وقال ابن عيسى[1]: الرماد هو جسم يسحقه الإحراق سحق الغبار، ويجمع على رمد في الكثرة، وأرمدة في القلة، وشذ جمعه على أفعلاء، قالوا: أرمداء ورماد رمدد إذا صار هباء أرق ما يكون.

﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ ومعنى اشتدت به الريح، حملته بشدة وسرعة، والعصف: شدة الريح، وصف به زمانها مبالغة، كما يقال: يوم حار ويوم بارد، والحر والبرد فيهما لا منهما.

﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾: جمع[2]: ضعيف، والضعف خلاف القوة، وقد يكون في النفس، وفي البدن، وفي الحال، وفي الرأي، والمناسب للمقام هو الأخير، فإنه لو كان في رأيهم قوة لما اتبعوهم في تكذيب الرسل والإعراض عن نصائحهم.

﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾: جمع تابع، كخدم جمع خادم، وحرس جمع حارس، ورصد جمع راصد، وهو المستن بآثار من يتبعه؛ أي: تابعين لكم في تكذيب الرسل والإعراض عن نصائحهم مطيعين لكم فيما أمرتمونا به. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا﴾؛ أي: دافعون عنا، يقال: أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى، وأغناه إذا أوصل إليه النفع.

﴿أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ الجزع[3]: عدم احتمال الشدة، وعدم الصبر على البلاء، وهو نقيض الصبر. قال الشاعر:

جَزِعْتُ وَلَمْ أَجْزَعْ مِنَ الْبَيْنِ مَجْزَعَا ... وَعَذَّبْتُ قَلْبَاً بِالْكَوَاكِبِ مُوْلَعَا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

وفي «المصباح»: وجزع الرجل جزعاً - من باب تعب - فهو جزع وجزوع مبالغة إذا ضعف من حمل ما نزل به، ولم يجد صبراً وأجزعف غيره.

﴿مِن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: من منجأ[1] ولا مهرب من عذاب الله، يقال: حاص فلان عن كذا؛ أي: فر وزاغ يحيص حيصاً وحيوصاً وحيصاناً، والمعنى: ما لنا وجه نتباعد به عن النار. وفي «المختار»: حاص عنه إذا عدل وحاد، وبابه باع وحيوصاً ومحيصاً ومحاصاً وحيصاً بفتح الياء، يقال: ما عنه محيص؛ أي: محيد ومهرب، والانحياص مثله. اهـ. وهو يحتمل أن يكون مكاناً كالمبيت، ومصدراً كالمغيب.

﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: وعداً من حقه أن ينجز، أو وعداً أنجزه. اهـ. «بيضاوي». وفي «السمين»: يجوز أن يكون من إضافة الموصوف لصفته؛ أي: الوعد الحق، وأن يراد بالحق صفة الباري تعالى؛ أي: وعدكم الله تعالى وعده، وأن يراد بالحق البعث والجزاء على الأعمال، فتكون إضافة صريحة. اهـ.

﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾؛ أي: أجبتموني، فالسين والتاء زائدتان ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ المصرخ[2]: المغيث. قال الشاعر:

فَلاَ تَجْزَعُوْا إِنِّيْ لَكُمْ غَيْرَ مُصْرِخٍ ... وَلَيْسَ لَكُمْ عَنِّيْ غَنَاءٌ وَلاَ نَصْرُ

والصارخ المسْتغيث، يقال: صرخ يصرخ صرخاً وصراخاً وصرخة. قال سلامة بن جندل:

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَزِعٌ ... كَانَ ٱلصُّرَاخُ لَهُ قَرْعُ ٱلظَّنَابِيْبِ

واصطرخ بمعنى صرخ وتصرخ إذا تكلف الصراخ، واستصرخ استغاث، فقال: استصرخني فأصرخته، والصريخ مصدر كالصهيل، ويوصف به المغيث والمستغيث من الأضداد. وفي «المصباح»: صرخ يصرخ - من باب قتل - صراخاً فهو صارخ، وصريخ إذا صاح وصرخ، فهو صارخ إذا استغاث، واستصرخته، استغثت به فأغاثني فهو صريخ؛ أي: مغيث ومصرخ على القياس.

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أصله بمصرخين[1] لي جمع مصرخ، كمسلمين جمع مسلم، فياء الجمع ساكنة وياء الإضافة كذلك، فحذفت اللام للتخفيف والنون للإضافة، فالتقى ساكنان وهما الياءان، فأدغمت ياء الجمع في ياء الإضافة، ثم حركت ياء الإضافة بالفتح على القراءة المشهورة طلباً للخفة وتخلصاً من توالي ثلاث كسرات، وكسرت على غير المشهورة على أصل التخلص من التقاء الساكنين، أو اتباعاً لكسرة الخاء.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ المثل[2]: قول في شيء يشبه بقول في شيء آخر لما بينهما من المشابهة، ويوضح الأول بالثاني ليتم انكشاف حاله به.

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾؛ أي: ضارب بعروقه في الأرض ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: في جهة العلو، والفرع: الغصن من الشجرة، ويطلق على ما يولد من الشيء، والفرع أيضاً: الشعر، يقال: رجل أفرع وامرأة فرعاء لمن كثر شعره. وقال امرؤ القيس بن حجر:

وَفَـرْعٌ يُـغَـشِّـيْ ٱلْـمَـتْـنَ أَسْـوَدُ فَـاحِـمُ

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا﴾؛ أي: تعطي ثمرها. ﴿كُلَّ حِينٍۭ﴾؛ أي: كل وقت، والحين في اللغة[3]: الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا في مقداره هنا، فقال مجاهد وعكرمة: الحين هنا: سنة كاملة؛ لأن النخلة تثمر في كل سنة مرة. وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن: ستة أشهر يعني: من وقت طلعها إلى حين صرامها، وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً. وقال علي بن أبي طالب: ثمانية أشهر يعني: أن مدة حملها باطناً وظاهراً ثمانية أشهر. وقيل: أربعة أشهر من حين ظهور حملها إلى إدراكها. وقال سعيد بن المسيب: شهران يعني: من وقت أن يؤكل منها إلى صرامها. وقال الربيع بن أمس: ﴿كُلَّ حِينٍۭ﴾ يعني: كل غدوة وعشية؛ لأن ثمرة النخلة تؤكل أبداً ليلاً ونهاراً صيفاً وشتاءً، فيؤكل منها الجمار

---

(١) الفتوحات.

(٢) المراغي.

(٣) الخازن.

والطلع والبلح والبسر والمنصف والرطب، وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس إلى الطري الرطب، فأكلها دائم في كل وقت. ا هـ. «خازن».

﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾؛ أي: بإرادة خالقها.

﴿ٱجْتُثَّتْ﴾؛ أي: استؤصلت وأخذت جثتها من الجث؛ وهو القطع باستئصال، فهو صفة لشجرة، ومعنى اجتثت، قلعت جثتها؛ أي: شخصها وذاتها من فوق الأرض، والجثة: شخص الإنسان قاعداً وقائماً. وقال لقيط الإياري:

هو الجلاء الذي يجتث أصلكم فمن رأى مثل ذا آتٍ ومن سمعا

ويقال[1]: اجتثثت الشيء إذا قلعته، فهو افتعال من لفظ الجثة، وجثثت الشيء قلعته، والمعنى: على التشبيه؛ أي: كأنها اجتثت، وكأنها غير ثابتة بالكلية، وكأنها ملقاة على وجه الأرض.

﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾؛ أي: استقرار عليها يقال: قر الشيء قراراً نحو ثبت ثباتاً.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تسجيلاً عليهم باسم الظلم، فإن الشرك لظلم عظيم.

ومنها: الذم في قوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ تسجيلاً[2] عليهم باسم التجبر والعناد، لا أنهم بعضهم ليسوا كذلك، وأنه لم تصبهم الخيبة.

---

(١) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

ومنها: الإبهام ثم البيان في قوله: ﴿مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ أبهم الماء أولاً، ثم بيَّن بالصديد تعظيماً وتهويلاً لأمره، وتخصيصه بالذكر من بين عذابها يدل على أنه من أشد أنواعه.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾؛ أي: لا يقارب أن يسيغه ويبتلعه فضلاً عن الإساغة، بل يغص به.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ﴾؛ لأنه مجاز عن أسبابه، ففيه إطلاق المسبب وإرادة السبب.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ﴾، ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ﴾.

ومنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾؛ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد، شبه[١] الله سبحانه وتعالى صنائع الكفار ـ جمع صنيعه ـ من الصدقة وصلة الرحم وعتق الرقاب وفك الأسير وإغاثة الملهوف ونحو ذلك من مكارمهم في حبوطها وذهابها هباءً منثوراً لبنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى وتوحيده، وكونها لوجهه برماد طيرته الريح العاصف، ووجه الشبه أن الريح العاصف تطير الرماد، وتفرق أجزائه بحيث لا يبقى له أثر، فكذلك كفرهم أبطل أعمالهم وأحبطها بحيث لا يبقى لها أثر، وقد بين مقصوده ومحصله بقوله: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖ﴾؛ لأن العصف اشتداد الريح وصف به زمانه للمبالغة كقولهم: نهاره صائم وليله قائم.

ومنها: فذلكة التمثيل والتشبيه في قوله: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖ﴾ لأن العصف اشتداد الريح وُصف به زمانه للمبالغة كقولهم: نهاره صائم وليله قائم.

---

(١) البيضاوي وزاده.

ومنها: فذلكة التمثيل والتشبيه في قوله: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ فأسند البعد الذي هو من أحوال الضال إلى الضلال الذي هو فعله مجازاً مبالغة.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

ومنها: إيثار[1] صيغة الماضي في قوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وإن كان معناه الاستقبال؛ للدلالة على تحقق وقوعه؛ لأن كل[2] ما أخبر الله عنه فهو حق وصدق كائن لا محالة، فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود، وكذا في قوله: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ دلالة على أن وقوعه محقق.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ و﴿الذين استكبروا﴾.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾.

ومنها: الطباق في ﴿جزعنا﴾ و﴿صَبَرْنَا﴾.

ومنها: إيثار صيغة الماضي في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وإن كان معناه مستقبلاً.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾.

ومنها: التجوز في قوله: ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾؛ لأن الإخلاف[3] حقيقة هو عدم إنجاز من يقدر على إنجاز وعده، وليس الشيطان كذلك، فقوله: ﴿أخلفتكم﴾، يكون مجازاً جعل تبين خلف وعده كالإخلاف منه، كأنه كان قادراً على إنجازه، وأنى له ذلك.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾ شبه طاعته باتباعه فيما زينه

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

(٣) روح البيان.

لهم بإشراكه مع الله بجامع الاتباع في كل على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية كما في «الشهاب».

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وقوله: ﴿ومثل كلمة كشجرة خبيثة﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿أَصْلُهَا﴾، ﴿وَفَرْعُهَا﴾، وفي ﴿طَيِّبَةً﴾، ﴿خَبِيثَةٍ﴾.

ومنها تغيير[1] الأسلوب في قوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾.. الخ. حيث لم يقل: وضرب الله مثلاً كلمة خبيثة.. الخ للإيذان بأن ذلك غير مقصود بالضرب والبيان. اهـ. «أبو السعود».

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ حيث شبه النجم؛ وهو ما لا ساق له بالشجر، وهو ما له ساق بجامع أن كلاً منهما نبات، فاستعار له اسم الشجر، وقيل: تسميتها شجرة للمشاكلة.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا﴾.

ومنها: الإظهار[2] في مقام الإضمار في قوله: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ وفي قوله: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ﴾ لتربية المهابة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الفتوحات.

(٢) الشوكاني.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر[1] حال المؤمنين وهداهم، وحال الكافرين وإضلالهم.. ذكر السبب في إضلالهم.

وعبارة «المراغي» هنا: مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] الأمثال بياناً لحالي الفريقين، وذكر ما يليه من التوفيق في الدارين

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

للسعداء، وما ينال الأشقياء من الخذلان والإضلال جزاء ما كسبت أيديهم من تدسيتهم لأنفسهم باجتراحهم للشرور والآثام، وبين أن كل ذلك يفعله على حسب ما يرى من الحكمة والمصلحة.. ذكر[1] هنا الأسباب التي أوصلتهم إلى سوء العاقبة معجباً رسوله ﷺ مما صنعوا من الأباطيل التي لا تكاد تصدر ممن له حظ من الفكر والنظر، ولم تكن هذه الطامة خاصة بهم، بل كانت فتنة شعواء عمتهم جميعاً ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾.

ذاك أنهم بدلوا النعمة كفراً، والشكر جحداً، وإنكاراً، وليت البلية كانت واحدة، بل أضافوا إليها أخرى، فاتخذوا لله الأنداد والشركاء، ثم تلبثوا بإضلال غيرهم، فكانوا دعاة الكفر وأعوان الفتنة:

فَلَوْ كَانَ هَمٌّ وَاحِدٌ لَاحْتَمَلْتُهُ   وَلَكِنَّهُ هَمٌّ وَثَانٍ وَثَالِثُ

ومن ثم كانت عاقبتهم التي لا مرد لها العذاب الأليم في جهنم وبئس المصير، ثم بين لرسوله ﷺ أن مثل هؤلاء لا تجدي فيه العظة، فذرهم يتمتعوا في هذه الحياة حتى حين، ثم لا بد لهم من النصيب المحتوم.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر حال الكفار وكفرهم نعمته، وجعلهم له أنداداً، وهددهم.. أمر المؤمنين بلزوم الطاعة والتيقظ لأنفسهم، وإلزام عمودي الإسلام: الصلاة والزكاة قبل مجيء يوم القيامة.

وعبارة المراغي هنا[3]: بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى الكافرين على سبيل الوعيد والتهديد بالتمتع بنعيم الدنيا.. أمر عباده المؤمنين بعدم المغالاة في التمتع بها، والجد في مجاهدة النفس والهوى ببذل النفس والمال في كل ما يرفع شأنهم ويقربهم من ربهم، وينيلهم الفوز لديه في يوم لا تنفع فيه فدية ولا صداقة ولا خلة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أحوال الكافرين لنعمه حين بدلوا الشكر بالكفر، واتخذوا لله أنداداً، فكان جزاؤهم جهنم وبئس المهاد، ثم أمر المؤمنين بإقامة شعائر الدين من صلاة وزكاة شكراً لربهم على ما أوتوا من النعم، وحثاً لهم على الجهاد في سبيل كمالهم ورقيهم، ببذل النفس والنفيس، وهو المال لتكمل لهم السعادة في الدارين.. شرع بذكر الأدلة المنصوبة في الآفاق والأنفس التي توجب على عباده المثابرة على شكره ودوام الطاعة له، ويذكر النعم الجسام التي يتقلبون في أعطافها آناء الليل وأطراف النهار؛ ليكون في ذلك حث لهم على التدبر فيما يأتون وفيما يذرون، وفيه عظيم الدلالة على وجوب شكر الصانع لها، كما فيه أشد التقريع للكافرين الذين أعرضوا عن النظر والتفكر في تلك النعم، فكان هذا داعية كفرها وجحودها وغمطها وكنودها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: لما ذكر[1] سبحانه وتعالى الأدلة على أن لا معبود سواه، وأنه لا يجوز بحال أن يعبد غيره، وطلب إلى رسوله أن يعجب من حال قومه إذ بدلوا نعمة الله كفراً وعبدوا الأوثان والأصنام.. ذكر هنا أن الأنبياء جميعاً حثوا على ترك عبادة الأصنام، فإبراهيم صلوات الله عليه وسلامه؛ وهو أبوهم نعى على قومه عبادتها، وطلب إلى الله أن يجنبه وبنيه ذلك، فإنها كانت سبباً في ضلال كثير من الناس، وشكر الله على أن وهب له على كبره ولديه إسماعيل وإسحاق، ثم ختم مقاله بأن يغفر له ولوالديه وللمؤمنين ذنوبهم عند العرض والحساب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ...﴾ الآيات، قال أبو حيان: مناسبة هذه الآيات لما قبلها[2]: أنه تعالى لما ذكر التعجيب من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وجعلوا لله أنداداً؛ وهم قريش ومن تابعهم من العرب الذين

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

اتخذوا آلهة من دون الله، وكان من نعم الله عليهم، وإسكانه إياهم حرمه...
أردف ذلك بذكر أصلهم إبراهيم، وأنه صلوات الله عليه دعا الله تعالى أن يجعل مكة آمنة، ودعا بأن يجنب بنيه عبادة الأصنام، وأنه أسكنه وذريته في بيته ليعبدوه وحده بالعبادة التي هي أشرف العبادة، وهي الصلاة لينظروا في دين أبيهم، وأنه مخالف لما ارتكبوه من عبادة الأصنام، فيزدجروا ويرجعوا عنها.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن عطاء بن يسار قال[1]: نزلت هذه الآية في الذين قتلوا يوم بدر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ...﴾ الآية.

وقد ذهب[2] جمهور المفسرين إلى أن الآية نزلت في كفار مكة، وقيل: نزلت في الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر، وقيل: نزلت في بطنين من بطون قريش بني مخزوم وبني أمية، وقيل: إنها عامة في جميع المشركين، وقيل غير ذلك.

التفسير وأوجه القراءة

والاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهام تعجيب لرسول الله ﷺ، أو لكل مخاطب، والخطاب فيه لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له؛ أي: هل رأيت يا محمد عجباً مثل عجب هؤلاء المذكورين؛ أي: ألم تنظر يا محمد ﴿إِلَى﴾ حال الكفار ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾؛ أي: جعلوا بدل شكر نعمة الله التي هي إرسال محمد ﷺ إليهم ﴿كُفْرًا﴾؛ أي: جحداً وتكذيباً له، وشكرها الإيمان به ﷺ في جميع ما جاء به، وهم أهل مكة حيث أسكنهم الله حرمه الآمن، ووسع عليهم أبواب رزقه، وشرفهم بمحمد ﷺ، فكفروا ذلك فقحطوا سبع سنين، فقتلوا وأسروا يوم بدر؛ لأن[3] شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفراً، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر، وبدلوه تبديلاً ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ﴾ الذين تابعوهم على الكفر

---

(١) لباب النقول.
(٢) الشوكاني.
(٣) النسفي.

وأنزلوهم ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾؛ أي: دار الهلاك جهنم: عطف بيان ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾؛ أي: يقاسون حرها؛ أي: حالة كونهم يدخلونها يوم القيامة مقاسين لحرها؛ أي: أنزل[1] بعض قريش المطعمون يوم بدر - وهم بنو أمية وبنو المغيرة - أتباعهم، وهم بقية قريش بسبب إضلالهم إياهم وإرشادهم إلى طريقة الشرك دار الهلاك التي هي جهنم يوم القيامة حالة كون كلهم من الأتباع والمتبوعين يدخلون جهنم مقاسين لحرها كفاء ضلالهم وإضلالهم، وعدم[2] التعرض لحلولهم لدلالة الإحلال عليه، إذ هو فرعه ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾؛ أي: وقبح المستقر والمنزل لهم يوم القيامة، والمخصوص بالذم جهنم داراً لهم.

والمعنى: أي ألم[3] تعلم وتعجب من قوم بدلوا شكر النعمة غمطاً لها، وجحوداً بها كأهل مكة الذين أسكنهم الله حرماً آمناً يجبي إليه ثمرات كل شيء، وجعلهم قوام بيته، وشرفهم بإرسال رسوله محمد ﷺ من بينهم، فكفروا بتلك النعمة، فأصابهم الجدب والقحط سبع سنين دأباً، وأسروا يوم بدر وصفدوا في السلاسل والأغلال، وقتل منهم العدد العديد من صناديدهم ورجالاتهم ممن كانوا يضنون بهم ويحتفظون بمواضيعهم ليوم كريهة وسداد ثغر.

﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾؛ أي: وأحلوا من شايعهم على الكفر دار الهلاك الذي لا هلاك بعده. ثم بين هذه الدار، فقال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: هذه الدار هي جهنم دار العذاب التي يقاسون حر نارها وبئس المستقر هي لمن أراد الله به النكال والوبال، وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟﴾ عطف على ﴿أحل﴾ داخل معه في حكم التعجب؛ أي: جعلوا في اعتقادهم الباطل وزعمهم الفاسد ﴿لِلَّهِ﴾ الفرد الأحد الذي لا شريك له في الأرض ولا في السماء ﴿أَندَادًا﴾؛ أي: أشباهاً في التسمية حيث سموا الأصنام آلهة، أو في العبادة، أو في الربوبية ﴿لِّيُضِلُّوا۟﴾ قومهم الذين يشايعونهم حسبما ضلوا ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ القويم الذي هو التوحيد، ويوقعوهم في ورطة الكفر والضلال، وليس الإضلال[4] غرضاً

---

(١) المراح.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

حقيقياً لهم من اتخاذ الأنداد، ولكن لما كان نتيجة له كما كان الإكرام في قولك: جئتك لتكرمني نتيجة المجيء شبه بالغرض، وأدخل اللام عليه بطريقة الاستعارة التبعية، ونسب الإضلال الذي هو فعل الله تعالى إليهم؛ لأنهم سبب الضلالة حيث يأمرون بها ويدعون إليها. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو[1]: ﴿ليضلوا﴾ هنا، و﴿ليضل﴾ في الحج ولقمان والروم بفتح الياء؛ أي: ليضلوا بأنفسهم عن سبيل الله، وتكون اللام للعاقبة؛ أي: ليتعقب جعلهم لله أنداداً ضلالهم؛ لأن العاقل لا يريد ضلال نفسه. وقرأ باقي السبعة بضمها؛ أي: ليوقعوا قومهم في الضلال عن سبيل الله، فهذا هو الغرض من جعلهم لله أنداداً.

والمعنى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ أي[2]: واتخذوا لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي ليس له كفواً أحد أنداداً وشركاء من الأصنام والأوثان أشركوهم به في العبادة، كما قالوا في الحجّ: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ أي: لتكون عاقبة أمر الذين شايعوهم على ضلالهم الصد والإعراض عن سبيله القويم ودينه الحنيف، والوقوع في حمأة الكفر والضلال.

ولما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم هذه الهنات الثلاث تبديل النعمة واتخاذ الأنداد والأمثال وإضلال قومهم، أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم على سبيل التهديد والوعيد: سيروا على ما أنتم عليه، فإنه لا فائدة في نصحكم وإرشادكم وعاقبتكم النار بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد تهديداً لهؤلاء الضالين المضلين ﴿تَمَتَّعُواْ﴾؛ أي[3]: انتفعوا والتذوا بما أنتم عليه من الشهوات التي من جملتها كفران النعم العظام، وعبادة الأوثان والأصنام، والسعي في إضلال الناس والصد عن سبيله. ثم بين جزاءهم المحتوم، فقال: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ يوم القيامة؛ أي: إن مرجعكم وموئلكم فيه ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ المؤبدة ليس إلا، فلا بد لكم من تعاطي ما يوجب ذلك، أو يقتضيه من أحوالكم، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

وسمى الله تعالى ذلك تمتعاً[1]؛ لأنهم تلذذوا به، وأحسوا بغبطة وسرور، كما يتلذذون بالمشتهيات من النعم، وهذا الأسلوب التهكمي يستعمل في التخاطب كثيراً، فترى الطبيب يأمر مريضه بالاحتماء من بعض ما يضره ويؤذيه، ثم لا يرى منه إلا تمادياً في الإعراض عن أوامره واتباعاً لشهواته، فيقول له: كل ما تريد، فإن مصيرك إلى الموت، وما مراده من ذلك إلا التهديد ليرتدع ويقبل ما يقول، وكما يقال لمن سعى في مخالفة السلطان، إصنع ما شئت، فإن مصيرك إلى السيف.

ودلت الآيتان على أمور:

الأول: أَنَّ الكفران سبب لزوال النعمة بالكلية، كما أن الشكر سبب لزيادتها.

والثاني: أَنَّ القرين السوء يجر المرء إلى النار، ويحله دار البوار، فينبغي للمؤمن المخلص السني أن يجتنب عن صحبة أهل الكفر والنفاق والبدعة حتى لا يسرق طبعه اعتقادهم السوء وعملهم السيء. ولهم كثرة في هذا الزمان.

والثالث: أن جهنم دار القرار للأشرار، وشدة حرها مما لا يوصف.

وبعد أن هدد الكفار على انغماسهم في اللذات أمر نبيه ﷺ أن يأمر خُلَّصَ عباده بإقامة العبادات البدنية، وأداء الفرائض المالية، فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: أقيموا[2] الصلاة الواجبة على وجهها وأدوها كما طلب ربكم، وداوموا عليها، فهي عماد الدين وهي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي المصباح للمؤمن يستضيء به للقرب من ربه. و﴿عبادي﴾ يقرأ بثبوت الياء مفتوحة وبحذفها لفظاً لا خطأ، والقراءتان

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

سبعيتان، ويجريان في خمس مواضع من القرآن هذا، وقوله في سورة «الأنبياء»: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ وقوله في «العنكبوت»: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾، وقوله في «سبأ»: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ وقوله في سورة «الزمر»: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾. ا هـ. «شيخنا».

﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؛ أي: وتصدقوا بعض ما أعطيناكم من الرزق والعطاء، وأدوا الزكاة الواجبة شكراً له على نعمه الجزيلة، ورأفةً بعباده الفقراء، وسدّاً لخلتهم، وإيجاداً للتضامن والتعاون بين الأخوة في الدين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾. ﴿سِرًّا﴾؛ أي: خفية ﴿وَعَلَانِيَةً﴾؛ أي: جهراً؛ أي: أنفقوها إنفاق سر وخفية في صدقة التطوع، وإنفاق جهر وعلانية في صدقة الواجب. قيل: أراد[1] بهذا الإنفاق إخراج الزكاة الواجبة، وقيل: أراد به جميع الإنفاق في جميع وجوه الخير والبر، وحمله على العموم أولى؛ ليدخل فيه إخراج الزكاة والإنفاق في جميع وجوه البر، والمراد: حث المؤمنين على الشكر لنعم الله تعالى بالعبادة البدنية والمالية، وعلى ترك التمتع بمتاع الدنيا، كما هو صنيع الكفرة، وإنما خصهم[2] بالإضافة تنويهاً لهم وتنبيهاً على أنهم المقيمون لحقوق العبودية. وهذان الفعلان[3]: إما مجزومان في جواب أمر محذوف؛ أي: قل لهم أقيموا الصلاة، فإن قلت لهم ذلك.. يقيموا الصلاة، أو مجزومان بلام أمرٍ مقدر؛ أي: ليقيموا الصلاة؛ أي: الواجبة.

قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ﴾ قال في «الإرشاد»: الظاهر أن ﴿من﴾ متعلقة بـ﴿أنفقوا﴾ ﴿يَوْمٌ﴾ هو يوم القيامة ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ فيبتاع المقصر ما يتلافىٰ تقصيره به، وتخصيص[4] البيع بالذكر؛ لاستلزام نفيه نفي الشراء ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ فيه؛ أي: ولا مخالة وصداقة فيه، فيشفع له خليل، والمراد بالمخالة المنفية: المخالة بسبب

(١) الخازن.
(٢) البيضاوي.
(٣) المراح.
(٤) روح البيان.

ميل الطبع ورغبة النفس، فلا يعارض قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾؛ لأن الواقع فيما بينهم المخالة لله، أو من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا انتفاع فيه بمبايعة ولا مخالة، وإنما ينتفع فيه بالطاعة التي من جملتها إقامة الصلاة والإنفاق لوجه الله تعالى وادخار المال، وترك إنفاقه إنما يقع غالباً للتجارات والمهاداة، فحيث لا يمكن ذلك في الآخرة، فلا وجه لادخاره إلى وقت الموت.

والمعنى[1]: أن يوم القيامة لا بيع فيه حتى يفتدى المقصر في العمل نفسه من عذاب الله بدفع عوض عن ذلك، وليس هناك مخاللة حتى يشفع الخليل لخليله، وينقذه من العذاب، فأمرهم سبحانه بالإنفاق في وجوه الخير مما رزقهم ما داموا في الحياة الدنيا قادرين على إنفاق أموالهم من قبل أن يأتي يوم القيامة، فإنهم لا يقدرون على ذلك، بل لا مال لهم إذ ذاك، فالجملة أعني[2]: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ لتأكيد مضمون الأمر بالإنفاق مما رزقهم الله تعالى، ويمكن أن يكون فيها أيضاً تأكيد لمضمون الأمر بإقامة الصلاة، وذلك لأن تركها كثيراً ما يكون بسبب الاشتغال بالبيع ورعاية حقوق الأخلاء.

والخلاصة[3]: وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي اليوم الذي لا تنفع فيه فدية، ولا تجدي فيه صداقة، فلا يشفع خليل لخليل، ولا يصفح عن عقابه لمخالته لصديقه، بل هناك العدل والقسط، كما قال جل جلاله: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وقال أيضاً: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾.

ولما[4] أطال سبحانه وتعالى الكلام في وصف أحوال السعداء والأشقياء، كان حصول السعادة بمعرفة الله وصفاته، والشقاوة بالجهل بذلك.. ختم وصفه بالدلائل الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ

---

(١) الشوكاني.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وذكر عشرة أنواع من الدلائل، فذكر أولاً إبداعه وإنشاءه السماوات والأرض، ثم أعقب بباقي الدلائل وأبرزها في جملة مستقلة، ليدل وينبه على أن كل جملة منها مستقلة في الدلالة، ولم يجعل متعلقاتها معطوفات عطف المفرد على المفرد. وفي «الفتوحات»[1]: ذكر لهذا الموصول سبع صلات تشتمل على عشرة أدلة على وحدانية الله تعالى، ولفظ الجلالة مبتدأ، أو الموصول خبره.

والمعنى: الله الذي يستحق منكم العبادة هو الإله الذي أبدع واخترع وأوجد السماوات السبع على غير مثال سبق، وأوجد ما فيها من الأجرام العلوية، وخلق الأرض وما فيها من المخلوقات، وقدم السماوات على الأرض؛ لأنها بمنزلة الذكر من الأنثى، وبدأ بذكر خلق السماوات والأرض؛ لأنهما أعظم المخلوقات الشاهدة الدالة على وجود الصانع المختار القادر الحكيم. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السحاب، فإن كل ما علاك سماء، أو من الفلك، فإن المطر منه يبتدىء إلى السحاب، ومنه إلى الأرض على ما دلت عليه ظواهر النصوص، وهذا القول أرجح عند بعضهم؛ لأن الله تعالى زاد بيان نعمه على عباده، فبين أولاً خلق السماوات والأرض، ثم أشار إلى ما فيها من كليات المنافع، لكنه قدم وأخر كتأخير تسخير الشمس والقمر؛ ليدل على أن كلا من هذه النعم نعمة على حدة، ولو أريد السحاب لم يوجد التقابل التام وأيّاً ما كان، فـ﴿من﴾ ابتدائية ﴿مَآءً﴾؛ أي: نوعاً من أنواع الماء، وهو المطر، فتنكير الماء هنا للنوعية ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾؛ أي: فأنبت بذلك الماء الذي أودع فيه القوة الفاعلية، كما أنه أودع في الأرض القوة القابلية ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ المتنوعة ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ يا بني آدم تعيشون به، وهو بمعنى المرزوق شامل للمطعوم والملبوس، وهو مفعول به لـ﴿أخرج﴾ و﴿من﴾ للتبيين حال منه، كقولك: أنفقت من الدراهم ألفاً؛ أي: رزقاً هو الثمرات، و﴿لَكُمْ﴾ صفة له. وقيل: للتبعيض؛ لأن الثمرات منها ما هو رزق لبني آدم، ومنها ما ليس برزق لهم، وهو ما لا يأكلونه ولا بنتفعون به، كأنه قيل: أنزل من

---

(١) روح البيان.

السماء بعض الماء، فأخرج به بعض الثمرات؛ ليكون بعض رزقكم. **والمعنى**[١]: الله الذي خلق لكم السماوات والأرض هنا أكبر خلقاً منكم، وفيهما من المنافع لكم ما تعلمون وما لا تعلمون وتقدم تفصيل هذا في مواضع متعددة من كتابه الكريم، وأنزل من السماء غيثاً أحيا به الشجر والزرع، فأثمرت لكم رزقاً تأكلون منه وتعيشون به.

ولما ذكر[٢] الله سبحانه وتعالى إنعامه بإنزال المطر وإخراج الثمر، لأجل الرزق والانتفاع به من ذكر نعمته على عباده بتسخير السفن الجارية على الماء؛ لأجل الانتفاع بها في جلب ذلك الرزق الذي هو الثمرات وغيرها من بلد إلى بلد آخر فهي من تمام نعمة الله على عباده، فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾؛ أي: وذلل لكم السفن ـ جمع فلك بمعنى سفينة ـ بأن أقدركم على صنعتها واستعمالها بما ألهمكم كيفية ذلك ﴿لِتَجْرِيَ﴾؛ أي: تلك الفلك والسفن ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾؛ أي: بإرادته إلى حيث توجهتم وانطوى[٣] في تسخير الفلك تسخير البحار وتسخير الرياح. وفي «أنوار المشارق»: يجوز ركوب البحر للرجال والنساء عند غلبة السلامة، كذا قال الجمهور، وكره ركوبه للنساء؛ لأن الستر فيه لا يمكنهن غالباً ولا غض البصر عن المتصرفين فيه، ولا يؤمن من انكشاف عوراتهن في تصرفهن لا سيما فيما صغر من السفن مع ضرورتهن إلى قضاء الحاجة بحضرة الرجال.

والمعنى: أي وذلل لكم السفن بأن أقدركم على صنعها وجعلها طافية على وجه الماء تجري عليه بأمره تعالى، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها المسافات الشاسعة من إقليم إلى إقليم؛ لجلب ما هناك إلى هنا ونقل ما هنا إلى هناك ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾؛ أي: المياه العظيمة الجارية في الأنهار العظام تشق الأرض شقاً من قطر إلى قطر، وتسخيرها: جعلها معدة لانتفاعكم بها حيث تشربون منها، وتتخذون منها جداول تسقون بها زروعكم وحدائقكم وما أشبه ذلك. ولما[٤] كان ماء البحر لا ينتفع به في سقي الزرع والثمرات ولا في الشراب أيضاً.. ذكر نعمته على عباده في تسخير الأنهار، وتفجير العيون؛ لأجل

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) روح البيان.
(٤) الخازن.

هذه الحاجة، فهو من أعظم نعم الله على عباده. قال في «بحر العلوم»: اللام فيها للجنس أو للعهد أشير بها إلى خمسة أنهار: سيحون: نهر الهند، وجيحون: نهر بلخ، ودجلة والفرات: نهري العراق، والنيل: نهر مصر، أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة، فاستودعها الجبال، وأجراها في الأرض، وسخرها للناس، وجعل فيها منافع لهم في أصناف معاشهم، وسائر الأنهار تبع لها، وكأنها أصولها. انتهى.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ حالة كونهما ﴿دَآئِبَيْنِ﴾؛ أي: دائمين في الحركة متصلين في سيرهما لا ينقطعان ولا يفتران؛ أي: لا يضعفان بسبب سيرهما في فلكهما ومقرهما: وهو السماء الرابعة للشمس، وسماء الدنيا للقمر إلى انقضاء عمر الدنيا وقيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ وقال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والمعنى: وسخر لكم الشمس والقمر حالة كونهما دائبين؛ أي[1]: مجدين في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات، وإصلاحهما يصلحان الأرض والأبدان والنبات، لا يفتران أصلاً، ويفضل الشمس على القمر؛ لأن الشمس معدن الأنوار الفلكية من البدور والنجوم، وأصلها في النورانية، وأن أنوارهم مقتبسة من نور الشمس على قدر تقابلهم وصفوة أجرامهم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبان بالزيادة والنقصان، والإضاءة والإظلام، والحركة والسكون فيهما، فالنهار لسعيكم في أمور معاشكم وما تحتاجون إليه في أمور دنياكم، ولإنضاج الثمار، والليل لتسكنوا فيه ولعقد الثمار، كما جاء في الآية الأخرى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾. فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من

---

(١) روح البيان.

ذلك، فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا، فيقصر، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

واختلفوا في الليل والنهار أيهما أفضل[1]. قال بعضهم: قدم الليل على النهار؛ لأن الليل لخدمة المولى، والنهار لخدمة الخلق، ومعارج الأنبياء عليهم السلام كانت بالليل، ولذا قال الإمام النيسابوري: الليل أفضل من النهار.

ولما ذكر[2] الله سبحانه وتعالى النعم العظام التي أنعم الله بها على عباده وسخرها لهم.. بين بعد ذلك أنه تعالى لم يقتصر على تلك النعم، بل أعطى عباده من المنافع والمرادات ما لا يأتي على بعضها العد والحصر: حيث قال: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾؛ أي: وأعطاكم مصلحة لكم ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾؛ أي: بعض جميع ما سألتموه، فإن الموجود من كل صنف بعض ما قدره الله تعالى، فـ﴿من﴾ للتبعيض.

وقال الأخفش[3]: أي أعطاكم من كل مسؤول سألتموه شيئاً، فحذف شيئاً، وقيل: المعنى: وآتاكم من كل ما سألتموه ومن كل ما لم تسألوه، فحذفت الجملة الأخرى. قاله ابن الأنباري، وقيل: ﴿من﴾ زائدة؛ أي: آتاكم كل ما سألتموه. وقيل: للتبعيض؛ أي: آتاكم بعض كل ما سألتموه.

وقرأ ابن عباس والضحاك والحسن ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وعمرو بن فائد وقتادة وسلام ويعقوب ونافع في رواية[4]: ﴿من كلٍ﴾ - بالتنوين - وهي شاذة؛ أي: من كل هذه المخلوقات المذكورات، و﴿ما﴾ موصولة مفعول ثان؛ أي: ما شأنه أن يسأل بمعنى يطلب الانتفاع به؛ أي: آتاكم من كل شيء الذي سألتموه. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ نافية؛ أي: آتاكم من جميع ذلك حال كونكم غير سائلين له.

والمعنى: أي هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم من كل

---

(1) روح البيان.
(2) الخازن.
(3) الشوكاني.
(4) البحر المحيط.

الذي هو حقيق أن تسألوه، سواء أسألتموه أم لم تسألوه؛ لأن هذه الدنيا قد وضع الله تعالى فيها منافع يجهلها الناس، وهي معدة لهم، فلم يسأل الله أحد في الأمم الماضية أن يعطيهم الطائرات والمغناطيس والكهرباء، بل خلقها وأعطاها للناس بالتدريج، ولم يزل عجائب ستظهر لمن بعدها. ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ التي أنعم بها عليكم بسؤال وبغيره ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾؛ أي: لا تطيقوا حصرها[1] وعدها ولو إجمالاً لكثرتها وعدم نهايتها. وفيه دليل على أن المفرد يفيد الاستغراق بالإضافة. وأصل الإحصاء أن الحساب كان إذا بلغ عقداً معيناً من عقود الأعداد وضعت له حصاة ليحفظ بها، ثم استؤنف العدد.

والمعنى: لا توجد له غاية فتوضع له حصاة. والنعم على قسمين: نعمة المنافع؛ لصحة البدن والأمن والعافية، والتلذذ بالمطاعم والمشارب والملابس والمناكح والأموال والأولاد، ونعمة دفع المضار من الأمراض والشدائد، والفقر والبلاء، وأجل النعم استواء الخلقة، وإلهام المعرفة.

والمعنى: أي[2] لا تطيقوا عد أنواعها فضلاً عن القيام بشكرها وفي «صحيح البخاري» أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك الحمد غير مكفي، ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا». وأثر عن الشافعي أنه قال: الحمد لله الذي لا يؤدِّي شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها. وقال شاعرهم:

لَوْ كَانَ جَارِحَةٌ مِنِّيْ لَهَا لُغَةٌ ... تُثْنِيْ عَلَيْكَ بِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنِ
لَكَانَ مَا زَادَ شُكْرِيْ إِذْ شَكَرْتُ بِهِ ... إِلَيْكَ أَبْلَغَ فِيْ الإِحْسَانِ وَالْمِنَنِ

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾؛ أي: إن جنس الإنسان ﴿لَظَلُومٌ﴾؛ أي[3]: لبليغ في الظلم يظلم النعمة بإغفال شكرها، أو بوضعها في غير موضعها، أو يظلم نفسه بتعريضها للحرمان. ﴿كَفَّارٌ﴾؛ أي: شديد الكفران لها، أو ظلوم في الشدة

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع، واللام في الإنسان للجنس.

والمعنى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾؛ أي: إن الإنسان الذي بدل نعمة الله كفراً لشاكر غير من أنعم عليه، فهو بذلك واضع للشكر في غير موضعه ذاك أن الله هو الذي أنعم عليه بما أنعم واستحق إخلاص العبادة له، فعبد هو غيره، وجعل له أنداداً ليضل عن سبيله، وذلك هو ظلمه وهو جحود لنعمه التي أنعم بها عليه، لصرفه العبادة إلى غير من أنعم بها عليه، وتركه طاعة من أنعم عليه.

فإن قلت[1]: لم ختم الآية هنا بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وختمها في سورة النحل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فما الفرق بين الختمين؟

قلتُ: إن الله سبحانه وتعالى لما قدم هنا قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ وذكر بعده: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ فكان ذلك نصاً على ما فعلوا من القبائح من كفران النعمة والظلم الذي هو الشرك بجعل الأنداد له تعالى.. ناسب أن يختم الآية هنا بذم من وقع ذلك منه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾. وأما في النحل، فلما ذكر عدة تفضلات وأطنب فيها، وقال بعد ذلك: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾؛ أي: أفمن أوجد هذه النعم السابق ذكرها كمن لا يقدر على الخلق، وعلى كل شيء منه.. ناسب أن يذكر هنا وهناك من تفضلاته اتصافه بالعذاب والرحمة تحريضاً على الرجوع إليه، وأن هاتين الصفتين هو متصف بهما، كما هو متصف بالخلق، ففي ذلك إطماع لمن آمن به، وانتقل من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق في أنه يغفر زلله السابق، ويرحمه. ذكره أبو حيان.

﴿و﴾ اذكر يا محمد لقومك مذكراً لهم بأيام الله قصة ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ الخليل عليه السلام في مناجاته لربه حين فرغ من بناء البيت ﴿ربـ﴾ـي المحسن إلي بإجابة دعائي ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ مكة المشرفة بلداً ﴿ءَامِنًا﴾؛ أي: ذا أمن

---

(١) البحر المحيط بتصرف.

يأمن فيه أهله بحيث لا يخاف فيه من المخاوف والمكاره، كالقتل والغارة والأمراض المنفرة من البرص والجذام ونحوهما، فإسناد الأمن إلى البلد مجاز؛ لوقوع الأمن فيه، وإنما الآمن في الحقيقة أهل البلد.

والغرض من سياق ما قاله إبراهيم عليه السلام في هذا الموضع[1]: بيان كفر قريش بالنعم الخاصة بهم وهي إسكانهم مكة بعد ما بين كفرهم بالنعم العامة، وقيل: إن ذكر قصة إبراهيم هاهنا لمثال الكلمة الطيبة وقيل: لقصد الدعاء إلى التوحيد وإنكار عبادة الأصنام.

وقدم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده؛ لأنه إذا انتفى الأمن لم يفزغ الإنسان لشيء آخر من أمور الدين والدنيا. فإن قلت[2]: لم قال في سورة البقرة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ بالتنكير وقال هنا: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ بالتعريف، فأي فرق بين الموضعين؟

قلتُ: الفرق بينهما أنه سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن فيها أهلها ولا يخافون، وذلك قبل بناء البيت حين وضع هاجر وإسماعيل في مكان البيت، وسأل في الثاني أن يخرج هذا البلد من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: وهو بلد مخوف، فاجعله آمناً، وذلك بعد بناء البيت.

والحاصل: أن هذا الدعاء وقع مرتين[3] مرة قبل بنائها ومرة بعده، ولذلك كتب الكرخي في سورة البقرة ما نصه: ونكر البلد هنا وعرّفه في إبراهيم؛ لأن الدعوة هنا كانت قبل جعل المكان بلداً، فطلب من الله أن يُجعل ويُصيَّرَ بلداً آمناً، وهناك كانت الدعوة بعد جعله بلداً.

والخلاصة: أن الفرق بين ما هنا وما هنالك أن المطلوب هنا مجرد الأمن للبلد، والمطلوب هنالك البلدية والأمن. وقد أجاب الله تعالى دعاءه، فجعله حرماً لا يسفك فيه دم، ولا يظلم فيه أحد، ولا يصاد صيده، ولا يختلى خلاه،

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) الفتوحات.

كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ يا رب؛ أي: باعدني ﴿و﴾ باعد ﴿بني﴾ وذريتي عن ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ والأوثان؛ أي: ثبتنا على ما نحن عليه من التوحيد وملة الإسلام، والبعد عن الأصنام، وقد استجيب دعاؤه في بعض بنيه دون بعض ولا ضير في ذلك.

قيل: أراد[1] بنيه من صلبه، وكانوا ثمانية، وقيل: أراد من كان موجوداً حال دعوته من بنيه وبني بنيه، وقيل: أراد جميع ذريته ما تناسلوا، ويؤيد القول الأول ما قيل من أنه لم يعبد أحد من أولاد إبراهيم صنماً، والصنم: هو التمثال الذي كانت تصنعه أهل الجاهلية من الأحجار ونحوها فيعبدونه؛ أي: واجعلنا في جانب بعيد من عبادتها؛ أي: ثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد وملة الإسلام، والبعد عن عبادة الأصنام، وإلا فهو معصوم عن عبادتها، وكذا بعض بنيه معصومون كإسماعيل وإسحاق.

قال بعضهم[2]: رأى إبراهيم قوماً يعبدون الأصنام، فخاف على بنيه فدعا. والجمهور على أن العرب من عهد إبراهيم استمرت على دينه من رفض عبادة الأصنام إلى زمن عمرو بن لحي كبير خزاعة، فهو أول من غير دين إبراهيم، وشرع للعرب الضلالات، وهو أول من نصب الأوثان في الكعبة وعبدها، وأمر الناس بعبادتها، وقد كان أكثر الناس في الأرض المقدسة عبدة الأوثان، وكان إبراهيم يعرفه، فخاف سرايته إلى كل بلد فيه واحد من أولاده، فعصم أولاده الصلبية من ذلك، وهي المرادة من قوله: ﴿وَبَنِيَّ﴾ فإنه لم يعبد أحد منهم الصنم لا هو ولا أحفاده. وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر الثقفي شذوذاً[3]: ﴿وأجنبني﴾ بقطع الهمزة على أنه من أجنب الرباعي.

وقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

وأما إعادة النداء بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ. . .﴾ إلخ فلتأكيد النداء الأول، وكثرة الابتهال والتضرع إليه، وأنث الأصنام؛ لأنه جمع ما لا يعقل يخبر عنه أخبار المؤنث؛أي: وإنما سألت منك العصمة، واستعذت بك من إضلالهن؛ لأنهن؛ أي: لأن الأصنام أضللن كثيراً من الناس. أسند الإضلال إلى الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل؛ لأنها سبب لضلالهم، فكأنها أضلتهم؛ أي: يا رب إن الأصنام أزلن كثيراً من الناس عن طريق الهدى وسبيل الحق حتى عبدوهن، وكفروا بك ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ من الناس على ما أنا عليه من الإيمان بك، وإخلاص العبادة لك، والبعد عن عبادة الأوثان ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾؛ أي: من أهل ديني، ومستن بسنتي، وجارٍ على طريقتي. جعل أهل ملته كنفسه مبالغة. ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ وخالف أمري، فلم يتابعني، ولم يقبل مني ما دعوته إليه، وأشرك بك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ له؛ أي: فإنك قادر على أن تغفر له وترحمه بالتوبة عليه، وهدايته إلى الصراط المستقيم. قيل: قال هذا[1] قبل أن يعلم أن الله لا يغفر أن يشرك به، كما وقع منه الاستغفار لأبيه وهو مشرك، كذا قال ابن الأنباري. وقيل: المراد هنا: عصيانه فيما دون الشرك. وقيل: إن هذه المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك.

فصل

واعلم: أنه قد توجه على هذه الآية إشكالات، وهي من وجوه[2]:

الأول: أن إبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يجعل مكة آمنة، ثم إن جماعة من الجبابرة وغيرهم قد أغاروا عليها، وأخافوا أهلها.

الوجه الثاني: أن الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام معصومون من عبادة الأصنام، وإذا كان كذلك، فما الفائدة في قوله: أجنبني عن عبادتها؟

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

الوجه الثالث: أن إبراهيم عليه السلام سأل ربه أيضاً أن يُجنب بنيه عبادة الأصنام، وقد وجد كثير من بنيه عبد الأصنام مثل كفار قريش، وغيرهم ممن ينسب إلى إبراهيم عليه السلام.

وقد يجاب عنها بوجوه كثيرة، فالجواب عن الوجه الأول من وجهين:

أحدهما: أن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء، والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب، وهذا موجود بحمد الله تعالى، ولم يقدر أحد على خراب مكة، وأورد على هذا ما ورد في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة». أخرجاه في «الصحيحين». وأجيب عنه بأن قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾، يعني: إلى قرب القيامة وخراب الدنيا. وقيل: هو عام مخصوص بقصة ذي السويقتين، فلا تعارض بين النصين.

الوجه الثاني: أن يكون المراد: اجعل أهل هذا البلد آمنين، وعلى هذا الوجه أكثر العلماء من المفسرين وغيرهم، وعلى هذا فقد اختص أهل مكة بزيادة الأمن في بلدهم كما أخبر الله سبحانه وتعالى بقوله؛ ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ وأهل مكة آمنون من ذلك حتى إن من التجأ إلى مكة.. أمن على نفسه وماله من ذلك، وحتى أن الوحوش إذا كانت خارجة من الحرم استوحشت، فإذا دخلت الحرم.. أمنت واستأنست لعلمها أنه لا يهيجها أحد في الحرم، وهذا القدر من الأمن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها.

وأما الجواب عن الوجه الثاني فمن وجوه أيضاً:

الوجه الأول: أن دعاء إبراهيم عليه السلام لنفسه لزيادة العصمة، والتثبيت، فهو كقوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾.

والوجه الثاني: أن إبراهيم عليه السلام وإن كان يعلم أن الله سبحانه وتعالى يعصمه من عبادة الأصنام إلا أنه دعا بهذا الدعاء هضماً للنفس، وإظهاراً للعجز والحاجة والفاقة إلى فضل الله تعالى ورحمته، وأن أحداً لا يقدر على نفع نفسه

بشيء لم ينفعه الله به، فلهذا السبب دعا لنفسه بهذا الدعاء.

وأما دعاؤه لبنيه، وهو الوجه الثالث من الإشكالات، فالجواب عنه من وجوه:

الأول: أن إبراهيم دعا لبنيه من صلبه، ولم يعبد منهم أحد صنماً قط.

الوجه الثاني: أنه أراد أولاده وأولاد أولاده الموجودين حالة الدعاء، ولا شك أن إبراهيم عليه السلام قد أجيب فيهم.

الوجه الثالث: قال الواحدي دعا لمن أذن الله أن يدعو له، فكأنه قال: وبني الذين أذنت لي في الدعاء لهم؛ لأن دعاء الأنبياء مستجاب، وقد كان من بنيه من عبد الصنم، فعلى هذا الوجه يكون هذا الدعاء من العام المخصوص.

الوجه الرابع: أن هذا مختص بالمؤمنين من أولاده، والدليل عليه أنه قال في آخر هذه الآية: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾ وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه، فليس منه، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه ا هـ من «الخازن».

ثم قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ كرر النداء[1] رغبة في الإجابة وإظهاراً للتذلل والالتجاء إلى الله تعالى، وأتى بضمير جماعة المتكلمين؛ لأنه تقدم ذكره وذكر بنيه في قوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ﴾ و﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ قال الفراء[2]: ﴿مِن﴾ للتبعيض؛ أي: بعض ذريتي وهو إسماعيل ومن سيولد له، فإن إسكانه متضمن إسكانهم. وقال ابن الأنباري: أنها زائدة؛ أي: أسكنت ذريتي. والأول أولى؛ لأنه إنما أسكن إسماعيل، وهو بعض ولده. ﴿بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾؛ أي: بواد ليس فيه زرع وهو وادي مكة؛ لأنه واد بين جبلين جبل أبي قبيس وجبل أجياد، فإنها حجرية لا يوجد فيها زرع ولا ماء. وفي «بحر العلوم»: وأما في زماننا فقد رزق الله أهله ماء جارياً، وإنما لم يقل غير ذي ماء؛ لأنه كان علم أن الله لا يضيع هاجر وابنها في ذلك الوادي، وأنه يرزقها الماء، وعلم بالوحي أنه سيكون فيها ماء كثير، والله أعلم. وقوله: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ ظرف لـ﴿أَسۡكَنتُ﴾

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

والإضافة فيه للتشريف؛ أي: الذي يحرم فيه ما يستباح في غيره؛ لأنه عظيم الحرمة حرم الله التعرض له بسوء يوم خلق السماوات والأرض، وحرم فيه القتال والاصطياد، وأن يدخل فيه أحد بغير إحرام. وقيل غير ذلك. فإن قلت[1]: كيف قال عند بيتك المحرم، ولم يكن هناك بيت حينئذٍ، وإنما بناه إبراهيم بعد ذلك؟.. قلت: يحتمل أن الله عز وجل أوحى إليه وأعلمه أن له هناك بيتاً قد كان في سالف الزمان، وأنه سيعمر، فلذلك قال: عند بيتك المحرم. وقيل: يحتمل أن يكون المعنى: عند بيتك الذي كان، ثم رفع عند الطوفان. وقيل: يحتمل أن يكون المعنى عند بيتك الذي جرى في سابق علمك أنه سيحدث في هذا المكان.

والمعنى: أي يا رب إني أسكنت بعض ذريتي وهم أولاد إسماعيل بواد غير ذي زرع، وهو وادي مكة عند بيتك الذي حرمت التعرض له والتهاون به، وجعلت ما حوله حرماً لمكانه. ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ كرر النداء[2] لإظهار كمال العناية بما بعده، واللام فيه لام كي متعلقة بـ﴿أَسْكَنتُ﴾؛ أي: ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع الخالي من كل مرتفق ومرتزق إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرم متوجهين إليه متبركين به بدلالة قوله: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ على أنه لا غرض له دنيوي في إسكانهم عند البيت المحرم، وتخصيص الصلاة بالذكر من بين سائر شعائر الدين لفضلها، ولأن بيت الله لا يسعه إلا الصلاة وما في معناها وهي الأصل في إصلاح النفس، وكان قريش يمتنعون عن ذلك لزيادة كبرهم.

﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: قلوب بعض الناس ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: تسرع إلى ذريتي بنقل المعاشات إليهم بسبب التجارات، وتحن إليهم لطلب حج البيت لا لأعيانهم، وتطير نحوهم محبة، و﴿من﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ للتبعيض. وقيل: زائدة، ولا[3] يلزم منه أن يحج اليهود والنصارى بدخولهم تحت لفظ الناس؛ لأن المطلوب توجيه قلوب الناس إليهم للسكون معهم والجلب

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

إليهم، لا توجيهها إلى الحج، ولو كان هذا مراداً.. لقال: تهوي إليه، والأفئدة: جمع فؤاد؛ وهو القلب عبر به عن جميع البدن؛ لأنه أشرف عضو فيه. قال مجاهد: لو قال إبراهيم عليه السلام: أفئدة الناس لازدحمت على البيت فارس والروم. وقال ابن جبير: لَحجَّتْهُ اليهود والنصارى.

وقرأ هشام في المتواتر بخلف عنه[1]: ﴿أفئيدة﴾ بياء بعد الهمزة نص عليه الحلواني عنه، وخرج ذلك على الإشباع، ولما كان الإشباع لا يكون إلا في ضرورة الشعر.. حمل بعض العلماء هذه القراءة على أن هشاماً قرأ بتسهيل الهمزة كالياء، فعبر الراوي عنها بالياء، فظن من أخطأ فهمه أنها بياء بعد الهمزة، والمراد بياء عوضاً عن الهمزة، وقرىء: ﴿آفدة﴾ على وزن فاعلة، فاحتمل أن يكون اسم فاعل من أفد؛ أي: دنا وقرب، وأن يكون جمع فؤاد، ويكون من باب القلب، وصار بالقلب أأفدة، فأبدلت الهمزة الساكنة ألفاً. وقرىء: ﴿أفدَةَ﴾ على وزن فعلة، فاحتمل أن يكون جمع فؤاد. وقراءة أم الهشيم: ﴿أفودة﴾ بالواو المكسورة بدل الهمزة. وقرأ زيد بن علي: ﴿إفادة﴾ على وزن إشارة، وما عدا قراءة الجمهور وهشام شاذ.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ - بكسر الواو من باب ضرب -؛ أي: تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً. وقرأ مسلمة بن عبد الله شاذ: ﴿تهوي﴾ بضم التاء مبنياً للمفعول من أهوى المنقولة بهمزة التعدية من هوى اللازم. وقرأ علي بن أبي طالب وزيد بن علي ومحمد بن علي وجعفر بن محمد ومجاهد شذوذاً أيضاً: ﴿تهوي﴾ - بفتح الواو مضارع هوى من باب فرح - بمعنى أحب وإلى زائدة، فيكون بمعنى، تحبهم.

﴿وَٱرْزُقْهُم﴾؛ أي: ذريتي الذين أسكنتهم هناك، أو هم ومن يساكنهم من الناس، وإنما لم يخص الدعاء بالمؤمنين كما في قوله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

﴿ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ اكتفاء بذكر إقامة الصلاة ﴿من﴾ أنواع الثمرات كما رزقت سكان القرى ذوات الماء والزروع، فيكون المراد عمارة قرى بقرب مكة لتحصل تلك الثمار. وقيل: يحتمل أن يكون المراد جلب الثمرات إلى مكة بطريق النقل والتجارة، فهو كقوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ وقد حصل[1] كلاهما حتى أنه يجتمع في مكة الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد. روى عن ابن عباس أن الطائف وهي على ثلاث مراحل، من مكة كانت من أرض فلسطين، فلما دعا إبراهيم عليه السلام بهذه الدعوة.. رفعها الله ووضعها رزقاً للحرم.

والمعنى: أي وارزق ذريتي الذين أسكنتهم في مكة من أنواع الثمار بأن تجبي إليهم ذلك من شاسع الأقطار، وقد استجاب الله ذلك كما قال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾.

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ نعمك التي أنعمت بها عليهم؛ أي: رجاء أن يشكروا تلك النعم بإقامة الصلاة، وأداء واجبات العبودية. وفي هذا[2] إيماء إلى أن تحصيل منافع الدينا إنما هو ليستعان بها على أداء العبادات وتحصيل الطاعات، وفي دعائه عليه السلام مراعاة للأدب والمحافظة على الضراعة، وعرض الحاجة واجتلاب الرأفة، ومن ثم من الله عليه بالقبول وإعطاء المسؤول، وقد أجاب دعائه، فألهم الناس الحج في آلاف السنين، وإلى ما شاء الله تعالى، لا في مدى حياته فحسب، ولا بدع في ذلك، فهو خليل الرحمٰن وأبو الأنبياء جميعاً.

والنداء المكرر في قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾؛ أي: أنت تعلم ما تخفي وتسر قلوبنا حين سؤالك ما نسأل، وما نعلن ونظهر من دعائنا فنجهر به[3]، دليل التضرع واللجوء إلى الله تعالى، وقدم ما نخفي على ما نعلن؛ للدلالة على أنهما مستويان في علمه سبحانه. والمراد: ربنا إنك تعلم السر كما تعلم العلن، علماً لا تفاوت فيه.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) النسفي.

والمعنى[1]: إنك تعلم أحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا، وأنت أرحم بنا منا، فلا حاجة بنا إلى الدعاء والطلب إنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك، وتخشعاً لعظمتك، وتذلّلاً لعزتك، وافتقاراً إلى ما عندك. وقيل: معناه تعلم ما نخفي من الوجد بفرقة إسماعيل وأمه حيث أسكنتهما بواد غير ذي زرع، وما نعلن يعني: من البكاء. وقيل: ﴿مَا نُخْفِى﴾ يعني: من الحزن المتمكن في القلب: ﴿وَمَا نُعْلِنُۗ﴾ يعني: ما جرى بينه وبين هاجر عند الوداع حين قالت لإبراهيم عليه السلام: إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله، قالت: إذاً لا يضيعنا.

﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ دائماً[2]؛ إذ لا ماضي ولا مستقبل ولا حال بالنسبة إلى الله تعالى ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ علام الغيوب سبحانه وتعالى ﴿مِن﴾ للاستغراق ﴿شَىْءٍ﴾ ما ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لأنه العالم بعلم ذاتي تستوي نسبته إلى كل معلوم لا عارض ولا كسبي، ليختص بمعلوم دون معلوم كعلم البشر والملك، تلخيصه لا يخفي عليك شيء ما في أي مكان، فافعل بنا ما هو مصلحتنا، فالظرف متعلق بـ﴿يَخْفَىٰ﴾، أو شيء ما كائن فيهما على أنه صفة لـ﴿شَىْءٍ﴾، وهذا على القول بأنه من كلام إبراهيم عليه السلام، قاله تحقيقاً لقوله الأول وتعميماً بعد التخصيص، وقيل: هو من كلام الله تعالى قاله تصديقاً لإبراهيم عليه السلام، وهو اعتراض بين كلامي إبراهيم، فالوقف على ﴿نُعْلِنُۗ﴾ حسن كالوقف على ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، والمعنى عليه: وما يخفى على الله شيء من الأشياء الموجودة كائناً ما كان، وإنما ذكر السماوات والأرض؛ لأنها المشاهدة للعباد، وإلا فعلمه سبحانه محيط بكل ما هو داخل في العالم، وكل ما هو خارج عنه لا تخفى عليه منه خافية.

ثم حمد الله تعالى على بعض نعمه الواصلة إليه، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ والشكر ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾؛ أي: مع كبر سني. فـ﴿عَلَى﴾ هنا[3] بمعنى مع، وهو في موقع الحال؛ أي: وهب لي وأنا كبير آيس من الولد، قيد الهبة بحال الكبر استعظاماً للنعمة وإظهاراً لشكرها؛ لأن زمان الكبر زمان العقم ﴿إِسْمَٰعِيلَ﴾

---

(١) الخازن.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

سمي إسماعيل؛ لأن إبراهيم كان يدعو الله أن يرزقه ولداً، ويقول: إسمع يا إيل، وإيل هو الله، فلما رزق به سماه به كما في «معالم التنزيل». وقال في «إنسان العيون»: معناه بالعبرانية: مطيع الله روي أنه ولد له إسماعيل، وهو ابن تسع وتسعين سنة. ﴿وَإِسْحَٰقَۚ﴾ اسمه بالعبرانية: الضحاك كما في «إنسان العيون» روي أنه ولد له إسحاق، وهو ابن مئة وثنتي عشرة سنة، وإسماعيل يومئذٍ ابن ثلاث عشرة سنة. ﴿إِنَّ رَبِّى﴾ ومالك أمري ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾؛ أي: لمجيب الدعاء من قولهم سمع الملك كلامه إذا اعتد به وهو من إضافة الصفة المتضمنة للمبالغة إلى المفعول.

والمعنى: إنك لكثير إجابة الدعاء لمن يدعوك. وفيه بأنه دعاه ربه وسأل منه الولد، ما قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ فأجابه ووهب له سؤله حين ما وقع اليأس منه، ليكون من أجل النعم وأجلاها، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ...﴾ إلخ. والظاهر[1]: أن هذه الجمل التي تكلم بها إبراهيم عليه السلام لم تقع منه في زمان واحد، وإنما حكى الله عنه ما وقع منه في أزمان مختلفة، يدل على ذلك أن إسحاق لم يكن موجوداً حالة دعائه؛ إذ ترك هاجر والطفل بمكة، فالظاهر أن حمده الله تعالى على هبة ولديه له كان بعد وجود إسحاق.

فإن قلت: كيف[2] جمع بين إسماعيل وإسحاق عليهما السلام في وقت واحد، وإنما بشر بإسحاق بعد إسماعيل بزمان طويل؟

قلت: يحتمل أن إبراهيم عليه السلام إنما أتى بهذا الدعاء عندما بشر بإسحاق، وذلك أنه لما عظمت المنة على قلبه بهبة ولدين عظيمين عند كبره قال عند ذلك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ﴾ ولا يرد على هذا ما ورد في الحديث أنه دعا بما تقدم عند مفارقة إسماعيل وأمه؛ لأن الذي صح في الحديث أنه دعا بقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ إذا ثبت هذا، فيكون قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ﴾ في وقت آخر. والله أعلم بحقيقة الحال.

---

(١) البحر المحيط. (٢) الخازن.

ثم سأل الله سبحانه بأن يجعله مقيم الصلاة محافظاً عليها غير مهمل لشيء منها حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: معدلاً[1] لها بأركانها وشروطها وآدابها، من أقمت العود إذا قومته، أو مواظباً عليها، من قامت السوق إذا نفقت؛ أي: راجت أو مؤدياً لها محافظاً عليها في أوقاتها، والاستمرار يستفاد من العدول من الفعل إلى الاسم حيث لم يقل: اجعلني أقيم الصلاة. ﴿و﴾ اجعل ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ من يقيم الصلاة، وإنما أدخل لفظة ﴿من﴾ التي هي للتبعيض في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؛ لأنه علم بإعلام الله تعالى إياه أنه قد يوجد من ذريته جمع من الكفار لا يقيمون الصلاة، فلهذا قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ وأراد بهم المؤمنين من ذريته.

والمعنى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي[2]: رب اجعلني مؤدياً ما ألزمتني من فريضتك التي فرضتها علي، واجعل أيضاً بعض ذريتي مقيمي الصلاة، وقد خصّ الصلاة من بين فرائض الدين؛ لأنها العنوان الذي يمتاز به المؤمن من غيره، ولما لها من المزية العظمى في تطهير القلوب بترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

ثم سأل الله سبحانه أن يتقبل دعاءه على العموم، ويدخل في ذلك دعاءه في هذا المقام دخولاً أولياً حيث قال: ﴿رَبَّنَا﴾ ويا مالك أمرنا، فاسمع ندائي ﴿وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾؛ أي[3]: واستجب دعائي هذا المتعلق باجعلني، واجعل بعض ذريتي مقيمي الصلاة ثابتين على ذلك مجتنبين عن عبادة الأصنام، ولذلك جيء بضمير الجماعة في قوله: ﴿رَبَّنَا﴾. وقرأ[4] ورش وأبو عمرو وحمزة وأبو جعفر: ﴿وتقبل دعائي﴾ بياء في الوصل. والبزي ويعقوب وصلاً ووقفاً، ويقف عليها بالهمزة الباقون. ﴿دُعَآءِ﴾ بغير ياء في الحالين. قال أبو علي: الوقف والوصل بياء هو القياس، والإشمام جائز لدلالة الكسرة على الياء.

ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر له ما وقع منه مما يستحق أن يغفره الله، وإن لم يكن كبيراً؛ لما هو معلوم من عصمة الأنبياء عن الكبائر، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي﴾؛ أي: ما فرط مني من ترك الأولى في باب الدين وغير ذلك مما لا

---

(1) روح البيان.
(2) المراغي.
(3) روح البيان.
(4) زاد المسير.

يسلم منه البشر. ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر لوالديه حيث قال: ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾؛ أي: واغفر لوالدين لي ذنوبهما واهدهما إلى صراطك المستقيم. وقد قيل[1]: إنه دعا لهما بالمغفرة قبل أن يعلم أنهما عدوان لله سبحانه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾. وقيل: كانت أمه مسلمة. وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء.

ثم استغفر للمؤمنين حيث قال: ﴿و﴾ اغفر ﴿للمؤمنين﴾ والمؤمنات كلهم، وظاهره شمول كل مؤمن سواء كان من ذريته أو لم يكن منهم. وقيل: أراد المؤمنين من ذريته فقط، واكتفى بذكر[2] مغفرة المؤمنين دون مغفرة المؤمنات؛ لأنهن تبع لهم في الأحكام، وللإيذان باشتراك الكل في الدعاء بالمغفرة، جيء بضمير الجماعة في قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ وفي الحديث: «من عمم بدعائه المؤمنين والمؤمنات استجيب له». فمن السنة أن لا يخص نفسه بالدعاء قال في «الأسرار المحمدية»: اعلم أنه يكره للإمام تخصيص نفسه بالدعاء بأن يذكر على صيغة الإفراد، لا على صيغة الجمع. قال رسول الله ﷺ: «لا يؤم عبد قوماً، فيخص نفسه بالدعاء دونهم، فإن فعل فقد خانهم»، رواه ثوبان. بل الأولى أيضاً إن كان منفرداً أن يأتي بصيغة الجمع، فينوي نفسه وآباءه وأمهاته وأولاده وإخوانه وأصدقاءه المؤمنين الصالحين، فيعممهم بالدعاء، وينالهم بركة دعائه.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾؛ أي: يوم[3] يبدو ويظهر فيه محاسبة أعمال المكلفين. وقيل: يوم يقوم الناس فيه للمحاسبة والمجازاة على أعمالهم، فاكتفى بذلك؛ أي: بذكر الحساب عن ذكر الناس، لكونه مفهوماً عند السامع، والأول أولى وهذا دعاء المؤمنين بالمغفرة، والله سبحانه وتعالى لا يرد دعاء خليله إبراهيم عليه السلام، ففيه بشارة عظيمة لجميع المؤمنين بالمغفرة.

والمعنى[4]: أي ربنا اغفر لي ما فرط مني من الذنوب ولأبوي. وقد روي عن الحسن أن أمه كانت مؤمنة، واستغفاره لأبيه عن موعدة وعدها إياه، فلما

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) الخازن.
(٤) المراغي.

تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ﴾.. الآية. وللمؤمنين بك ممن تبعني على الدين الذي أنا عليه، فأطاعك في أمرك ونهيك يوم تحاسب عبادك، فتجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وقرأ[1] ابن مسعود والنخعي والزهري وابن يعمر: ﴿ولولَدي﴾ ـ بغير ألف وبفتح اللام ـ يعني: إسماعيل وإسحاق يدل عليه ذكرهما قبل ذلك، وأنكر عاصم الجحدري هذه القراءة، وقال: إن في مصحف أبي بن كعب ﴿ولأبوي﴾. وقرأ عاصم الجحدري: ﴿ولوُلْدي﴾ ـ بضم الواو وسكون اللام ـ فاحتمل أن يكون جمع ولد، كأُسد في أسد، ويكون قد دعا لذريته، وأن يكون لغة في الولد، كما قالوا: العَدَم والعُدْم. وقرأ مجاهد وابن جبير: ﴿ولوالدي﴾ ـ بإسكان الياء ـ على إرادة الأب وحده، كقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾. وقرأ يحيى بن يعمر والجوني: ﴿ولولدَي﴾ بفتح الواو وكسر الدال على التوحيد، وما عدا قراءة الجمهور شاذ وليس بمتواتر.

الإعراب

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ (الهمزة): للاستفهام التعجبي. ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وهو من رؤية البصر، عداه بـ﴿إِلَى﴾ تضميناً له بمعنى النظر، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق به، وهو في محل المفعول؛ أي: هل رأيت عجباً مثل هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفراً. ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة صلة الموصول. ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿بَدَّلُوا۟﴾. ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿أحلوا﴾. ﴿جَهَنَّمَ﴾: عطف بيان من ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب

(١) زاد المسير والبحر المحيط.

حال من ﴿قَوْمَهُمْ﴾، أو من ﴿جَهَنَّمَ﴾، أو من الـ﴿دَارَ﴾. ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾: فعل وفاعل، وهو لإنشاء الذم، والمخصوص محذوف وجوباً تقديره: هي؛ أي: ﴿جَهَنَّمَ﴾، والجملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

﴿وَجَعَلُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿بَدَّلُوا۟﴾ فهو من جملة الصلة المتعجب منها. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَندَادًا﴾. ﴿أَندَادًا﴾: مفعول ثان لجعل، والأول محذوف تقديره: وجعلوا الأصنام أنداداً لله. ﴿لِّيُضِلُّوا۟﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يضلوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة. ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يضلوا﴾، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جعلوا﴾، والتقدير: وجعلوا لله أنداداً لإضلالهم الناس عن سبيله. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿تَمَتَّعُوا۟...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿فَإِنَّ﴾: (الفاء): تعليلية؛ لتعليلها القلة المفهومة من ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾، ﴿إن﴾: حرف نصب. ﴿مَصِيرَكُمْ﴾: اسمها. ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾: خبرها، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول القول مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لِّعِبَادِىَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قُلْ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة ﴿لِّعِبَادِىَ﴾. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم في جواب الطلب لفعل محذوف واقع مفعولاً لـ﴿قُلْ﴾ تقديره: قل لعبادي أقيموا الصلاة.. يقيموا؛ أي: إن قلت لهم: أقيموا الصلاة.. يقيموا. ﴿وَيُنفِقُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يُقِيمُوا۟﴾، وفي «الفتوحات» قوله: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ...﴾ إلخ. مفعول ﴿قُلْ﴾

محذوف يدل عليه جوابه؛ أي: قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا، وقوله: ﴿يُقِيمُواْ﴾ ﴿وَيُنفِقُواْ﴾ مجزومان في جواب الأمر؛ أي: إن قلت لهم: أقيموا الصلاة وأنفقوا.. الخ: يقيموا وينفقوا. ا هـ. شيخنا. وفي «البيضاوي»: ويجوز أن يقدرا بلام الأمر؛ ليصح تعلق القول بهما. ا هـ؛ أي: ليقيموا الصلاة ولينفقوا. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ينفقوا﴾. ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: مما رزقناهم إياه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: إياه. ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: منصوبان على المفعولية المطلقة؛ أي: إنفاق سر وعلانية، أو على الحالية من فاعل ﴿ينفقوا﴾؛ أي: مسرين ومعلنين، أو على الظرفية؛ أي: وقتي سر وعلانية. ﴿مِّن قَبْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ينفقوا﴾. ﴿أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بالإضافة، والتقدير: وينفقوا من قبل إتيان يوم. ﴿لَّا﴾: نافية تعمل عمل ليس. ﴿بَيْعٌ﴾: اسمها مرفوع. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور خبر لا؛ أي: لا بيع موجوداً فيه. ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ معطوف على ﴿بَيْعٌ﴾، وجملة ﴿لَّا﴾: في محل الرفع صفة لـ﴿يَوْمٍ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: فعل ومفعول ومعطوف، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿وَأَنزَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقَ﴾. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿أنزل﴾. ﴿مَآءً﴾: مفعول به لـ﴿أنزل﴾. ﴿فَأَخْرَجَ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿أخرج﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. والجملة معطوفة على ﴿أنزل﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أخرج﴾. ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿رِزْقًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿رِزْقًا﴾: مفعولُ ﴿أخرج﴾. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿رِزْقًا﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾.

﴿وَسَخَّرَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقَ﴾. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق بـ﴿سخر﴾. ﴿ٱلْفُلْكَ﴾: مفعول ﴿سخر﴾. ﴿لِتَجْرِيَ﴾: (اللام): لام كي، ﴿تجري﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْفُلْكَ﴾. ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾: متعلق بـ﴿تجري﴾. ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿تجري﴾؛ أي: حالة كونها متلبسة بأمره، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لجريانها في البحر بأمره، الجار والمجرور متعلق بـ﴿سخر﴾. ﴿وَسَخَّرَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾: مفعول به.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَسَخَّرَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾: مفعولان لـ﴿سخر﴾. ﴿دَآئِبَيْنِ﴾: حال من ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾. ﴿وَسَخَّرَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: مفعولان لـ﴿سخر﴾.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَءَاتَىٰكُم﴾: فعل ومفعول أول معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿مِّن﴾: حرف جر وتبعيض، أو زائد في المفعول الثاني. ﴿كُلِّ﴾: مجرور بـ﴿مِّن﴾، الجار والمجرور متعلق بـ﴿آتاكم﴾، والمفعول الثاني محذوف تقديره: وآتاكم شيئاً من كل ما سألتموه. ﴿كُلِّ﴾: مضاف. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾: مصدرية ﴿سَأَلْتُمُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والضمير فيه عائد إلى الله تعالى، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره ما

سألتموه تعالى إياه، والمصدر المؤول من الفعل على كون ﴿ما﴾ مصدرية هو المفعول الثاني لـ﴿آتاكم﴾ تقديره: وآتاكم مسؤولكم. ﴿وَإِن تَعُدُّوا﴾: جازم وفعل وفاعل. ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به. ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول جواب الشرط، وجملة الشرط مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَظَلُومٌ﴾: (اللام): حرف ابتداء، ﴿ظلوم﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿كَفَّارٌ﴾: صفته، أو خبر ثان، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد إذ قال؛ أي: قصة إذ قال إبراهيم. ﴿قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف حرف النداء للتخفيف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾: فعل دعاء، ومفعول أول. ﴿ٱلْبَلَدَ﴾: بدل من إسم الإشارة، أو عطف بيان منه، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ءَامِنًا﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب للنداء. ﴿وَٱجْنُبْنِى﴾: فعل ومفعول ونون وقاية، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿وَبَنِىَّ﴾: معطوف على ياء المتكلم، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱجْعَلْ﴾. ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم وذريته، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: من عبادتنا الأصنام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿اجنبني﴾.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّهُنَّ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾: صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿فَمَن﴾: (الفاء): تفصيلية.

﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿تَبِعَنِى﴾: فعل ومفعول ونون وقاية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فَإِنَّهُۥ﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً. ﴿إنه﴾: ناصب واسمه. ﴿مِنِّى﴾: جار ومجرور خبره، وجملة ﴿إن﴾: في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾: الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَمَنْ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب. ﴿عَصَانِى﴾: فعل ومفعول ونون وقاية، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها فعل شرط لـ﴿من﴾، ﴿فَإِنَّكَ﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿من﴾. ﴿إنك﴾: ناصب واسمه. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول له. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان، أو صفة لـ﴿غَفُورٌ﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، والرابط محذوف تقديره: رحيم له، وجملة ﴿من﴾: الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿رَّبَّنَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّىٓ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَسْكَنتُ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن ذُرِّيَّتِى﴾: جار ومجرور متعلق به، و﴿من﴾ تبعيضية، والمفعول محذوف، والتقدير: ذرية بعض ذريتي، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿بِوَادٍ﴾: متعلق بـ﴿أَسْكَنتُ﴾. ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾: صفة ومضاف إليه. ﴿عِندَ بَيْتِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَسْكَنتُ﴾. ﴿ٱلْمُحَرَّمِ﴾: صفة للبيت. ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف مؤكد للنداء الأول. ﴿لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لإقامتهم الصلاة، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَسْكَنتُ﴾. ﴿فَٱجْعَلْ﴾: (الفاء): عاطفة تفريعية. ﴿اجعل﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿أَفْـِٔدَةً﴾: مفعول أول لجعل. ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾: صفة

لـ﴿أَفْئِدَةً﴾. ﴿تَهْوِيٓ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَفْئِدَةً﴾. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿تَهْوِيٓ﴾: وجملة ﴿تَهْوِيٓ﴾ في محل النصب مفعول ثان لـ﴿أجعل﴾، وجملة ﴿اجعل﴾: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَسْكَنتُ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾ مع كونها جواب النداء. ﴿وَٱرْزُقْهُم﴾: فعل ومفعول. ﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿اجعل﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَشْكُرُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿تَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿مَا﴾: في محل النصب مفعول ﴿تَعْلَمُ﴾؛ لأنه بمعنى عرف. ﴿نُخْفِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿إبراهيم﴾ وسائر العباد، والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما نخفيه. ﴿وَمَا نُعْلِنُۗ﴾: معطوف على ﴿مَا نُخْفِي﴾، ﴿وَمَا﴾: (الواو): اعتراضية، أو عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿يَخْفَىٰ﴾: فعل مضارع. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿مِن شَيْءٍ﴾: فاعل ﴿يَخْفَىٰ﴾، و﴿من﴾: زائدة. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: صفة لـ﴿شَيْءٍ﴾، أو متعلق بـ﴿يَخْفَىٰ﴾. ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: معطوف على ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والجملة الفعلية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب إن قلنا: إنها من كلام الله؛ لاعتراضها بين كلامي إبراهيم، أو في محل النصب معطوفة على ما قبلها على كونها مقول ﴿قَالَ﴾ إن قلنا: إنها من كلام إبراهيم.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الجر صفة للجلالة. ﴿وَهَبَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿لِى﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَهَبَ﴾. ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾: جار ومجرور حال من ياء المتكلم، و﴿عَلَى﴾ بمعنى: مع، التقدير: وهب لي حالة كوني مصاحباً بالكبر. ﴿إِسْمَٰعِيلَ﴾: مفعول ﴿وَهَبَ﴾. ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾: معطوف عليه. ﴿إِنَّ رَبِّى﴾: ناصب واسمه. ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: خبره ومضاف إليه، واللام: حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾: ﴿ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: فعل ومفعولان ونون وقاية، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾: جار ومجرور صفة لمحذوف معطوف على المفعول الأول لجعل، والتقدير: رب اجعلني وبعضاً من ذريتي مقيم الصلاة. ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَتَقَبَّلْ﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿دُعَآءِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، والجملة الفعلية معطوفة على مقدر تقديره: ربنا فاسمع ندائي وتقبل دعائي، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱغْفِرْ﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿لِى﴾: متعلق بـ﴿ٱغْفِرْ﴾. ﴿وَلِوَٰلِدَىَّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على ﴿لِى﴾. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾: معطوف عليه أيضاً. ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿ٱغْفِرْ﴾. ﴿يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾؛ أي: الهلاك، يقال: رجل بائر وقوم بور، كما قال: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ ومنه قول الشاعر:

فَلَمْ أَرَ مِثْلَهُمْ أَبْطَالَ حَرْبٍ غَدَاةَ ٱلْحَرْبِ إِذْ خِيفَ ٱلْبَوَارُ

وفي «المصباح»: بار الشيء يبور بوراً - بالضم - هلك، وبار الشيء بواراً إذا كسد.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾؛ أي: يقاسون حرها، يقال: صلى النار صلياً قاسى حرها كتصلاها، والمرادَ بيصلونها: الدخول مع المقاساة لشدة حرها، وإلا فمطلق الدخول قد استفيد من قوله: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ﴾. وفي «المصباح»: صلى الله بالنار، وصليها، صلى - من باب تعب -: وجد حرها، والصِّلاء - وزان كتاب -: حر النار، وصليت اللحم أصليه - من باب رمى - إذا شويته. اهـ.

﴿أَندَادًا﴾ والأنداد: الشركاء جمع ند، وهو المثل الشبيه.

﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾؛ أي: مرجعكم ومردكم، والمصير: مصدر[1] صار التامة بمعنى: رجع. ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ اسما مصدر لأسر وأعلن الرباعيين.

﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾؛ أي: فدية. ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ الخلال: المخالة والصداقة، وفي «القرطبي» الخلال[2]: جمع خلة كقلة وقلال. قال الشاعر:

فَلَسْتُ بِمَقْلِيِّ ٱلْخِلاَلِ وَلاَ قَالِيْ

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ السماء: السحاب، وكل ما علا الإنسان فأظله فهو سماء، مشتق من السمو؛ وهو الارتفاع، وسمي السحاب سماء لارتفاعه.

﴿مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ﴾: جمع ثمر، والثمر: اسم يقع على ما يحصل من الشجر، وقد يقع على الزرع أيضاً بدليل قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾.

---

(١) روح البيان.	(٢) القرطبي.

﴿رِزْقًا﴾ والرزق: كل ما ينتفع به مأكولاً كان أو مشروباً أو غيرهما. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ التسخير: التيسير والإعداد، والفلك: السفن.

﴿دَآئِبَيْنِ﴾: الدأب: العادة المستمرة دائماً على حالة واحدة، ودأب في السير إذا داوم عليه، ودأب في العمل إذا سار فيه على عادة مطردة، كما قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾. وفي «المختار»: دأب في عمله جد وتعب، وبابه قطع وخضع فهو دائب بالألف لا غير، والدائبان: الليل والنهار، والدأب ـ بسكون الهمزة ـ العادة والشأن وقد يحرك. اهـ. وفي «القاموس»: دأب في عمله ـ كمنع ـ دأباً، ويحرك ودؤوباً بالضم جد وتعب. اهـ.

﴿وَءَاتَىٰكُم﴾: أعطاكم. ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾: لا تطيقوا إحصاءها وحصرها من أحصى الرباعي، والإحصاء: العد بالحصى، وكان العرب يعتمدونه في العد كاعتمادنا فيه على الأصابع.

﴿ظلوم﴾؛ أي: كثير الظلم لنفسه بإغفال شكر النعمة. ﴿كَفَّارٌ﴾؛ أي: شديد الكفران والجحود لها.

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ يقال: جنبته كنصرته وأجنبته وجنبته؛ أي: أبعدته، والمعنى: بعدني وإياهم. وفي «الفتوحات» يقال[1]: جنبه شراً وأجنبه إياه ثلاثياً ورباعياً: وهي لغة نجد، وجنَّبه إياه مشدداً: وهي لغة الحجاز وهو المنع، وأصله من الجانب، وأصل التجنب أن يكون الرجل في جانب غير ما عليه غيره، ثم استعمل في البعد مطلقاً. وقال الراغب: وقوله تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ من جنبته عن كذا؛ أي: أبعدته منه. وقيل: من جنبت الفرس كأنه سأله أن يبعده عن جانب الشرك بإلطاف منه وأسباب خفية، وأن نعبد على حذف حرف الجر؛ أي: عن أن نعبد. اهـ. «سمين». وفي «القاموس»: والجنب: محركة أن يجنب فرساً إلى فرسه في السباق، فإذا فاز المركوب تحول إلى المجنوب. اهـ.

وفي «المصباح»: وجنبت الرجل الشر جنوباً ـ من باب قعد ـ أبعدته عنه،

---

(١) الفتوحات.

وجنبته بالتثقيل مبالغة. اهـ. وفي «المختار»: وجنبه الشيء - من باب نصر - وجنبه الشيء تجنيباً بمعنى؛ أي: نحاه عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾. اهـ. ﴿وَبَنِيَّ﴾ أصله: وبنين لي، حذفت النون للإضافة واللام للتخفيف، فأدغمت يا علامة الإعراب في ياء المتكلم.

﴿بِوَادٍ﴾؛ أي: في وادٍ، والوادي: المنخفض بين الجبلين. ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾؛ أي: لا يصلح للإنبات؛ لأنه أرض حجرية لا تنبت شيئاً.

﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ الأفئدة[1]: جمع فؤاد، وهو القلب عبر به عن جميع البدن؛ لأنه أشرف عضو فيه، وقيل: هو جمع وفد، والأصل: أوفدة فقدمت الفاء وقلبت الواو ياء، فكأنه قال: واجعل وفوداً من الناس تهوي إليهم.

﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: تسرع شوقاً وحباً إليهم. قال الأصمعي: يقال[2]: هوى يهوي - من باب رمى - هوياً إذا سقط من عُلوٍ إلى سُفلٍ. وقال الفراء: تهوي إليهم تريدهم، كما تقول: رأيت فلاناً يهوي نحوك، معناه يريدك. وقال أيضاً: تهوي: تسرع إليهم. وقال ابن الأنباري: معناه: تنحط إليهم وتنحدر وتنزل، هذا قول أهل اللغة في هذا الحرف. وأما أقوال المفسرين فيه، فقد تقدمت في مبحث التفسير.

﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾؛ أي: إنك لكثير إجابة الدعاء لمن يدعوك، وإضافة[3] السميع إلى الدعاء من إضافة الصفة إلى مفعولها، وأصله: لسميعٌ الدعاء، وقد ذكر سيبويه فعيلاً في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل، كقولك: هذا رحيم أباه. وفي «البيضاوي»: وهو من أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل أضيف إلى مفعوله، أو فاعله على إسناد السماع إلى دعاء الله تعالى على المجاز، وهذا الأخير بعيدٌ جداً. قال أبو حيان: والظاهر[4] إضافة سميع إلى المفعول، وهو من إضافة المثال الذي على وزن فعيل إلى المفعول، فيكون إضافة من نصب، ويكون

---

(1) الشوكاني.
(2) الخازن.
(3) النسفي.
(4) البحر المحيط.

ذلك حجة على إعمال فعيل الذي للمبالغة في المفعول على ما ذهب إليه سيبويه. وقد خالف في ذلك جمهور البصريين، وخالف الكوفيون فيه، وفي إعمال باقي الخمسة الأمثلة فعول وفعال ومفعال وفعل، وهذا مذكور في علم النحو، ويمكن أن يقال في هذا: ليس ذلك إضافة من نصب، فيلزم جواز إعماله، بل هي إضافة كإضافة اسم الفاعل في نحو: هذا ضارب زيد أمس.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا﴾ فإنه تعجيب[1] لرسول الله ﷺ ولكل أحد مما صنع الكفرة من الأباطيل التي لا تكاد تصدر عمن له أدنى إدراك.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾؛ أي: شكر نعمة الله.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ﴾ لما فيه من الإسناد إلى السبب، لأنه أسند[2] الإحلال وهو فعل الله إلى أكابرهم؛ لأن سببه كفرهم وسبب كفرهم أمر أكابرهم إياهم بالكفر.

ومنها: الاستعارة التبعية في قوله: ﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾؛ لأنه ليس الإضلال غرضاً حقيقياً لهم من اتخاذ الأنداد، ولكن لما كان نتيجة له كما كان الإكرام في قولك: جئتك لتكرمني نتيجة المجيء، شبه بالغرض وأدخل اللام عليه بطريق الاستعارة التبعية، ونسب الإضلال الذي هو فعل الله تعالى إليهم؛ لأنهم سبب الضلالة حيث يأمرون بها ويدعون إليها.

ومنها: التهديد والوعيد لأولئك الضالين المضلين في قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾.

---

(١) أبو السعود. (٢) روح البيان.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ لأن الله سبحانه وتعالى شرف عباده بهذه الياء، وهي خير لهم من الدنيا وما فيها؛ لأن فيها إضافة إلى نفسه، والإضافة تدل على العتق.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾ في أربعة مواضع.

ومنها: الاستغراق المفاد من قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن المفرد المضاف يفيد الاستغراق.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾؛ لأن فعول وفعال من صيغ المبالغة.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾؛ أي: آمناً أهله؛ لأن إسناد الأمن إلى البلد مجاز لوقوع الأمن فيه، وإنما الآمن في الحقيقة أهل البلد.

ومنها: جمع الأصنام في قوله: ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ ليشتمل على كل صنم عبد من دون الله؛ لأن الجمع المعرف باللام يشمل كل واحد من الأفراد كالمفرد باتفاق جمهور أئمة التفسير والأصول والنحو.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا﴾؛ لأن[1] نسبة الإضلال إليها مجاز من باب نسبة الشيء إلى سببه. اهـ. «كرخي»؛ أي: فهذا مجاز؛ لأن الأصنام جمادات وحجارة لا تعقل شيئاً حتى تضل من عبدها إلا أنه لما حصل الضلال بعبادتها أضيف إليها، كما تقول: فتنتهم الدنيا وغرتهم، وإنما فتنوا وغروا بسببها. اهـ. «خازن».

ومنها: الطباق في قوله: ﴿تَبِعَنِى﴾ و﴿عَصَانِى﴾. وفي ﴿نُخْفِى﴾ و﴿نُعْلِنُ﴾. وفي ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿ٱلسَّمَآءِ﴾.

---

(١) الفتوحات.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿رَّبَّنَآ﴾ وفي قوله: ﴿رَبِّ﴾ لتأكيد الكلام.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾. قال[1] الشريف الرضي: وهذه من محاسن الاستعارة، وحقيقة الهوي: النزول من علو إلى انخفاض كالهبوط، والمراد: تسرع إليهم شوقاً، وتطير إليهم حباً، ولو قال: تحنّ إليهم. لم يكن فيه من الفائدة ما في التعبير بـ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾؛ لأن الحنين قد يكون من المقيم بالمكان.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾؛ أي: يوم[2] يثبت حساب المكلفين في المحشر، استعير له لفظ ﴿يَقُومُ﴾ الذي هو حقيقة في قيام الرجل، للدلالة على أنه في غاية الاستقامة، كما يقال: قامت الحرب على ساق.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ إن قلنا: إنه من كلام الله معترض بين كلامي إبراهيم؛ لأن حق العبارة حينئذٍ أن يقال: وما يخفى علي من شيء.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) تلخيص البيان.

(٢) الشوكاني.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أن جزاء من بدلوا نعمة الله كفراً، وجعلوا له الأنداد جهنم يصلونها وبئس المهاد، وطلب إلى عباده المؤمنين مجاهدة النفس والهوى وإقامة فرائض الدين.. ذكر هنا تسلية لرسوله وتهديداً للظالمين من أهل مكة أن تأخيرهم وتمتعهم بالحظوظ الدنيوية ليس بإهمال للعقوبة، ولا لغفلة عن حالهم، وإنما كان لحكمة اقتضت ذلك، وهم مرصدون ليوم شديد الهول له من الأوصاف ما بين بعد، وعليك أيها الرسول أن تنذر الناس بقرب حلوله، وأنهم في ذلك اليوم سيطلبون المرد إلى الدنيا ليجيبوا دعوة الداعي، وهيهات هيهات.

صَاحِ هَلْ رَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ بِرَاعِ رَدَّ فِيْ الضَّرْعِ مَا قَرَىٰ فِيْ الْحِلَابِ

وقد كان لكم معتبر في تلك المساكن التي تسكنونها، فإنها كانت لقوم أمثالكم كفروا بأنعم الله، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر. ألا إن وعد الله لرسله لا

يخلف وهو ناصرهم وخاذل أعدائه، كما قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾، وقال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ ومحاسبهم في يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، يوم يخرجون من قبورهم للحساب أمام الواحد القهار، وترى حال المجرمين يجل عن الوصف، وهذا الذي قصصته عليكم تبليغ وإنذار؛ ليتذكر به ذوو العقول الراجحة، وليعلموا أن الله واحد لا شريك له.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: ولا تظنن الله سبحانه وتعالى يا محمد أو أيها المخاطب ﴿غَٰفِلًا﴾؛ أي: ساهياً ﴿عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ من ظلمهم، فلا ينتقم منهم، والظالمون أهل مكة وغيرهم من كل أهل شرك وظلم، وهو خطاب لرسول الله ﷺ، **والمعنى**: دم على ما كنت عليه من عدم حسبانه تعالى غافلاً عن أعمالهم، ولا تحزن بتأخير ما يستحقونه من العذاب الأليم. ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ قرىء بفتح السين وكسرها قراءتان سبعيتان، وكذا يقال: في قوله الآتي: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾. ا هـ. شيخنا. والغفلة[1]: معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقائق الأمور. وقيل: حقيقة الغفلة سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ، وهذا في حق الله محال، فلا بدّ من تأويل الآية، فالمقصود منها أنه سبحانه وتعالى ينتقم من الظالم للمظلوم، ففيه وعيد وتهديد للظالم، وإعلام له بأن لا يعامله معاملة الغافل عنه، بل ينتقم ولا يتركه مغفلاً. قال سفيان بن عيينة: فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم.

فإن قلت: تعالى الله عن السهو والغفلة، فكيف يحسبه رسول الله ﷺ غافلاً وهو أعلم الناس به أنه لم يكن غافلاً حتى قيل له: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؟

قلتُ: إذا كان المخاطب به رسول الله ﷺ، ففيه وجهان:

أحدهما: التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً، فهو

---

(١) الخازن.

كقوله: ﴿فلا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله إلها آخر﴾ وكقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾؛ أي: اثبتوا على ما أنتم عليه من الإيمان.

الوجه الثاني: أن المراد بالنهي عن حسبانه غافلاً: الإعلام بأنه سبحانه وتعالى عالم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه شيء، وأنه ينتقم منهم فهو على سبيل الوعيد والتهديد لهم.

والمعنى: ولا تحسبنه معاملهم معاملة الغافل عنهم، ولكن يعاملهم معاملة الرقيب الحفيظ عليهم، والمحاسب لهم على الصغير والكبير، والنقير والقطمير. وفي الآية وعيد عظيم للظالمين وتسلية للمظلومين، وإن كان المخاطب غير النبي ﷺ فلا إشكال فيه ولا سؤال؛ لأن أكثر الناس غير عارفين بصفات الله، فمن جوز أن يحسبه غافلاً فلجهله بصفاته.

والخلاصة على الوجه الأول: ولا تحسبن الله يا محمد غافلاً عما يعمل الظالمون؛ أي[1]: تاركاً عقوبة المشركين بما عملوا، والمراد تثبته ﷺ على ما كان عليه من أنه ﷺ لا يحسب الله غافلاً، والمقصود: تنبيهه على أنه تعالى لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم.. للزم عليه تعالى أحد الأمور الثلاثة: إما أن يكون غافلاً عن ذلك الظالم، أو عاجزاً عن الانتقام، أو راضياً بذلك الظلم، وكل ذلك محال عليه تعالى، فامتنع أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم.

ثم أوعدهم حلول يوم يحاسبون فيه على أعمالهم، وفيه من الهول ما يحير اللب واللبيب، ويدهش العقل والعقيل، فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾؛ أي: إنما يمهلهم بلا عذاب الاستئصال، ويمتعهم بكثير من لذات الحياة، ولا يعجل عقوبتهم ﴿لِيَوْمٍ﴾؛ أي: إلى يوم شديد الهول ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ أي: ترتفع فيه أبصار أهل الموقف، وتبقى مفتوحة لا تطرف ولا تتحرك أجفانهم من الفزع والاضطراب والدهشة؛ أي: أعينهم مفتوحة لا تتحرك[2] أجفانهم من هول ما يرونه، يعني أن تأخيره للتشديد والتغليظ، لا للغفلة عن أعمالهم ولا لإهمالهم،

---

(١) المراح. (٢) روح البيان.

ومعنى شخوص البصر حدّة النظر، وعدم استقراره في مكانه، واللام في قوله: ﴿لِيَوۡمٍ﴾ تعليل للنهي؛ أي: لا يؤخر عذابهم إلا لأجل يوم هائل. وقيل: بمعنى إلى التي للغاية. وقرأ طلحة بن مصرف شذوذاً[1]: ﴿ولا تحسب﴾ بغير نون التوكيد، وكذا: ﴿فلا تحسب الله مخلف وعده رسله﴾. وقرأ عبد الرحمٰن السلمي والحسن والأعرج والمفضل عن عاصم وعباس بن الفضل وهارون العتكي ويونس بن حبيب عن أبي عمرو شذوذاً أيضاً: ﴿نؤخرهم﴾ بنون العظمة، والجمهور بالياء؛ أي: إنما يؤخرهم الله سبحانه وتعالى، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾، وقوله: ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ حال مقدرة من مفعول ﴿يُؤَخِّرُهُمۡ﴾؛ أي: يؤخرهم إلى يوم تشخص فيه الأبصار حالة كونهم مهطعين في ذلك اليوم؛ أي: مسرعين إلى الداعي وإجابته ومقبلين عليه بالخوف والذل والخضوع، كإسراع الأسير والخائف والداعي للخلائق هو إسرافيل حيث يدعو إلى الحشر. وعبارة المحلي في سورة ق: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ﴾ يا مخاطب ﴿يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ وهو إسرافيل ﴿مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ من السماء، وهو صخرة بيت المقدس أقرب موضع من الأرض إلى السماء يقول: أيتها العظام البالية والأوصال المنقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة: إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. ا هـ. وحالة كونهم ﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾؛ أي: رافعيها إلى السماء مع إدامة النظر إليها من غير التفات إلى شيء ولا ينظر أحد إلى أحد ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾؛ أي: لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم، كما كانوا يفعلون في الدنيا في كل لحظة، بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تطرف؛ أي: لا تضم من شدة الفزع والخوف. وقال في «الكواشي»: أصل الطرف تحريك الجفون في النظر، ثم سميت العين طرفاً مجازاً.

والمعنى: أنهم لا يلتفتون ولا ينظرون مواقع أقدامهم لما بهم من الدهشة انتهى. ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ﴾؛ أي: قلوبهم ﴿هَوَآءٞ﴾؛ أي: صفر خالية من العقل والفهم؛ لفرط الحيرة والدهش، كأنها نفس الهواء الخالي عن كل شاغل، والهواء[2]: الخلاء الذي لم تشغله الأجرام، فوصف به، فقيل: قلب فلان هواء إذا كان جباناً

---

(١) البحر المحيط. (٢) النسفي.

لا قوة في قلبه ولا جراءة. وقيل: جوف لا عقول لهم.

ومعنى الآية[1]: إن أفئدتهم خالية فارغة لا تعي شيئاً ولا تعقل من شدة الخوف. وفي «الكواشي»: تلخيصه: الأبصار شاخصة، والرؤوس مقنعة، والقلوب فارغة زائلة لهول ذلك اليوم، ثبتنا الله وإياكم فيه، والآية تسلية لرسول الله ﷺ، وتعزية للمظلوم، وتهديد للظالم، وحصول هذه الصفات الخمسة عند المحاسبة.

ثم ذكر مقالتهم حين يرون هذا الهول وما فيه من العذاب، فقال: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: خوف الناس جميعاً يا محمد ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ أي: خوفهم من عذاب يوم يأتيهم العذاب؛ أي: خوفهم هذا اليوم، وهو يوم القيامة؛ لأنه يوم إتيان العذاب، وإنما[2] اقتصر على ذكر إتيان العذاب فيه مع كونه يوم إتيان الثواب؛ لأن المقام مقام تهديد. وقيل: المراد به يوم موتهم، فإنه أول أوقات إتيان العذاب حيث يعذبون بالسكرات. وقيل: المراد يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، والأول أولى، وهذا الإنذار للكفرة أصالة، وللمؤمنين تبعية، وإن لم يكونوا معذبين، وانتصاب ﴿يَوْمَ﴾ على أنه مفعول ثان لـ﴿وَأَنذِرِ﴾. ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ منهم بالشرك والتكذيب. قيل: المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ هنا هم الناس المذكورون؛ أي: فيقولون، والعدول من الإضمار إلى الإظهار للإشعار بأن الظلم هو العلة فيما نزل بهم، هذا إذا كان المراد بالناس هم الكفار، وعلى تقدير كون المراد بهم من يعم المسلمين، فالمعنى: فيقول الذين ظلموا منهم؛ وهم الكفار. ﴿رَبَّنَآ﴾ ويا مالك أمرنا ردنا إلى الدنيا و﴿أَخِّرْنَآ﴾؛ أي: أمهلنا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: إلى أمد من الزمان معلوم غير بعيد. قال بعضهم: لعل في التركيب تضميناً كما أشرنا إليه، والتقدير: ردنا إلى ذي أجل قريب؛ أي: قليل وهو الدنيا مؤخّراً عذابنا، أو المعنى: أخر آجالنا وأبقنا مقدار ما نؤمن بك ونجيب دعوتك. وقوله: ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ جواب الأمر؛ أي: إن أخرتنا نجب دعوتك لعبادك على ألسنة رسلك إلى توحيدك وطاعتك. ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ المرسلين منك إلينا، فنعمل بما بلغوه إلينا من شرائعك، ونتدارك ما فرط منا من الإهمال، وإنما جمع الرسل؛

---

(١) الخازن. (٢) الشوكاني.

لأن دعوتهم إلى التوحيد متفقة، فاتباع واحد منهم اتباع لجميعهم، وهذا منهم سؤال للرجوع إلى الدنيا لما ظهر لهم الحق في الآخرة: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾.

ثم حكى سبحانه ما يجاب به عنهم عندما قالوا هذه المقالة، فقال: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾، فالهمزة فيه للاستفهام التقريري التوبيخي التبكيتي داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، ويكون ذلك المحذوف على ما عطف عليه مقولاً لقول محذوف، والتقدير: فيقال[1] لهم توبيخاً وتبكيتاً: ألم تؤخروا في الدنيا، ولم تكونوا أقسمتم من قبل؛ أي: من قبل هذا اليوم؛ أي: حلفتم إذ ذاك بألسنتكم تكبراً وغروراً ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾؛ أي: ما لكم انتقال من دار الدنيا وارتحال منها إلى دار أخرى للمجازاة إنكاراً للبعث والنشور، أو بألسنة حالكم حيث استغرقتم في الشهوات وأخلدتم إلى الحياة الدنيا، وأملتم بعيداً ولم تحدثوا بأنفسكم بالانتقال عن هذه الحال، فكأنكم لا تموتمون. وجواب القسم جملة قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ وإنما[2] جاء بلفظ الخطاب في قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ لمراعاة ﴿أَقْسَمْتُم﴾، ولولا ذلك لقال: ما لنا من زوال. وقيل: قسمهم هذا هو ما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾.

وجملة قوله: ﴿وَسَكَنتُمْ...﴾ إلخ. معطوف على ﴿أَقْسَمْتُم﴾؛ أي: أولم تكونوا أقسمتم وسكنتم؛ أي: استقررتم ونزلتم ﴿فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ﴾؛ أي: منازل الذين ﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالشرك والمعاصي، كعاد وثمود وغيرهما غير محدثين لأنفسكم بما لقوا من العذاب بسبب ما اكتسبوا من السيئات ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾؛ أي: وظهر لكم بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من الإهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد. وفاعل ﴿تبيَّن﴾ ما دلت عليه الجملة

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

المذكورة بعده؛ أي: تبين لكم فعلنا العجيب بهم، وليست[1] جملة ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا﴾ فاعلاً لـ﴿تبين﴾؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام، ولأن ﴿كَيْفَ﴾ لا يكون إلا ظرفاً أو خبراً أو حالاً، بل فاعله ما دلت هي عليه دلالة واضحة؛ أي: وظهر لكم فعلنا العجيب بهم من الإهلاك والعقوبة جزاء على شركهم وفسادهم. ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ﴾؛ أي: وبينا لكم في القرآن العظيم ﴿الْأَمْثَالَ﴾؛ أي: صفات ما فعلوا وما فعل بهم من الأمور التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم لتعتبروا بها، وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم، ومآلكم على مآلهم، وتنتقلوا من حلول العذاب العاجل إلى حلول العذاب الآجل، فترتدعوا عما كنتم عليه من الكفر والمعاصي يعني: أنكم سمعتم هذا كله في الدنيا، فلم تعتبروا، فلو رجعتم بعد هذا اليوم.. لا ينفعكم الموعظة أيضاً.

والمعنى[2]: وأقمتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم واطمأننتم فيها، وسرتم سيرة من قبلكم في الظلم والفساد، لم تفكروا فيما سمعتم من أخبار من سكنوها قبلكم، ولم تعتبروا بأيام الله فيهم، وأنه أهلكهم بظلمهم، وأنكم إن سرتم سيرتهم حاق بكم مثل ما حاق بهم بعد أن تبين لكم ما فعلنا بهم من الإهلاك والعقوبة بمعاينة آثارهم وتواتر أخبارهم، ومثلنا لكم فيما كنتم مقيمين عليه من الشرك الأشباه والنظائر، فلم ترعووا ولم تتوبوا من كفركم.

الآن تسألون التأخير للتوبة حين نزل بكم من العذاب ما نزل، فهيهات هيهات قد فات ما فات، ولن يكون ذلك حتى يلج الجمل في سم الخياط. وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَتَبَيَّنَ﴾ فعلاً ماضياً، وفاعله ضمير يعود على ما يفهم من الجملة الاستفهامية المذكورة بعده؛ أي: وتبين لكم فعلنا العجيب. وقرأ السلمي شذوذاً: ﴿ونُبَيِّنُ﴾ بضم النون ورفع النون الأخيرة مضارع بين، ويكون على إضمار ونحن نبين، والجملة حالية. وقال المهدوي عن السلمي أنه قرأ كذلك إلا أنه جزم النون عطفاً على ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا﴾؛ أي: ولم نبين فهو مشارك له في التقرير.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) البحر المحيط.

فائدة: واعلم أنه ينبغي للمؤمن أن يكثر ذكر الموت، فإنه لا غنية للمؤمن عن ست خصال[1]:

أولاها: علم يدله على الآخرة.

والثانية: رفيق يعينه على طاعة الله، ويمنعه عن معصية الله.

والثالثة: معرفة عدوه والحذر منه.

والرابعة: عبرة يعتبر بها.

والخامسة: إنصاف الخلق؛ لكيلا تكون له يوم القيامة خصماء.

والسادسة: الاستعداد للموت قبل نزوله؛ لكيلا يكون مفتضحاً يوم القيامة.

ثم بين أن حالهم كحال من سبقهم حذو القذة بالقذة، فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ الجملة في محل النصب على الحال؛ أي: فعلنا بالذين ظلموا ما فعلنا، والحال أنهم قد مكروا في إبطال الحق وتقرير الباطل مكرهم العظيم الذي استفرغوا في عمله المجهود وجاوزوا فيه كل حدّ محدود بحيث لا يقدر عليهم غيرهم، والمكر: الخديعة. ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾؛ أي: وعند[2] الله جزاء مكرهم الذي فعلوه، أو: وعند الله مكتوب مكرهم، فهو مجازيهم، أو عند الله مكرهم الذين يمكرهم به على أن يكون المكر مضافاً إلى المفعول. قيل: المراد بهم قوم محمد ﷺ مكروا بالنبي ﷺ حين هموا بقتله أو نفيه. وقيل: والمراد ما وقع من النمروذ حيث حاول الصعود إلى السماء، فاتخذ لنفسه تابوتاً، وربط قوائمه بأربعة نسور.

والخلاصة[3]: عند الله جزاؤهم وما هو أعظم منه فرأيهم آفن؛ إذ هم سلكوا طريقاً كان ينبغي البعد عنها بعد أن استبان فسادها.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

ثم ذكر أن عاقبة مكرهم الخسران والبوار، فقال: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ ﴿إن﴾: نافية ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ واللام: فيه مكسورة، والفعل بعدها منصوب بأن مضمرة، وهي لام الجحود الواقعة بعد الكون المنفي على قراءة الجمهور. قال ابن جرير: الاختيار قراءة الجمهور؛ أي: وما[1] كان مكرهم لتزول به آيات الله وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدي الرسل التي هي كالجبال في الرسوخ والثبات.

والخلاصة: تحقير شأن مكرهم، وأنه ما كان لتزول منه الآيات والنبوات الثابتة ثبوت الجبال، فليس بمزيل شيئاً منها مهما قوي، وكان غاية في المتانة والعظم. وقيل: ﴿إنّ﴾. ﴿إن﴾ زائدة، واللام: لام الابتداء مفتوحة، والفعل بعدها مرفوع.

والمعنى[2]: وكان مكرهم في العظم والشدة لتزول وتتحرك منه الجبال الظاهرة؛ أي: مسوى لإزالة الجبال عن مقارها معداً لذلك. قال في «الإرشاد»؛ أي: وإن كان مكرهم في غاية المتانة والشدة، وعبر عن ذلك بكونه مسوى ومعداً لذلك؛ لكونه مثلاً في ذلك. وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَإِن كَانَ﴾ بالنون. وقرأ عمر وعلي وعبد الله وأبيّ وأبو سلمة بن عبد الرحمٰن وأبو إسحاق السبيعي وزيد بن علي شذوذاً: ﴿وإن كاد﴾ بالدال بدل النون ﴿لَتَزُولَ﴾ بفتح اللام الأولى ورفع الثانية. وروي كذلك عن ابن عباس. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن وثاب والكسائي كذلك إلا أنهم قرؤوا ﴿وَإِن كَانَ﴾ بالنون فعلى هاتين القراءتين تكون إن هي المخففة من الثقيلة، و(اللام): هي الفارقة، وذلك على مذهب البصريين. وأما على مذهب الكوفيين فـ﴿إن﴾ نافية، واللام بمعنى إلا، فمن قرأ: ﴿كاد﴾ - بالدال - فالمعنى أنه يقرب زوال الجبال بمكرهم ولا يقع الزوال. وعلى قراءة ﴿كَانَ﴾ - بالنون - يكون زوال الجبال قد وقع، ويكون في ذلك تعظيم مكرهم وشدته، وهو بحيث يزول منه الجبال وتتقطع عن أماكنها، ويحتمل أن يكون معنى ﴿لَتَزُولَ﴾: ليقرب زوالها، فيصير المعنى، كمعنى قراءة كاد، ويؤيد هذا التأويل

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

ما ذكره أبو حاتم من أن في قراءة أبيّ: ﴿ولولا كلمة الله لزال من مكرهم الجبال﴾. وينبغي أن تحمل هذه القراءة على التفسير لمخالفتها لسواد المصحف المجمع عليه. وقرأ الجمهور باقي السبعة: ﴿وَإِن كَانَ﴾ بالنون، ﴿مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ﴾ ـ بكسر اللام الأولى ونصب الأخيرة ـ. ورويت هذه القراءة عن علي أيضاً، وعلى هذه القراءة تكون ﴿إن﴾ نافية و(اللام): المكسورة؛ لتأكيد النفي، والمعنى: ومحال[1] أن تزول الجبال بمكرهم على أن الجبال مثل لآيات الله وشرائعه الثابتة على حالها مدى الدهر. فالجملة على هذا المعنى حال من الضمير في ﴿مَكَرُوا۟﴾ لا من قوله: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾؛ أي: مكروا، والحال أن مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال. وأما على[2] قراءة الكسائي ومن معه: ﴿لتَزول﴾ ـ بفتح اللام الفارقة ورفع الفعل ـ فالجملة حينئذ حال من قوله: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾؛ أي: وعند الله المكر بهم، والحال أن مكرهم في غاية القوة بحيث تزول منه الجبال.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ يا محمد ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ بتعذيب الظالمين ونصر المؤمنين؛ أي: ما وعدهم سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾. وأصله[3]: مخلف رسله وعده، وقدم المفعول الثاني إعلاماً بأن لا يخلف وعده أحداً، فكيف يخلف رسله الذين هم خيرته وصفوته من خلقه، والوعد: عبارة عن الإخبار بإيصال المنفعة قبل وقوعها، والمعنى: دم على ما كنت عليه من اليقين بعدم إخلافنا رسلنا وعدنا. وهذه الجملة تفريع[4] على قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فكأنه قيل: وإذ قد وعدناك بعذاب الظالمين يوم القيامة وأخبرناك بما يلقونه من الشدائد وبما يسألونه من الرد إلى الدنيا، وبما أجبناهم به وقرعناهم بعدم تأملهم في أحوال من سبقهم من الأمم الذين أهلكناهم بظلمهم بعدما وعدنا رسلهم بإهلاكهم، فدم على ما كنت عليه من اليقين بعدم إخلافنا رسلنا وعدنا: فـ﴿مُخْلِفَ﴾: إما متعد لاثنين

---

(1) الشوكاني.

(2) المراح.

(3) روح البيان.

(4) المراح.

مضاف لمفعوله الثاني؛ وإما متعد لواحد مضاف لمفعوله، و﴿رُسُلَهُۥٓ﴾ مفعول لـ﴿وَعۡدِهِۦ﴾.

وقرىء شاذاً[1]: ﴿مخلف وعدَه رسلِه﴾ بجر رسله ونصب وعده. قال الزمخشري: وهذه القراءة في الضعف كقراءة من قرأ: ﴿قتل أولادهم شركائهم﴾ لما فيها من الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول، وتقدم الكلام عليها مشبعاً في سورة الأنعام. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزٞ﴾؛ أي: غالب لا يماكر ولا يغالبه أحد ﴿ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ ينتقم لأوليائه من أعدائه، وفي «القاموس»: انتقم منه إذا عاقبه، والجملة تعليل للنهي.

والمعنى[2]: أن الله سبحانه وتعالى عزيز؛ أي: غالب على أمره لا يمتنع منه من أراد عقوبته قادر على كل من طلبه لا يفوته بالهرب منه، وهو ذو انتقام ممن كفر برسله وكذبهم وجحد بنبوتهم وأشرك به، واتخذ معه إلٰهاً غيره، ثم ذكر زمان الانتقام، فقال: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾؛ أي: إنه تعالى ذو انتقام من أعدائه، يوم تبدل الأرض غير الأرض بأن تتطاير هذه الأرض كالهباء وتصير كالدخان المنتشر، ثم ترجع أرضاً أخرى بعد ذلك، وتبدل السماوات غير السماوات بانتشار كواكبها وانفطارها، وتكوير شمسها وخسوف قمرها، ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ معطوف على ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾، وإنما قدم تبديل الأرض لقربها هنا، ولكون تبديلها أعظم أثراً بالنسبة إلينا اهـ «كرخي». وقرىء شاذاً: ﴿نبدل﴾ بالنون، ﴿الأرض﴾ بالنصب، ﴿والسماوات﴾ معطوف على الأرض. وعلى هذا التفسير فالظرف متعلق بـ﴿ٱنتِقَامٖ﴾، ويحتمل أن يكون متعلقاً باذكر محذوفاً؛ أي: واذكر يا محمد ﷺ لأمتك قصة يوم تبدل هذه الأرض المعروفة أرضاً أخرى غير معروفة، وتبدل السماوات غير السماوات، ويكون الحشر وقت التبديل عند الظلمة دون الجسر، أو يكون الناس على صراط.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

روى مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ فقال: «على الصراط».

وروي عن ابن مسعود وأنس ـ رضي الله عنهما ـ من قولهما: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطىء عليها أحد خطيئة، ولا بدع في أن تكون أرضاً جديدة لم يسكنها أحد، بل تخلق خلقاً جديداً.

وفي «الخازن»: ذكر المفسرون في معنى هذا التبديل قولين[1]:

أحدهما: أنه تبدل صفة الأرض والسماء، لا ذواتهما. فأما تبديل الأرض فبتغيير صفتها وهيئتها مع بقاء ذاتها: وهو أن تدكدك جبالها وتسوى وهادها وأوديتها، وتذهب أشجارها وجميع ما عليها من عمارة وغيرها لا يبقى على وجهها شيء إلا ذهب وتمد مد الأديم. وأما تبديل السماء فهو أن تنتثر كواكبها وتطمس شمسها وقمرها، ويكوران، وكونها تارة كالدهان وتارة كالمهل، وبهذا القول قال جماعة من العلماء، ويدل على صحة هذا القول ما روي عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس بها علم لأحد». أخرجاه في «الصحيحين». العفراء ـ بالعين المهملة ـ البيضاء إلى حمرة. ولهذا شبهها بقرصة النقي وهو الخبز الجيد البياض الفائق المائل إلى حمرة، كأن النار ميلت بياض وجهها إلى الحمرة. وقوله: ليس بها علم لأحد يعني: ليس فيها علامة لأحد بتبديل هيئتها وزوال جبالها وجميع بنائها، فلا يبقى فيها أثر يستدل به.

والقول الثاني: هو تبديل ذوات الأرض والسماء، وهذا قول جماعة من العلماء، ثم اختلفوا في معنى هذا التبديل. فقال ابن مسعود في معنى هذه الآية قال: تبدل الأرض بأرض كالفضة بيضاء نقية، لم يسفك بها دم، ولم يعمل عليها خطيئة. وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: الأرض من فضة والسماء من ذهب.

---

(١) الخازن.

وقال أبي بن كعب في معنى التبديل بأن تصير الأرض نيراناً والسماء جنانا. وقال أبو هريرة وسعد بن جبير ومحمد بن كعب القرظي تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل من تحت قدميه. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار سبحانه بيده، كما يتكفؤ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة». أخرجاه في «الصحيحين» بزيادة فيه.

فإن قلت: إذا فسرت التبديل بما ذكرت، فكيف يمكن الجمع بينه وبين قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ وهو أن تحدث بكل ما عمل عليها؟

قلتُ: وجه الجمع بين الآيتين أن الأرض تبدل أولاً صفتها مع بقاء ذاتها، كما تقدم فيومئذ تحدث أخبارها، ثم بعد ذلك تبدل تبديلاً ثانياً، وهو أن تبدل ذاتها بغيرها، كما تقدم أيضاً، ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ فقال: «على الصراط». أخرجه مسلم. وروى ثوبان أن حبراً من اليهود سأل رسول الله ﷺ: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؟ قال: «هم في الظلمة دون الجسر» ذكره البغوي بغير سند. ففي هذين الحديثين دليل على أن تبديل الأرض ثاني مرة يكون بعد الحساب، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه انتهى.

وقوله: ﴿وَبَرَزُوا﴾ معطوف على ﴿تُبَدَّلُ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لأمتك قصة يوم برز الخلائق وخرجوا جميعاً من قبورهم ﴿لِلَّهِ﴾؛ أي: لحكم الله تعالى وقضائه، والوقوف بين يديه للحساب؛ أي: خرجوا من قبورهم للقاء الله. ﴿الْوَاحِدِ﴾ الذي لا ثاني له ولا شريك معه المنزه عن الشبه والضد والند. ﴿الْقَهَّارِ﴾؛ أي: الغالب الذي يقهر عباده على ما يريد ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وقرأ زيد بن علي شذوذاً: ﴿وبُرِّزوا﴾ - بضم الباء وكسر الراء مشددة - جعله مبنياً للمفعول على سبيل التكثير بالنسبة إلى العالم وكثرتهم لا بالنسبة إلى تكرير الفعل. ذكره في «البحر».

وعبر[1] عن المستقبل بلفظ الماضي للتنبيه على تحقق وقوعه، كما في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ وفي[2] هذا من تهويل الخطب ما لا يخفى؛ لأنهم إذا وقفوا عند ملك عظيم قهار لا يشاركه سواه في سلطانه كانوا على خطر، إذ لا منازع له ولا مغيث سواه، وتوصيفه بالوصفين للدلالة على أن الأمر في غاية الصعوبة، كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ فإن الأمر إذا كان لواحد غلاب لا يغالب، فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار. وبعد أن وصف سبحانه نفسه بكونه قهاراً بين عجز المجرمين وذلتهم، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: وتبصر يا محمد ﷺ، أو أيها المخاطب الكافرين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ برزوا لله الواحد القهار حالة كونهم ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾؛ أي: مشدودين في الأغلال والقيود؛ أي: حالة كون بعضهم يقرن مع بعض في الأصفاد بحسب مشاركتهم في العقائد الفاسدة، أو قرنوا مع الشياطين الذين أغووهم، أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال والأصفاد ـ جمع صفد ـ القيود والأغلال، والجار والمجرور متعلق بـ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾، أو حال من ضميره.

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ جمع سربال؛ أي: قمصانهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ تطلى به جلودهم حتى يعود ذلك الطلاء كالسرابيل، وخصّ القطران لسرعة اشتعال النار فيه مع نتن رائحته. والقطران[3]: هو عصارة الأبهل والأرز ونحوهما. وقال بعضهم: هو ما يتحلب من الأبهل، فيطبخ فتهناء به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحدته، وقد تصل حرارته إلى الجوف، وهو أسود منتن يسرع فيه اشتعال النار يطلى به جلود أهل النار، يعود طلاؤه لهم كالسرابيل، ليجتمع عليهم الألوان الأربعة من العذاب: لذع القطران وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الموحش، ونتن الريح على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ أي: تعلو وجوههم وتضربها النار وتحيط بها، وخصّ الوجوه[4] بالذكر مع أن ذلك يكون لسائر الجسم لأنها أشرف ما في البدن وفيها الحواس المدركة

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

(٤) روح البيان.

فهم لم يتوجهوا بها إلى الحق ولم يستعملوا في تدبره مشاعرهم وحواسهم التي خلقت فيها لأجله كما تطلع على أفئدتهم لأنها فارغة عن المعرفة مملوءة بالجهالات والجملة في محل نصب على الحال أيضاً.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: يفعل ذلك بهم ليجزي سبحانه وتعالى ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ مجرمة جزاء ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي جزاء موافقاً لعملها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فيتمه في أعجل ما يكون من الزمان. قيل: يحاسب جميع الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك، فلا يشغله حساب عن حساب، فيوفى الجزاء بحسبه، ولا يظلمهم ولا يزيدهم على عقابهم الذي يستحقونه. وقرأ[1] علي وأبو هريرة وابن عباس وعكرمة وابن جبير وابن سيرين والحسن بخلاف عنه وسنان بن سلمة بن المحنق وزيد بن علي وقتادة وأبو صالح والكلبي وعيسى الهمذاني وعمرو بن فائد وعمرو بن عبيد ﴿من قَطِرٍ﴾ بفتح القاف وكسر الطاء وتنوين الراء ﴿آن﴾ بوزن عان، وهي قراءة شاذة وليست متواترة، وجعلوا كلمتين، والقطر: النحاس، والآني: اسن فاعل من أنى يأنى؛ أي: تناهى في الحرارة كقوله: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾. وقرأ عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب: ﴿من قَطْران﴾ ـ بفتح القاف وإسكان الطاء ـ بزنة سكران وهي قراءة شاذة أيضاً. وقرأ الجمهور: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ﴾ بالنصب وقرىء بالرفع، فالأول على نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ فهو على حقيقة الغشيان، والثانية على التجوز جعل ورود الوجه على النار غشياناً. وقرىء: ﴿وتغشى وجوههم﴾ بمعنى تتغشى.

﴿هَٰذَا﴾ القرآن الذي أنزل إليك يا محمد ﷺ ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: مبلغ[2] للناس إلى مراتب السعادة، وموصل لهم إليها، فهو مصدر بمعنى اسم الفاعل. وقيل: المعنى ﴿هَٰذَا﴾ القرآن الذي أنزل إليك يا محمد بما فيه من فنون العظات والقوارع ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: كفاية لهم في الموعظة والتذكير. قال في

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الفتوحات.

«القاموس»: البلاغ: كسحاب الكفاية. وقوله: ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ﴾: معطوف على محذوف مع متعلقه تقديره: أنزل إليك ليبلغهم إلى ما فيه صلاحهم ورشادهم، ولينذروا به؛ أي: وليخوفوا بالقرآن ومواعظه وزواجره عما فيه هلاكهم وشقاؤهم ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا﴾ بما فيه من الحجج والبراهين ﴿إِنَّمَا هُوَ﴾؛ أي: الله سبحانه وتعالى ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ أي: معبود منفرد في ذاته وصفاته وأفعاله لا شريك له، فيعبدوه ولا يعبدوا إلٰهاً غيره من الدنيا والهوى والشيطان وما يعبدون من دون الله؛ أي: وليعلموا بما فيه ويستدلوا على وحدانية الله تعالى ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: وليتعظ بهذا القرآن وما فيه من المواعظ أصحاب العقول الكاملة، والأفهام الثاقبة، والعقائد الصحيحة، فهو عظة لمن اتعظ وعبرة لمن اعتبر. وقيل[1]: هذه اللامات متعلقة بـ﴿بَلَٰغٌ﴾؛ أي: هذا القرآن بلاغ للناس؛ أي: كفاية لهم في أن ينصحوا وينذروا ويعلموا بما أقام الله تعالى فيه من الحجج والبراهين ووحدانيته سبحانه وتعالى، وأنه لا شريك له، وليتعظ به أصحاب العقول التي تعقل وتدرك، وأسند التذكر والاتعاظ إلى من له لب؛ لأنهم هم الذين يجدي فيهم التذكر.

واعلم: أنه[2] سبحانه وتعالى ذكر لهذا البلاغ ثلاث فوائد هي: الغاية والحكمة في إنزال الكتب، وتكميل الرسل للناس واستكمالهم القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد، واستصلاح القوة العملية الذي هو التدرع بلباس التقوى. وقرأ[3] مجاهد وحميد شذوذاً: ﴿ولتنذروا به﴾ بتاء مضمومة وكسر الذال كأن البلاغ لعموم المخاطبين. وقرأ يحيى بن عمارة الذراع عن أبيه وأحمد بن يزيد بن أسيد السلمي: ﴿ولينذروا﴾ بفتح الياء والذال مضارع نذر بالشيء إذا علم به، فاستعد له قالوا: ولم يعرف لهذا الفعل مصدر، فهو مثل عسى وغيره مما استعمل من الأفعال، ولم يعرف له أصل.

وناسب مختتم هذه السورة مفتتحها[4]، وكثيراً ما جاء في سور القرآن حتى إن بعضهم زعم أن قوله: ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾.

---

(١) الشوكاني.
(٢) البيضاوي.
(٣) البحر المحيط.
(٤) البحر المحيط.

وجملة ما هذه السورة من الموضوعات ثمانية:

١ ـ هداية الناس إلى معرفة ربهم الخالق للسماوات والأرض.

٢ ـ ذم الكافرين الذين يستحبون الحياة الدنيا، ويصدون عن الدين القويم.

٣ ـ بيان أن الرسل إنما يرسلون بلغات أقوامهم؛ ليسهل عليهم فهم الأوامر والنواهي.

٤ ـ التذكير بأيام الله تعالى ببيان ما حدث للرسل مع أقوامهم؛ ليكون في ذلك تسلية لرسوله وما هدد به الأمم رسلهم من الإخراج والنفي من الديار.

٥ ـ وعيد الكافرين على كفرهم، وذكر ما يلقونه من العذاب، وضرب الأمثلة لذلك.

٦ ـ وعد المؤمنين بجنات تجري من تحتها الأنهار، وضرب المثل لذلك.

٧ ـ دعوة إبراهيم ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام التي أضلت كثيراً من الناس، ثم شكره على ما وهبه من الأولاد على كبر سنه، ثم طلبه المغفرة منه له ولوالديه وللمؤمنين يوم العرض والحساب.

٨ ـ بيان أن تأخير العذاب عن المجرمين ليوم معلوم إنما كان لحكمة اقتضت ذلك، وحينئذ يرون من الذلة والصغار وسوء العذاب ما يجل عنه الوصف.

الإعراب

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ (الواو): استئنافية. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾: فعل ومفعولان في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿غَٰفِلًا﴾. ﴿يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: عما يعمله. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة

مستأنفة لتعليل ما قبلها. ﴿لِيَوْمٍ﴾ متعلق بـ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾. ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾: فعل وفاعل فيه متعلق بـ﴿تَشْخَصُ﴾، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿يوم﴾، ولكنها صفة سببية.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣)﴾.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: حالان من المضاف المحذوف؛ إذ التقدير: أصحاب الأبصار، أو تكون[1] الأبصار دلت على أربابها، فجاءت الحال من المدلول عليه، ويجوز أن يكونا مفعولين لفعل محذوف تقديره: تراهم مهطعين مقنعي رؤوسهم، والإضافة في قوله: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ غير محضة؛ لأنه مستقبل أو حال. ﴿لَا يَرْتَدُّ﴾: فعل مضارع. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق به. ﴿طَرْفُهُمْ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الضمير في ﴿مُقْنِعِي﴾، أو بدل من ﴿مُقْنِعِي﴾، أو مستأنفة. ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿إِلَيْهِمْ﴾، والعامل فيه[2] إما ﴿يَرْتَدُّ﴾، وإما ما قبله من العوامل، وأفرد ﴿هَوَاءٌ﴾ وإن كان خبراً عن جمع؛ لأنه في معنى فارغة، ولو لم يقصد ذلك.. لقيل: أهوية؛ ليطابق الخبر مبتدأه. اهـ. «سمين». ومعنى الآية: أفئدتهم خالية فارغة لا تعي شيئاً، ولا تعقل من شدة الخوف.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾ فـ﴿يَوْمَ﴾ مفعول ثان لـ﴿وَأَنْذِرِ﴾، ولكنه على حذف مضاف؛ أي: أهوال يوم وشدائده، فهو مفعول به لا مفعول فيه؛ إذ لا إنذار في ذلك اليوم وإنما الإنذار يقع في الدنيا اهـ شيخنا. ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر معطوفة على ﴿يَأْتِيهِمُ﴾. ﴿ظَلَمُوا﴾: فعل وفاعل صلة

---

(١) العكبري. (٢) الفتوحات.

الموصول. ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ﴾ إلى قوله: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول على كونه جواب النداء. ﴿أَخِّرۡنَآ﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَخِّرۡنَآ﴾. ﴿قَرِيبٖ﴾: صفة ﴿أَجَلٖ﴾. ﴿نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ﴾: فعل ومفعول مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على الظالمين. ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿نُّجِبۡ﴾، وفاعله ضمير يعود على الظالمين.

﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾.

﴿أَوَلَمۡ﴾ (الهمزة): للاستفهام التقريري داخلة على محذوف، و(الواو): عاطفة على ذلك المحذوف، ويكون ذلك المحذوف مع ما عطف عليه مقولاً لقول محذوف، فيقال لهم: ألم تؤخروا في الدنيا ولم تكونوا أقسمتم؟ ﴿لم تكونوا﴾: فعل ناقص واسمه مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿أَقۡسَمۡتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿مِّن قَبۡلُ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿تكون﴾، وجملة ﴿تكون﴾ في محل النصب معطوفة على ذلك المحذوف على كونها مقولاً للقول المحذوف، وجملة القول المحذوف مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿مَا﴾: نافية حجازية، أو تميمية. ﴿لَكُم﴾: خبرها، أو خبر المبتدأ مقدم. ﴿مِّن﴾: زائدة. ﴿زَوَالٖ﴾: اسمها مؤخر، أو مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها من الإعراب.

﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَسَكَنتُمۡ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَقۡسَمۡتُم﴾. ﴿فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿سكنتم﴾. ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول صلة الموصول. ﴿وَتَبَيَّنَ﴾: فعل ماض، وفاعله محذوف معلوم مما بعده تقديره: فعلنا بهم، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَقۡسَمۡتُم﴾، ولا يصح[1]

(١) الفتوحات.

أن يكون ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا﴾ فاعلاً لـ﴿تبين﴾؛ لأن الاستفهام له الصدارة، وقال بعض الكوفيين: إن جملة ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ هو الفاعل وهم يجيزون أن تكون الجملة فاعلاً. ﴿لَكُمُ﴾ متعلقان به ﴿كَيْفَ﴾: اسم ستفهام تعجيب في محل النصب على التشبيه بالمفعول به لـ﴿فَعَلْنَا﴾ مبني على الفتح. ﴿فَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِمْ﴾: متعلق به، والجملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَضَرَبْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق به. ﴿الْأَمْثَالَ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَقَدْ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿وَعِندَ اللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿مَكْرُهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿مَكَرُوا﴾. ﴿وَإِن﴾ (الواو): استئنافية. ﴿إن﴾: نافية. ﴿كَانَ مَكْرُهُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لِتَزُولَ﴾ (اللام): حرف جر وجحود. ﴿تزول﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود. ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿الْجِبَالُ﴾: فاعل مرفوع، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: وإن كان مكرهم لزوال الجبال منه، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿كَانَ﴾ تقديره: وإن كان مكرهم صالحاً لزوال الجبال منه، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿فَلَا﴾: (الفاء): تفريعية. ﴿لا تحسبن الله﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة مفرعة على جملة قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ وما بينهما جمل معترضة. ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه. ﴿رُسُلَهُ﴾: مفعول به لـ﴿وَعْدِهِ﴾؛ لأنه مصدر مضاف لفاعله. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: ناصب واسمه وخبره. ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾: صفة لـ﴿عَزِيزٌ﴾. وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بمحذوف تقديره: اذكر يا محمد لأمتك قصة يوم تبدل الأرض، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾: فعل ونائب فاعل، وهو المفعول الأول. ﴿غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾: مفعول ثان لـ﴿تُبَدَّلُ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَرْضُ﴾. ﴿وَبَرَزُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر معطوفة على ﴿تُبَدَّلُ﴾. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿برزوا﴾. ﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾: صفة للجلالة. ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾: صفة ثانية للجلالة، أو صفة لـ﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: فعل ومفعول به؛ لأن ﴿ترى﴾ بصرية، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب، والجملة مستأنفة. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿ترى﴾. ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: حال من ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾: متعلق به. ﴿سَرَابِيلُهُم﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾، أو من ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أو من ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾. ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، الجار والمجرور متعلق بـ﴿برزوا﴾، وما بينهما اعتراض، أو بمحذوف تقديره: فعلنا ذلك بهم للجزاء. ﴿مَّا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لـ﴿يجزي﴾. ﴿كَسَبَتْۚ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿نَفْسٍ﴾، والجملة صلة لـ﴿مَّا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كسبته. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿لِّلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿بَلَٰغٌ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿وَلِيُنذَرُوا۟﴾: (الواو): عاطفة على محذوف تقديره: أنزل إليك هذا القرآن ليبلغهم إلى مراتب السعادة. و(اللام): حرف جر وتعليل. ﴿ينذروا﴾: فعل ونائب فاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل تقديره: أنزل إليك لتبليغهم إلى مراتب السعادة ولإنذارهم به، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿بِهِۦ﴾ متعلقان به ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟﴾ (الواو): عاطفة. ﴿ليعلموا﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يعلموا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولعلمهم، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿أَنَّمَا﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿ما﴾: كافة لكفها ما قبلها عن العمل فيما بعدها. ﴿هُوَ إِلَٰهٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿وَٰحِدٌ﴾: صفة ﴿إِلَٰهٌ﴾، والجملة الاسمية صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم تقديره: وليعلموا كون المعبود إلٰهاً واحداً لا شريك له، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾ (الواو): عاطفة. و(اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يذكر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ﴿يذكر﴾. ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه منصوب بأن مضمرة، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولتذكر أولي الألباب، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ قال الفراء: يقال: شخص الرجل بصره، وشخص البصر نفسه إلى السماء من هول ما يرى يشخص ـ من باب ذهب ـ شخوصاً إذا بقيت مفتوحة لا تتحرك من شدة الحيرة والدهشة.

﴿مُهْطِعِينَ﴾؛ أي: مسرعين إلى الداعي اسم فاعل[1] من أهطع الرباعي

---

(١) الشوكاني.

يهطع إهطاعاً إذا أسرع. وقيل: المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع، ومنه قول الشاعر:

بِـدَجْـلَـةَ دَارُهُـمْ وَلَـقَـدْ أَرَاهُـمْ   بِـدَجْـلَـةَ مُـهْـطِـعِـيْـنَ إِلَـىٰ ٱلـسَّـمَـاءِ

وقيل: المهطع الذي يديم النظر. قال أبو عبيدة: قد يكون الوجهان جميعاً يعني الإسراع مع إدامة النظر، وقيل: المهطع الذي لا يرفع رأسه. وقال ثعلب: المهطع الذي ينظر في ذل وخضوع. وقيل: هو الساكت. قال النحاس: والمعروف في اللغة: أهطع إذا أسرع. وفي «المختار»: أهطع الرجل إذا مدّ عنقه وصوب رأسه، وأهطع في عدوه إذا أسرع.

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾؛ أي: رافعيها مع الإقبال بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفات إلى شيء وإقناع الرأس رفعه وأقنع صوته إذا رفعه، والمعنى: أنهم يومئذ رافعون رؤوسهم إلى السماء ينظرون إليها نظر فزع وذل ولا ينظر بعضهم إلى بعض. وقيل: إن إقناع الرأس نكسه. وقيل: يقال أقنع إذا رفع رأسه وأقنع إذا طأطأ ذلة وخضوعاً، والآية محتملة للوجهين. قال المبرد: والقول الأول أعرف في اللغة. قال الشاعر:

أَنْـغَـضَ نَـحْـوِيْ رَأْسَـهُ وَأَقْـنَـعَـا   كَـأَنَّـمَـا أَبْـصَـرَ شَـيْـئَـاً أَطْـمَـعَـا

وفي «السمين»[1]: والإقناع: رفع الرأس وإدامة النظر من غير التفات إلى غيره. قاله القتبي. ا هـ. وفي «القاموس»: وأقنعه: أرضاه ورأسه نصبه ورفعه أولا يلتفت يميناً ولا شمالاً، وجعل طرفه موازياً.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾؛ أي: لا ترجع إليهم أبصارهم، وأصل الطرف تحريك الأجفان، وسميت العين طرفاً؛ لأنه يكون بها، ومن إطلاق الطرف على العين قول عنترة:

وَأَغُـضُّ طَـرْفِـيْ مَـا بَـدَتْ لِـيْ جَـارَتِـيْ   حَـتَّـىٰ يُـوَارِيْ جَـارَتِـيْ مَـأْوَاهَـا

وفي «السمين»: والطرف في الأصل مصدر، والطرف أيضاً: الجفن، يقال:

---

(١) الفتوحات.

ما طبق طرفه؛ أي: جفنه على الآخر، والطرف أيضاً تحريك الجفن. ا هـ.

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ﴾؛ أي: قلوبهم جمع فؤاد. ﴿هَوَآءٌ﴾؛ أي: خالية[1] من العقل والفهم، لفرط الحيرة والدهشة، ويقال للجبان والأحمق: قلبه هواء؛ أي: لا قوة ولا رأي له، كما قال حسان يهجو أبا سفيان بن حرب:

أَلاَ أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّيْ فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ

وفي «المختار»: الهواء ممدوداً ما بين السماء والأرض، والجمع أهوية، وكل خال هواء. ا هـ. وإنما أفرد هواء مع كونه خبراً عن جمع؛ لأنه في معنى فارغة، ولو لم يقصد ذلك.. لقيل: أهوية، ليطابق الخبر مبتدأه. ا هـ. «سمين».

ومعنى الآية: أن القلوب يومئذٍ زائلة عن أماكنها، والأبصار شاخصة، والرؤوس مرفوعة إلى السماء من هول ذلك اليوم وشدته.

﴿مِّن زَوَالٍ﴾؛ أي: من انتقال من دار الدنيا إلى دار أخرى للجزاء.

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ أي: بينا لكم[2] أنهم مثلكم في الكفر واستحقاق العذاب.

﴿وَبَرَزُوا۟﴾؛ أي: خرجوا من قبورهم.

﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾؛ أي: مشدودين في القيود والأغلال جمع مقرن والمقرن من جمع في القرن، وهو الحبل الذي يربط به. وروي أن كل كافر يقرن مع شيطانه في سلسلة. والأصفاد جمع صَفَد ـ بفتحتين ـ: وهو القيد. والأغلال جمع غُل ـ بضم الغين ـ: وهو طوق من حديد، يقال: صفده يصفده صفداً ـ من باب ضرب ـ إذا قيده، والاسم الصفد، وصفّده مشدداً للتكثير. ا هـ. «سمين».

﴿سَرَابِيلُهُم﴾: السرابيل: القمص، واحدها: سربال، ومنه قول كعب بن مالك:

تَلْقَاكُمُ عُصَبٌ حَوْلَ ٱلنَّبِيِّ لَهُمْ مِنْ نَسْجِ دَاوُوْدَ فِيْ ٱلْهَيْجَا سَرَابِيْلُ

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

يقال: سربلته إذا ألبسته السربال.

﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ والقطران: دهن يتحلب من شجر الأبهل والعرعر والتوت، كالزفت تدهن به الإبل إذا جربت وهو الهنأ: يقال: هنأت البعير أهنؤه بالهنأ إذا طلبته بالهنأ؛ وهو أسود اللونِ منتن الريح. وفي «السمين»: القطران: ما يستخرج من شجر فيطبخ ويطلى به الإبل الجرب؛ ليذهب جربها لحدته، وفيه لغات ﴿قطران﴾ ـ بفتح القاف وكسر الطاء ـ وهي قراءة العامة المتواترة، ﴿قَطْران﴾ بزنة سكران، وبها قرأ عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما. و﴿قِطْران﴾ ـ بكسر القاف وسكون الطاء ـ بزنة سرحان، ولم يقرأ بها فيما علمت. وقرأ جماعة ﴿من قطر﴾ ـ بفتح القاف وكسر الطاء وتنوين الراء (آن) بوزن عان، وجعلوها كلمتين كما مر في مبحث القراءة وقد مر أيضاً أن هذه القراءات شاذة عدا قراءة الجمهور ﴿قَطِران﴾.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ أي: تعلوها وتحيط بها.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ﴾ والبلاغ: اسم مصدر لبلغ تبليغاً، فهو بمعنى اسم الفاعل؛ أي: مبلغ للناس إلى مراتب السعادة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآية ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التهديد في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه، والأصل: وأفئدتهم كالهواء، لفراغها من جميع الأشياء، فصار التشبيه بليغاً.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ حذف منه والسماوات تبدل غير السماوات لدلالة ما سبق عليه.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية، حيث شبه شرائع الإسلام ومعجزات

الرسول ﷺ بالجبال بجامع الثبات والقرار في كل.

ومنها: الإظهار مقام الإضمار في قوله: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ﴾ لتقدم المرجع في قوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾.

ومنها: العدول عن المضارع إلى الماضي في قوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ بدل: ويبرزون؛ للدلالة على تحقق الوقوع مثل: ﴿أتى أمر الله﴾ فكأنه حدث ووقع، فأخبر عنه بصيغة الماضي.

ومنها: رد العجز على الصدر في قوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ﴾ فقد افتتحت هذه السورة بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾... الخ، فهو من المحسنات البديعية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين آمين آمين[1].

* * *

(١) وإلى هنا قد تم تفسير الجزء الثالث عشر من تفسير حدائق الروح والريحان منتصف اليوم الخامس والعشرين من شهر الله رجب الفرد من شهور سنة ألف وأربع مئة وإحدى عشرة سنة ٢٥/ ٧/ ١٤١١ هـ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التحيات في مكة المكرمة في المسفلة حارة الرشد.

والحمد لله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً وسراً وجهراً على إتمام تفسير هذا الجزء الثالث عشر، لقد بذلنا جهدنا وطاقتنا على حسب القوى البشرية في تلخيصه وتهذيبه وتنقيحه، فرحم الله امرأ نظر فيه بعين الإنصاف فسامح، ووقوف في التصحيح على خطأ فأصلح، وأعوذ بالله من حاسد إذا حسد وبغى، وأستغفره ـ جل اسمه ـ من قلم زلّ وسهى، أو حرف شيئاً عن موضعه وطغى، وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، سبحان ربك رب العزّة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

تمَّ المجلد الرابع عشر من تفسير «حدائق الروح والريحان»، ويليه المجلد الخامس عشر، وأوله سورة الحجر.

وما أحسن قول القائل:

اَلْعَفْوُ يُرْجَىٰ مِنْ بَنِي آدَمٍ فَكَيْفَ لاَ يُرْجَىٰ مِنَ الرَّبِّ
فَإِنَّهُ أَرْأَفُ بِي مِنْهُمُ حَسْبِيْ بِهِ حَسْبِيْ بِهِ حَسْبِيْ

آخرُ

سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا أَلْهَمْتَ لَنَا

آخرُ

يَا مَنْ مَلَكُوْتُ كُلِّ شَيْءٍ بِيَدِهْ طُوْبَىٰ لِمَنِ ٱرْتَضَاكَ ذُخْراً لِغَدِهْ

الفهرس